المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

أحمد كسروى تبريزى

تاريخ الحكم النيابى فى إيران

الجزء الثانى

ترجمة: هويدا عزت محمد أحمد

مراجعة: بديع محمد جمعة

1352



من الأسباب التى حثت السيد أحمد كسروى على القيام بالتأريخ لهذه الفترة ضرورة الوقوف على حقيقة الثورة الدستورية (1906م) وكنهها، والثناء على أولئك الذين حملوا على عاتقهم مسئولية القيام بها وتحملوا الكثير من أجلها، غير أن التاريخ بخسهم حقهم. فقدمهم كسروى إلى قرائه بالصورة التى تليق ومكانتهم والدور الذى قاموا به. وقد أمدنا كسروى من خلال مؤلفه هذا بمعلومات مهمة فى جميع النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الفترة التى أرخ لها، كما أنه بسط كلامه فى دقة ملحوظة؛ حيث تعرض لذكر ما وقع من أحداث كأنه كان شاهد عيان عليها جميعًا، وقد ساعده على ذلك تقربه بمن أسهموا فى هذه الأحداث وعلاقاته بهم، وهذا ما يضيف إلى الكتاب قيمة وأهمية. كما أنه لم يقف موقفًا سلبيًا من الأحداث التى ذكرها، بل كان يحكم فكره فيما يدور من أحداث، وهذا ما يجعله المؤرخ الذى يعول على كلامه لأنه يتحرى الدقة فى إيراد الأحداث، وجاء تاريخه فى معظمه مما لا يتطرق إليه الشك، حيث اعتمد فيه على مصادر تاريخية موثوق فيها، فجعل أصحاب المصادر اللاحقة يأخذون عنه عن ثقة ويجعلون كتابه فى صدر مراجعهم ومصادرهم، وهذا ما يدل على المكانة العلمية والتاريخية التى حظى بها الكتاب الذى بين أيدينا الآن.

تصميم الغلاف: نادية كشك

تاريخ الحكم النيابى فى إيران

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٣٥٢
- تاريخ الحكم النيابى فى إيران (الجزء الثانى)
- أحمد كسروى تبريزى
- هويدا عزت محمد أحمد
- بديع محمد جمعة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة الجزء الثانى من كتاب:

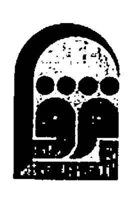
تاريخ مشروطه ايران

احمد كسروى تبريزى

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

تاريخ الحكم النيابى فى إيران
(الجزء الثانى)

تـأليـف: أحمد كسروى تبريـزى
تـرجمة: هويدا عزت محمد أحمد
مراجعة: بديـع محـمـد جمعـة



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تبريزى، أحمد كسروى
تاريخ الحكم النيابى فى إيران (الجزء الثانى)
تأليف: أحمد كسروى تبريزى، ترجمة: هويدا عزت محمد أحمد، مراجعة: بديع محمد جمعة.
ط١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م
٣٣٦ص؛ ٢٤سم
١- الحكم النيابى
٢- إيران - تاريخ
أ- أحمد؛ هويدا عزت محمد (مترجم)
ب- جمعة؛ بديع محمد (مراجع)
جـ- العنوان ٣٢١،٨

رقم الإيداع: ٩٦٧٧ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 6- 207- 479- 977- 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

«المقال السادس»

أية خدع كان يسعى إليها الأتابك؟

يدور الحديث فى هذا المقال حـول الخـدع التـى استخدمها الأتابك للإطاحة بجهاز الحكـم النيـابى، كذلك حول الأحداث التى وقعت فى فتـرة إدارتـه حتى انفصال رجال الدين عن المطالبين بالدستور.

أفكار الأتابك:

كما ذكرنا سالفًا، أظهر قدوم ميرزا على أصغر، خان الأتابك، إلـى إيـران عهدًا جديدًا فى تاريخ الحكم النيابى، ولم يكن فى دخيلة هذا الرجل سوى سوء النية والعداء، رغم ما كان يبديه من بشاشة وجه. وعلى الرغم مما منحه من بـشريات وما أقسم به من أيمان لكنه لم يبغ سوى الإطاحة بالحكم النيابى، وقد لاحظ محمـد على ميرزا ومعلموه المحنكون الأذكياء هذا، فاستدعوه إلى إيران لاقـتلاع شـأفة الثورة والحركة.

وكما أسلفنا، قام محمد على ميرزا بحرب قبل مقدمه، ودارت عليه الدائرة، وكانت خطته فى تلك الآونة أن يتصرف مع المجلس بوجهين، فلم يقبل تعاونًا معه، وظل يحث الحكام وأصحاب النفوذ فى كافة الأرجاء على القيام بالقلاقل وأعمـال الجور وإيذاء الأهالى، وأوقع الفرقة بين العلماء، وحث بعضهم على إبداء العـداء للمجلس.

وقد توسع الأتابك فى هذه الخطة وكان يعمل فى عجلـــة وإصـــرار، ومـــن الخدع التى قام بها أنه حث بعض رؤساء المجلس على التنحى عنـــه، كمـــا حـــث جماعة من النواب على تأييده على النحو الذى جعل به المجلس يفقد شوكته وقوته، وسوف نرى كيف نفذ هذه الخدع بمهارة فائقة.

وقبيل قدومه عمت الفتن فى عدة جهات، وأعلن كل من حاجى آقا محـــسن فى العراق، ومتولى باشى فى قم، وقوام الملك فى شيراز العداء للمجلس والحكـــم النيابى، كل منهم بطريقة ما. وكان حاجى آقا محسن – أحد رجال الدين أصـــحاب الضياع فى العراق – رجلاً جسورًا ظلومًا اقترف العديد من المظالم قبـــل حركـــة الحكم النيابى وترتب على ذلك أن استدعوه إلى طهران، وفى تلك الفترة التى كـــان فيها فى العراق، تولى زمام الأمور ثانية بإيعاز من محمد على ميرزا أو بمحـــض رغبته. وكما قيل إنه كان يرسل الفرسان إلى هذه القرية وتلك للقيام فيها بأعمـــال السلب والقتل. لقد كان رجلاً من المجتهدين يسلك مسلك الشاهـــسون (أى محبـــى الشاه)، وطالما ذكر فى المجلس ما اقترف من مظالم.

ففى جلسة يوم الثلاثاء التاسع من شهر أرديبهشت عام ١٢٨٦ش، ١٦ ربيع الأول عام ١٣٢٥ ق قرأت برقية نساء محلة "إبراهيم آباد" التى أرسلت من قم وكن يقلن فيها:

"لقد قتل حاجى آقا محسن أربعة عشر شخصًا من رجال المدينة بأمر مـــن الشيخ عبد الله الثانى[1]، وجرح سبعة عشر أو ثمانية عشر وهـــم علـــى مـــشارف الموت، كما قبضوا على جماعة واعتقلوهم".

واضطرب المجلس من هذه البرقية، وقال أحد النواب:

---

(١) كان الشيخ عبد الله أحد مشايخ الأكراد العظام وهو الذى أغار فى عهد ناصر الدين شاه من الأراضـــى العثمانية على أذربيجان على رأس جيش وحارب الرافضين ولم يكن لأتباعه من حد فى قتـــل النـــساء والرجال والأطفال وفى السلب والتخريب، لذا عُرف بأنه ظلوم.

"إذا ما كان الأمر كذلك، فما جدوى اجتماعنا وحديثنا هنا؟!"

وقال آخر:

"عجبًا من قولك" إذا ما كان الأمر كذلك، "فواقع الأمر إن تعديات حاجى آقا محسن أفدح من ذلك".

وفى قم أعلن متولى باشى العداء ضد الحكم النيابى والتف جماعة حوله، وكان يحول دون حركة الأحرار، ولم يفسح الطريق للجمعية، ولم يكف عن ظلم الأهالى. وقد قدمت جماعة إلى طهران تطلب الإنصاف منه، وطالما دار حديث فى المجلس عن مظالمه.

وكان قوام الملك – الذى كان حكم شيراز فى أسرته منذ أعوام، وكان له أتباع كثيرون فى فارس – معاديًا للحكم النيابى. وقد نشب صراع شديد بينه هو وأبنائه وبين الجمعية الإسلامية والأحرار، واجتمع الأحرار فى مكتب البرق، واتخذ قوام الملك وأتباعه المسجد الجديد مقرًا لهم، وكانت البرقيات تصل يوميًا تستغيث، وطالما دار الحديث فى المجلس حول ذلك، لذا قامت جمعية فارس الاتحادية – التى أسسها أهالى شيراز فى طهران – بمؤازرة مواطنيهم، وأقاموا خيمة فى بهارستان وجعلوا يطلبون الإنصاف من المجلس.

وكثيرًا ما كان المجلس يذكّر الدولة بهذا لكن دون جدوى، وظل الحال على هذا الوضع حتى تولى الأتابك الإدارة، وقدم تلك البشريات فيما يختص بتعاونه مع المجلس، ولما كان يلح فى هذا الشأن استدعى حاجى آقا محسن ومتولى باشى برقيًا إلى طهران، وعزل قوام الملك من منصبه، لكن ما كان لهذا كله من نتيجة ولم يهتموا بالبرقية.

وفى يوم الثلاثاء السادس عشر من أرديبهشت (٢٣ ربيع الأول) حيث كان يوم انعقاد المجلس، قامت جلبة فى فناء بهارستان، واستدعى أهالى شيراز – الذين كانوا يعتصمون هناك مطالبين بالإنصاف – جماعات من جمعيات أخرى

لمعاونتهم. كما انضم إليهم كذلك المظلومون من قم والعراق الذين قدِموا مطـــالبين بالإنصاف من مظالم متولى باشى وحاجى آقا محسن.

فى ذلك الوقت كانت إحدى المشاكل المحزنة معاناة الشاهسون فى بغداد من حاكمهم متمثلاً فى پالكونيك الروسى الذى أحضروه إلـــى إيـــران لقيـــادة كتائـــب القوزاق، وكان له أيضًا الحكم على جماعة الشاهسون فى بغداد، وكـــانوا يقطنـــون حول ساوة، ولم يكفّ قدر إمكانه عن خداع الناس وظلمهم، كما كان يسلك ســلوكًا شائنًا مع قادة القوزاق الإيرانيين.

ومن هذا المنطلق، فبعد حركة الأحرار تمرد بعض هؤلاء القادة وتنحوا عن كتائب القوزاق الخاصة بهم، كما أبدت عشيرة الشاهسون صمودًا أمامه ونهـضوا مطالبين بالإنصاف. فى تلك الأثناء، اعتصمت جماعة منهم فى بهارستان واتحدوا اليوم مع الآخرين.

وبصفة عامة اجتمع عدة آلاف من المتظلمين وجعلوا يلغطون ويــضجون، وتحدثوا بداية عن مظالم قوام وقرأوا برقية من شيراز مفادها:

"لقد استشرى شر قوام، وأسخط جمع من أجلة العلماء وضايقهم ومنهم مـــن أشرف على الهلاك".

ثم ذكر بعض العراقيين وأهالى قم والشاهسون، كلٌ فى دوره، مظالم حاجى آقا محسن ومتولى باشى وپالكونيك.

بعد ذلك قدم من يسمى السيد محمد رفيع – وكان قد عاد حـديثًا مـــن قـــم والعراق – وتحدث فى صراحة عن مساوئ أهالى قم وعدم مـــيلهم إلـــى الحكـــم النيابى، كما تحدث عن مظالم متولى باشى، ثم ذكر مظـــالم حـــاجى آقـــا محـــسن وتسلطه واستبداده فى العراق، وإرغامه الأهالى على إغلاق الأســـواق، وإغارتـــه على دار شخصين، وجمعه بضعة آلاف من الفرسان وإرسالهم إلى إبـــراهيم آبـــاد تحت إمرة على خان حتى يقاتلوا ويسفكوا الدماء هنـــاك، وقـــتلهم أربعـــة عـــشر

وجرحهم ثمانية عشر وإلقاءهم بطفل عمره ثلاثة أعوام فى البئر، وعدم كفهم كذلك عن أذية النساء وإلحاق الضرر بهن.

وقد أفاض فى ذكر تلك الأمور فأبكى الجميع، وكان الناس يبكون بكاء مريرًا، ويذكرون اسماء حاجى آقا محسن وپالكونيك وقوام ومتولى باشى مقرونة باللعن والنفور.

ولما انتهى الحديث اتجه الجميع إلى قاعة المجلس، وطالبوا ثانية بالإنصاف وحل المشكلة. كذلك ذكروا الدستور وطالبوا بإتمامه وإصداره. وبعد ذلك، حينما قام النواب من المجلس منعوهم، ولم يفسحوا لهم الطريق، فتقدم سعد الدولة ونصحهم، وتعهد بأن يمضى إلى منزل الأتابك ويطلب منه عزل قوام وحاجى آقا محسن ومتولى باشى وپالكونيك من شيراز والعراق وقم وساوة، وأكد على ذلك، وحقق نتيجة حيث رد الناس وفتح طريقًا للنواب.

لكن مِضِى سعد الدولة هذا إلى منزل الأتابك ترتب عليه تنحيته من النيابة، فقد خدعه الأتابك ودفع به إلى البلاط، والرجل الذى أعلن تأييده للحكم النيابى والقانون فى عهد الاستبداد، وتم عزله من الوزارة بجريرة ذلك، وطرد إلى يزد فى ذلة وامتهان، ثم رأى تبجيلاً عظيمًا من بعد فى عهد الحكم النيابى من قبل الأهالى، وعاد إلى طهران فى إعزاز وإجلال، وأصبح أحد نواب المجلس المختارين، ونال من الشعب لقب "أبو الشعب" أو "أبو الأمة"، نسى كل هذه الأشياء دفعة واحدة، وغض الطرف عن المنزلة الرفيعة التى نالها، وتعاطف مع البلاط وتنحى عن المجلس فى مثل هذا الوقت.

وقد ذكرّنا قصة الرسائل التى حصل عليها الأتابك من ميرزا ملكم خان وطالبوف لهذا الغرض، لكنها لم تستطع أن تكون الباعث وراء هذا الأمر، فلم يطلب طالبوف أو ميرزا ملكم خان منه التنحى عن المجلس. وجدير بالذكر أن الباعث لم يكن سوى عدم جدارته لهذا الأمر، ومع خروجه من المجلس تنحى كذلك

مشار الملك وغيره. وكان هذا انتصارًا للأتابك حيث فصل هؤلاء النواب عن المجلس. أما قصة قوام وغيره، فنتيجة لتلك الثورة وذلك العرض، فإنه في يوم الخميس الثامن عشر من أرديبهشت (٢٥ ربيع الأول) قال محتشم السلطنة مساعد وزير الداخلية (الأتابك) والذى كان يحضر المجلس نيابة عنه:

" إنهم سوف يبعدون حاجى آقا محسن عن العراق فى هذين اليومين، وفيما يختص بقوام الملك وأبنائه فقد طمأنونا بالبرقيات المؤكدة أنهم سوف يبعدونهم خلال هذه الأيام، وسوف يتم استدعاء متولى باشى".

لكن هذا لم يكن إلا خداعًا، وسوف نرى أن الأتابك أوجد بعض المشاكل الأخرى للمجلس بدلاً من إخماد هذه الفتن.

أفكار حاجى الشيخ فضل الله:

فى تلك الأثناء كان التعقيب على الدستور، وكما أسلفنا انتقد أهالى تبريز الدستور وطالبوا بإضافات عليه، واضطر المجلس أن ينتخب لجنة، وأعدوا قانونًا أكثر شمولاً باسم المتمم للدستور ودونوه. ولكن خشية من أن تقع الحجة فى يد المسيئين اضطروا لتمريره على العلماء لإبداء وجهة نظرهم، فعقدوا جلسات فى المجلس لهذا الغرض، حيث اجتمع السيدان طباطبايى وبهبهانى وحاجى شيخ فضل الله وغيرهم من العلماء وتباحثوا فى ذلك الشأن. لكن هذه المباحثات أوقعت العلماء فى الفرقة وأوجدت بعض الصعوبات، ولكى يتضح الأمر بجلاء ينبغى أن نقف هنا وقفة، ونتحدث عن هؤلاء العلماء وعن أفكارهم ورغباتهم:

كما أسلفنا، إن السيدين هما من أوجدا حركة الحكم النيابى فى طهران، وسايرهما فى ذلك كل من صدر العلماء، وحاجى الشيخ مرتضى آشتيانى، وشيخ محمد رضا القمى وغيرهم من رجال الدين. وبعد حادث الاعتصام فى مسجد الجمعة والهجرة إلى قم انضم إليهم حاجى الشيخ فضل الله، وتعاون معهم وصار فى خطاهم على الدوام. وبعد تقدم الحكم النيابى وافتتاح المجلس بحث كل منهم عن

منفعته ثم تنحى. لكن السيدين والشيخ فضل الله هم الذين بقوا. ولما كانوا يعدون الحكم النيابى نتاج جهدهم لم يكفوا عن رعايته والاهتمام به. وبالرغم من أن السيدين لم ينتخبا لنيابة المجلس، إلا أنهما كانا يحضران جلساته على الدوام ويشاركان فى المناقشات، وكان حاجى الشيخ فضل الله يحضر أيضًا فى بعض الأحيان.

لقد قدموا الحكم النيابى، لكنهم لم يكونوا على فكر واحد، وللحق أن كلا السيدين كانا يبغيان الحكم النيابى والقانون، لكن حاجى شيخ فضل الله كان يطالب بتطبيق الشريعة، وانفصلوا عن بعضهم دفعة واحدة.

لقد شاهد السيدان عجز إيران واضطرابها، وكانا يسمعان عن قوة الدول الأوربية وازدهارها، ومثل كثير من المجاهدين، لم يكونا على علم بأن الداعى إلى ذلك والباعث عليه، ما هو إلا وجود الدستور والحكم النيابى فى أوربا وعدم وجوده فى إيران، ومن هذا المنطلق كانا يسعيان من أعماقهما لظهور الحكم النيابى والدستور.

وواقع الحال، إنهما كانا من علماء الشيعة، وبلا ريب كانا يؤيدان الشريعة والمذهب، ولم يرتضيا أن يُسن قانون يناقض الشريعة وكانا يسعيان للحيلولة دون وقوع ذلك.

وآخوند ملا كاظم الخراسانى وحاجى الشيخ عبد الله المازندرانى وحاجى ميرزا حسين الطهرانى الذين أعربوا عن تأييدهم من النجف، وقدموا عظيم العون بالبرقيات والرسائل، كانوا يسلكون الطريق نفسه. وأحيانًا كانوا يطرحون وجهة نظرهم فى الإجابة على الأسئلة التى كانت تطرح عليهم، ويقولون:

"والآن، حيث إن صاحب الشريعة (إمام الزمان) غير ظاهر، ولا يتم تنفيذ الشريعة، ويتسلط الحكام المستبدون كرهًا أو طوعًا، إذن فمن الأفضل أن يكون ثمة قانون للحد من استبدادهم وظلمهم، وأن يعقد عقلاء الأمة مجلسًا يتشاورون فيه".

كان هذا هو تفكيرهم "ينبغى القول بفصل الحكم النيابى عن الشريعة". ومن ثم عندما كان يقول أحد: "ينبغى أن يكون الحكم النيابى هو الشريعة". كانوا يصيحون فى الرد عليه قائلين: "أيها الثور المجسم، إن الحكم النيابى لن يكون الشريعة"(١). لكنهم تعلقوا بالشريعة، وكانوا يريدون ألا يُسن قانون يتعارض علانية معها، والأعمال التى لا تتفق مع المذهب كان يتم طرحها بعيدًا، وقد أبدوا صمودًا فى هذا الشأن.

وإذا ما أردنا الصدق نقول إن علماء النجف هؤلاء والسيدين وغيرهم من العلماء الذين كانوا يلحون فى مطالبتهم بالحكم النيابى، لم يكن لديهم علم بالمفهوم الصحيح للحكم النيابى، ولم يكن لديهم معلومات صحيحة عن التناقض البيّن الذى كان بين الحكم النيابى والمذهب الشيعى. فمن ناحية، رأى رجال غيورون اضطراب إيران وعجز الدولة، ولم يروا حلاً لهذا سوى وجود الحكم النيابى والمجلس، وكانوا يسعون بإلحاح شديد فى تأييد هذا. ومن ناحية أخرى، كانوا مقيدين بالمذهب، ولم يكن فى استطاعتهم التغاضى عنه، وظلوا بين هذين الاتجاهين.

أما حاجى الشيخ فضل الله، فكان يسعى فى طريق آخر، فمن ناحية كان ميالاً شديد الميل إلى الجاه والأبهة وذيوع الشهرة، أسس كيان الشريعة، وأعد الجياد والمركبات، وكان يعيش دومًا بين أصحاب النفوذ من الأعيان، ومن ناحية أخرى كان مفتونًا بالشريعة شديد الرغبة فى رواجها، ولم يكن للمجتمع والدولة

(١) كتب هذه الجملة حاجى الشيخ عبد الله المازندرانى إلى حاجى ميرزا حسن المجتهد التبريزى، وعندما خرج حاجى ميرزا حسن من تبريز غاضبًا، أرسل برقية (أو رسالة) إلى النجف، وقال بعد مذمته للمطالبين بالحكم النيابى: "ينبغى أن يكون الحكم النيابى شريعة". فرد حاجى الشيخ عليه بقوله: "أيها الثور المجسم، إن الحكم النيابى لن يكون شريعة". وترددت هذه القصة فى تلك الأونة على الألسنة وقال الشاعر (خامنه اى): "نعم، لا تطلبوا فضيلة الإنسان من الثور المجسم". لكننى لم أر حتى الآن برقية أو رسالة حاجى الشيخ فى أى موضع.

ومثل هذه المفاهيم أية قيمة لديه، وقلما كان يقترب من التفكير في مثل هذه الأشياء وأبدى تعاونه مع الثورة والحركة المطالبة بالحكم النيابي، غير أنه لم يكن ليفقه لها معنى. ولما لم يكن في إيران أكثر من قوتين في سالف الزمان هما الحكومة والشريعة، وكان النزاع كل حين مع الحكومة، فلم يكن هناك سوى الشريعة لإصلاح الأوضاع، وكان يعد هذه الحركة وتلك الثورة التي كانت تقوم ضد البلاط القاجاري أيضًا من هذا القبيل. أما القوة الثالثة فكانت قوة الشعب التي ظهرت في تلك الفترة وازدادت قوة خطوة بعد خطوة. لقد بقي بلا علم، ولم تراوده فكرة أخرى، وتقدم بوطيد الأمل رغبة منه في إدراج أحكام الشرع في القانون والظفر بموافقة المجلس. وبصفة عامة، لقد كان يسعى إلى تأسيس حكومة شرعية.

ولكي يكون هناك دليل على رغبته وحماسته تلك نورد في هذا الموضع جزءًا من رسالته التي كتبها في شهر دي ١٢٨٥ش (ذو القعدة ١٣٢٤ ق) إلى آقا نجفي في إصفهان، يقول فيها:

"يتضح لنا إذا ما كان الوضع في المملكة هو أن يُحصّل الخراج الشرعي على الصدقات اللازمة من الزكاة وغيرها، أو بعبارة أخرى، أخذ العشر مما ينبت من الأرض وطرح جميع الشئون الأخرى، والصرف في أوجه المصارف الثمانية من العاملين والغارمين والمؤلفة وفي سبيل الله... الخ، فهذا ما لا حاجة فيه إلى كلام، وأنتم على علم بهذا كله، وأعمال الإصلاح والزود عن شرف الإسلام وحصول الشرف فوق الشرف، وفيه من الفوائد الإسلامية ما لا يخفى إذا ما أُمعن النظر في المناقشات العلمية. لكن الهدف بعد وقوع العمل على الوجه اللابديهي بصحة الاسم والمنافع المترتبة هي على هذا الاسم. أما الطرق الأخرى التي عليها الشعوب الأوربية، فهذا ما فيه اضمحلال للدين وانحطاط للإسلام وأهله، وخشية الوقوع في الكثير من المفاسد ولو بعد حين. وباختصار، إذا ما كان منذ بداية الأمر شعار المجلس هو شعار السلطنة الجديدة بالقوانين الشرعية، فسوف تقوم قائمة الإسلام دومًا".

كتب هذا إلى السيد النجفى حتى يجعله مؤمنًا بفكره، ثم أرسل مسودة منهـا إلى النجف لدى ابنه حتى يبلغها إلى آخوند خراسانى وغيره من العلماء هناك. كان هذا فى عدة أشهر مضت، وفى الوقت الذى لم يكن الأحرار معروفين فيـه جيـدًا، وتمثلت رغبتهم فى سريان الحكم النيابى الأوربى وتقوية الدولة، وليس فى تـرويج الشريعة، وهذا ما لم يُعلم على وجه اليقين، ولم يكن ثمة موضع فـى قلـب هـذا المجتهد الشيعى إلا الأمل وحسن الظن.

بداية الانقسام بين العلماء:

ولكن رويدًا رويدًا كانت تتضح الأمور، وكان الشعور بقوة الأحرار، وأخـذ يتضح الانقسام الذى كان بين رغباتهم وأفكار تلك الطائفة من رجال الدين. هذا وقد نفروا تدريجيًا من الحكم النيابى وفترت مشاعرهم تجاهه، وجعلوا يشكون ويذمون، والأكثر من هذا كله أن اشتد وقع مقالات الصحف عليهم. فجرائد تلك الأيام لم تكن تكتب شيئًا ضد الدين أو الشريعة، ولم يستطيعوا كتابة ذلك، ولم يكن العداء آنـذاك تجاه المذهب أو الدين، وحتى الآن كان معظم رواد الحركة من رجـال الـدين، أو بتعبير أفضل كانوا من أتباع المذهب الشيعى، ولكن فى الوقت الذى لم تكتب فيـه الصحف عن الشريعة وعن العلماء فى أعمدتها من بدايتها حتى نهايتهـا، كانـت تسوق الحديث عن عمران البلاد وقوة الشعب.

وكانت تذكر بعض الأمور الحديثة كتعليم البنات وإرسال البعثات الطلابيـة إلى أوربا وما شابه ذلك. وما أن قامت بمواجهة العلماء فى التعبير عـن أفكارهـا الخاصة حتى صارت من وجهة نظرهم نموذجًا للإشاحة عن الدين وعدم الاهتمـام بالشريعة.

وذلك التعاطف الذى كان يبديه الأحرار تجاه الدولة ولم يبدوه تجـاه الـدين والعلماء كان سببًا لاستيائهم، وكانوا يعدونه دليلاً على كفر الأحرار، والأعجب من هذا أنهم أطلقوا عليهم اسم البابية (البهائية).

ومن النظرة الأولى يُظن أنهم كانوا يعلمون العداء الشديد الذى كان يكنه الإيرانيون للبابيين (البهائيين) وأطلقوا عليهم هذا الاسم لإثارة خواطر الناس ضد الأحرار. لكننا نرى أنهم كانوا يوردون هذا الاسم أيضًا فى رسائلهم التى كانوا يكتبونها إلى أقاربهم ومحارم أسرارهم، ومن هنا يتضح حقًا أن مثل هذا الظن كان لديهم.

ويقول السيد أحمد طباطبايى – الذى كان منذ بداية جهاده متتبعًا لخطى أخيه (المغفور له طباطبايى) وأبدى تعاونًا أثناء الهجرة إلى عبد العظيم وقم، وفتر ميله فى هذه الفترة تدريجيًا تجاه الحكم النيابى – فى رسالة كتبها إلى ابنته فى النجف:

"لم يظهر شىء آخر من مجلس الشورى الوطنى سوى شدة الوطء على الناس، والبادى أن البابية والطبيعية اكتسبوا قوة، وظهروا إلى حد أن المسلمين وجب عليهم أن يأخذوا بالتقية تجاههم".

ويقول:

"حقًا، إن النساء قد عقدن مجلسًا فى فناء شاهى المقابل لمنزل آقا السيد ريحان الله رأسته أخت كالوردة والبلبل، وهى التى أرسلت ملكة إيران السابقة إلى بلاد الفرنج، وأخرى زوجة ميرزا حسن رشديه المعروف والأخرى تدعى بى بى، وثلاثتهن تنتسبن إلى البابية".

وفى رسالة أخرى كتبها إلى صهره، يقول فيها:

"ألا تعلم أية مضرة يلحقها مجلس الشورى الوطنى هذا بالدين والدنيا؛ وأية آثار وخيمة تترب عليه؛ والمجلس الذى دخل فى عضويته البابيون والطبيعيون، بل وتكون لهم فيه الرياسة لن يكون أفضل من هذا. ألا تعلم أية قوة اكتسبتها فرقة البابية الضالة التى لا دين لها؛ وأية فتنة وثورة يثيرونها؛ لعنة الله على السيد جمال الدين الواعظ الذى لا مذهب له، فأية ضلالة ألقى بالناس فيها! ولكثرة ما قال هذا الخبيث من فوق المنبر بألا تقرأوا القرآن ولا الدعاء واقرأوا الصحف، عدّ الناس

قراءة الصحف من لوازم الدين وكفوا عن الدعاء وقراءة القرآن. وما كتب في الصحف يحتوى على الكفر وإهانة الشرع الحكيم، ولا ريب أنهم أرسلوا إلى هناك ما كتب فى جرائد "المجلس"، و"الكوكب الدرى" و"نداء الوطن"[1].

وسوف نورد رسالة حاجى الشيخ فضل الله إلى ابنه، فهما من ناحية لم يعلما مذهب البهائيين. ومن ناحية أخرى لم يتعمقا فى أفكار ورغبات الأحرار، ولم يكونا على علم بهدفهم. إن المعنى الذى يفضى بأن يولوا رجلاً أزمة الأمور، ويجعلوه ملزمًا بالحفاظ على الدولة، لم يجد طريقًا إلى قلوب هؤلاء الذين كان من رأيهم أن الحكومة هى التى تحافظ على الدولة. والتف الناس حول علمائهم، وقاموا بتصريف شئون حياتهم ومذهبهم بتوجيه منهم. وتلك الثورة والحماسة التى كان يعبر عنها الأحرار فيما يختص بالدولة وازدهارها لم يعلموا الباعث عليها. ولما قام البابيون – أو نقول بالأصح أتباع السيد الباب – بمساعٍ فدائية فى سبيل ازدهار مذهبهم وذلك فى بداية ظهورهم، وأثاروا عجب الناس كافة، أوردوا تلك الأحداث، وكانوا يظنون أن هؤلاء الأحرار بكل مساعيهم "هم البابيون، ولما كانوا لا يستطيعون أن يوضحوا دينهم من ذلك الطريق، سلكوا هذه المرة هذا الطريق.

وقد تعلقوا تعلقًا شديدًا بالمذهب الشيعى وتعاليمه، إلا أن عين فطنتهم وفهمهم كانت منغلقة عن أنهم يستطيعون إيصال رأيهم إلى رجال البلاط، لأن رجال الأتابك كانوا، بلا شك فى تلك الأثناء، يغدون ويروحون إلى رجال الدين خفية ويسعون إلى ردهم عن الحكم النيابى، ولا شك أن من وسائلهم إطلاق اسم البابية على الأحرار (كما سنشاهد من بعد).

هذا وجدير بالذكر أنهم أرادوا بالبابية البهائية، فأتباع السيد الباب الذين أطلق عليهم البابية قد انقسموا – بعد مقتله وقيام ميرزا حسين على بهاء الله – إلى

---

(١) إحدى هذه الرسائل كانت فى الرابع من ربيع الأول والثانية فى السابع عشر من ربيع الثانى عام ١٣٢٥ق، وتقترب من تلك الفترة التى نتحدث عنها. وصهر السيد أحمد طباطبايى هو آقا ضياء الدين ابن حاجى الشيخ فضل الله.

فريقين: فريق لم يرتض ميرزا حسين على ولم ينفصلوا عن ميرزا يحيى صبح أزل خليفة الباب، وسُموا بالأزليين نسبة إليه. ومال فريق آخر إلى بهاء الله وانتسبوا إليه وعُرفوا بـ"البهائية". وكان هؤلاء هم الكثرة، وكانوا كذلك يبذلون المسعى، وكان رجال الدين يقولون ذلك، لكن لما كانوا لا يعلمون ما وقع من أحداث أخيرة، كانوا يسمونهم بنفس الاسم السابق (البابية) وكانوا يعتبرون الأحرار من زمرتهم.

بالرغم من تلك الكيفية المقلوبة، فإذا ما أردنا أن نوضح جليًا العلاقة التى كانت بين البهائية والأزلية، يجدر بنا القول إن البهائيين كانوا يؤيدون الاستبداد، والأزليين كانوا يؤيدون الحكم النيابى.

والقصة هى أنه عندما نهض ميرزا حسين على بالدعوة، وأسس جماعة، أيده الروس، سواء فى إيران أو فى القوقاز، كما أبدى بهاء الله أيضًا فى كتاباته ميلاً إلى الروس، لذا قام الإنجليز بتأييد الأزليين تحت شعار المنافسة فى السياسة، خاصة بعد استعادة قبرص من يد العثمانيين. فلما كان ميرزا يحيى صبح أزل يعيش مع أسرته فى تلك الجزيرة، واضطر إلى البقاء، صار كرهًا أو طوعًا تحت قبضة الإنجليز. وطبع براون كتاب "نقطة الكاف" لحاجى ميرزا جانى الكاشانى، والديباجة التى كتبها فى ذلك الكتاب بقلم ميرزا محمد القزوينى، جميعها فى هذا الشأن.

وكان الأزليون أقل عددًا فى إيران، وكانوا حريصين على الاختفاء؛ لأنه فى ظل هذا الاختفاء كانوا فى مأمن من أيدى الناس وألسنتهم، ووقتما واتتهم الفرصة تمكنوا بسهولة من إثارة خواطر الناس ضد البهائيين وذلك بمساعدة رجال الدين.

والقصة العجيبة هى شكوى الناس من التعريفة الجمركية لمسيو نوس فى عام ١٢٨٢هـ، والتى انتهت فى يزد وإصفهان بقتل البهائية، ويمكن أن يعد ذلك أحد نتائج هذا التنافس الذى كان بين الحكومتين الروسية والإنجليزية، وعداء كلا الفريقين للآخر.

لقد استطردنا فى الحديث، ففى حركة الحكم النيابى - ولما كانت انجلترا من مؤيديها - ساهم الأزليون كذلك فيها، ونذكر هنا فقط اسم أسرة دولت آبادى، وكان حاجى ميرزا هادى كبير هذه الأسرة ممثلَ صبح أزل فى إيران، لذا عندما كانت حكومة الإمبراطورية الروسية تبدى عداءها للحكم النيابى، نحى البهائيون أنفسهم عنه بأمر من عباس أفندى عبد البهاء، وكانوا فى دخيلتهم من مؤيدى محمد على ميرزا.

الصراع حول الدستور:

قبل أن يأتى الأتابك إلى إيران كان المجال قد تهيأ للانقسام بين العلماء، لأنه كما أسلفنا كان ثمة خلاف بين الحكم النيابى الأوربى والمذهب الشيعى، ولم يكن فى الإمكان التوفيق بينهما. وطريقة الوفاق التى كان يفكر فيها آخوند خراسانى وأتباعه لم تستطع الوصول إلى حل، فلم يكن فى استطاعة رجال الدين رؤية أى شىء آخر يقف حيال الشريعة، ولم يكن يرضيهم حتى عدم وجود الفدية فى القوانين خاصة فى وجود ذلك الرباط الذى كان بين الشريعة وبين حياتهم. وكان لكل منهم فريق منتخب تحت عنوان الريادة. ولم يكن فى استطاعتهم غض الطرف عن ذلك بأية حال. وهذا الوعى الخاص بقوة الدول المجاورة والخوف على حال إيران الذى كان للسيدين وآخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى وغيرهم - وهو ما حثهم على السعى - لم يكن لديهم قط.

ولما رأى الأتابك أن السبيل قد مُهد للانقسام لم يُضع الفرصة من يده، وتحقيقًا لمصلحته أضرم النيران من بعيد ومن قريب. وكما أسلفنا كان أتباعه يغدون ويروحون لدى العلماء، وزادوا من سخطهم واستيائهم من المطالبين بالحكم النيابى. وكما أسلفنا، أثيرت فى تلك الآونة قضية التعقيب على الدستور، وشُكلت لذلك لجنة من قبل المجلس، وبادر كل من تقى زاده ونواب آذربايجان وغيرهم لإصداره، وكان الناس كذلك يطلبون ذلك. وتدوين هذا الدستور وطلبه مما اشتد

وقعه على العلماء المطالبين بالشريعة وزاد من استيائهم. وعندما انتهى الدستور السابق – الذى اشتدت وطأته فى بداية حركة الناس وثورتهم – لم يكن ثمة أمارة على غضبهم، لكن فى هذه الفترة فقدت هذه الثورة والحماسة تلك القوة، وظهرت حماسة أخرى تحت عنوان المطالبة بالشريعة فى قلوب البعض.

وفضلاً عن حاجى الشيخ فضل الله وأتباعه، أبدى بعض نواب المجلس مطالبتهم بالشريعة، ولما كانوا يظنون أن أصحاب البابية أو الطبيعية هم الرواد من الأحرار، كانوا يقولون:

"إن رغبتهم هى القضاء على الشريعة الإسلامية، وهم يسنون ذلك القانون لهذا الغرض".

وكانوا يشيعون مثل هذا الحديث بين الناس.

من هذا المنطلق، عندما أنهت اللجنة عملها وتم إعداد الدستور خشيت دار الشورى من قبوله، واقترحت أن يجلس بعض العلماء مع عدد من النواب، وأن يراجعوا كل ما ورد فيه بندًا بندًا وذلك للحيلولة دون سوء ظن الناس بها. وظنوا هذا حلاً للأمر، فى حين أن هذا التصرف كان سببًا للمشاكل؛ لأن حاجى الشيخ فضل الله وأتباعه كانوا على استعداد لنقد هذا القانون فى تلك الجلسة والإعلان عن أفكارهم. وعلى هذا النحو كان لابد أن يقع نزاع شديد بينهم، وينتهى بانقسام الناس إلى فريقين، أو أن يفقد الدستور جوهره ويتخذ طابع الشريعة ولونها، لذا رأينا من الأفضل فى هذا المقام أن نورد الرسالة التى كتبها حاجى الشيخ فضل الله إلى ابنه فى النجف خلال تلك الأيام، لنتعرف على فكره وكيفية تأثيره، هذا وقد ورد نص الرسالة بخط شخص غيره، إلا أن حاجى كتب فى هامش الرسالة بخطه يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم – بنى الغالى العزيز – فى ٢٤ ربيع الأول، الجميع بخير والحمد لله، إننى لم أكتب إليك شيئًا منذ فترة بخط يدى، وجملة الأمر أن الانشغال قد بلغ أوجه حيث لم تتح لى الفرصة حتى لقراءة ورقة، فما بالك بالكتابة

عن جميع ممالك إيران من تبريز وإصفهان وشيراز والرشت، وما لم يكن متوقعًا عن فساد أحوال الناس على جميع طبقاتهم، والجمعيات المستحدثة التى أوقعت المضرة بملة الإسلام وشعبه. وإذا شئنا كتابة ذلك على التفصيل لمست الحاجة إلى كتاب بتمامه، فقد اغتنم السادة فاسدو العقيدة من الفرق الجديدة ومن الدهرية والطبيعية الوقت لإفساد الإسلام، واقتلاع شأفة الجرائد مثل موقف تطاير الكتب القيمة، فما من جريدة إلا وفيها سهم على الإسلام والعلماء، قضى الأمر ومضى. وقد التفت الناس مؤخرًا إلى أن يطردوا جناب المجتهد من تبريز، ويبدو أن أحوال جناب حاجى خمامى وما يقرب من عشرة من علماء الرشت قد ساءت يومًا بعد يوم. ولم يرد رئيس جمعية الرشت – حاجى ميرزا محمد رضا – أن يكتب تفصيلاً فى هذا الشأن، وقال لى: لا تنقل هذا القدر من المعلومات على لسانى. الله الله على الإسلام والدين. وفى هذا الوقت سينتهى الإعداد للائحة الدستور، ومنذ أيام عقد المجلس جلسات طارئة للإصلاح، والمتخرجون لا يحققون مقصدهم. وقد ذُكرت كلمة فى لائحة الدستور فيما يختص بحرية القلم، وهذا كله كان من مفاسد الصحف، والويل كل الويل إذا كانت الحرية فى العقائد، وقد أصروا فوقعت النار فى روح الشمعة. وهذه الكلمات لا ينبغى أن تذكرها سوى لحجة الإسلام آخوند، وعلى الإجمال اختاروا الامتناع، ومن المؤسف أن القول ليس فى الإمكان، فما بالك بالكتابة، ظهر الفساد فى البر والبحر".

على هذا النحو تقدمت طائفة، وكان البلاط يريد أن يستفيد من الحدث، فأبدى تأييده لهذه الطائفة من العلماء، وزاد من الصراع قدر إمكانه، ولم يسمح للدستور أن يدخل فى إطار التنفيذ، وإذا كان هؤلاء لم يستطيعوا فعل شيء وصدر القانون، وقيل فى ذلك الوقت ينبغى لعلماء النجف أن ينظروا فيه، فتظاهر محمد على ميرزا بمظهر المتدين الورع، وكان يقول:

"لن أوقّع طالما لم يوقع علماء النجف".

ولما كان السيد كاظم اليزدى – أحد المجتهدين المشهورين ومن أتباع آخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى وتبعته طائفة كبيرة من الإيرانيين – يسلك طريق الشيخ فضل الله، وكان يبدى عداءه للحكم النيابى، كان محمد على ميرزا يعلم أنه لن تكون هناك كلمة بين علماء النجف، ولن يعود الدستور ثانية منها، وعليه خطط لعدم إنجاز الحركة المطالبة بالحكم النيابى، وساهم فى ظهور النزاع والعراك بين الناس، وكان يخطط لذلك فى براعة.

ولم يكن أعضاء المجلس على دراية بهذه الخطة، وإذا ما كانوا يعلمونها فلم يعلموا قدر مضرتها، وإذا ما أردنا الصدق، كان المجلس فى تلك الفترة منقسمًا إلى فريقين، وكما أسلفنا، كان بعض الأعضاء يطالبون بالشريعة، وكان البعض يبدى تأييده لهم من الخشية. وقد جعل أتباع حاجى شيخ فضل الله للدين سيفًا قطعوا به لسان كل شخص. ونورد القصة التالية لبيان ذلك:

"إنه فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أرديبهشت (الأول من ربيع الثانى) دار حديث فى المجلس عن الدستور، وكما قيل إن أهالى تبريز أعلنوا الثورة، وكانوا يرغبون فيه. وأجاب السيد محمد تقى الهراتى – أحد أتباع بهبهانى ونال النيابة فى دار الشورى بمسعى منه، وتعاطف فى تلك الآونة مع حاجى الشيخ فضل الله وأبدى التأييد لطائفته – فى جرأة قائلاً: "نحن أفراد الشعب ينبغى أن نعلم أننا مسلمون، وأن قانوننا هو قانون الإسلام المقدس، وهذا الدستور هو قانون ينبغى أن تبت فيه أمور أية مملكة بما يتواءم معه، وينبغى أن يتدبر حجج الإسلام بنوده وفصوله بكل عناية، وإذا ما اجتمع عشرة آلاف، وأريقت الدماء، لا ينبغى الرضا بأن ينفذ القانون دون تطبيق وتحقيق. والآن ينبغى أن يستدعى حجج الإسلام، بل ينبغى أن تنجز هذه اللائحة بأسرع ما يمكن".

وقد أدرك بعض نواب آذربايجان (تقى زاده وغيره) خطة البلاط ومضرتها، ولما كان ينبغى أن يطلبوا الحل من تبريز كتبوا إلى هناك عن كيفية ذلك، وظهرت ثورة أرديبهشت هذه، وهى من الأحداث البارزة فى تاريخ الحكم النيابى.

ثورة شهر أرديبهشت (في تبريز):

وفى تبريز، بعد طرد المجتهدين من المدينة، لم يقع حادث مهم آخر، فكان الناس هناك يترقبون وصول الدستور، ولما كانوا هم الذين قد هيأوا المجال لذلك كانوا يبدون تعاطفهم أكثر من أهالى المدن الأخرى. وقد ذكرنا أنهم كانوا يهتمون بالقانون فى تلك الأيام اهتمامًا يفوق الحد، وكان جمع كبير من الأحرار يظنون أنه عندما يصدر القانون ويصل إلى الناس، سوف يطبقه كل منهم حسب رغبته وهواه، ويعرف كل شخص دوره، ويتصرف بناءً على ذلك. وفى الأعمال التى كانوا يقومون بها كانوا يقولون:

"ينبغى العمل عاجلاً حتى يصل الدستور وتُعين مهمة كل شخص".

ومن فرط سذاجتهم كانوا يحسنون الظن على هذا النحو. لذا لما كان الاضطراب يعم كثيرًا من الأرجاء فى تلك الفترة، والتفت الناس من كل صوب إلى جمعية آذربايجان يطلبون الحل، كما أن أهالى الرشت لم يقبلوا حكم ظفر السلطنة آنذاك، ولم يرغبوا فى قدومه إلى جيلان، وثاروا لذلك، وكانوا يطلبون العون من تبريز برقيًا، كما طالب المظلومون من قرية إبراهيم آباد بالإنصاف من قم برقيًا. وعليه اعتقدت الجمعية أن جميع هذه الاضطرابات هى بسبب عدم وجود الدستور، وكانوا يعتبرون وجوده حلاً لهذا، وهذا أيضًا كان اعتقاد الأحرار.

وفى يوم الأحد السابع من أرديبهشت (الرابع عشر من ربيع الأول) تحدثت طائفة من الناس – كانت قد اجتمعت فى فناء الجمعية – عن الدستور، ودعت الجمعية لمطالبة دار الشورى به، وقبلت الجمعية رغبتهم وأبرقت إلى دار الشورى. فى تلك الأثناء سرت إشاعة فى تبريز بأنهم كتبوا الدستور منذ شهر وأنه مر فى المجلس، لكن الشاه لا يقبله ولا يوقع عليه، وكان البعض يقول: "إنهم يريدون أن يبدلوه وفق رغبة الأتابك".

واشتد وقع هذا الكلام على الأحرار، فأرسلوا برقيــة مطولــة إلــى الــشاه بواسطة الأتابك يوم الثلاثاء التاسع من أرديبهشت (السادس عشر من ربيــع الأول) أفصحوا فيها عن رجائهم لقبول الدستور والتوقيع عليــه، وذلــك بعــد إحــصاء تضحيات آذربايجان في سبيل رعاية التاج والعرش.

ومن غد ذلك اليوم وصلت برقية من النواب فى طهران بأن الدستور يُتلــى فى المجلس العام منذ بضعة أيام بعد إنهاء اللجنة قراءته، وكان هذا الرد سببًا فــى تهدئة خواطر الأهالى. لكن أثناء ذلك وصلت رسائل من طهران تنبئ عن سوء نية البلاط، وصارت سببًا للخشية، ورأى الرواد أنه من الأفضل أن يقومــوا بحركــة ويقفوا حيال البلاط، ويحولون دون تنفيذ خطته. فى الوقت نفسه وقع حادث آخــر وهو أن الأحرار لم يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم، واتخذوا هــذا ســببًا ونفــذوا أفكارهم. وكيفية ذلك أنه فى يوم الأحد الحادى والعشرين من أرديبهــشت (الثــامن والعشرين من ربيع الأول) وصلت برقية من طهران بأن جميع العلمــاء والأئمــة وأعضاء الجمعية، ظلوا لمدة ثلاث ساعات قبل الغروب فى مكتب البرق مطــالبين السادة حجج الإسلام بطهران وأعضاء دار الشورى الكبــرى عامــة بالحــضور الفورى إلى مكتب البرق. وتعجب الناس من هذه البرقية وانتفــضوا. وكــان كــل شخص يظن ظنًا غير الآخر، ولما حل الليل اجتمع العلماء والأئمة والرؤساء فــى مكتب البرق، واحتشد الناس كذلك فى الفناء، ووصلت من طهران البرقية التالية:

"بعد تقديم السلام والاستفسار عن الأحوال لحضرات السادة حجج الإســلام والسادة العلماء الأعلام وأعضاء الجمعية الوطنية المبجلــة أدام الله تأييــدهم، لقــد سألوا بالأمس من زنجان برقيًا أن جناب السيد المجتهد دامت بركاته سوف يــأتى إلى زنجان فى الثامن والعشرين من هذا الشهر، وقد رأى العقلاء هناك الصلاح فى أن يعيدوه إلى تبريز فى إعزاز وإجلال، فأى رأى لنواب آذربايجــان؟ حــضرات السادة حجج الإسلام دامت بركاتهم، إن هؤلاء خدام الأمة، وقد رأينا أنه من اللازم

أن نطيب أولاً الخاطر الشريف للسادة حجج الإسلام والعلماء الأعلام والسادة الأئمة وأعضاء الجمعية المبجلين، فإن هذا الجزء الخاص بإخراج السيد المجتهد من آذربايجان وحضوره إلى طهران وقم لأسباب عديدة لا داعى لتوضيحها لعقلاء القوم، وهذا يتنافى مع طالبى الخير للمملكة، وإن شرف وفضل بقعة المعصومة إذا ما حركت أسبابٌ خارجية رؤساءَ القوم، فليس بعيدًا أن يكون اجتماعهم مع غيرهم لا يخلو من أثر فى ذلك الوقت الذى تمس الحاجة فيه إلى اتحاد القلوب والأقوال اتحادًا تامًا. فإن اختلاف الكلمة واجتماع المتشككين فى مركز إيران على قداسة هذا المكان لا خير فيه ولا مصلحة. إن أساس الحكم النيابى وقوامه هو رواج الدين المبين وملاحظة شرف شعب آذربايجان على عامة المسلمين فرضٌ اليوم، فهم يوطدون دعائم الاتحاد، لذا نتمنى جميعًا أن نهيئ من جانبنا ومن جانب السادة العظام هناك أسباب عودة السيد المعظم".

(محمد اسماعيل، مرتضوى، محسن، حسين، نواب آذربايجان، الأحقر محمد الطباطبايى، الأحقر عبد الله الموسوى البهبهانى والشيخ إبراهيم نائب زنجان)

واستاء أهالى تبريز من هذه البرقية، فلم تكن عودة المجتهد شيئًا يرتضيه أهالى تبريز، وكانت دار الشورى تخشى استقرار المجتهد فى قم، أو فى عبد العظيم واجتماع أعداء الحكم النيابى حوله. وكان أهالى تبريز يخشون ظهور الفتنة فى المدينة بعد عودته. ولما وصلت تلك الرسائل التى ذكرناها من طهران وتطرق هذا الفكر بينهم ذكروا الحديث عن الدستور فى الرد على البرقية، وبعد المشاورات وما وقع بين الناس من اضطرابات قدموا الرد التالى إلى طهران:

"حضرة المباركين السادة حجج الإسلام ونواب آذربايجان دامت بركاتهم، قرأت البرقية المباركة على جميع العلماء الأعلام، والشعب قاطبة – الذين أغلقوا الأسواق والحوانيت وحضروا فى مكتب البرق المبارك – وجميع السادة العلماء

يرغبون فى القانون، وطالما أنهم لم يرسلوا نص القانون إلى آذربايجان لـن نفـتح الأسواق والحوانيت، ولن نغادر مكتب البرق المبارك".

(جمعية تبريز الوطنية)

على هذا النحو بدأت الثورة، ثورة كما سنشاهدها دامت أكثر مـن شـهر، وظل الأهالى فى مكتب البرق حتى مضى هزيع من الليل، ثم تفرقوا وعادوا إلـى ديارهم، لكن ظلت جماعة هناك تقترب من المائة لتلقـى الـرد، ومـضت ثـلاث ساعات من الليل، ووصلت البرقية التالية:

"إن برقية السادة لم تكن جوابًا على سؤالنا، والدستور يُتلى فى المجلس حيث ينعقد مجلس آخر كل يوم لتصحيح وإتمام القانون فى حضور السادة حجج الإسلام والعلماء الأعلام. والقانون الذى سيوفر السعادة الأبدية للبلاد لن يُعد بهذه الـسرعة وبذلك الإلحاح، وليست هناك حاجة للإضطراب العام وغلق الأسواق والحوانيـت، ويسعى المجلس المقدس ويجدُ قدر إمكانه للقيام بمهمته، وهو ليس فى حاجة لهـذا النوع من الإجراءات. والهدف من جهة السادة حجج الإسلام ومـشاهير العلمـاء وأعضاء الجمعية المحترمة هو ضرورة عودة جناب السيد المجتهد دامت بركاتـه، ولا ريب أن عقلاء آذربايجان يهتمون بهذه المسألة، وإن لم يكن لهذا الأمر أهميـة خاصة لما حضر الجميع هنا، ولم نكن لنشق عليكم. وطالما أن الجـواب لا يقـدم بشكل مباشر وقد انقضى الوقت، فقد تركنا الأمر للسادة المحترمين لاخـتلاف آراء العوام، ورحلنا".

(السيد عبد الله البهبهانى، السيد محمد الطباطبايى، الأحقر فضل الله النورى، مرتضوى، محمد اسماعيل، نواب آذربايجان ونائب زنجان)

ومن غد يوم الاثنين لم يفتحوا الأسواق بأمر من الجمعية، واتجه الناس كافة إلى مكتب البرق واجتمعوا هناك، وامتلأ فناء المكتب، وصعد الأهالى على الأسطح، وأرسلوا بداية البرقية التالية إلى نواب آذربايجان فى طهران:

"إلى السادة العظام نواب شعب آذربايجان دامت توفيقاتهم، لقد صرحنا مرارًا عن شغب الشعب فيما يختص بالدستور، وقد عفوتم، وانتهى الأمر بأن ضاق الشعب ذرعًا بذلك، فتوقفوا عن أعمالهم وتجارتهم وأغلقوا الأسواق، وقد اجتمع جمع من العلماء والأعيان والتجار وعامة الأهالى فى مكتب البرق، ونحن فى انتظار حضور سيادتكم إلى مكتب البرق فى العاجل".

(جمعية تبريز الوطنية)

ولما كان الناس يغدون ويروحون زرافات زرافات، تحدث المتحدثون، وكانوا يشرحون مفهوم الدستور وفوائده، ويقولون:

"كل دولة لها دستور، وكل قوم ينعدم وجود القانون لديهم هم فى نظر الآخرين همجيون، منذ ثمانية أشهر ونحن نعانى ونعقد الأمل دومًا على الدستور، والآن يبدو أن القانون الذى دونوه قد انصرفوا عنه بعد وصول الأتابك، وهم يريدون أن يبدلوه، وإن لم نحصل على الدستور فلن تستقيم الأعمال، ولن يعرف أى شخص دوره، طالما لم يمنحوا الدستور ينبغى علينا ألا نفتح الأسواق وألا نتنحى عن الصمود".

كانوا يقولون مثل هذا الكلام للناس، ودار الحديث أنه لو لم يصل الدستور خلال شهر فلن يفتحوا الأسواق، وأطلعوا جميع المدن الأخرى على ذلك. كما اقترحوا لرعاية الفقراء أن كل من لديه صبى أو عامل يدفع له أجره، وكل من جاوره معدم لا يضن عليه بالمساعدة، واليوم يأتى تلاميذ المدارس وفى أيديهم حمر الأعلام وهم يترنمون بالأناشيد ثم يعودون أدراجهم بعد تقديم تلك العروض. واليوم

فى طهران، قدم صنيع الدولة – رئيس المجلس – إلى مكتب البرق فـضلاً عـن بعض نواب آذربايجان ووثوق الدولة، ودار حوار بينهم لأكثر من يوم.

الحوار بين تبريز وطهران:

حقًا، لقد وقع نزاع وشجار اليوم بين تبريز وطهران، فهؤلاء الذين كانوا فى مكتب البرق بطهران أشاروا إلى أن الدولة لا ذنب لها ولم يروا داعيًا للخشية، ولم يجدوا ضرورة لمسلك تبريز هذا، وكانوا يقولون:

"ينبغى أن يمر الدستور من المجلس كما هو ولا ينبغى التسرع فيه".

وهؤلاء الذين كانوا فى مكتب البرق بتبريز كانوا يجيبون:

"إن ثمة مخاوف فيما يختص بالدستور، وينبغى التعجيل بشأنه". وكان كل طرف من الجانبين يصر على رأيه، وكانوا يحتدون أيضًا من مواقف طهران، ونورد فى هذا المقام بعض البرقيات.

لقد أرسلوا من تبريز الرسالة التالية:

"إلى أصحاب السعادة السادة أعضاء آذربايجان المحترمين دام إجلالهم، فى برقية الأمس حضر عامة السادة العلماء الأعلام – مد ظلهم العالم – وعامة الشعب فى مكتب البرق المبارك، ونحن نطالب فى جد وإصرار بالدستور الذى وعدتمونا إياه منذ فترة، ونقول فى صراحة: إن هذا المطلب، وإن هذا الاجتماع العام لا دخل له بالاجتماعات السابقة، وإن تأخير الدستور ليس فيه من المصلحة بأى حال من الأحوال. وإذا ما تأخر – لا قدر الله – سيكون له وخيم العواقب، ولن يُسمع على الإطلاق أى عذر لعدم الاهتمام به، وقد أغلقت الأسواق والحوانيت جميعها، ونحن فى انتظار الدستور".

(جمعية تبريز الوطنية)

وردوا عليهم من طهران بالرد التالى:

"فى عصر الأمس دعا أعضاء آذربايجان المحترمون أعضاء جمعية تبريز المبجلة للحضور فى مكتب البرق لإطلاعهم على مطلب ما، وعُلم بعد إطلاعهم على المطلب أنه بالرغم من أن نواب آذربايجان وسائر أعضاء مجلس الشورى الوطنى كانوا على يقين راسخ من أنه بعد الإطلاع منذ أيام، ومع ما أعلنوه من النصائح والمواعظ التى دعموها بالأدلة والبراهين برقيًا إلى أعضاء الجمعية المحترمين، فعلى الأقل لا ينبغى أن يقوم أهالى آذربايجان ببعض الإجراءات، وهم منتظرون نتيجة إجراءات مجلس الشورى الوطنى فى إتمام الدستور وإعداد اللوائح التنفيذية للحكام والتنظيمات الإدارية وأن يتم ذلك فى كامل الهدوء والطمأنينة. لكن عُلم على غير المتوقع أن الأهالى قاموا بالأمس بإغلاق الأسواق والحوانيت ثانية، واحتشدوا فى مكتب البرق للمطالبة بإتمام بنود الدستور، وأصبح هذا الخبر باعثًا للعجب والدهشة لعدم انتظار مجلس الشورى الوطنى وفرط الانشغال بإعداد الدستور وسائر المهمات الطارئة.

وباختصار، فإن هذا الإجراء وتلك الحركات غير المتوقعة تؤدى إلى التشكك فى معرفة أهالى آذربايجان الجيدة بجزئيات الدستور وخصوصياته، وينبغى توضيح ماهية الدستور وتقسيماته الجزئية إلى حد ما فى هذه البرقية، ويعلن صراحة عما غمض مما يمنع تقدم تلك الجزئيات بهذه العجلة والسرعة حتى يعلموا أن مجلس الشورى الوطنى لم يقصر أو يهمل قط فى هذا الشأن. وإذا ما أهملت الوقائع التى قدم المجلس ملاحظاته عليها، فربما يكون الإعداد لإتمام الدستور فى مملكتنا فى الأوضاع الراهنة أمرًا صعبًا أو محالاً. ويجب أولاً أن يعلم أهالى آذربايجان المحترمون أنه بعد وضع البنود التى زينت بتوقيع الملك فى دستور مجلس الشورى الوطنى، فإن الجزء الرئيسى مما تبقى منه – وله عظيم الأهمية بل إنه روح الدستور وحقيقته – هو الجزء الذى يتعلق بحقوق عامة الشعب

ولوائح القضاء والمحاكمات القانونية، وضمنيًا فإن هذا الجزء مطلب أساسى ومهم، والتغاضى عنه أو السكوت عليه هو فى الحقيقة تغاضٍ عن جميع قوانين الدستور، أى أنه لو لم يدرج ذلك المطلب فى الدستور يمكن القول إنه من الواجب صرف النظر عن الدستور والاقتناع بما دون فى قانون مجلس الشورى الوطنى. وفى هذين الجزءين بنود وفصول ليس من اليسير قبولها من وجهة نظر هؤلاء الذين لا يقفون على حقائق الشرع وأسراره، ومجلس الشورى الوطنى يراعى فى هذه المسألة أنه رغم وجود المعارضين الأقوياء والأعداء الأجانب (فى الداخل والخارج) الذين يكنون شديد العداء لمشروعنا المقدس هذا، فهم يضللون العوام ويجذبونهم جانبهم بما لا يستقيم فى العقل ويصرفونهم عن التفكير فى سوء العواقب.

وقد أجبرت هذه الملاحظة المهمة المجلس على أن يكشف عن وضع هذا القانون ونشره حتى لا يعير حجة لمن قصر نظرهم ولا يرضون عن الموضوع بناءً على الظاهر الذى يبدو لهم، ويتوسلون عن جهل لإنجاز أهدافهم. هذا ومنذ عدة أيام قبل اليوم الذى حضر فيه أعضاء الجمعية فى مكتب البرق، فإن المجلس المشكل كان يتكون من حجج الإسلام الكبار والمحققين العلماء أعلام دار الخلافة والعلماء نواب آذربايجان وطهران، وتم التباحث علنًا لعدة ساعات كل يوم فى بنود الدستور بمزيد من الاهتمام دون هدف وبمنتهى الدقة، وكانوا يمعنون النظر أثناء المباحثات فى أكثر من بندين أو ثلاثة يوميًا بكمال الدقة والأهمية، خاصة فى المجلس المذكور حيث تم مناقشة جميع المنافع والفوائد الناتجة عن سن هذا القانون. ومن الإنصاف أن العلماء الأعلام يجدون ويجتهدون حقًا فى تصحيح عبارات القانون التى كانت تعبر عن المعانى والحقائق المقصودة بألفاظٍ ربما حجبت الحقائق فى نظر العوام والمعارضين لهذا الأساس المقدس. وليس مستبعدًا أنه لولا وجود بعض الموانع والعوائق الخارجية كثورات الولايات وفساد نية بعض

مثيرى الفتن لتم استكمال الدستور ولوقّع عليه الملك، لكن وللأسف شوهد أنه كلما اجتمع أعضاء مجلس الشورى لإنجاز هذا الأمر رغم وجود آلاف المشاكل تصل الأخبار تفيد بوقوع الفتن فى أحد الأطراف مما يخلق المشاكل ويشتت الحواس.

وعلى سبيل المثال إنه بالأمس وعلى غير المتوقع على الإطلاق وصل خبر تبريز، واضطر النواب المحترمون إلى الحضور اليوم فى مكتب البرق. وباختصار، ينبغى العلم إنه إذا ما تم الوثوق بأعضاء جمعية تبريز وسائر أهالى آذربايجان فإن تأخير الدستور يكون بسبب عدم مساندة الدولة أو شخص الملك، ويجب القسم هنا بجميع الكتب الإلهية المقدسة إنه لم يُشاهد حتى هذه الساعة عدم المساندة من أمناء الدولة، بل أن أعضاء المجلس على يقين راسخ من أنه وقتما تتم الموافقة على بنود الدستور فى المجلس ويتم إرسالها إلى الملك سوف يتم التوقيع عليها بعد فترة وجيزة، ولن تكون هناك ممانعة قط أو مماطلة من قبل الملك.

ولا ريب إنه لو يتم الإحساس بالضيق من ذاك الطرف لن يكون هذا خفيًا أو مستورًا، وعندئذ لن يسب أهالى آذربايجان أو يطعنوا فى هذه الإجراءات، إذن فسبب التأخير ليس إلا لإبداء الملاحظات الدقيقة والمهمة من قبل المجلس المحترم، ونحن نعتقد أن أهالى آذربايجان لو نظروا نظرة صائبة بفكر واعٍ فى تدبر الأمور سيوافقون على ملاحظات المجلس هذه، ولن تتشتت مساعى المجلس المحترم لحفظ الاستقلال الوطنى أثناء نظره فى هذه الإجراءات. والأمر الآخر، إنه – لا قدر الله – لم يعلم أهالى آذربايجان أنهم أنفسهم مكلفون برعاية المسائل الشرعية سالفة الذكر فإنهم فى هذا الموضوع المهم المحاط بأنواع المشاكل والملاحظات الشرعية والافتراضية لا يشعرون بضرورة الحيطة لأن مجلس الشورى الوطنى – وهو اليوم مركز السلطات والإدارات – لا يستطيع ترك الملاحظة التامة على إحدى بقاع إيران فقط لرعاية الميل والسليقة، وللأسف فإنه نظرًا للاحتشاد فى تبريز يتم إلقاء أسباب استقلال إيران التام فى الخطر، ولما كان ذلك يخل بما هو آتٍ

وبالمرجو وراء هذا الهدف، فيجب على الجمعية المبجلة أن تقنع أهالى آذربايجان الغيورين بالموعظة الحسنة والقول اللين، وأن يمنحوا الوقت والفرصة لأعضاء مجلس الشورى الوطنى، فربما تثمر جهودهم بمشيئة الله".

(يحيى، مرتضى قلى، مستشار الدولة، شرف الدولة، وثوق الدولة، ميرزا آقا، محمد، أحسن الدولة)

وانتهت هذه البرقية فى عصر ذلك اليوم، وقدمت إلى الأهالى، ولم يستحسنها أهالى تبريز ولم يلتزموا بها، ولكى يعربوا عن صمودهم أحضروا خيمة كبيرة ونصبوها فى فناء مكتب البرق، كما نصبوا بعض الخيام فى فناء دار المدفعية المجاور لهم، واختار المجاهدون حجرات لهم وافترشوها، وأحضر الرواد الأباريق والغليون وغير ذلك من منازلهم، ولكى يخبروا طهران بصمودهم أرسلوا البرقية التالية:

"إلى النواب المحترمين، نحن نشق عليكم بالتعليق على البرقية المطولة لجناب السيد المعظم، ولكم عظيم الشكر لما قمتم به من شرح لترتيب تدوين الدستور وتصحيحه، ويبدو أن أهالى آذربايجان قد أبدوا هذا القدر من البلاهة وعدم الفهم، فما طلبوه واستدعوه كان من قبيل عدم الفهم والإطلاع، ويجدر بنا فى هذا المقام أن نثنى على حسن ظن جناب السيد المبجل تجاه نوابه، والحال أن أهالى آذربايجان قد تحركوا بهذه الثورة العامة فى جميع بقاع المملكة، وحمدًا لله حيث وقع ذلك موقع امتحان جميع العقلاء والسياسيين ودهشتهم، وبحمد الله لم يقع حادث حتى اليوم يؤدى إلى انفعال أو خزى لنوابنا المبجلين.

وبهذه المقدمات لم نتوقع قط هذه البرقية القاسية من نوابنا المحترمين، ولأننا صرفنا النظر عن كل ما لدينا لنيل المقصود، وتحملنا كل أنواع اللوم، فلا يزال لدينا قوة التحمل والصبر، لكن طلب الدستور يعد لنا اليوم ذخيرة السعادة وحسن

طالع الأمة والمملكة ونحن نطالب بكل العجز والإنكسار، ولا نلح على أن ينجز الآن وأن يذيل بتوقيع الملك، ولو استلزم الأمر بعد هذه المدة وقتًا آخر، فلن نعترض حتى يتم اتخاذ الوقت الكافى لاستكمال الدستور. هذا وقد قام عامة الأهالى فى آذربايجان بتعطيل جميع أعمالهم الخاصة والعامة، ونحن الآن فى مكتب البرق التابع للحكومة وفى دار المدفعية المباركة مشغولون بنصب الخيام، وسوف ننتظر إتمام الدستور والتوقيع عليه، وهم يعتبرون أن مثل هذه الأحداث مما يعرقل إتمام القانون، ولو أمعنتم النظر تلاحظون أن كل الأحداث التى تمت وتلك الثورة، إنما كانت بسبب تأخير الدستور وعدم تعيين مهام العامة. فما من شخص محكوم بحدود معينة قانونًا، وحتى لا يُفسر هذا النوع من الإضراب والثورة العامة والتحصن فى مكتب البرق المبارك وما حوله فى مجلس الشورى الوطنى المحترم على أنه نوع من الفتن والبلاء، فنحن نعرض صراحة إنه فى أى وقت يتوقف فيه هذا الشعب المسكين عن العمل ويتحصن فى مكتب البرق لن تقع بأى وجه قط أية أحداث غير لائقة. لكن بخصوص تعطيل لائحة الجمعيات المحلية التى انتهت منذ فترة ولم تزين بتوقيع الملك حتى الآن، فماذا تقولون عن سبب تأخيرها؟ ولم يجب أن يبدى الوزراء العظام كل هذا التساهل والتذرع فى التوقيع، والحديث الأخير الذى نورده إنه طالما لم يوقع الدستور ولائحة الجمعيات المحلية بتوقيع الحكومة، فلن ننفض عن الإضراب عن العمل وعن الثورة".

(عامة أهالى آذربايجان)

وورد من طهران الرد التالى:

"لم يكن الغرض من برقية اليوم المطولة – لا سمح الله – نسبة النقص فى الفهم إلى النواب المحترمين، إنما الغرض الأساسى هو توضيح أسباب الإطالة فى تصحيح الدستور وشرحها، وللحذر من سوء السمعة التى قد تسرى إلى الأطراف بشأن الدستور كان من الضرورى أن يشرف على الدستور فى كل بند من بنوده السادة العلماء الأعلام بشىء من الدقة بذلك التفصيل الذى عرض صباح اليوم فيما

يتعلق بلائحة الجمعيات المحلية، حيث لم يُلْحَظ قط أى إهمال أو تساهل من قبل الحكومة، ولم يمر أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام حتى انتهت القراءة الرابعة لتلك اللائحة وأرسلت للتوقيع عليها، ومجلس الوزراء مشغول بالنظر فيها بسعى حثيث، وإن شاء الله ستمر خلال يومين أو ثلاثة ليوقع عليها الملك.

فضلاً عن ذلك، ثمة لجنة أخرى مشغولة كل يوم فى المجلس بتصحيح لائحة الحكام التى تتألف من خمسة عشر بندًا. وكان حسن سلوك أهالى آذربايجان خلال تلك الفترة مما يوجب ثناء العامة ومدحهم، وكان باعثًا لفخر نواب آذربايجان. وفى الغالب إن عرائض خدام الأمة المجيدة فى إسكات الثورة العامة وإزالة الاضطرابات هى لمجرد حفظ هذا الشرف وذلك الامتياز الذى اكتسبته آذربايجان، ولم ولن نرغب فى أن نفقد مثل هذا الفخر العظيم بسهولة، ونحن فى هذا الموقع نثق كل الثقة فى نجابة أهالى آذربايجان المحترمين الذين لن يلوثوا قط علو مقصدهم وشرفه بهذه الاضطرابات الوضيعة، لكن طالما أن أهالى تبريز قد توقفوا عن العمل، ونصبوا الخيام حول مكتب البرق، فكان من البديهى أن يتم التعبير عن القلق من قبل المجلس والحكومة اللذين لم يتفرغا لذلك وانشغلا فى تنظيم اللوائح وتدوينها، ونحن نعرض عليكم الآن أن نمضى حتى نهيئ أسباب تسريح الأوامر الخاصة باللوائح واستكمالها. والرجاء الآخر أن يتعاون أهالى آذربايجان المحترمون معنا، وألا يصيروا باعثًا لتشتت الأفكار".

(نواب آذربايجان)

وبعد قراءة هذه البرقية ساء ظن بعض الرؤساء، واعتقدوا أن هذه البرقيات لم تكن من قبل نواب آذربايجان، وظنوا أن رجال البلاط هم الذين كتبوها وقدموها إلى عامل البرق باسم النواب أو باسم بعض رواد الحرية وأرسلوها إلى تبريز. وما زاد من سوء ظنهم أن اسماء النواب لم تذكر فى البرقية الأخيرة، كما وقعوا فى الدهشة من عدم قدوم تقى زاده إلى مكتب البرق ومن تنحى سعد الدولة،

ولما استفسروا عن ذلك برقيًا وصل الرد بأن تقى زاده أصابته وعكة، وأن سعد الدولة تنحى من تلقاء نفسه.

واليوم، كتب بعض المجاهدين وغيرهم الرسائل وطبعوها ووزعوها على الناس، وقيل فى إحداها:

"إذا ما وجب أن يذيّل الدستور بتوقيع العلماء، فثمة أشياء كثيرة يجب أن يوقع عليها العلماء لأن حكمهم هو الأساس فى القانون، والقانون فرع فى هذا الأساس".

وكان مقصدهم هو مُلك محمد على ميرزا، حيث كانوا يقولون إنه ينبغى أن يكون ملكه بموافقة العلماء. وكانوا يقولون كذلك: "إذا ما كنا نريد حكومة شرعية ينبغى أن تكون من جذر سليم".

وألح النواب من طهران وكانوا يطلبون الرد، كانوا يريدون أن يتجاوز أهالى تبريز عن سوء ظنهم بكل من محمد على ميرزا والأتابك، ويفتحوا الأسواق ويمضى الناس إلى أعمالهم، إلا أن أهالى تبريز كانوا يبدون مثل هذا الصمود حتى انتهى ذلك اليوم على هذا النحو.

صمود تبريز:

من غد يوم الثلاثاء اتجه الناس إلى مكتب البرق، ولما كانت الخيمة التى أقاموها صغيرة، ولم تكف لحماية الناس جميعهم من هطول المطر المتلاحق، أقاموا خيمة كبيرة كان حاجى محمد قلى – أحد التجار – قد أحضرها لتلاوة الروضة فيها، واليوم أبرقوا إلى نواب آذربايجان فى طهران بالبرقية التالية:

"إلى السادة نواب آذربايجان المحترمين، نعرض عليكم بكامل الاحترام أن الإجراءات اللازمة بالوضع الذى تتصورونه قد عرضت على الشعب من الأمس وحتى الآن بكل لغة وبيان، ولن تتأتى نتيجة قط فى مواجهة الإرادة العامة،

وخاصة أنهم كتبوا لائحة تقترب من هذا المعنى وقدموها إلى أعضاء الجمعية خلال هذه الفترة ولم نرفض الأوامر فى كل ما عرضتموه على الشعب واعتبرتم أن فيه الصلاح، ولن نتنحى أو نتمرد ما حيينا بناءً على وكالتكم لنا، لكن فى هذه الأيام الأخيرة ثبت لنا نحن الشعب بالقرائن الدامغة أن عرائضكم لم توفق فى طهران أيضًا، لأنهم لم يهتموا قط حتى اليوم بكل جزء من المطالب التى عرضها نواب آذربايجان المبجلين، بل إنهم اعتبروها غير جديرة بالإصغاء إليها.

ونحن أفراد الشعب لم نفهم أى معنى لمجلس دار الشورى الكبرى والجمعيات المحلية، وباختصار نعرض صراحة أنه طالما أن الدستور لم يوقع عليه من قبل الحكومة أو الملك لن ننصرف عن الإضراب العام، ونطلب منكم أنتم نوابنا ألا تجددوا الطلب ثانية فى هذا الشأن وألا ترهقوا أنفسكم، والآن انتهى العرض بهذا الترتيب. وقسمًا بالحقوق الإسلامية وجميع الأنبياء والأولياء أن إسكات الأهالى وإقناع العامة أمر خارج عن سيطرتنا نحن العبيد، ونحن نطلب من سيادتكم أن تتخذوا إجراءً جادًا وصحيحًا، وتعلموا جيدًا أن الأهالى أعدوا الرواتب الشهرية الخاصة بهم، وهم ينتظرون دومًا استحكام أساس التحصن والمطالبة بالدستور، فما الضرر إذا ما سألتم مجلس دار الشورى وأولى الأمر فى الدولة برقيًا عن وضع المدينة الراهن والاضطراب العام حتى يُعلم أن ما عرضناه لا يعد عُشرًا من ألف مما وقع، والأمر بعد ذلك موكول إليكم. وبالفعل لم يصدر عنا نحن العبيد سوى عرض مطالب الشعب لأن الوعود والبشريات جعلتنا نواجه الأهالى، ونحن لا نريد إظهار الخفايا عليهم، ولما حضرتم بالأمس فى مكتب البرق، حيث إن مجلس دار الشورى لم يستطع التغاضى عن الملاحظات العامة لإحدى بقاع إيران، وكان جواب الأهالى أنه ربما صرف أهالى آذربايجان نظرهم عن إجراءاتهم أو – لا قدر الله – أن سائر أهالى ممالك إيران المحروسة لم يساهموا أو يشتركوا فى فهم مطالبهم، حيث إن مجلس الشورى يريد أن ينسب ذلك الأمر إلى أهالى آذربايجان".

(جمعية تبريز الوطنية)

واليوم، كان ازدحام الأهالى شديدًا حتى ضاق بهم مكتب البرق ودار المدفعية والمناطق المحيطة بهما رغم ما لها من سعة، واضطروا أن يستأذنوا فى شَغْل منزل مجاور وفرشوه وجعلوه مقرًا للأهالى.

واليوم، فضلاً عن الجمعية المحلية، أرسل التجار والأئمة – كل على حدة – برقية إلى النواب، وكان الأهالى يروحون ويغدون زرافات زرافات فى الأفنية، أثناء ذلك كان بعض الوعاظ وغيرهم يخطبون فيهم، وفى الظهيرة وصلت البرقية التالية من طهران:

"لقد قدمنا شرحًا لسبب تأخر الدستور خلال عشرة أيام حيث تم انتخاب لجنة وشُغلت خلال شهرين بإعداده، وانشغلت لجنة أخرى لعدة أيام كى تنقحه، لكن بعض بنوده تحتاج إلى النظر فيها من الناحية الشرعية، لذلك فإن اللجنة الثانية – المكونة من السادة حجج الإسلام وبعض العلماء الأعلام والعلماء ونواب آذربايجان وغيرهم – تسعى وتجد منذ أيام للموازنة بينه وبين الأحكام الشرعية، وإذا ما كان الهدف من سن القانون هو أن يبقى دون تنفيذ فمن السهل اليسير أن يتهم المجلس صراحة بعدم العناية بتطبيق الشرع المطهر، ولقطعنا النقاش اليوم مع السادة العلماء الأعلام وبلغنا به توقيع الملك، وإذا ما كانت الفائدة من القانون تنحصر فى تأمين التنفيذ مع سوء السمعة التى سبقت، فإنه لن يقع قط مثل هذا القانون فى مملكة الإسلام موقع التنفيذ قبل مطابقته مع قوانين الشرع المقدسة. فحددوا لنا مهمتنا، فإما أن يخمد الاضطراب العام، ويمضى الناس إلى أعمالهم، فيأمنوا وينتهزوا الفرصة، وليؤدى السادة العلماء الأعلام مهمتهم على وجه السرعة، وأن تزال حالة سوء السمعة هذه، وإما أن يوضحوا بأنه لا ينبغى أن يكون وفق الشرع المنير فنطيع على الفور ونرسله اليوم إلى توقيع الملك".

. **(حضور مكتب البرق: إمام الجمعة، مستشار الدولة، محمد اسماعيل)**

وصل كذلك رد إلى العلماء والتجار يقترب مما ذكر سالفًا، وزادت هذه الردود من غضب أهالى تبريز لأنهم كانوا يخشون أن يقع الدستور فى يد العلماء، فإما أنهم سيخرجون عن إطاره ويصدرون قانونًا آخر لا قيمة له، وإما أنهم سينقسمون إلى فريقين ويلقون بالحجج فى يد الدولة، هذا وقد قاموا بجلبة معربين عن سخطهم، وكانوا يقولون:

"ربما يريد الشعب من الدولة قانونًا للمذهب والعبادة، وهذا ما يحتاج إلى المباحثات العلمية، نحن نريد دستورًا ملكيًا ذا حكم نيابى مثلما يجرى فى جميع الدول النيابية، وقد قدم رسولُنا القانونَ الشرعى منذ ألف وثلاثمائة عام، وهو بين أيدينا".

كان هذا الحديث يصدر عن الرؤساء، ويقال للأهالى على لسان الوعاظ، وكان يعنى تنحية الشريعة جانبًا، لكن الوعاظ وكثيرين غيرهم لم يعوا ذلك وكانوا يرددونه عن جهل. لقد أظهروا ارتباطهم بالقانون والحكم النيابى وكانوا يبغونه، لكنهم لم يغضوا الطرف عن الشريعة. أما الأئمة الذين كانوا فى تلك الآونة يؤيدون المطالبين بالحكم النيابى وكانوا يبرقون إلى طهران فى طلب الدستور، لم يكن معظمهم يدرك مفهوم الحكم النيابى ولم يتعلقوا به، وفى هذه الفترة، حينما رحل حاجى ميرزا حسن وغيره من المجتهدين، وفُتح الميدان لهم، سروا لذلك، وما أن شاهدوا التفات الناس حولهم حتى زاد سرورهم، وكانوا ينفذون كل ما يريدون، وكان الأحرار يكتبون تلك البرقيات دون أن يعلموا المفهوم الصحيح للحكم النيابى والدستور، لكنهم دونوها فقط حرصًا منهم على أن يدخلوا فى زمرة العلماء.

واليوم، أتى المغفور له ثقة الإسلام إلى مكتب البرق وتحدث على النحو التالى:

"ليس الهدف من القانون اختراع شرع جديد، فلن ينسخ قانون الشريعة المحمدية، وليس لأحد الحق فى التدخل فى هذا الشأن سوى حجج الإسلام والعلماء

الأعلام، ولن يُكتب قانون فى هذا الشأن، فالأحكام الشرعية هى نفسها كما هى وسوف تستمر حتى نهاية العالم. وما يريد الشعب ونوابه أن يجعلوه تحت نظر حجج الإسلام فى طهران هو قانون سياسى وملكى من قبيل تعيين حقوق السلطنة، وتحديد حدود الحكام، وسياسة الدولة مع الدول الأجنبية، ومنع التعدى، وحفظ حقوق رعايا إيران والضرائب وغير ذلك مما يسعى فيه حجج الإسلام فى طهران سعيًا حثيثًا مع العلماء ونواب الأطراف. وإذا ما كان هناك أمر يتعلق بالشريعة المطهرة فيجب أن يكون مطابقًا لها...."

وكان هذا بعيدًا عما كان يفكر فيه رواد الحرية خاصة من زار منهم أوروبا، وهذا نفسه ما ذكرناه من أقوال كل من آخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى، وذكرنا كذلك أنهما لم يكونا على دراية بالمفهوم الصحيح للحكم النيابى ومدى توافقه مع الشريعة.

ومنذ أعوام وجدت فى إيران حكومتان، إحداهما عرفية والأخرى شرعية، وتعايشتا معًا، وقد أقروا الحكم النيابى بدلاً من الحكومة العرفية، وكانوا يظنون استمرار الشريعة وبقاءهما معًا.

وأرسلت الجمعية المحلية البرقية التالية حتى تدرك طهران ثبات أهالى تبريز على أقوالهم وصمودهم، مفادها:

"إن مفهوم برقيات سيادتكم قائم على منح المهلة عدة أيام لإتمام الدستور، ومن دواعى السرور أنكم فرضتم على الشعب أنه سيتم استكمال الدستور خلال أيام وسيتم التوقيع عليه من قبل صاحب الجلالة الملك، وقد تم الإشارة صراحة أن العامة منتظرون فى مكتب البرق بكل طمأنينة وهدوء، وأنهم لن يتسببوا فى وقوع المشاكل لسيادتكم، وعندما يتم استكمال الدستور وتوقيع جلالة الملك عليه، فلترسلوه إلى الشعب كى تهدأ خواطره".

(جمعية تبريز الوطنية)

كذلك أرسل الأعيان والأمراء – كل على حدة – برقية وأنبأوا عن شدة الثورة، ووصلت اليوم برقية من إصفهان ورد فيها أن هناك قومًا قد ثاروا وقدموا إلى مكتب البرق وضموا أصواتهم إلى تبريز.

وفى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من أرديبهشت (الثانى من ربيع الآخر) أغلقوا الأسواق كذلك، واجتمع الناس فى مكتب البرق والمناطق المحيطة به، وكانوا يترقبون وصول برقية طهران، وأرسلت الجمعية الرسالة التالية للنواب وطلبت استدعاءهم إلى مكتب البرق:

"إلى السادة نواب آذربايجان المبجلين دام تأييدهم، (إن يدكم لبعيدة عن النار) لقد بلغت الثورة والاضطرابات المطالبة بالدستور مداها، ولم ترسلوا ردًا على برقية الأمس إلى الآن، وهم يعتبرون التأخير فى الرد من قبيل عدم الاهتمام، وهذا ما يستوجب حضوركم إلى مكتب البرق لتقديم الرد حضوريًا".

(جمعية تبريز الوطنية)

كذلك أبرق العلماء إلى علماء طهران، كما أبرق الأمراء والأعيان إلى الأتابك وأوضحوا مدى شدة ثورة الأهالى وجلبتهم، وكان تلاميذ المدارس يروحون ويغدون وهم يترنحون وفى أيديهم حمر الأعلام. وفى الظهيرة وصلت البرقية التالية:

"جناب السادة العظام دام إجلالهم، إن سن القوانين وتوقيعها من المهام الواجبة لنواب الأمة، خاصة وأن مواطنينا الأعزاء وإخواننا الغيورين يكابدون من ويلات الثورة والجلبة ما يفوق طاقتهم من أجل المطالبة بهذا القانون. والله شهيد فى هذه الأيام على أن أهالى تبريز الغيورين قد سلبوا الراحة من أنفسهم وسلبونا إياها للحصول على حق من حقوقهم المسلم بها، لكن كما عُرض مسبقًا مرارًا وتكرارًا أن الدستور لم تتم الموافقة عليه من قبل المجلس إلى الآن كى يُوقع عليه، وفيما يتعلق بسوء الظن الذى فى آذربايجان تجاه مجلس دار الشورى فيما يختص

بالدستور، نوضح أنه من الضرورى أن تتم مطابقة بنود الدستور بالشرع المبين فى مجلس يتألف من السادة حجج الإسلام والعلماء الأعلام، وهم مشغولون منذ أيام بذلك، ونحن فى حيرة من حال خدام الأمة فيما يتعلق بمهامهم، ولا يمكننا أن نقول للسادة العلماء الأعلام أن يصرفوا النظر عن المطابقة، ولا يقبل إخواننا الأعزاء من أهالى تبريز رغبتنا فى أن ينصرفوا فى الأيام التالية إلى أعمالهم وأن يمنحوا المهلة كى يمر الدستور من هذه المرحلة ويتم التوقيع عليه".

(يحيى، تقى زاده، مستشار الدولة، حاجى ميرزا إبراهيم، محمد، ميرزا آقا)

ولما تليت هذه البرقية على الأهالى، استاءوا وقالوا:

"ليس هذا ردًا على برقيتنا، ينبغى أن نستفسر سرًا من نوابنا".

وكان المغفور ميرزا على ويجويه اى والشيخ سليم وميرزا حسين – كل بدوره – يقدم النصح للأهالى ويحاولون تهدئتهم، وكانوا يقولون:

"من الأفضل منح المهلة لعدة أيام ". ولم يرتض الأهالى وقاموا بالجلبة والصياح.

ووصلت اليوم برقيات من شيراز والرشت وانزلى وسلماس ومراغه وأرومى وكذلك من المدن الأخرى تفيد بأنهم غلقوا الأسواق فى تلك المدن وانضموا إلى تبريز. وكانت الثورة والحركة جد عظيمة فى الرشت وانزلى، حيث كان المجاهدون يروحون ويغدون بالطبول والأبواق. وقد زادت هذه البرقيات من ثورة الأهالى وحميتهم. وبعد أن اشتد الأمر عليهم اقترح الرؤساء أن يستفسروا من طهران ثانية عما إذا كان سيتم الانتهاء من الإعداد للدستور خلال عدة أيام حتى يهدأ الأهالى فى مكتب البرق ويحدوهم الأمل، وأرسلت الجمعية البرقية التالية إلى طهران فى هذا الشأن:

"تقسم بالله أننا نحن العبيد نواسى سيادتكم فى هذه المحنة وذلك الألم، لكن للأسف أن الأهالى لم يتقبلوا حديث سيادتكم وعرائضكم، فكما ذكرنا بالأمس أن الدستور سوف يُعرض على السادة حجج الإسلام خلال أيام حتى يتم إسكات الأهالى بتحديد المدة، فاستقروا فى مكتب البرق فى هدوء تام على أمل توقيعه، وهم فى انتظار البشارة بتوقيع الدستور".

(جمعية تبريز الوطنية)

وردت طهران بالرد التالى:

"يلزم على الأقل عشرون يومًا لكى تنجز اللجنة مهمتها فى مطابقة البنود للشرع المبين وقراءة تلك البنود على المجلس، وبعد الموافقة على المسودة تُرسل للتوقيع عليها، ثم يتم النظر فيها من قبل هيئة الوزارة ثم تصل إلى الملك للتوقيع عليها. ونحن نسعى سعيًا حثيثًا حتى يتحقق الهدوء لمواطنينا الأعزاء فى أسرع وقت، وسنمضى الآن إلى المجلس لإنجاز هذه المهمة، لكن لما كنا لا نستطيع أن نرتضى توقف إخواننا المحترمين عن أعمالهم وأن يعانوا من هذه الخسارة، سنمضى ونطلب من نوابنا المحترمين أن يبذلوا الجهد لإخماد الثورة العامة".

**(مستشار الدولة، يحيى، فضل على،
تقى زاده، شرف الدولة، إبراهيم،
محمد، ميرزا آقا)**

وفى يوم الخميس ازدادت الجلبة والثورة كلما زاد احتشاد الأهالى، فقد اعتبر الأهالى الدستور حلاً لجميع مشاكلهم، وبالغوا فى أهميته وقيمته، لذا كانوا يعتبرون عدم منحه هو قضاء على الحكم النيابى، هذا ولم يروا حلاً سوى الإلحاح فى طلبه، وكلما رأوا من طهران مقاومة أكثر كانوا يزدادون ثورة وغضبًا.

فى تلك الأثناء كان احتشاد أهالى تبريز المطالبين بالحكم النيابى، كانوا جميعهم على رأى واحد، يؤيدون بعضهم البعض، ولما لم يقصروا لم يدخروا وسعًا

فى الضغط للمطالبة بالقانون، وكانوا يعتبرون ضغطهم هذا هو دورهم، وكانت طائفة المجاهدين ذات شوكة وقوة، وقد حملت على عاتقها مسئولية السعى للحفاظ على الحكم النيابى، واعتبرت ذلك هو دورها.

وقيل اليوم فى بعض النواحى إن النساء قد اجتمعنَّ فى المساجد، وأعلنَّ عن ثورتهن وحميتهن. كما أفادت الأنباء بأن المجاهدين الجدد قد أعدوا أنفسهم للتوجه صوب طهران، ومضى مير جواد گرگرى- إمام تلك الناحية - مع آخرين كى يمنعوهم، وأرسلت الجمعية مرة أخرى البرقية التالية إلى نواب آذربايجان:

"السادة نواب آذربايجان دام تأييدهم، لم يُفد بوضع الثورة فى المدينة منذ صباح اليوم، إن جميع أهالى المدينة فى حال ثورة، حتى طائفة النساء والأطفال الرضع، وقد نفذ صبر الأهالى وتحملهم فى المساجد، وبلغ الاستياء مداه، وليس فى الإمكان تهدئتهم، فليتفضل الله تعالى علينا برحمته".

(جمعية تبريز الوطنية)

وورد الرد التالى من طهران:

"الجمعية الوطنية الموقرة، بالرغم من أن سيادة حجة الإسلام السيد المحترم عبد الله المجتهد دامت بركاته كان متوعكًا إلا أنه حضر منذ الصباح مع طبيبه وأدويته بناءً على استدعائه، وهو الآن مشغول مع سيادة المستطاب حجة الإسلام السيد المبجل محمد المجتهد دامت بركاته والسادة العلماء الأعلام فى المطابقة، وطالما لم يتم أمر المطابقة لزم أن يستقروا فى المجلس لبضعة ليالٍ دون عودتهم إلى ديارهم، ونأمل أن يتم إنجاز مطابقة الدستور بشكل جاد بأسرع وقت ممكن، ويتعهد السادة حجج الإسلام دام تأييدهم وكذلك مجلس الشورى الوطنى ببذل المساعى كى لا يتأخر تصويب الحكومة وتوقيع الملك. وأن يخلصوا مواطنينا الأعزاء فى القريب العاجل من شدة الانتظار والاضطراب، لذا نستوجب مهلة

بضعة أيام، وأن يمضى إخواننا الغيورون إلى أعمالهم وأن يحسنوا الظن فى خدام الأمة بأننا مشغولون لخلاصكم من القلاقل والاضطرابات".

(حضور المجلس: فضل على، مستشار الدولة، تقى زاده، إبراهيم)

ومرة أخرى أبرقوا من تبريز إلى السيدين وحاجى شيخ فضل الله يطلبون منهم المبادرة فى إتمام الدستور، فقدم السيدان ردًا مختومًا، وكما قيل كان بهبهانى متوعكًا ورغم ذلك قدم إلى المجلس للتباحث حول الدستور، فأبرقوا إليه داعين له بالشفاء شاكرين.

وفضلاً عن هذا كله، استفسر من النواب سرًا لاسترضائهم، فأجابوا أن البرقيات التى وردت خلال الأيام السابقة صحيحة، وطلبوا مهلة أخرى لاستكمال الدستور خلال عشرة أيام، وارتضى الأهالى هذه المهلة، لكنهم قالوا:

لن نفتح الأسواق وسنبقى هنا خلال العشرة أيام هذه، وإذا ما منح الدستور سنرحل عن المكان".

وعلى هذا النحو أبدوا تشبثهم بأقوالهم.

التغييرات التى ألحقها العلماء بالقانون:

نعود الآن إلى طهران: كما رأينا اتخذت قضية الدستور فى هذه المدينة طابعًا آخر، ففى الوقت الذى كانت تبدى فيه العديد من المدن ثورتها للمطالبة بالدستور انقسم الأهالى هنا إلى فريقين تبعًا لانقسام العلماء. وأبدى فريق منهم ميله للشريعة وتأييده لها، لذا لم يكن اهتمام معظم النواب بهذه القضية، ولم يفهموا معنى لثورة المدن وجلبتها سوى إنها إثارة للفتن. وزاد صنيع الدولة – رئيس المجلس الذى كان يبدى دومًا تأييده للدولة – من مسلكه فى هذه الفترة، وكان يظهر استياءه

من تلك الثورات. وكما أسلفنا أبدى بعض النواب تأييدهم للشريعة، وكانوا يردون بشجاعة، وكان الآخرون يلزمون الصمت خشية.

وفى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من أرديبهشت ظهرت هنا أيضًا انتفاضة، حيث تشكلت جماعة من النساء وتوجهن إلى المجلس للمطالبة بالدستور، وهذه هى المرة الثانية التى أبدت فيها نساء إيران المخدرات مؤازرتهن لحركة الحرية، وفيما يبدو أنهن قد أثرن.

ولم يهتم المجلس أيضًا بهذه الظاهرة، ورد على النساء بقوله:

"إن لكن من يحرضكن".

ومن الغد جعل صنيع الدولة من ذلك عذرًا وطالب بتنحيته من الرئاسة.

وكان الحديث يدور حول اجتماعات بين العلماء والنواب بشأن الدستور، وضاعفوا من جهودهم فى هذا الشأن بعد وصول برقيات تبريز وغيرها من المدن، وبادروا فى إنجاز هذا الأمر، ولكن كما كان الظن قدم العلماء المطالبون بالشريعة بعض الانتقادات، واعترضوا على بعض البنود. ففى البداية انتقدوا البند الثامن الذى ورد فيه:

"يتساوى أهالى مملكة إيران أمام قانون الدولة".

وقالوا:

"لا يمكن مساواة المسلم والكافر فى الدية والحدود، فإذا ما قتل مسلم يهوديًا أو زرادشتيًا أو كافرًا لا يمكن معاقبته بالقتل، وينبغى فقط أخذ الدية منه".

ثم انتقدوا البند التاسع عشر الذى يقول:

"ينبغى أن ينفق على تأسيس المدارس من مصروفات الدولة والشعب، والرسوم الإجبارية يجب أن تكون مطابقة لقانون وزارة العلوم والمعارف".

وقالوا:

"إن الرسوم الإجبارية تتنافى والشريعة".

كما انتقدوا البند العشرين الذي ينص على:

"إن جميع المطبوعات حرة فيما عدا كتب الضلال والكتب التى تلحق المضرة بالدين المبين. والتمييز بينهما ممنوع".

وقالوا:

"ينبغي أن تكون تحت رقابة العلماء".

وانتشر الجدال حول هذا الشأن فى الخارج، ونشرت المقالات فى بعض الجرائد، والأكثر من ذلك أن دار حديث فيما يختص بالبند الثامن، وكتب الزرادشتيون - الذين علا شأنهم فى هذه الفترة - الرسائل إلى المجلس يطالبون بالمساواة، وكتب أحد الكتاب فى صحيفة "الحبل المتين" بطهران فى هذا الشأن يقول:

"لو أردنا ألا تنفذ حقوق المساواة سنقع فى محذورات عظيمة، إحدى هذه المحذورات أن المجوسى واليهودى والأرمنى إذا ما لاحظ أن قيمة دمائه تعادل ما يقرب من خمس وعشرين طومانًا[1] فى القانون، فلا أظن أنه سيشعر بالانتماء لهذه الأمة وهذه السلطنة وهذا القانون، وسوف يرفع عقيرته بالشكوى إلى نواب الدول

(١) يعيش أهل الكتاب أو اليهود والنصارى والزرادشت - وفقًا للدين الإسلامى - فى المدن الإسلامية تحت راية المسلمين، ويطلق عليهم أهل الذمة، وإذا ما قتل مسلم أحدًا منهم لا يمكن أخذه بالعقاب قتلاً، وعليه تقديم دية مقدارها ثمانمائة درهم، وإذا ما كان القتيل امرأة تكون الدية أربعمائة درهم. والدرهم عملة فضية كانت تروج فى صدر الإسلام تعادل حوالى ثلاثة جرامات وزنًا، وإذا ما قارنا القيمة ستزيد قيمة الثمانمائة درهم على الألف ريال لكن فى ذاك العهد الذى راج فيه هذا الحديث كان سعر الفضة أقل بكثير مما هو عليه الآن لذا كانوا يعادلون الثمانمائة درهم بمائتى وخمسين ريالا أو خمس وعشرين طومانًا.

الأخرى قائلاً: "ما هو تقصيرى كى يكون دمى أنا الإنسان أقل قيمة من دم الحيوان"؛ وإذا ما أجبناه "بأنك من أهل الكتاب ولا تملك روح الإيمان، وعليه فقيمتك هى قيمة الحيوان". فسوف يرد قائلاً "ألم يكن أحد القساوسة الألمان[١] الذى تم قتله فى أرومية من أهل الكتاب وقدمتم فيه دية مقدارها خمس وستون ألف طومان. "فكيف نحكم على شخصين من أهل الكتاب والذمة بأن يأخذ أحدهما خمسة وستين ألف طومان ويحصل الآخر على خمسة وعشرين طومانا؟! أحدهما تضاهى قيمته ستين مسلمًا، والآخر تعادل قيمته حمارًا صغيرًا حقيرًا. هل هذا من الإنصاف؟ من العدل؟ والمحذور الآخر هو ما يجعلنا نتساءل، هل القانون الذى يحوى مثل هذا الكم من التباين ستتم الموافقة عليه من قبل منظمة حقوق الإنسان؟ وأية قيمة ستكون لرعايا تلك الدولة فى الممالك الأجنبية؟...."

وكان الشيخ فضل الله يريد أن يكون المجلس تحت إمرة رجال الدين فى كل شىء، وقد أعد بندًا منذ شهر لإضافته إلى الدستور، وكتبه بخط يده ووزع نسخاً منه بين الأهالى، ويلح الآن فى طلبه هذا، وما كتبه: "مجلس الشورى الوطنى المقدس هذا الذى أسس برعاية حضرة إمام العصر عجل الله فرجه، ورحمة صاحب الجلالة ملك ملوك الإسلام خلد الله سلطانه، وإشراف حجج الإسلام، ورعاية عامة شعب إيران لا ينبغى أن تكون بنوده المحكمة فى أى عصر من العصور مخالفة لقواعد الإسلام المقدسة والسنة الموضوعة لحضرة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، وينبغى أن يكون تحديد مدى موافقة البنود الخاصة بقوانين مجلس الشورى الوطنى الموضوعة للقواعد الإسلامية أو معارضتها لها فى عهدة العلماء الأعلام دام الله بركات وجودهم، لذلك فقد تقرر تشكيل جمعية (لجنة) من الطراز الأول تتألف من المجتهدين والفقهاء من رجال الدين فى كل عصر من العصور حتى يتم التباحث حول قوانين المجلس الموضوعة بدقة من خلال تلك اللجنة قبل إقرارها. وإذا ما كانت القوانين الموضوعة مخالفة لأحكام الشريعة لن

---

(٢) كان قسيسًا إنجليزيًا.

يكون لها الشكل القانونى ويكون أمر اللجنة العلمية فى هذا الشأن مطاعًا ومتبعًا، ولن تقبل هذه المادة التغيير قط".

(السادس من ربيع الأول)

وهذا ما تم استحسانه من قبل بعض رجال الدين والمطالبين بالشريعة وأبدوا تأييدهم له. وأطلع البعض علماء النجف بصورة منه فى إحدى البرقيات وكانوا يريدون الفتوى، وفى تلك الجلسة جعلوه البند الثانى من الدستور.

بهذه التغييرات تم إعداد المتمم للدستور، وفى يوم الأحد الثامن والعشرين من أرديبهشت – السادس من ربيع الآخر – كانوا يطالبون به فى المجلس، وقالوا إن النواب قاموا بتصحيحه وتم إرساله إلى الملك للتوقيع عليه.

واستاء نواب آذربايجان حينما علموا بحقيقة الحال واتفقوا فيما بينهم أن يحولوا دون تلاوته فى المجلس يوم الأحد، لأنهم كانوا على علم جيد بأنه إذا ما تلى سيوافق عليه معظم النواب وبذلك تفسد الأمور.

وفقد المجلس شجاعته، ولم يعد قادرًا على الصمود، أما أتباع الشريعة – سواء فى المجلس أو خارجه – فقد عدوا ذلك كفرًا. وفى يوم الأحد، حينما دار الحديث حول الدستور، قال تقى زاده: "ينبغى أن يتلى ثانية فى اللجنة حتى يمرر على المجلس".

وانتقده الشيخ حسين شهيدى، قائلاً:

"هؤلاء السادة هم أنفسهم الذين كانوا يقولون فسد الحال فى تبريز والرشت وزنجان، والآن كيف يقولون ينبغى أن يتلى ثلاث مرات؟! فلو كان الهدف من هذا الإصلاح فى التغيير هو مخالفة الشرع، فهذا محال. ولو كان الهدف هو تطبيق قوانين الشرع، فليس فى الإمكان التصحيح والتنقيح أكثر من ذلك".

فرد تقى زاده وألح، ولم يتل الدستور، وعلى هذا النحو كان الخلاص من ضرر كاد أن يحدث.

مظالم ابن رحيم خان:

ثمة أحداث أخرى كانت تقع فى آذربايجان فى هذه الأثناء، أحداث ترفع النقاب عن مساوئ الشاه، وكيفية ذلك أنه لما كانت تحدث بعض الاضطرابات فى محلة قره داغ وقع نزاع بشأن دفع الضرائب وحق الملكية، وكثيرًا ما كتبوا بذلك إلى الجمعية، ولما تفاقمت مشكلة الخبز فى تبريز، أرسلت الجمعية محمد قلى خان – أحد رؤساء قره داغ لكنه كان يعيش فى تبريز وكان يبدى مطالبته بالحكم النيابى آنذاك – ومعه مير يعقوب مجاهد وغيرهما إلى هناك لتهدئة الأمور ونقل الغلة إلى المدينة.

وفى يوم السبت السابع والعشرين من أرديبهشت (الخامس من ربيع الآخر) حيث كانت الأسواق مغلقة والناس يجتمعون فى مكتب البرق دخل فجأة مير يعقوب وأنبأهم:

"تم انتخاب حسين باشا خان فى أروم دل، ومنح رحيم خان الغلة ووقع عراك مع مبعوثى الجمعية، وتعاطف الأهالى مع المبعوثين ولم يسمحوا بمضرة تصيبهم، وطلب حسين باشا خان المساعدة من نصر الممالك (بيوك خان) – ابن رحيم خان – وقدم مع طائفة من الفرسان إلى قرية تخمدان وقتل البعض ونهب القرية، وكان عدد القتلى كثيرًا، ولجأ مبعوثو الجمعية إلى محلة ورزقان وهم هناك فى ضيق".

وانتفض الرؤساء من هذه الأنباء لأن مثل هذه الوقاحة من ابن رحيم خان لا يمكن التصدى لها إلا بأمر من طهران، وعلموا أن البلاط قد استباح لنفسه إراقة الدماء.

وقره داغ أو ارسبار التى كانت مقرًا لعشائر قوية ومحاربة، كانت مقرًا لرحيم خان منذ أعوام مع زايل بيگى ورئيس الفرسان، وكان يعيش فى هذه الفترة فى كنف محمد على ميرزا فى طهران ملقبًا ب" قائد النصرة" وكان يعد من

المقربين إليه. وقد اعتاد هذا الرجل وفرسانه على السلب والإغارة، وكانت هذه هى حرفتهم. لكن منح الغلة والعراك مع مبعوثى الجمعية وقتل الأهالى لم يكن سوى جزءًا من هذه الأعمال. ومثل هذه الوقاحة لم يكن فى الإمكان القيام بها إلا بإذن من محمد على ميرزا والأتابك، بل وبتحريض منهما.

وأفضى هذا الحدث إلى نتيجة، فبعد أن علموا فى طهران باجتماع العلماء ومباحثاتهم حول الدستور أدركوا جيدًا أن سوء ظن تبريز تجاه البلاط كان فى موضعه، وأن حسن ظن طهران لا محل له، وعلى هذا النحو انتهى الجدال بين المدنتين بانتصار تبريز. وقد علم أهالى تبريز أن الأتابك ومحمد على ميرزا كانا يسعيان للإطاحة بالحياة النيابية كما بدا لهم أن يد البلاط هى التى كانت تحرك الأحداث سرًا، لذا كانت الخشية وتقدموا فى محاولة منهم لإيجاد الحل. لكن أهالى طهران – أو على الأصح قاطنى طهران – لم يكن لديهم سوء الظن هذا، وكانوا يعتبرون خشية تبريز دون داعٍ. هذا وكانوا يبسطون الألسنة فى المذمة واللوم، لكن الأحداث الآن توضح الباعث وراء تلك الخشية، وأظهرت صدق فهم أهالى تبريز للأمور، وكان من نتائج هذا الحدث اتحاد نواب آذربايجان مع تبريز.

حقًا، لقد أخفت الجمعية عن الأهالى أقوال مير يعقوب لأنهم كانوا مستاءين من أمر الدستور، وزاد هذا الحدث من استيائهم، لكن تمت المراسلة برقيًا فى نفس اليوم للاستفسار عن حقيقة الأمر إلى نواب آذربايجان فى طهران. وعلى هذا النحو انقضى يوم الأحد والإثنين، وكان الأهالى يستقرون فى مكتب البرق والمناطق المحيطة به وهم يأملون انتهاء العشرة أيام حتى يسمعوا من طهران بشرى الانتهاء من الدستور، إلا أن الدستور قد تأخر، وكما رأينا كان نواب آذربايجان أنفسهم يحولون دون تلاوته فى المجلس.

وفى يوم الثلاثاء وصلت فجأة البرقية التالية من طهران:

"أعضاء الجمعية الوطنية المبجلة أدام الله تأييدهم، إن الدستور الذى خرج من مطابقة بعض العلماء ليس للمجلس صلاحية الموافقة عليه، لذا فمن المحتمل أن نضطر لعقد مباحثات طويلة، ونطلب من مواطنينا الأعزاء ألا يغلقوا الأسواق وأن يمنحونا المهلة لأن فى غلق الأسواق العجلة المضرة، ونحن نقول فى صراحة إنه بمثل هذه العجلة لا يمكن خلاص أساس سعادة المملكة من هذه المشكلات الجارية. هذا وقد علم بشكل قاطع أن النواب المبجلين عامة، ونواب آذربايجان على وجه الخصوص يقضون أوقاتهم ليل نهار لإنجاز هذا الأمر، وطالما لم ينجز فلن نقوم بأى شىء آخر، ولا شك أن طول المهلة لتنقيح القانون واستكمال حقوق الشعب أفضل من العجلة التى ليست لها من نتيجة سوى المضرة وضياع حقوق الشعب".

**(مستشار الدولة - حاجى ميرزا إبراهيم
- حاجى ميرزا آقا - تقى زاده وهدايت
الله ميرزا)**

وتأذى الرؤساء من هذه البرقية وعجزوا عن فعل شىء، وكانوا يريدون عدم إظهار ذلك لكن الأهالى حينما علموا بوصول البرقية ألحوا وطالبوا بقراءتها، ولما علموا حقيقة الأمر اشتد اضطرابهم وقاموا بالجلبة والمذمة.

وقال من ظن سوءًا بالنواب:

"كنا نعلم أنهم سيرسلون إلينا هذا الرد لتهدئة الخواطر".

وذمت طائفةُ البلاطَ وجعلوا يطالبون بعزل محمد على ميرزا من الملك، وكانوا يقولون:

"نحن نريد دستورًا تعين فيه حدود السلطة النيابية وحقوق الشعب وإلا فالشريعة محفوظة مكانتها، وكل شخص يعلم تكاليفه الشرعية، ونحن نقول فى صراحة: ما لم يدون الدستورَ فى مجلس نواب العلماءُ وغيرهم ويتم تدوينه

والتوقيع عليه وتسليمه إلى الشعب، فسوف نقول ما ينبغى أن يقال ونطالب بما لم يطالَب به إلى الآن".

واجتمع ما يربو على العشرين ألف شخص، ولما كانت ترحل طائفة كانت طائفة أخرى تحل محلها، وتحدث المتحدثون من رؤساء المجاهدين أحاديثَ متعاقبة، وكانوا يوصلون هذا كله إلى مسامع الأهالى. ولما كانوا يعلمون هنا أن كل نوع من العراقيل حول الدستور سببه البلاط، وأن رجال الدين ليسوا إلا أداة فى يد محمد على ميرزا والأتابك لذا استعد الرؤساء وأعلنوا عن عدم رضوخهم لملك محمد على ميرزا طالما لم يُمنح الدستور وفقًا لرغبة الأحرار.

وكان لابد على الجمعية التخفيف من حدة ثورة الأهالى وغضبتهم، لذا كتبت برقية شديدة اللهجة ردًا على النواب وتلتها على الأهالى قبل إرسالها، ورد فيها:

"السادة نواب آذربايجان المبجلون دام تأييدهم، لقد أخطرتمونا بالانتهاء من مطابقة الدستور، وأنه ليس للمجلس الصلاحية للموافقة عليه، أولاً: إننا لا نستطيع أن نعلن على الشعب برقيتكم سواء فيما يتعلق بفتح الأسواق أو فيما يتعلق بتهدئة العامة. ثانيًا: لتعلموا أن مجلس المطابقة هو فى الواقع لجنة ضد الحكم النيابى والدستور، وليست للمطابقة كما يعلم عامة الشعب ذلك جيدًا، وبشكل عام لقد أدرك الأهالى أن بعض أعضاء اللجنة هم أشخاص مؤيدون للاستبداد وهم على يقين جازم بأنه لن يكون من السهل إصلاح حال الشعب وتحقيق رفاهيته من هذه اللجنة، ولن توفق فى أية وسيلة تؤدى إلى الإخلال بالقانون والتطاول عليه.. وكما سبق القول إننا نحن أفراد الشعب لم نر صلاحًا قط من تلك اللجنة المطابقة، وإن برقيتكم تعلن على الشعب بأن يهتموا بفتح الأسواق لأن هذا هو ما فيه صلاح حال الشعب، وتبينون بهذه البرقية مضرة البرقية السالفة (حفظتم شيئًا وغابت عليكم أشياء) ونعرض صراحة إن شعب آذربايجان ليس على استعداد قط أن يؤيد رأى بعض هؤلاء وهم يعلمون أنهم تحت السيطرة حتى تضيع الحقوق وتصبح موطئًا للأقدام،

وعليه يجب النظر فى كل بند من البنود والتباحث فيه جيدًا. ولتخبرونا بذلك إجمالاً".

(جمعية تبريز الوطنية)

عجز المجلس:

كان هذا هو الحال فى تبريز حيث كانوا يدافعون عن الحكم النيابى فى شجاعة ويقولون جهارًا:

"نحن نريد قانون الحكم النيابى وليس الشريعة".

لكن فى طهران كان الحال مختلفًا بسبب وجود الانقسام بين الأهالى كما تم ذكره، وكان البلاط يشعل النيران من قريب ومن بعيد، وأظهر أهالى طهران خور عزمهم ثانية، ومن أبدوا فرط حماستهم فى سبيل المطالبة بالحكم النيابى منذ عشرة أشهر يلزم معظمهم الآن الصمت إزاء المطالبين بالشريعة مَن أو يبدون مطالبتهم بالشريعة.

والأسوأ من هذا كله هو حال المجلس، فقد أظهرت طائفة من النواب مطالبتها بالشريعة وآزرتها طائفة أخرى من قبيل الخشية، ولو لم يمانع تقى زاده وقُرئ الدستور مع تعديلات العلماء فى المجلس لكان الوضع مقبولاً.

ولنسق مثلاً على عجز المجلس وكيفية عمل النواب، ونورد فى هذا المقام جزءًا من مناقشات جلسة يوم الخميس الأول من شهر خرداد (العاشر من ربيع الآخر):

قرأ حاجى الشيخ يحيى نائب كرمان لائحة يقول فيها إن مهام المجلس جد كثيرة، لكن بملاحظة الأهم فالأهم، فأننى أرى أن إتمام الدستور من أهم المسائل، لأن الحافظ لهذا المجلس المحترم هو اتحاد العامة واتفاقهم. ومنذ اليوم الذى تم فيه

التباحث حول بعض الفصول صارت هذه المباحثات سببًا فى الاختلافات السيئة، وقدم هذا الأمر سيفًا فى يد المستبدين، وأقسموا بالله جهد أيمانهم بأنهم سيلقون الشبهات والاختلافات بالشكل الذى إذا ما نظرنا فيه بعين الإنصاف لن يكون الاختلاف بهذه الدرجة، ولكان من الممكن أن يتم الإصلاح فى ساعتين لأمر أو لأمرين، وكلما مست الحاجة للتباحث فى المجلس المحترم أعلن رأيى جهرًا، وإذا ما لم تمس الحاجة فأنا أطالب بتشكيل لجنة قانونية على الفور حتى أعرض رأيى عليها، فإصلاح هذا الخلاف وإتمام الدستور من الأهمية بمكان.

– السيد ميرزا محسن:

ما من اعتراض، وإذا ما حدث تأخير فهو بسبب ما قدمه السيد عبد الله من اعتراض على هواه.

– السيد سيد نصر الله:

لا أجد كلمة أعبر بها عن اعتراضى، ما هذا اللغط الذى انتشر فى المدينة؟! الجميع يعلم أن حجج الإسلام يتقدمون على الجميع فى المطالبة بالمجلس، وهذا فقط لتدعيم كلمة الإسلام والإعلاء من شأنها. نعم، إن رفع الظلم وإقرار العدل أمر مرغوب فيه، والأهم من هذا حفظ استقلال الشريعة ومكانتها، ولو أن هذا التغيير يسبب خللاً فى المذهب ولو بمقدار شعرة، فما من شخص مستعد قط لقبول ذلك، وكل من ينسب إلى المجلس المقدس شيئًا يتنافى والشريعة هو مفترٍ ومفسد، ولا شك أن هذه الافتراءات الموجهة من قبل معارضى المجلس كانت داعيًا لانتشار الظلم، ولو قتل ألف شخص فى اليوم فهذا غاية ما فى باب الفسق، لكن الشىء الذى يوجب نقض الأحكام وسن قوانين تتعارض مع الإسلام إنما هو كفر صراح لا سبيل لتحمله، وهذا الحديث مثل لوائح الكفر التى يذيعها المنكرون على لسان المطالبين بالمجلس بين الأهالى، فربما يلحقون الوهن بمقام المجلس المحترم المنيع (والله متم نوره ولو كره المشركون).

- صاحب ميرزا إبراهيم آقا:

لم يحصل المفسدون على أية نتيجة من كل خطة قاموا بها، وهم الآن يتقدمون عن طريق بث الخلاف، لكن ذلك وهم ساذج، ولن ينالوا هدفهم قط من هذا الطريق، لعنة الله على من يخون الإسلام ولو بمقدار شعرة.

وعند هذا الحد أوردنا ما أردنا، وكانا هذان الشخصان (حاجى السيد نصر الله وحاجى ميرزا إبراهيم) من طائفة المطالبين بالقانون، رغم ما كانا يبديانه من ميل إلى الشريعة:

"ليس هناك من هو على استعداد فى هذا التغيير لقبول أى خلل بالمذهب ولو بمقدار شعرة".

فكيف يمكن تدوين الدستور ثانية؟! وكيف يمكن عدم الاكتراث بالشريعة؟! والاعتراف بتساوى الزراد شتى والأرمنى واليهودى مع غيرهم فى الحقوق؟!

"لعنة الله على من يخون الإسلام ولو بمقدار شعرة".

لو أن رعاية الإسلام كانت إلى هذا الحد واجبة، إذن لمَ كانت المطالبة بالنيابية الأوروبية؟! وأى معنى لترجمة دستور فرنسا؟! هل كان هذا الحديث من قبيل الخوف؟

وكان المغفور له طباطبايى حاضرًا فى هذه الجلسة واشترك كذلك فى الحوار – لكن ماذا قال؟!.... "لا ينبغى أن يكترث النواب بهذا الحديث طالما أننا لم نر خيانة من نواب آذربايجان ولن نرى". ولما كانو قد كفّروا تقى زاده وغيره ممن لم يطالبوا بالشريعة، فإن الرجال الأطهار قد دفعوا تلك السمعة السيئة عنهم، ولم يكن فى الإمكان التعاون أكثر من ذلك ولا الحديث عن القانون أكثر من هذا.

ذلك المجلس الذى صمد وتصدى ورد على المطالبين بالشريعة قائلاً: "لو أن الشريعة تفى بتسيير أمور الحياة فأية حاجة تمس للحكم النيابى"؟! وما كان يكنه النواب فى باطنهم لم يستطيعوا البوح به.

خلاصة القول: خمدت ثورة المطالبين بالحرية وحماستها بين أهالى طهران، ووهن أمر الرواد، ولم يفعل السيدان شيئًا، ولم يدرك علماء النجف حقيقة الأمر وهم فى ذلك المكان البعيد، وأحسنوا الظن بحاجى الشيخ فضل الله وتعاونوا معه. وكان واضحًا من كل جانب أن محمد على ميرزا والأتابك سوف يحالفهما التوفيق فى حيلهما وسيتمكنان من إفساد أمر الحكم النيابى بقوة الشريعة.

وذلك الصمود الذى كان يظهر فى تبريز والرشت وغيرهما من المدن، لم تستطع طهران أن تبديه، وكل أمر كان ينتهى بفتنة، وصارت الخشية من حدوث الانقسام فى تلك المدن نفسها، ولم يكن للمطالبين بالحكم النيابى حتى الآن تلك القوة التى يستطيعون بها تنحية الشريعة جانبًا.

حقًا، إن الأحرار فى تبريز كانوا يطالبون فى شجاعة بقانون نيابى أوروبى وكانوا يتحدثون بذلك فى وضوح. وواقع الأمر أن هذا الحديث لم يصدر إلا من قلوب الرواد، وكما أسلفنا، لم يفهم الآخرون ذلك وكانوا يرددونه، ولو كانوا قد فهموه لتردد معظمهم أو اتجه اتجاهًا آخر.

وبلغ الأمر موضعًا حرجًا، وكانت الخشية من التمزق، لكن فى تلك الأثناء أظهر حادث إغارة ابن رحيم خان وقصة إكرام السلطان – التى تلتها فى الحدوث – الخطط التى كان يقوم بها البلاط للإطاحة بالحكم النيابى، ودار الحديث فى اجتماعات المجلس فى هذا الشأن خاصة فى جلسات يومى الخميس والسبت (الأول والثالث من شهر خرداد)، وفى الوقت الذى عبر فيه النواب عن أنفسهم ثارت ثانية ثائرة أهالى طهران، واضطرمت ثانية نيران المطالبة بالحكم النيابى فى قلوبهم، واستمدوا القوة حيال المطالبين بالحكم النيابى، وزال الضرر الذى كان قد مُهد فى طريق الشريعة كما سنوضح من بعد.

قصة إكرام السلطان:

كما رأينا، احتدمت الثورة وزادت الاضطرابات فى تبريز يوم الثلاثاء الثلاثين من أرديبهشت، حيث اشتدت غضبة الأهالى بسبب برقية النواب التى تفيد

بتأخير الدستور، وتفوهوا بحديث شديد اللهجة، وأرسلت الجمعية برقية شديدة اللهجة إلى طهران. وفي يوم الأربعاء وقع هناك حادث عجيب، حادث رفع النقاب دفعة واحدة عن خطط الشاه الدامية، وكيفية ذلك أنه بعد مضى جزء من الليل، كان الناس منتشرين فى مكتب البرق ودار المدفعية، والمجاهدون – الذين كانوا فى تلك الثورة متعهدين بمسئولية حراسة رؤساء الحرية، وكانوا يسيرون دومًا فى تلك النواحى– قد شكوا فى بعض الأشخاص الذين شاهدوهم فى تلك الناحية وفى حوزتهم السلاح. وحينما قبضوا عليهم للتحقيق معهم، أبدى أحدهم صمودًا ويدعى حاجى آقا واتسم بالجرأة والشجاعة، ولم يمهله المجاهدون وقتلوه فى نفس المكان، وقبضوا على شخص آخر يدعى أسد الله، وحينما استجوبوه عُلم أن إكرام السلطان – شقيق حاجب الدولة رئيس خدم الشاه – قدم من طهران إلى تبريز وحرص هؤلاء الأشخاص – الذين كانوا من بنادقة فترة ولاية عهد محمد على ميرزا، وكانوا يتمتعون بجرأة وشجاعة كبيرة – كما حرص غيرهم على قتل رواد الحرية، وقدم لكل منهم بندقية ألمانية الصنع ومائة رصاصة وبعض المال، وقد قدموا إلى مكتب البرق لإنجاز هذا الأمر، ولما أرشد أسد الله عن أحد معاونيه وهو نريمان ابن عمه، انطلق إليه المجاهدون وقتلوه.

وفى الغد، حينما ذاع هذا الخبر، احتدمت الثورة والفتنة فى المدينة، وزادت غضبة الأهالى. ولما كانوا قد قتلوا نريمان وألقوه فى منزله (فى حى چوستد وزان) كان الناس يذهبون إليه فى جماعات للمشاهدة، وقد ذهبت أنا كذلك، وكنت فى ذلك الوقت فى السابعة عشرة من عمرى، مع أحد الأصدقاء، وحينما دخلنا المنزل رأينا شابًا ممتلئًا طويلاً حسن الوجه نائمًا على الأرض، ولم نر شخصًا آخر فى المنزل.

وعلى أثر ذلك الحادث زاد الاحتشاد اليوم فى مكتب البرق ودار المدفعية، وزادت الجلبة والثورة. واليوم، فضلاً عن حادث أسد الله وأتباعه، قدم محمد قلى خان من قره داغ وأنبأ بمعلومات حول إغارة ابن رحيم خان ومذابحه واقترابه من المدينة. وعلم الناس اليوم بهذه القصة التى كانت حتى ذلك اليوم فى طى الخفاء،

وجعلت ثورة الأحرار وغضبتهم لا حدود لها، ورغبت طوائف من المجاهدين في السماح لها بالمبادرة بالقتال في قره داغ، ولم يصل البعض إلى المدينة، وأخذوا على عاتقهم مسئولية جمع البنادق والذخيرة.

وكان زمام المحافظة على المدينة اليوم في يد رجال الدولة من الوالى والبيگلربيگى ورؤساء القرى، لكن لم يكن من الواجب التعاطف معهم، خاصة في ذلك الوقت حيث كانت الدولة تبدى العداء علانية.

واليوم اجتمع نواب آذربايجان ثانية في مكتب البرق، وأرسلت الجمعية البرقية التالية بشأن أسد الله وكذلك فيما يختص بالأنباء التى وصلت عن ضغوط ابن رحيم خان في الإغارة والسلب:

"بوساطة نواب آذربايجان المبجلين إلى مجلس دار الشورى الوطنى شيد الله تعالى أركانه، لقد تم اعتقال أسد الله حفيد حضرة قلى الشهير في مكتب البرق المبارك في منتصف ليلة الأربعاء، وورد في الاستجواب الذى تم البارحة: استدعانى إكرام السلطان، وقال: إنهم عهدوا لى من طهران بأن يُلحق الضرر بالجمعية الوطنية في تبريز بكل وسيلة ممكنة، ووفقًا لما قالوه يجب أن يتم قتل اثنين وعشرين عضوًا من أعضاء الجمعية الوطنية، وعُلم أن كل من يقدم خدمة في هذا الطريق سيصل إلى مقام عالٍ من قبل.... ومهما يكون الحال فلتأت ولتتحصن ولتقتل اثنين من أعضاء الجمعية بالرصاص ولتلق بعدة سهام بين حشود الأهالى، وحينما يتساقط الناس تخلص نفسك. فقلت: إننى لا أملك بندقية. فقدم لى نفس البندقية الألمانية الصنع التى كانت في يدى ومعها مائة رصاصة، كما قدم لى بعض المال. فقلت: ألَنْ أُكلف بعمل آخر؟ فقال: لتطمئن، لقد أعددت ثلاثمائة شخص مثلك وقدمت إليهم الأموال، وحينما يعلو صوت بندقية واحدة في الجمعية سيكون هناك ثلاثمائة شخص مستعدين خلال عشر دقائق، وأخذوا وعدًا منى بأننى أتعهد بالقيام بما عرضه علىّ. هذا وقد جئت إلى الجمعية ومكتب البرق غير مرة ولم أجد الفرصة مواتية، والآن، حيث جئت لإنجاز المقصود تم القبض علىّ، حتى

أننى تقابلت صدفة ليلة أمس الأول فى الحى مع حاجى مهدى آقا وأردت أن أقتله ولم تساعدنى يد القضاء كى أبلغ مرادى، ولأن الله تعالى قد أراد أن يخلص هذا الشعب المظلوم من يد المستبدين لذا فإن كل إجراء يتم من قبل المستبدين لا يفضى إلى نتيجة مثمرة. وإكرام السلطان أخو حاجب الدولة الحالى تم تعيينه من طهران لإنجاز هذه المهمة. ومنذ أيام عرضت عدة برقيات تفيد بأعمال التعدى والقتل والإغارة العامة من قبل ابن رحيم خان ولم يتم منعه، ولم يتم كذلك الاستفسار عن ابن رحيم خان حتى جاء اليوم السبت الفارسى ابن رحيم خان إلى قرية مشك عنبر التى تبعد أربعة فراسخ عن المدينة، وزاد على الفور من فرسانه وقوته، ويقال إن مجلس الشورى الوطنى ينتظر قدوم ابن رحيم خان إلى مدينة تبريز حتى يقر بصحة عرائض الجمعية الوطنية، ويقال إن هذا الأمر هو من نتائج تعاون أولى الأمر فى الدولة لتقدم أهداف مجلس الشورى. نحن فى انتظار الرد الفورى".

(جمعية تبريز الوطنية)

وأرسلوا من طهران الرد التالى:

"اطلعونا بتفصيل الشبهة التى استدعت القبض على أسد الله وكذلك بالإجراءات التى ستنفذ بعد القبض عليه واستجوابه لكشف الحقيقة، وسواء تمت تحقيقات فى هذا الشأن مع إكرام السلطان أو لم تتم، فأخبرونا بمعلوماتكم حول معاونى أسد الله".

(نواب آذربايجان)

وأرسلت الجمعية ثانية البرقية التالية:

"لقد تم القبض على أسد الله أثناء قيامه بجريمة اغتيال، وكان إكرام السلطان منذ عشرة أيام فى حديقة بابا باغى[1] منتظرًا نتيجة إجراءاته وتدابيره، وحينما

---

(١) تقع على بعد فرسخ من المدينة، وكانت مقرًا للصيد خاصًا بولاة العهد.

سمع البارحة بنبأ اعتقال أسد الله امتطى جواده وفر هاربًا، وليست لدينا معلومات مؤكدة حتى الآن عن الجهة التى توجه إليها، والاستجواب الذى تم مع أسد الله هو نفسه الذى تم عرضه، وقدم الآن رفيع الدولة بيگلر بيگى وهو الذى استجوبه بمفرده دون تهديد أو إجبار، وقال إلى المذكور لما كانوا قد قطعوا أسلاك البرق، فقد أخبروا عبر الهاتف بأن ابن رحيم خان يقوم اليوم بكل عمل، وقام الأهالى بالمقاومة أثناء دخوله تلك القصبة وقاموا بجلبة شديدة، وليس معلومًا عدد القتلى والجرحى، وسوف نعرض صراحة بأن ابن رحيم خان قام بما قام به بإشارة من الدولة وبأمر منها، وهو يعتزم الآن دخول تبريز، وهم يريدون أن يقوموا بالمماطلة حتى يبلغوا مرادهم، والشعب المسلح إنما بغرض الهجوم على الفتن وإسكات الشعب".

(جمعية تبريز الوطنية)

واليوم ظهر ستارخان للمرة الأولى بين الأحرار وقام ببعض الأعمال، فعندما عُلم أن إكرام السلطان توجه إلى حديقة بابا باغى خارج المدينة بعد إنجاز مهمته وتحريضه لأسد الله وغيره حتى يترقب النتيجة، استدعت الجمعية أحد الأشخاص حتى يمضى إلى هناك ويقبض عليه ويحضره إلى المدينة، وبادر ستارخان – الذى كان فى هذه الفترة من المجاهدين لكنه لم يكن ذائع الصيت بينهم – بتنفيذ هذه المهمة وتوجه إلى بابا باغى برفقة البعض. وأتذكر جيدًا كيف كان يفتح طريقًا بين الحشد ويمضى من ميدان دار المدفعية مع أتباعه وفى يده بندقية وفى قدمه حذاء حريرى، وكانت هذه هى المرة الأول التى أشاهده فيها، وحينما تعجبت من طلعته الشجاعة وسرعة تصرفه وجرأته فى التحدى، سألت: من هذا؟ وإلى أين يمضى؟ فقالوا: إنه ستارخان من قره داغ يمضى إلى بابا باغى للقبض على إكرام السلطان. لكن سرعان ما علم إكرام السلطان مع بزوغ الفجر باعتقال أسد الله وأتباعه واتجه على الفور إلى طهران حتى لا يلحق به ستارخان ويعود خالى الوفاض.

إلحاح تبريز ثانية:

أثناء تلك الفتنة وذلك الاضطراب كان أحرار تبريز يطالبون ثانية بالدستور، وبسط البعض ألسنته مرة أخرى بمذمة محمد على ميرزا، وكانوا يسعون للإطاحة به، وكان المتحدثون منهم يقولون:

"هل ابن رحيم خان متمردًا حتى يقوم بأعمال القتل والنهب هذه؟! أم أنه مكلف بهذا العمل من قبل الدولة؟!

وكانوا يضغطون على الجمعية والرؤساء، ويقولون:

"إذا ما كان ابن رحيم خان متمردًا، فنحن قادرون على الدفاع عن مدينتنا وعن مواطنينا، فاسمحوا لنا أن نتهيأ للسفر".

وكانوا يقولون:

"حددوا مهام الشعب".

ومنذ اليوم الذى قامت فيه هذه الثورة وتلك الحركة، كان بعض المجاهدين – خاصة من قدم منهم من القوقاز – يعتبرون أن حل الأمر هو الإطاحة بمحمد على ميرزا، وكانت هذه الضغوط لذلك الهدف. لكن نواب الجمعية وبعض رواد الحركة لم يروا المجال مهيأ لمثل هذا الأمر، أو كانت تتملكهم الخشية فحاولوا منع ذلك. واليوم كانوا يقومون بالعراقيل، وأرسلوا البرقية التالية إلى طهران بشأن الدستور لتهدئتهم:

"من السادة نواب آذربايجان المبجلين دام إقبالهم إلى مجلس الشورى شيد الله أركانه، مع أن خاطر أمناء الأمة المبارك يعلم أوضاع تبريز وثورة أهالى هذه المملكة، لكن شدة الاضطراب أجبرت أعضاء الجمعية الوطنية المقدسة على تجديد الحديث وتكراره حتى يأمروا على وجه السرعة بعلاج حال المملكة وشعب آذربايجان. فالثورة تحتدم يومًا بعد يوم ولحظة بعد لحظة، وقام عامة الشعب من

كافة الطبقات التى تتصورونها بالإضراب العام، وبذلوا أقصى جهدهم المادى والروحى لبلوغ الهدف، وقد كسدت سوق التجارة واضطرب أمر الرعية حتى فى الولايات الدنيا وقرى آذربايجان، وهبت العشائر والطوائف فى الأطراف بالثورة والحركة، فهم يصرون على المطالبة بالدستور ويعتزمون دخول المدينة ليتعاونوا مع أهالى تبريز، وما من شاهد أفضل من أن جماعة الأرمن يواسون أهالى آذربايجان فى ألمهم رغم الاختلاف فى الديانة، وقد كتبوا أمس الأول برقية إلى صاحب الجلالة الملك والسادة أمناء دار الشورى العظمى. ونقول فى صراحة إنهم لو يرغبون فى بقاء إيران والحفاظ على أهلها سوف يبادرون بتقديم الحل إزاء هذه الاضطرابات وذلك الهجوم. وأقسم بناموس الإنسانية وأرض الوطن العزيز أنه لو لم يصل نبأ إتمام الدستور إلى أهالى آذربايجان فى الوقت المحدد لا يمكن بأى تدبير قط منع الشعب أو إسكاته، وهذا ما ينبغى عمله بغض النظر عن أى شيء آخر".

(جمعية تبريز الوطنية)

كذلك أرسل أعيان تبريز برقية إلى الأتابك وأطلعوه على ثورة الأهالى وفتنتهم، ووصل الرد التالى من النواب بطهران:

"كما تم عرضه مرارًا، يحتاج توقيع الدستور إلى حل المشاكل المتعلقة به فى المجلس، وهذا ما يستلزم مهلة لعدة أيام، وليس ملاحظًا عدم التعاون من قبل الحكومة فى هذا الشأن، فالوقت لم يحن بعد، والسادة حجج الإسلام دامت بركاتهم يبدون كمال العون باستثناء بعض... ممن يستعرضون الألقاب، وهذا ليس قابلاً للاهتمام والعناية على الإطلاق، لذا نطلب من جميع السادة أمناء المملكة وأعيانها أن يتعاونوا مع الجمعية الوطنية المبجلة ويتم وقف الإضراب الذى لا مبرر له، فهم لا يرتضون كل هذه الخسائر الفادحة على أنفسهم، وفى حالة ما إذا رأى النواب المبجلون الصواب فى هذا الإصرار، فهم لا يقصدون أن يسلبونا هدوء الخاطر

والجسارة اللازمة حتى نوفق فى تنفيذ الخدمات الشاقة، وهم يريحون بالنا من هذا الباب حتى نوفق فى تنفيذ واجباتنا بشكل جاد".

(نواب آذربايجان)

وبعد وصول هذه البرقية عزمت الجمعية على أن تحث الأهالى على فتح الأسواق بكل وسيلة، وكان أن تقدم بعض الوعاظ والأئمة من نواب الجمعية بين الأهالى وجعلوا يتحدثون معهم، وبعد الرجاء والإلحاح عزموا على أنه من الغد أى يوم الخميس يفتح أهل السوق حوانيتهم ويمارسون أعمالهم ويباشرون تجارتهم، لكن العلماء والأعيان والرؤساء لم يغادروا مكتب البرق وكانوا يطلبون الدستور، وفى اللحظات الأخيرة يأتى أهل السوق أيضًا إلى هناك بعد فتح الأسواق وأخبروا النواب فى مكتب البرق بطهران.

واليوم، فضلاً عن نواب آذربايجان، قدم محتشم السلطنة مساعد الأتابك إلى مكتب البرق حتى يبلغ الأتابك بما وصل من رسائل تبريز والمظالم التى تتم فيها، كذلك كان صنيع الدولة رئيس المجلس متواجدًا فى مكتب البرق لسماع المناقشات.

وسُر الجميع من بشرى فتح الأسواق لكنهم لم يريدوا تنفيذ هذه البشرى لأنه فى الوقت الذى كانت تصل فيه هذه البرقية إلى طهران قدم بعض السادة من قره داغ إلى المدينة، وذاعوا فى الناس أنباءً أخرى عن ظلومات ابن رحيم خان وفرسانه وعن الإغارة على القرى وقتل الرجال والتطاول على النساء، كانوا يقولون:

"يقول ابن رحيم خان وأتباعه: سنغير على كل قرية أبدت تأييدها للجمعية وانتخبتها، وسندخل تبريز وندمر الجمعية ونعتقل كل من تواجد هناك ونبعث به إلى طهران".

واستاء الناس ثانية من هذه الأنباء وتلك الرسالة، وعلت صيحاتهم مرة أخرى وتحدث البعض قائلاً:

"مع هذا الحد وسوء النية من قبل العدو، ومع هذا الإصرار فى السعى لإفنائنا، لمَ إذن نفتح الأسواق؟! لن نرتضى أن يكون أخواننا فى الضياع تحت نير الظلم والأذى ونحن نمارس تجارتنا وأعمالنا فى المدينة فى راحة وهناء بال، لن نرتضى أن نخفى رؤوسنا تحت الجليد مثلما يفعل الحكام ونغفل عن العدو ومساعيه".

كان هذا الحديث يدور حتى مضى ردح من الليل، واضطرت الجمعية لأن ترسل البرقية التالية إلى طهران:

"يقوم ابن رحيم خان بشكل متواصل بالإغارة على القرى المحيطة بمعاونة فرسانه وصار على مسافة أربعة فراسخ من المدينة، ويقولون إنه سيدخل تبريز الليلة، وأى حال ستكون عليها المدينة مع دخوله فى أذهانكم؟ إن الأهالى ثائرون لدرجة لا يمكن تخيلها، فهم لا يظنون أن هذه العرائض محض كلام وهراء، فما يتم عرضه فى هذا الشأن لا يتم الرد عليه، وما من حل أو فائدة من الحكومة بسبب عدم الاستعداد، وما هو مطلوب بشكل مؤكد هو السعى فى الحل وتقديم الإجراءات الفورية".

(جمعية تبريز الوطنية)

وعلى هذا النحو مضى يوم كثير الغوغاء على تبريز، وعقدت فى نفس اليوم جلسة من العلماء والأعيان وغيرهم، وقاموا باستجواب أسد الله مرة أخرى، واستفسروا منه عن بعض الأشياء ودونوا ما رد عليهم به، وختم الجميع عليه كى يرسلونه إلى طهران، ومن هذا الاستجواب حصلوا على معلومات أخرى تفيد بسوء نية البلاط، وهذا ما أدى إلى ازدياد غضب الأهالى، واتفقوا فى نفس الليلة على ألا يوافق شخص على فتح الأسواق.

استعدادات تبريز للقتال:

ومن غد تلك الليلة، وما أن أشرقت الشمس، اتجه الأهالى إلى مكتب البرق، وجعلوا يتحدثون منذ بداية ذلك اليوم عن أعمال السلب والنهب التى يقوم بها ابن

رحيم خان، وضغطوا على الجمعية وأرادوا الإذن لإعداد أنفسهم والاتجاه إلى قره داغ، واضطرت الجمعية لإرسال البرقية التالية إلى طهران:

"السادة نواب آذربايجان دام تأييدهم، لقد قرأنا بالأمس برقية السادة الأجلاء فيما يتعلق بفتح الأسواق مع عرض لآرائنا وملاحظة صلاح العامة ورعاية المسائل الأخرى، وكان من المقرر أن يفتح التجار الأسواق لمباشرة تجارتهم وأعمالهم، لكن بعد ساعتين، حيث تشكلت جلسة عظمى من العلماء والأعلام المبجلين والأعيان والأشراف فى حضور أعضاء الجمعية ونوابها بهدف استجواب من يدعى أسد الله، أخفقت المساعى وانصرف العامة عن إيمانهم بفتح الأسواق، واعتبروا قسم إكرام السلطان للنفاذ إلى أساس أمر النيابية المقدس والعمل على إخلاله بما لديه من مقام رفيع فى بلاط الدولة باعثًا لنتائج وخيمة، وليس فى الإمكان التفوه للشعب بكلمة فى هذا الشأن حتى يتم التوقيع على الدستور. ولكى تنتبهوا إلى أهمية الاستجواب وتعلموه بشكل جيد سيتم إرسال ملخص استجواب أسد الله والتقرير الذى أقر فى المجلس فى حضور العلماء الأعلام وسائر الحضور وما تم تدوينه من مناقشات وكذلك أصل الاستجواب عن طريق البريد".

(جمعية تبريز الوطنية)

كما أرسل الأعيان برقية أخرى إلى الأتابك، وتبعًا لرغبة الأهالى أطلعوا طهران على مسودة الاستجواب الخاص بأسد الله برقيًا على النحو التالى:

"السادة نواب آذربايجان دام تأييدهم، بناءً على ما تم عرضه فى البرقية منذ ساعتين تم إرسال صورة من استجواب أسد الله خان بريديًا، ولما كان الشعب رافضًا فيتم عرض الاستجواب المذكور بشكل مختصر، وقد طالبوا بإصرار أن يُعرض استجواب البارحة المذكور كما هو برقيًا، هذا ويتم إدراج لائحة الاستجواب نفسها بتوقيع أعضاء المجلس: بعد العودة وبسبب الحقد (؟) استدعانى إكرام السلطان، وقال: تبحث عن جواد جيد؟ فقلت: سيأتى أهل قراباغ ونشترى منهم. وبعد يومين جاءنى كربلائى محمد خادمه واصطحبنى إلى منزل إكرام

السلطان الذى كان من قبل منزلاً لرحيم خان، وبعد دخول الفناء استدعانى إلى إحدى الغرف، وقال: سأعود إليك فى عمل لا تفشى به إلى شخص، ثم جعلنى أقسم على مصحف كان بجواره، وقال: لا تفشى به لأى شخص قط... يجب قتل هؤلاء الأربعة: ميرزا حسين آقا، الشيخ سليم حاجى، مهدى حاجى ومحمد جعفر مؤمن. ثم سألنى: هل لديك بندقية؟ أجبت: لدى واحدة ماركة "ورندل" وأخرى ماركة "بردانقا". قال: لا يمكنك القيام بشيء بمثل هاتين البندقيتين، ومضى وأحضر بندقية ألمانية الصنع وشريطًا من الذخيرة وأعطانى إياهما ورجع. وترددت يومين متتابعين على مكتب البرق، وحضرت فى اليوم الثالث، فأرسل إلىّ، وقال: لمَ لم تنجز شيئًا؟ فأجبت: إن الوضع فى المدينة مضطرب ولا أعلم مكان هؤلاء الأشخاص على وجه الدقة، اصبر حتى تواتينى الفرصة، قال: إنهم يصرون على المطالبة بالدستور، ويؤكدون علىّ من طهران كذلك كى تنجز عملك بمنتهى السرعة، والآن، حيث انقضى الليل فلتنفذ المهمة، ولتقتل منهم واحدًا على الأقل، وإذا ما استطعت فلتطلق رصاصتين أو ثلاثة فى ميدان المدفعية. ثم جاء وشاهد آقا ميرزا حسين فى ميدان المدفعية كان يسير مع اثنين أو ثلاثة ومعهم مصباح، فتوجه خلفهم، ..وكلما رغبت القيام بعمل منعنى الرعب من تنفيذ ذلك حتى دخل "دربند" وكنت أسير خلفه ورأيت أننى لا أستطيع تنفيذ المهمة فى هذه الليلة، فقلت للخادم: لندع الليلة وأنفذ المهمة غدًا. وفى السويقة رأيت صفى، وأردت أن أقوم بعمل ضد حاجى مهدى آقا فخجلت من نفسى، ورأيته مرة ثانية وندمت على المهمة واتجهت بعد ذلك إلى منزلى. وفى الصباح جاءنى خادم إكرام السلطان، واتجهت أنا وحاجى عبد الله كربلائى محمد إلى المقهى وتناولنا الشاى معًا فقدم لى ما يقدر بخمسة آلاف عملة ذهبية وقال: لقد أرسلها إكرام السلطان، لتأخذها وتنفذ المهمة الليلة ثم أمنحك بعد ذلك كل ما تريد وستقابل اليوم أيضًا إكرام السلطان. وفى العصر مضيت إليه، وقال لى: لمَ لا تنفذ المهمة؟ واضح أنك نادم. قلت: لا أعثر على السادة، فآقا ميرزا حسن ينام منذ يومين فى مكتب البرق، ومكان الشيخ سليم غير معلوم، وأصر بعد ذلك: يجب أن تنجز مهمتك. فجئت ليلة الأربعاء إلى

مكتب البرق وتم القبض عليّ، وكنت قد تقابلت منذ أربع ليال مع إكرام السلطان، وقد صرح لى أثناء حديثه: أننا ذهبنا فى إحدى الليالى مع بعض الأشخاص إلى منزل آقا ميرزا حسين وربما نقتله. (تقى، حاجى آقا، اسماعيل) حديث أسد الله خان ليلة الخميس العاشر من ربيع الآخر، بنفس النسق الذى ورد فى حضور الجمع وبكل وضوح". (على بن موسى، معين التجار، حاجى ميرزا تقى آقا، دبير السلطنة، صادق، رفيع الدولة، بيگلر بيگى، محمد صادق خان بن ساعد الملك، إقبال لشكر، محسن الطباطبائى، آقا السيد رضا، خازن لشكر، جعفر، أمين التجار، بصير السلطنة)

(جمعية تبريز الوطنية)

وبعد فترة وجيزة وصل من طهران الرد التالى:

"بسبب ما لدينا من قلق تم الاستفسار عن الأوضاع، وإلى الآن لم يصلنا الرد، واضطربت الخواطر بشدة، لذا جئنا إلى مكتب البرق للاستفسار، لقد تم اليوم توجيه الإجراءات اللازمة والتأكيدات الواجبة فى المجلس إلى وزارتى الداخلية والحربية، وتم الإعراب عن كل ما يلزم قولاً وكتابة لرفع الغائلة واعتقال رحيم خان وانتزاع الرئاسة منه واستدعاء ابن رحيم خان إلى الوزارتين المذكورتين، وبمراعاة وضع الدولة المتساهل لا يمكن أن يحدونا الأمل فى نتيجة سريعة، لذا فعلى نواب أهالى آذربايجان ألا يغفلوا عن الدفاع عن أرواح أفراد الوطن وأموالهم وشرفهم لحين ظهور نتيجة هذه الإجراءات. ومما لا شك فيه أن المجلس لن يكف حتى اللحظات الأخيرة عن أداء مهامه، ولن يغض الطرف عن تحقيق الرفاهية لأفراد الشعب، ولتطلعوه على إجراءاتكم بشأن الدفاع عن أبناء الوطن والحفاظ على أرواحهم، وعما إذا تمكنتم من إكرام السلطان أم لا، وحينما ينقضى وقت المجلس يُسمح لنا بالانصراف".

(تقى زاده، أحسن الدولة، مستشار الدولة، ميرزا آقا وحاجى ميرزا إبراهيم)

وحينما تليت البرقية السابقة على الأهالى سُروا جميعًا، ولما أُذن لهم بالاستعداد للمحافظة على المدينة قام المجاهدون على الفور بدورهم، ولم يمض طويل زمان حتى اتخذت المدينة شكل الثكنة العسكرية، واستعدت طوائف المجاهدين بالطبول والأبواق وحمر الأعلام، وقدمت الأفواج إلى مكتب البرق ومضت من هناك إلى دار المدفعية ثم إلى ميدان التدريب لتلقى التدريبات اللازمة.

ونتيجة لجهود دامت عدة أشهر، ظهر اليوم على نحو آخر، حيث حلت العروض العسكرية محل الفتن والاضطرابات، ولما قام المجاهدون بهذا العمل اضطر الوالى – نظام الملك – إلى القيام ببعض الأعمال، فقد أرسل – بعلم الجمعية – بعض الأشخاص لتكوين فرقة من القواد ليجلبوا جنودًا إلى المدينة خلال يومين. كما أمر رجال المدفعية – الذين كانوا فى المدينة – بإخراج بنادقهم وأن يكونوا على أهبة الاستعداد، كما استعد فرسان المدينة لحراستها.

وفى ليلة الجمعة، قام المجاهدون بحراسة المدينة، ومن الغد، ومع بزوغ النهار، استمرت العروض العسكرية، وتقدمت المجاميع بالطبول والأبواق والأعلام، ومضى رجال الدين والسادة بالسيوف المشهرة من مكتب البرق ودار المدفعية إلى ميدان التدريب. وفى مكتب البرق كان المغفور له الشيخ سليم، أو آقا ميرزا على أو ميرزا حسين يخطب فيهم، كما كان ميرزا جواد ناطق – الذى عاد من ماكو وأرومى – يخطب فيهم كذلك. وازداد اليوم تعداد المجاهدين أو (جند الشعب)، وازدادت شوكة الطوائف، وظلت هذه العروض حتى اللحظات الأخيرة من الليل.

واليوم وصلت برقية من طهران تفيد "لقد تم التباحث مع وزيرى الداخلية والحربية بشأن ابن رحيم خان، وقد صدرت الأوامر برقيًا إلى نظام الملك وكذلك إلى ابن رحيم خان، لكننا لم نكتف بذلك ونقوم بالتحقيق فى المطالب الأخرى". وطالبوا ثانية فى هذه البرقية بفتح الأسواق فى أسرع وقت. ومن غد يوم السبت

اجتمع الأهالى فى مكتب البرق والمناطق المحيطة به، ولما كانت مهلة العشرة أيام التى طلبها نواب طهران لإنهاء إتمام الدستور قد انتهت، تذرع بعض الأهالى بذلك وزادوا من الجلبة والفتنة، وتجاهلوا البرقيات التى وصلت من النواب بشأن عدم قراءة الدستور المذكور وتأخيره، كما أصروا فى المطالبة بالدستور، ودخل بعضهم إلى حجرات المكتب، وتعاركوا مع رجال مكتب البرق ولم يمنحوهم الفرصة للقيام بشىء.

ولما طال أمر هذه الثورة والجلبة فلت الزمام تدريجيًا من يد الحكماء ووقع فى يد مثيرى الفتن، وظهرت تدريجيًا بعض القلاقل، ومن العجيب أن طائفة الحمالين ومثل هذه النوعية من الفقراء كانوا سعداء بهذا الحدث، وبالرغم من أنهم كانوا بلا عمل وبلا مال، وكانوا يعيشون فى شدة، إلا أنهم لم يرغبوا فى فتح الأسواق. إنهم لم يكونوا على دراية بمفهوم الدستور، وبالرغم من ذلك كانوا يصرون على المطالبة به.

وتليت برقية الأمس الخاصة بالنواب من قبل الجمعية لكنها كانت محل استياء، حيث قام الأهالى بالشغب صائحين: "لن نفتح الأسواق حتى يتم التوقيع على الدستور".

واستمر هذا الشغب حتى الظهيرة، ويمكن القول إن المطالبة بالدستور صارت رغبة تراود أفكار بعض الناس.

أثناء ذلك، كانت الأنباء التى تصل من قره داغ تزيد من ثورة الأهالى، وفى اللحظات الأخيرة أبرقت الجمعية البرقية التالية إلى طهران:

"إلى السادة نواب آذربايجان المبجلين دام تأييدهم، لقد أخبرونا بالأمس عن أعمال القتل والإغارة التى يقوم بها ابن رحيم خان، وصدرت الأحكام اللازمة من قبل وزارة الداخلية إلى حكومة آذربايجان وابن رحيم خان. أولاً: إنه إلى الآن لم يصل من طهران مثل هذا الحكم، إن الأعضاء المبجلين فى دار الشورى العظمى

وكبار المسئولين ينظرون إلى هذه المسألة بنظرة تحقير وكأن الأمر لا يتعدى نزاعًا بين اثنين من الملاك. وتم التباحث لإصلاح الأمر ورفع الغائلة مع وزارتى الداخلية والحربية، وأصدرت وزارة الداخلية الأحكام اللازمة ، هيهات، هيهات، أيها السادة النواب، لقد بلغ تعداد القتلى فى قره داغ على يد ابن رحيم خان مائتى قتيل، وصارت مدينة تبريز كساحة الشيخ عبيد الله مفعمة بالقرويين من الأطراف، وصارت مساجد المحلات مملوءة بالنساء والأطفال والعجزة والمشردين، فأين ما تأمرون به؟ لقد انطلقت جياد ابن رحيم خان حتى بلغت قرية "شيرنجه" على مسافة فرسخ واحد من المدينة، وقام بأعمال الإغارة والقتل، وهو يضاعف من تعداد فرسانه كل حين، ويتشدد فى أعمال القتل والإغارة، روحنا فداء نوابنا، من يُسعد بهذه الأعمال؟ إلامَ تبدون هذا التعقل والتعاون؟ لقد ذهبت أموال المسلمين وأرواحهم وشرفهم أدراج الرياح، لو يكون هذا هو حال المسلم فالتراب على رءوسنا، عجبًا، ألم يتم تحقيق الأمن على الأرواح والأموال لو لم يصل نبأ اعتقال رحيم خان وعزله من رئاسة العشيرة والجند؟ ألم يتم تحقيق الأمن لو لم تصدر الدولة حكمًا صريحًا للقبض على ابن رحيم خان ومجازاته؟! لا نعلم ماذا نقول وماذا سيحدث؟!

(جمعية تبريز الوطنية)

وورد فى كتاب "آبى": "وصلت اليوم رسالة من بيوك خان كانت قد أرسلت إلى نظام الملك تفيد بالإغارة على القرى، وكانت الرغبة فيها أن يأذن نظام الملك كى يأتى بيوك خان إلى المدينة ويطرد الجمعية منها".

وهذا ما لا يمكن تصديقه، فمما لا شك فيه أن تلك الإغارة وذلك التعدى كانا بأمر الدولة، ولا شك أنهم كانوا يريدون إحضار بيوك خان إلى المدينة. وواقع الحال أن هذا لم يتم ذكره فى الصحف، ولم أتذكر أنا شخصيًا مثل هذا، وينبغى القول إنهم كانوا يقومون بذلك خفية وليس جهرًا.

انتفاضة المجلس وآثارها:

كما رأينا، لم يبدِ مجلس الشورى سوى عدم مبالاة إزاء تلك الثورة والجلبة والضجة والحركة التى حدثت منذ أسبوعين فى تبريز وغيرها من المدن، كذلك إزاء تلك البرقيات المتتالية التى تم تبادلها بين تبريز وطهران، وكان يعتبر عمل تبريز هذا بلا داعٍ، ويعرب عن استيائه لتلك الأحداث. لكن قصة ابن رحيم خان، ومن بعدها قصة إكرام السلطان حثتا المجلس على التحرك.

وكيفية ذلك أنه فى يوم الثلاثاء الموافق الثلاثين من أرديبهشت (ربيع الآخر) حيث وصلت الأنباء توًا حول أعمال القتل والإغارة من قبل ابن رحيم خان، كما وصلت برقية الجمعية الأولى إلى نواب آذربايجان التى تفيد بمنع إحضار الغلة والعراك مع رسل الجمعية وقَتْل البعض. وقد تحدث مستشار الدولة عن هذه الأحداث فى المجلس وعقّب عليه كذلك شرف الدولة.

لكن هذه الأحاديث لم تكن ذات تأثير على المجلس ولا على النواب الذين ملأت آذانهم صيحات المظلومين فى شيراز والعراق وقم، واعتبروا هذا الحدث من قبيل الأحداث السالفة ولم يهتموا. وكما ذكرنا، لقد فقد المجلس هيبته وصار جهازًا عاطلاً. وبعد غد الخميس الأول من شهر خرداد (١٠ ربيع الآخر) حيث كانت تتوالى برقيات أخرى من تبريز – سواء كانت تتعلق بمظالم ابن رحيم خان، وسواء كانت تتعلق بظهور إكرام السلطان – عزم نواب آذربايجان على إخفاء قصة إكرام السلطان عن الشاه، لكنهم تباحثوا ثانية بشأن ظلومات ابن رحيم خان. وكما رأينا فى جلسة اليوم، تحدث حاجى شيخ يحيى نائب كرمان عن الدستور، وتحدث بعض النواب عن هذه الأعمال وأظهر الجميع خور المجلس.

بعد ذلك تحدث مستشار الدولة ثانية عن قصة ابن رحيم خان وذكر المعلومات التى وصلت من تبريز، ووضح رغبة أهالى تبريز فى تنحية رحيم خان من رئاسة عشائر بيگى گرى والقبض عليه ومحاكمته بعد الاستجواب.

وعقب حاجى ميرزا إبراهيم آقا عليه قائلاً:

"لو كانت تلك الإغارات والمذابح بأمر الدولة فما الفائدة من ذلك المجلس؟! وإن لم يكن الوضع كذلك فلمَ لم يحققوا مع رحيم خان؟!" فأراد محتشم السلطنة مندوب الأتابك أن يلقى بالجواب؛ فقال: "لا يمكن تصور أن صدور مثل هذا النوع من الأفعال يكون بعلم الدولة، فالعشائر حالها معلوم".

ثم قال:

"إن القائد نصرت يتنصل من الأمر".

وقال ثانية:

"لا شك أن وزارة الداخلية سوف تقوم بإجراء وفقًا لما كلفتموها به".

ونهض حاجى السيد نصر الله، وقال مؤيدًا له:

"إن ساحة الدولة بريئة من هذه الأفعال، ينبغى أن تطلبوا الإصلاح من الدولة قدر الإمكان".

إلا أن إلقاء الحجب على هذا النحو لم يثمر عن شىء وطال الحديث إلى أن تحدث تقى زاده قائلاً:

"إما أن يحل الوزراء هذه المظالم، وإما أن يتنحوا جميعًا عن عملهم".

فقال حاجى خويى إمام الجمعة:

"إن ما يقوله هؤلاء هو ألا نسئ الظن بالدولة، فكيف يحدث هذا؟!.. كل من له أربعة آلاف عشيرة، فإن رحيم خان يغير عليها بكل ما لديه من قوة".

وأدى هذا الحديث عن ابن رحيم خان وإصرار نواب آذربايجان إلى أن قام كل نائب يعرب عن شكواه من إحدى الفتن فى مدن أخرى، وعلى هذا النحو وردت رسائل كثيرة من المظلومين السابقين والجدد. واشتكى وكيل التجار من

اضطراب الأحوال فى خلخال ومن ظلومات شكر الله خان. وتحدث السيد حسين عن مظالم سالار الدولة الذى تولى الأمر حديثًا فى هذه الأثناء. وذكر نواب آخرون اسماء عميد السلطنة تالش وقوام الملك وحاجى آقا محسن. وكان متولى باشى قد قدم إلى طهران ولم تمس الحاجة إلى طلب الإنصاف منه. وسأل النواب حاجى آقا محسن الذى استدعوه إلى طهران وجاء إلى قم من عاد من هناك:

"من منح الدستور حتى يتراجع؟!"

وكانت الشكوى وطلب الإنصاف والمذمة موجهة إلى الأتابك، لأنهم كانوا يعتبرونه هو صاحب الرد على هذه الثورات والمظالم. واليوم هو اليوم الأول الذى أعرب فيه معظم النواب عن استيائهم منه وبسطوا ألسنتهم فى مذمته، وكان محتشم السلطنة يرد على كل شكوى ويقدم الحجج والمعاذير، لكن كل شخص كان يقيم الموقف جيدًا.

وعلى هذا النحو انقضى يوم مثير على المجلس، والجلسة التى بدأت بذلك العجز والوهن انتهت بتلك الحدة والشدة.

أثناء ذلك اجتمع المظلومون من العراق وشيراز من أجل مظالم حاجى آقا محسن وقوام فى بهارستان، واتجه غيرهم من المشاهدين إلى المجلس وكانوا محتشدين ينصتون إلى هذا الحديث، وأعربوا عن تأييدهم لتلك الثورة والحمية.

فى نفس اليوم، حينما انتهى المجلس وتفرق النواب والمشاهدون بقلوب تملؤها الحماسة أشاعوا الخبر فى كل مكان داخل طهران، ورأينا كذلك أن نواب آذربايجان قد أبلغوا تبريز بأحداث المجلس وبالأقوال التى دارت فى وجود مساعى الأتابك، وطلبوا أن تفتح الأسواق، لكن أهالى تبريز رفضوا، وأرسلت الجمعية برقية شديدة اللهجة إلى النواب يوم الجمعة، وأطلعتهم على اندفاع النساء والأطفال فى قره داغ إلى المدينة، وإغارة ابن رحيم خان الذى اقترب من المدينة على مسافة فرسخ واحد، وورد فى هذه البرقية:

"نحن نعلم علامَ يتكل ابن رحيم خان".

وانعقد المجلس فى اللحظات الأخيرة من يوم السبت، وقال صنيع الدولة:

"تبقى الأمور الأخرى، فقد وصلت من تبريز معلومات مهمة، ويلزم أن تتلى فى جلسة خاصة".

قال هذا ونهض مع النواب واتجهوا إلى غرفة أخرى. وهناك حينما تليت برقية تبريز قام النواب بجلبة وبكى كثير منهم، ولم تشاهد مثل هذه الحال فى المجلس حتى ذلك اليوم، كذلك لم يذكروا هناك خبر إكرام السلطان.

واليوم، اتجه حشد كبير من الأهالى (يربو عن الخمسة آلاف) إلى بهارستان، وأثارت أقوال المجلس فى يوم الخميس أهالى طهران واستعدوا للتضامن مع تبريز. ولما رغبوا فى معرفة معلومات حول حقيقة ما حدث ونفذ صبرهم، عاد النواب إلى القاعة وهم ثائرون باكون، وكان بعض المشاهدين يبكون كذلك. وتحدث نواب آذربايجان، وقال ميرزا فضل على:

"فضلاً عن أننا نتستر على الأمر، فإن إخوانكم وأخواتكم فى آذربايجان يعانون تحت قبضة الظلم، فماذا أنتم فاعلون؟!"

ورد حاجى محمد آقا منتحبًا:

"أى ذنب اقترفه أهالى آذربايجان حتى يُقتل منهم مائتان وخمسون وأنتم تنعمون بالراحة هنا؟! والحال كذلك، فلمَ نأتى إلى المجلس ثانية؟!"

فقال تقى زاده منتحبًا:

"إننى لا أملك القدرة على الحديث، فلتبحثوا عن حل لهذا الأمر".

على هذا النحو كانوا يتحدثون، وتم نسيان ذلك الانقسام الذى كان بين النواب، وعم التضامن فيما بينهم، وبعد المشاورات اختاروا أربعة من النواب،

وهم: حاجى نصر الله، مستشار الدولة، حاجى ميرزا إبراهيم آقا وحاجى محمد اسماعيل، ووجهوا بهم إلى البلاط لدى الأتابك كى يطلبوا الرد على ما حدث. وكان الأتابك قد توجه إلى حديقته، واتجه الرسل إلى هناك برفقة محتشم السلطنة، وقابلوا الأتابك وتحدثوا معه عن كيفية ما حدث، وأبدى الأتابك مواساته. وعلى الفور أرسل مخبر السلطنة، ومحتشم السلطنة إلى البلاط لدى محمد على ميرزا كى يطلعوه على ما حدث ويحضروا الرد. وتأخر هؤلاء الأربعة فى العودة، ونفد صبر الأهالى فى بهارستان، واختار المجلس وثوق الدولة وحاجى معين التجار وأرسلهما إلى البلاط، وحينما تأخرا تم اختيار ميرزا محسن والسيد محمد البهبهانى (ابن المغفور له البهبهانى) ووجه بهما، وحينما لم يصل عنهما كذلك أى خبر وجه بحاجى أمين الضرب وآخرين.

وعلى هذا النحو كان يتم إرسال الرسل على التوالى، وحينما انقضت ساعات الليل انعقد المجلس، وكان الأهالى يترقبون الأوضاع فى بهارستان وأرسل محمد على ميرزا أمرًا يتعلق بعزل بيوك خان من رئاسة عشائر بيگرى گرى فى قره داغ، وتنحيته من قيادة الفرسان ووعد بالقبض على رحيم خان. وبعد عدة ساعات عاد الرسل بهذا الأمر وذلك الوعد، لكن المجلس لم يوافق، وقام الأهالى بجلبة شديدة. واقترح المجلس أن يتم الإصرار على طلب ثلاثة أشياء من الشاه، هى:

١- عزل رحيم خان من الأعمال الحكومية والقبض عليه.

٢- عزل ابنه من الأعمال الحكومية.

٣- تحقيق الأمن فى تبريز وإظهار المواساة لأهلها.

وبعد هذه الاقتراحات، ولما كان الليل قد اقترب من منتصفه رغبوا فى التفرق، ولم يعرب الأهالى عن رضاهم وأعاقوا حركتهم، وفى النهاية طلبوا مهلة حتى الغد ومضوا إلى ديارهم.

انتفاضة أهالى طهران لمؤازرة أهالى تبريز:

كان غد يوم الأحد الرابع من شهر خرداد (١٣ ربيع الآخر) من الأيام المثيرة والتاريخية فى طهران، فقد أغلق أهالى طهران الأسواق اليوم تضامنًا مع أهالى تبريز، واتجه الأهالى منذ الصباح فى جماعات إلى بهارستان واحتشدوا حوله، كذلك انعقد المجلس منذ الصباح وأبدى صمودًا تجاه المطالب الثلاثة.

وكانوا يقولون من البلاط على سبيل النفاق إنه بسبب وجود العلماء ونواب آذربايجان وبعض الأعيان، تم التحرى حول الحادث من تبريز، لذا اتجه نواب آذربايجان العشرة وحاجى أمين الضرب وحاجى محمد اسماعيل مع السيدين وابنيهما إلى البلاط واجتمعوا هناك مع إمام الجمعة فى طهران وحاجى الشيخ فضل الله وابنه الشيخ مهدى وظل السلطان ونائب السلطنة وعضد الملك والأتابك والوزراء. وفى البداية، دار حديث مع الأتابك ثم اتجه الجميع إلى مكتب البرق فى قصر گلستان، وتبادلوا الحديث مع أهالى تبريز - سنورد هذا الحديث لاحقًا - وكان المجلس لا يزال منعقدًا وما من نتيجة.

من ناحية أخرى، كان الأهالى يحتشدون فى غرف المجلس وأنحاء حديقة بهارستان والشوارع المحيطة به، وفى كل ركن كان يقف أحد رجال الدين أو أحد الطلاب، أو أحد الشباب ممن سافروا إلى أوروبا، أو أحد الأحرار على منصة عالية ويخطب فى الأهالى، ويتحدث كل منهم بما لديه من معلومات.

واليوم لم يعرف أهالى طهران حدًا لعدائهم ضد محمد على ميرزا، وتفوهوا بكل ما كانوا يعلمونه وبكل ما كانوا يستطيعونه. واليوم تردد على الألسنة اسم والدته "أم الخاقان"، والحديث الذى كان يقال بشأن تلك المرأة منذ ما يربو على الثلاثين عامًا - وهو الحديث الذى لم يكن له أى أساس سوى الظن والتخمين - تردد على الألسنة مرة أخرى. وكان أحد الفضلاء من آذربايجان يعيش فى تلك

الآونة فى طهران، وأحيانًا ما كان يكتب الرسائل إلى حاجى مهدى آقا كوزه كنانى، ويمتدح بعض الأحداث، وقد أثنى على حادث اليوم، ورأيت أنه لمن الأفضل أن أورد فى هذا المقام بعض ما كتبه، يقول:

"كانت الأماكن أسفل القصر وأعلاه والساحة والشوارع تموج بالأهالى مثلما يموج البحر بالأمواج، لدرجة أن إخراج منديل أو علبة سجائر من جيب الرداء كان من الصعوبة بمكان، وقد ضاقت الأنفاس فى ذلك الفضاء الرحب".

كان المتحدثون يقيمون فى كل غرفة، وفى كل مجمع، وفى كل ركن، نفضوا أيديهم عن أرواحهم، وصرحوا بما فى داخلهم... ولنضرب مثلاً ونشير إلى الفقرات التالية:

كان أحد رجال الدين يقول: أيها السادة إذا ما قطع الله أرزاقكم، ستعبدونه؟!... إذا ما دعاكم رسول إلى طريق الضلال بدلاً من الطريق المستقيم، ستقبلونه رسولاً؟ قالوا: لا. فقال: لو يكون الشاه مستبدًا وجائرًا ومخلاً لراحة الرعية وساعيًا لفساد أمرها، هل تعتبرونه ملكًا؟!.. قالوا: لا. قال: لعلكم لا تدرون أن الشاه نفسه هو الذى يقوم بحث ابن رحيم خان كى يلحق أذى الدهر على آذربايجان؟... فصاح الأهالى: نحن لا نريد مثل هذا الملك قط.

ورفع أحد الأفراد المتأثرين بالإفرنج نظارته، ووقف، وقص حكاية الملك لويس السادس عشر من أولها إلى آخرها، وحينما بلغ حديثه إلى نقطة أنهم أدانوه بسبعين تهمة وقطعوا رأسه هو وزوجته، قال الأهالى: إنها ليست فرنسا بل إيران، إنه ليس لويس السادس عشر بل محمد على شاه، نحن على استعداد لمحاكمته.

ووقف أحد الطلاب، وقال: أيها السادة، أتعلمون ما الذى تكبدناه طوال هذه الفترة على يد الملوك القاجار؟! ثم تحدث عن فتح على شاه ومحمد شاه، وحينما

حل الدور على ناصر الدين شاه علت الصيحات من كل مكان " اللهم املأ قبره نارًا"، ثم ترحم على مظفر الدين شاه ودعا له، ثم قال فى النهاية: نحن الآن نعانى من قبضة أحد الخبثاء. وعلت الأصوات دفعة واحدة "نحن لا نريد مثل هذا الملك، نحن لا نريد ابن أم الخاقان".

ونهض أحد السادة قائلاً: أتعلمون الفرق بين الميت والحى؟!... إن الميت لا يستشعر الألم، فهو لا يشعر إذا ما قطعوا يده أو أحد أعضائه، لكن الحى يتألم، ثم قال: نحن الإيرانيين كنا موتى، لكننا أصبحنا أحياء، ودبت الروح فى أبداننا، إنهم يغيرون على إخواننا فى آذربايجان ويقتلونهم وكأنهم يقطعون أيدينا ويسملون أعيننا، لا ينبغى علينا تحمل ذلك.

وقال ميرزا أحمد خان: نحن نريد من الشاه أمرين، أولهما أن يبادر كلما أمكن باسترضاء تبريز. والآخر أن يعهد إلينا برحيم خان حتى نقوم بشنقه أمام قصره هذا وإلا يجب أن يُشنق الملك. وعلت الأصوات تقول: هذا هو الكلام.

وفى طهران كانت توجد إحدى وعشرون مدرسة حديثة، وجاء تلاميذها جميعهم بأعلام خاصة، واصطف كل منهم فى ناحية، وجعلوا يتلون الخطب. ورفع طفل يبلغ من العمر اثنى عشر عامًا رأسه، ووجه حديثه إلى النواب الذين كانوا فى القاعة العليا قائلاً: يا نواب الأمة، يا ساداتنا، أنتم لا تقولون إننا ضيعنا عمرنا وانتهى الأمر، ففى النهاية نحن صغار، ولا يصدر منا شيء قط، نستحلفكم بالله ألا تدعونا فى قبضة الاستبداد، ولتفكروا فى مستقبلنا. وبكت جماعة دفعة واحدة لدرجة أن صياحهم كان وكأنهم فى يوم عاشوراء...

إلى هنا كانت كتابات الآذربايجانى، وعلى هذا النحو قضى الأهالى يومهم فى إلقاء الأحاديث والصياح والشكوى والبكاء، وكانوا يترقبون عودة السيدين ونواب آذربايجان من البلاط.

نفاق البلاط:

من ناحية أخرى كان السيدان ونواب الأتابك وغيرهم يتبادلون الحديث مع تبريز، واستدعى الأتابك نظام الملك والى آذربايجان إلى مكتب البرق، وأرسل إليه البرقية التالية:

"سيادة المستطاب الأجل الأكرم الأفخم السيد نظام الملك دام إقباله العالى. لقد وصلت هذه الأيام أنباء مؤسفة من آذربايجان، ويتضح مما كتب فى البرقيات التى وصلت من جمعية آذربايجان إلى النواب هنا أن أعمال ابن رحيم خان فى القتل والإغارة كانت باعثًا لإثارة الرأى العام، وهذه الأعمال قد أفضت إلى تغيير خاطر صاحب الجلالة بشدة، كما أدت إلى قلق أولى الأمر فى الدولة. هذا وقد حضرنا اليوم فى وجود السادة حجج الإسلام ونواب آذربايجان المبجلين إلى مكتب البرق بگلستان كى نتحقق أولاً: من حقيقة الحادث فى وجود نواب جمعية آذربايجان، وندرك ماهية هذا ومعنى ما ذاع عن أعمال القتل والإغارة، وأين يكون ابن رحيم خان الآن، وكيف وقعت هذه الأحداث؟ ولا شك أنكم ستبرقون على الفور إلى الأطراف بتفصيل ما حدث. ثانيًا: لما كنت حاكمًا للولاية ومسئولاً عن النظام فيها، فلتقم بالإجراء اللازم لرفع هذه الغائلة والقضاء على هذا الفساد أو تأخذ الأوامر من دار الخلافة وتنفذ كل ما يقر فيها، ولتطمئن السادة والأهالى بأن صاحب الجلالة الملك يبغى دومًا راحة رعاياه، وكل من يقوم بإجراء يدعو إلى إثارة الفتن وسلب الأمن سيلحق به الجزاء الرادع، ولا يكون قط لدى أهالى آذربايجان وأعضاء جمعيتها أى تصور غير هذا، وليتأكدوا أن وقت أولى الأمر فى الدولة يصرف فى راحة الرعية وأمنها، وسوف تُشاهد النتائج الخيرة لذلك بإذنه تعالى".

(الأتابك الأعظم)

كذلك أطلع نواب آذربايجان نواب جمعية تبريز ورؤساء الحرية على تواجدهم فى مكتب البرق بگلستان بصحبة السيدين وغيرهما، وأوقفوهم على ما كانوا يبغونه.

ومن تبريز قام نظام الملك بالرد، وأوضح كل الأمور الخاصة بإغارة ابن رحيم خان واستياء الأهالى منها، فأصدر الأتابك الأمر التالى بشأن ابن رحيم خان:

"إن ما قيل بشأن ابن رحيم خان وأعماله التى ذكرتموها ليدعو إلى العجب، ووفقًا لما أصدره صاحب الجلالة أرواحنا فداه يتم عزل ابن رحيم خان من رئاسة العشيرة والفرسان، ويجب أن يتم إرسال ذلك برقيًا إلى رؤساء القرى والأماكن اللازمة، وعليكم أن تعدوا رئيسًا للعشيرة والفرسان بالشكل الذى يتراءى لكم، ولما كان تحقيق النظام فى آذربايجان فى عهدتكم، ولما كان جيش آذربايجان يمد يد العون دومًا إلى الأماكن الأخرى، لذا لا يمكن القول إنه يحتاج إلى مساعدة خارجية، ولتقم بالإجراءات اللازمة لتفريق هؤلاء الأشرار والقضاء على الفتن وتحقيق الاستقرار بأسرع ما يمكن حتى يستتب الأمن فى الولاية وتنعم الرعية بالراحة ويثنى الأهالى على أولى الأمر فى الدولة. هذا وقد قبضتم على رحيم خان فى دار الخلافة، وقمتم باستدعاء ابنه إلى تبريز وتم الزج به فى السجن، وعليه فلترسلوا التفاصيل الخاصة بأعمال القتل والإغارة فى تقرير مفصل كى يتم عرضه والبت فيه".

(الأتابك الأعظم)

واقترح نظام الملك أن يحل كريم خان رشيد الدولة - ابن عم رحيم خان - محله فى رئاسة عشيرة بيگى گرى فى قره داغ وقيادة الفرسان هناك، وتم قبول الاقتراح من طهران، ووعدوا بإرسال رشيد الدولة فى أسرع وقت.

ونتيجة هذه الأحاديث جهز نظام الملك جيشًا بشكل سريع، وأرسله إلى بيوك خان فى قره داغ – وسوف نورد ذلك لاحقًا – لكن، كما ذكرنا، لم يكن هذا إلا من قبيل النفاق، وحقيقة الحال أن محمد على ميرزا كان يفتقد القدرة على الصمود أمام الأهالى، واضطر لمنع ابن رحيم خان عما كان يرتكبه من أفعال. والحقيقة أن البلاط كان يخطط منذ شهر للإطاحة بالحياة النيابية والمجلس عن طريق إلقاء سهمى المشروطة والمشروعة بين رجال الدين ثم إلقائهما بين الأهالى عن طريق رجال الدين، وبهذا يلحق الوهن بالمجلس، وفى الوقت نفسه يقوم فى طهران بإغلاق المجلس بيد القوزاق وفرسان رحيم خان والجماعات الأخرى، ويقبض على الرؤساء المطالبين بالحياة النيابية. ومن ناحية أخرى يرسل ابن رحيم خان فى آذربايجان مع فرسان قره داغ إلى تبريز ويغلق الجمعية هناك ويتم القبض على الرواد.

هذه هى الخطة التى رسمت منذ بداية وصول الأتابك، وكما يتضح منها، كانوا يريدون إنجاز هذه الخطة فى الثلاثين أو الحادى والثلاثين من أرديبهشت (٨ أو ٩ ربيع الآخر) لكن حالت بعض الأمور دون تحقيق ذلك، منها:

١- نهضة أهالى تبريز ويقظتهم واستعدادهم. فكما ذكرنا، كان أهالى تبريز يسيئون الظن فى الدولة، أثناء ذلك لم يكن معلومًا من أى طريق علم بعض نواب آذربايجان بمثل هذه الخطة، فكتبوا الرسائل، وأطلعوا أهالى تبريز وحثوهم على تلك النهضة. ومع أن نهضة أهالى تبريز كانت باسم المطالبة بالقانون، وسوء الظن الذى كان لديهم لم يكن يدور إلا حول ذلك القانون، إلا أن نهضتهم كانت ذات فائدة، حيث كانوا يقظى وعلى وعى جيد ولم يتم خداعهم.

٢- نهضة سالار الدولة التى حدثت فى نفس التوقيت. فقد هب ذلك الأمير المتهور – سنورد قصته فيما بعد – للمطالبة بالتاج والعرش، وكما سنرى، لم يتمكن

من القيام بشيء، إلا أن نهضته أدخلت الرعب فى قلب محمد على ميرزا وأفسدت مخططه.

٣- النهضة الجماعية لطهران وصمود دار الشورى. وهذا الضغط وذلك الصمود مما اضطره للكف عن مخططه دفعة واحدة، وإعادة ابن رحيم خان إلى مكانه.

وعُلم الآن أن نهضة تبريز تلك، وجلبة ما يربو على العشرين يومًا لأهالى تبريز وثورتهم، وتلك الاستعدادات التى أبداها الأحرار هناك كانت جميعها فى محلها. ونواب آذربايجان الذين كانوا يعربون عن استيائهم برقيًا بسبب ثورة أهالى تبريز، عادوا الآن يكتبون رسائل الثناء ويمتدحون الحادث.

حقًا، لقد أحبطت الخطة بسبب هذه الأحداث، ويجب الآن إعادة بيوك خان إلى مكانه، ولإخفاء ذلك تم عزل رحيم خان من منصبه، إلا أن الأهالى لم يرتضوا بهذا القدر حيث كانوا يرغبون فى حبس رحيم خان، بل وشنقه، وهذا ما كان ثقيلاً على محمد على ميرزا، وكان يبدى صمودًا إزاء ذلك.

وحينما انتهت المباحثات بين نظام الملك ورؤساء تبريز، وعاد السيدان ونواب آذربايجان إلى المجلس، أسرع الأتابك بالمضى إلى الشاه كى يطلعه على النتائج، وكانوا يترقبون الأوضاع حتى اللحظات الأخيرة بينما كان الأهالى – كما سنرى – يكشفون الحقائق. وعندئذ قدم حاجى محتشم السلطنة وأطلعهم بأن الشاه قد أصدر أمرًا باعتقال رحيم خان وهو الآن قيد الحبس فى نقطة الحراسة، ولم يرتض المجلس ذلك، وطالب بإحضاره إلى المحكمة والتحفظ عليه مقيدًا بالأغلال مثله مثل غيره من المذنبين. ولم يخضع محمد على ميرزا لذلك. وفى تلك الأثناء كان حاجى محتشم السلطنة وحاجى مخبر السلطنة يقومان بالوساطة بين الجانبين. كما كان كل من ظل السلطان والأتابك يقومان بالوساطة، الأول من قبيل مواساته للأحرار، والآخر من قبيل النفاق.

من ناحية أخرى زاد الأهالى من ثورتهم وجلبتهم فى بهارستان والمناطق المحيطة به مطالبين بإحضار رحيم خان وشنقه. كما دار الحديث عن حكايات آصف الدولة، وقوام الملك وحاجى آقا محسن ورغبوا فى أخذهم بالعقاب، كما كانوا يطالبون بالدستور.

وفى طهران، ظهر اليوم الوعاظ والخطباء كذلك من أمثال السيد محمد رفيع والشيخ على زرندى وغيرهما، وكانوا يلقون الأحاديث تباعًا.

وليلاً، انتهت جلبة الأهالى بتقدم تقى زاده بداية ثم طباطبائى أمام النافذة فى محاولة منهما لمنع الجلبة، وجعلا يقدمان النصح للأهالى.

ومن الأحداث الأخرى التى تمت فى ذاك الوقت أن الغد (١٤ ربيع الآخر) كان يوم مولد محمد على ميرزا، وكان عليهم إشعال المصابيح والألعاب النارية ليلاً والقيام بتزيين المدينة، ووسط هذه الجلبة لم يرتض الأهالى ذلك، وقالوا علانية:

"لا يُعلم حتى الآن أن هذا هو الملك أم لا".

وحالوا دون إشعال الألعاب النارية من قبل رجال الدولة ليلاً.

وعلى هذا النحو انتهى اليوم، ولما كان الليل قد انتصف دون نتيجة، عاد أعضاء المجلس الأهالى إلى ديارهم على أن يعودوا فى الغد.

قبول محمد على ميرزا لمطالب الشعب:

وفى غد يوم الإثنين انعقدت جلسة من النواب فى منزل صنيع الدولة، وحضر فرمان فرما من قبل الشاه، وكان يطالب بالتحفظ على رحيم خان فى منزل حاجب الدولة دون قيود أو أغلال، ولم يرتض النواب ذلك وأبدوا صمودًا فيما يطلبون، وحينما انقضت الجلسة توجهوا صوب المجلس.

واليوم احتشد الناس – مثلما كانوا بالأمس – فى بهارستان وما حوله وقاموا بالجلبة والضجة، واضطر محمد على ميرزا إلى الخضوع لمطالب المجلس. وعصرًا، جاء فرمان فرما ومحتشم السلطنة إلى المجلس وأحضرا أمرًا من قبل محمد على ميرزا يقترب فى معناه مما يلى:

"فرمان فرما، لقد عهدنا إليكم بأمر رحيم خان فلتتحفظ عليه مقيدًا ولا تدعه يهرب".

وقالوا إرضاءً للأهالى:

"إن رحيم خان مقيد الآن فى المحكمة".

ولم يصدق البعض هذا الحديث، وأسرعوا إلى مقر المحكمة، وشاهدوا رحيم خان فى القيد ثم عادوا.

فى تلك الأثناء قدم المغفور له طباطبائى أمام الأهالى وتحدث إليهم قائلاً:

"طالما أن الدولة تعاونت معنا فما من مبرر الآن لإغلاق الأسواق، فلتمضوا، ولتفتحوا الأسواق، واستبشروا خيرًا فيما يتعلق بإتمام الدستور".

وأطاع الأهالى السيد، وتفرقوا وفتحوا الأسواق.

من ناحية، دار فى المجلس حديث حول احتفالات ذلك اليوم، وأراد النواب أن يخطوا خطوة فى سبيل استرضاء الشاه، وانتخبوا بعض الأشخاص ووجهوا بهم إلى البلاط لتقديم التهانى (بمولد الشاه). ومن ناحية أخرى أصدروا الأمر إلى أهل السوق كى يشعلوا المصابيح الليلة عوضًا عن الليلة السابقة.

وعلى هذا النحو انتهى الصراع ثانية بهزيمة البلاط، فبعد حادث شهر بهمن، كانت هذه هى المرة الثانية التى ينشب فيها العراك بين البلاط والمجلس وينتهى بظفر المجلس.

وذاع صيت نهضة طهران تلك لمساندة تبريز فى المدن الأخرى، وكذلك الكتابات التى دونوها فى صحف "الحبل المتين" و"صور اسرافيل" وغيرهما باسم "الحداد" و"العويل" والتى كانت موجهة إلى قتلى قره داغ (أو وفقًا لقولهم إلى شهداء آذربايجان)، وتم إغلاق الأسواق فى كثير من البقاع تحت مسمى إقامة مراسم الحداد وأقاموا مراسم ختم القرآن فى المساجد.

وفى الرشت، وبمجرد أن وصلت صحف طهران إليها، مر التبريزيون فى الأسواق باكين نائحين، وجاءوا إلى الجمعية وهم على هذه الحال، وجلسوا أرضًا وجعلوا يبكون. وأغلق أهل السوق كذلك الحوانيت وأسرعوا إلى مقر الجمعية وأقاموا الخيام حولها، كما أقاموا مراسم ختم القرآن لمدة ثلاثة أيام.

بعد ذلك أقام الأرمن مراسم الحداد فى الكنيسة، ومن بعدهم أقام التلاميذ مراسم ختم القرآن. وعلى هذا النحو قضوا أسبوعًا فى البكاء والحداد، وكانوا يسوقون الأحاديث ويبرقون إلى طهران وتبريز.

وفى قزوين أغلقوا الأسواق كذلك، وأقاموا مراسم ختم القرآن فى المسجد.

من ناحية أخرى، اضطر محمد على ميرزا - بسبب هذه النهضة - إلى إظهار أسفه على أعمال ابن رحيم خان، ووصفه بأنه متمرد عاصٍ. وكما ذكرنا، أمر الأتابك فى برقيته إلى نظام الملك أن يتتبعه ويقبض عليه، وأمر نظام الملك نقى خان رشيد الملك – حاكم أردبيل – برقيًا بأن يسرع بالتوجه إلى قره داغ برفقة الفرسان الذين جمعهم من قوات الشاهسون وغيرهم، ويقتفى أثر بيوك خان، كما أمر الأمير مقتدر الدولة كى يشكل جيشًا من جند وفرسان المدينة وما حولها ويتجه به إلى قره داغ.

وسرعان ما وصل نقى خان إلى قره داغ، أما مقتدر الدولة – الذى كان قد أعد جيشًا بمساعدة الجمعية ونظام الملك – فقد نصب الخيام يوم السبت العاشر من شهر خرداد (١٩ ربيع الآخر) بالقرب من محلة آجى، وانضم إليه شجاع نظام

مرندى وفرسانه. إلا أن الحاجة لم تكن ماسة إليهم، فبمجرد أن تغيرت الخطة وتم القبض على رحيم خان، كف بيوك خان عن أعمال السلب والإغارة وفر إلى ضيعته، وتفرق الفرسان من حوله، وخشى الحاج فرامرز خان وضرغام نظام – اللذان كانا يتعاونان معه بفرسانهما – وأرسلا رسالة إلى الجمعية بوساطة شجاع نظام يطلبان فيها الصفح والعفو. وكتبوا ردًا من الجمعية مفاده:

"إذا ما أعادا ما سلباه من الضياع إلى مالكيها، وعملا على استرضاء المظلومين، وانضما إلى جيش مقتدر الدولة، سيتم الصفح عما اقترفاه من جرائم".

وعلى هذا النحو انتهت فتنة ابن رحيم خان.

فى هذه الأيام وقعت فى طهران حادثة مثيرة للضحك. وكيفية ذلك أنه تم ذات يوم مشاهدة إعلان تم لصقه فى ميدان المدفعية، كُتب عليه:

"الترك مستعدون لإشعال المصابيح يوم الإثنين فى مسجد سراج الملك".

ووقع الأهالى فى الدهشة، ولم يعلموا ما هذا الذى تم لصقه، وما الهدف من ورائه؟!

وأيا ما كان الأمر، ففى يوم الاثنين (يقال إنه نفس يوم الاثنين الموافق الخامس من خرداد الذى فتحت فيه الأسواق عصرًا) توجه البعض من أهالى آذربايجان إلى مسجد سراج الملك للوقوف على ماهية الأمر، وعُلم أن القائد والرائد هو ميرزا رحيم فالچى التبريزى، وأن جماعة قد اجتمعت حوله تتألف مما يقرب من مائة وخمسين فردًا من أهالى آذربايجان المغمورين من قدامى جند حمقان وآرونق ممن كانوا يعملون فى طهران فى الشئون المالية، وكذلك من فراشى البلاط وخدام حاجب الدولة ومن أشبه، وقاموا بالاستفسار عن ميرزا رحيم، وكان يقول:

"إن هدفنا هو الوحدة وإبداء الغيرة، ومن الآن وصاعدًا يجب أن نطلق الرصاص على كل من يتفوه بشيء غير لائق من خلفنا، وهذا أيضًا ما سيلحق بكل من يهين علماءنا. حسنًا، إن حاجى ميرزا حسن آقا هو مجتهدنا، وقد حضر إلى هذه المدينة، فلمَ لا يتخذه أى شخص إمامًا؟!.. لمَ لمْ نمض للقائه؟! إن بعض نواب تبريز ينتمون جهارًا إلى البابية ولا دين لهم، لمَ لا نقوم بمعاقبتهم؟!... أية عدم حميةٍ هذه حتى يقتل العراقى طفلاً تركيًا ويواريه؟!... ما الذى حدث لحميتكم التركية؟!...."

وعُلم أن رجال البلاط يريدون – مثلما كان فى عهد الاستبداد – إلقاء العداء والمنافسة بين العراقيين والآذربايجانيين، وحث الأوباش على النزاع تحت مسمى التركى والفارسى، واختاروا ميرزا رحيم فالچى المخادع لهذه المهمة، وقدمت هذه الحكاية المجال فى يد مطلقى النكات، وقامت بعض الصحف بإطلاق المزاح حولها.

قدوم ميرزا آقا الأصفهانى إلى تبريز:

عم الهدوء مدينة طهران منذ يوم الثلاثاء السادس من شهر خرداد (١٥ ربيع الآخر) وباشر المجلس – الذى استمد قوة من تلك الأحداث الأخيرة – أعماله، لكن الثورة فى تبريز كانت لا تزال قائمة. ففى يوم الاثنين، وبعد حبس رحيم خان، جاء نواب آذربايجان إلى مكتب البرق، وأفصحوا عن حقيقة الحال، وطالبوا ثانية بفتح الأسواق وعودة الأهالى لمباشرة أعمالهم، لكن أهالى تبريز لم يرتضوا ذلك، ورغم أنهم تخلوا عن القيام بأعمالهم لمدة ستة عشر يومًا وألحقت بهم خسائر عديدة نتيجة لذلك، إلا أنهم أبدوا صمودًا فى ردهم على طهران، حيث قالوا:

"لن نغادر مكتب البرق حتى وصول الدستور من طهران".

وعلى هذا النحو كان اجتماعهم فى مكتب البرق وكانت جلبتهم وثورتهم اليومية.

وطلب نظام الملك أن يقيموا الاحتفالات بمناسبة مولد محمد على ميرزا لكن القادة رفضوا، ولم يقبلوا أن يقيم رجال الدولة الاحتفالات وإشعال المصابيح وإطلاق المدافع، وحالوا دون حدوث ذلك.

فى نفس هذه الأيام بدر عمل سيئ من قبل أهالى تبريز وهو إحضار ميرزا آقا الأصفهانى – الذى تم طرده فى ذلك العهد من اسطنبول – إلى تبريز، لقد سمع أهالى تبريز اسمه بين رواد الحياة النيابية، وكانوا – إلى حد ما – على علم بحكاية طرده من طهران وترحيله إلى كلاة أثناء تولى عين الدولة منصب الصدارة العظمى، لذا كانوا يقدرونه أيما تقدير، ولما قيل إن ميرزا رضا خان أرفع الدولة سفير إيران هو الذى حث على طرده من اسطنبول، وفى ظل العداء الذى كان يكنه الأحرار جميعًا إلى أرفع الدولة الذى كانوا يعتبرونه من مؤيدى الروس ومن المسيئين لإيران، لهذا كله زاد تقديرهم لميرزا آقا وظنوه واحدًا من رجال العالم الأحرار. ولما كانت الثورة فى ذلك الوقت على أشدها وخرج زمام القدرة عن الإدراك، بالغوا فى استقباله والدفاع عنه، وفى اليوم الذى وصل فيه إلى تبريز عن طريق مرند وصوفيان (يقال إنه فى الحادى عشر من خرداد) بادر النواب ورؤساء الحرية وحشد من الأحرار ومجاميع الشعب لاستقباله على مشارف كوبرى آجى وأدخلوه المدينة فى استقبال حار. ولم يتم الاكتفاء بذلك، فقد التفوا حول شخص غير محنك مغمور، وأفسحوا له مكانًا فى الجمعية وفتح الجميع آذانهم لمعسول حديثه، وسوف نرى كيف أنهم ندموا على مثل هذا السلوك.

وكانت إحدى سذاجات هذه الفترة هذا الميل لمثل ذلك الشخص. حقيقة أن طائفة كبيرة سعت إلى الحرية، وكانت هى غاية طموحهم، لذا مجرد أن رأوا شخصًا متضامنًا معهم فى هذا المسعى عقدوا الأمل على ذكائه وعلمه، ومالوا إليه بشدة، ومن فرط سذاجتهم لم يشكوا فى خداعه ونفاقه.

ونرى مثالاً آخر عندما دوّن طالبوف كتابًا، فقد منحوه ذلك التقدير واختاروا نيابته حتى دون علمه، وظلوا لفترة طويلة يترقبون قدومه، وكانوا يكتبون الرسائل إليه، ورغم أن طالبوف كان يبدى استياءه من الأفكار البالية ومن مطالب النيابيين الإيرانيين فى ذلك العهد، إلا أنهم اعتبروه أحد الرواد ذوى الشأن، وكانوا يأملون قدومه.

كما منحوا ميرزا ملكم خان مقامًا رفيعًا وكثيرًا ما ذكروا اسمه بكل احترام، وكانوا يقدرون رسائله أيما تقدير.

كما أطلقوا على سعد الدولة – رغم قلة خبرته وعدم تعلقه بالحياة النيابية – لقب أبى الملة، ومنحوه مكانة سامية، وحينما تنحى عن نيابة تبريز والرشت أبرقوا إليه غير مرة يستفسرون منه عن الباعث وراء ذلك، وهذا كله من فرط سذاجتهم وتعلقهم الشديد بالحياة النيابية والحرية.

هذا وقد اشتد وضع الخبز فى تبريز خلال تلك الأيام، واضطرت الجمعية من ناحية إلى الضغط على المحتكرين وطلب الغلة منهم، ولما كان أحد هؤلاء المحتكرين فى آذربايجان هو محمد على ميرزا نفسه والآخر هو زوجته، فقد اشتدوا كذلك على مندوبيهما، وكان محمد على ميرزا قد قام بالتخزين هنا، فأمر الأتابك نظام الدولة بإحضار الغلة إلى المدينة وبيعها بالتسعيرة اليومية، كذلك وصل مثل هذا الأمر من زوجة الشاه إلى مندوبها.

وفى يوم الثلاثاء الثالث عشر من خرداد (٢٢ ربيع الآخر) قدم حاجى فرامرز خان وضرغام نظام إلى معسكر مقتدر الدولة، واجتمعوا تحت المدافع، وتوجه نواب الجمعية وبعض الرؤساء إلى المعسكر وحذروهم وأخرجوهم من تحت المدافع، ولم تقبل جماعة من المحنكين هذا، وكانوا يقولون:

"إنهم أراقوا دماء الأبرياء، وأبدوا العداء للشعب، ويجب أن ينالوا عقابهم".

لكن ظنت جماعة من النواب وغيرهم من خور فكرهم أن الشاه والأتابك يتعاونان بحق، وما كانا يريدانه هو غض الطرف عن أحداث الماضى والتغاضى عن جرائمهما وجرائم أتباعهما.

ومن سذاجات ذلك العهد أن المذنبين كانوا يدخلون من باب الصفح ويطالبون بالعفو، لذا كانوا يغضون الطرف عنهم، بل وانخدعوا بمعسول حديثهم، وظنوهم مؤيدين لهم. وهذا العمل الذى بدر عن أشخاص يتولون أزمة أمور الشعب هو عمل غير لائق بحق.

وبهذا الأمل أخرجوا هذين الشخصين من تحت المدافع، وأدخلوهما المدينة ليلاً وهم سعداء، وفى نفس الليلة وصلت برقية من أرومى مفادها أن الأهالى هناك انقسموا إلى فريقين، فريق يؤيد مجد السلطنة، والآخر يسىء الظن به، وأن الصراع احتدم بين الفريقين واضطر مجد السلطنة إلى مغادرة المدينة والتوجه إلى ضيعته، لكن الجلبة لا تزال قائمة فى المدينة لدرجة تأذى لها القنصل الروسى وطالب الدولة بتحقيق الأمن.

وانتفض الرواد من هذه الأنباء، وتبادلوا النقاش قليلاً فى هذا الشأن، إلا أنهم أرجأوا نتيجة المباحثات إلى الغد بسبب عدم وجود بعض النواب، وحينما رغبوا فى التفرق، وصلت برقيات أخرى تنبئ بأحداث ماكو (كما سنرى من بعد).

واستاء الجميع من هذه البرقيات، فلم تكن مأساة قره داغ قد انتهت حتى ظهرت مأساة أخرى أشد وطأة فى ماكو، ولم يكن ابن رحيم خان قد رحل حتى حل محله إقبال السلطنة، وأوضح هذا الحادث تحدى البلاط وإصراره على العداء للحياة النيابية.

وفى نفس الليلة، استدعوا نواب آذربايجان فى طهران إلى مكتب البرق وأوقفوهم على حقيقة ما حدث، ووعد النواب بمناقشة الحادث فى الغد فى دار الشورى. وبهذا الوعد غادروا مكتب البرق وتفرقوا بقلوب مفعمة بالأسى وتوجهوا إلى ديارهم.

مقتل الحاج قاسم الأردبيلي:

وفي الغد جاء نواب الجمعية ورواد الحرية أسرع من أي يوم آخر إلى مكتب البرق، واجتمعوا في غرفة انتخبوها، وتناقشوا حول حادث ماكو، وكان ذلك الحادث أشد حرقة من حادث قره داغ.

في تلك الأثناء وقع حادث عجيب خارج فناء مكتب البرق، حادث لم يكن يتوقع قط. وكيفية ذلك أن احتشاد الأهالي اليوم في مكتب البرق كان يفوق احتشادهم في الأيام الأخر. ففضلاً عن الجلبة والضجة حول المطالبة بالقانون، وكما ذكرنا، قل الخبز بشدة في تبريز في تلك الآونة، وكان هذا معاناة أخرى للأسر الفقيرة، لذا اتجهت جماعات منهم إلى مكتب البرق وميدان المدفعية كي يبحثوا عن حل، ولم تكن نساء تبريز قد شاركن من قبل في النهضة المطالبة بالحرية، لكن وضع الخبز السيئ في هذه الأيام حث جماعة منهن على المشاركة في الثورة.

واليوم كان احتشاد هذه الطائفة أكثر من الأيام الأخر، هذا وقد جاء الحاج قاسم الأردبيلي – وهو أحد التجار الأثرياء في تبريز وقد ساءت سمعته بسبب قيامه بالاحتكار – إلى مكتب البرق، وبينما يمر بين الأهالي حتى أظهرت سيدة له قطعة سوداء من الخبز كانت في يدها، وبسطت لسانها بالسب واللعن، ولم تكتف بذلك ورفعت يدها وصفعته خلف رقبته. وما أن ارتفعت يد هذه السيدة حتى اندفع الآخرون على الحاج وجعلوا يركلونه ويضربونه، ولما لم يقم أحد المجاهدين أو الرؤساء بمنع ذلك فقد ألحقوا الأذى الشديد به.

أثناء ذلك وصل بعض المجاهدين وخلصوا الحاج قاسم من أيديهم، وحملوه وروحه كادت تزهق إلى إحدى الغرف العلوية في مكتب البرق، وأخفوه هناك، بينما خطب ميرزا غفار زنوري في الأهالي لتهدئتهم، لكن الأهالي ظلوا في ثورتهم ومسعاهم وكانو يطالبون بالثأر منه، أثناء ذلك أطلق أحدهم رصاصة في

الهواء. من ناحية أخرى، كانت جماعة من النساء – ممن لم يعثرن على الخبز فى الأسواق – قد اتجهن إلى مكتب البرق صائحات نائحات. وأدى صوت الرصاصة ووصول هؤلاء النسوة إلى حدوث انتفاضة بين طائفة المعدمين والجوعى وكان من الصعوبة بمكان الحيلولة دون حدوثها، وسارع بعضهم إلى حجرات مكتب البرق بحثًا عن الحاج قاسم، وحينما عثروا عليه سحبوه على الفور إلى الفناء وقاموا بركله وضربه، وظلوا يسحبونه حتى زهقت روحه أمام باب منزل نير السلطان (بجوار مكتب البرق).

ولم يكف الأهالى عن ثورتهم، وحملوه حتى ميدان دار المدفعية وعلقوه هناك من قدميه، وبجرأة لا توصف قاموا ببتر أحد أعضائه ووضعوه فى فمه، ومن بأس غضبهم وثورتهم لم يستطع شخص اعتراض طريقهم، وكان كثير منهم يقومون بالبحث عن الحاج ميرزا رفيع خان – مالك ضياع محمد على ميرزا وقراه – حتى يحملوه هو كذلك ويعلقوه بجوار الحاج قاسم.

ويوضح هذا الحادث – مثلما أوضحت الثورة الفرنسية فى باريس– أن جماعة من المعدمين قد تقدمت، وكانت لها الغلبة تدريجيًا، وهذا ما يوضح أن الثورة كانت فعالة ولها سمتها الخاصة. وسمة الثورة هذه هى أن مجموعة ما قد تكاتفت مع بعضها البعض، وخلصت نفسها من قبضة المستبدين ورجال البلاط، ثم تقدمت مجموعة من المعدمين والكادحين لتثأر من الأثرياء والمرفهين. وفى باريس انضم دانتون وروبسبير إلى مثل هذه الجماعة وأيداها، وقاما بسلسلة من الأعمال التاريخية المثيرة، وفى تبريز انعدم وجود أمثال دانتون وروبسبير وإلا لوجدت هنا أيضًا أعمال مثيرة.

على هذا النحو قضت تبريز يومًا مشحونًا بالثورة والجلبة، وفى تلك الأثناء كانت البرقيات تصل على التوالى من ماكو تطالب بالإنصاف، وكما سنذكر، تباحثت الجمعية مع طهران بحديث حاد.

أما قره داغ فقد حقق رشيد الملك الأمن هنا، وفى يوم الاثنين التاسع عشر من خرداد (٢٨ ربيع الآخر) وصلت منه برقية مفداها أن أم بيوك خان وعمته وأخاه قد جاءوا إلى المعسكر يطلبون الصفح والعفو عن بيوك خان، ويعربون عن أن بيوك خان قد ندم، ويتعهد بإعادة ما سلبه إلى الأهالى ودفع دية القتلى، وأنه لن يتمرد ثانية منذ الآن وصاعدًا على الجمعية والشعب.

لقد رسموا هذه الخطة لإخماد غضبة المطالبين بالحياة النيابية وإطلاق سراح بيوك خان. وحقيقة الأمر أن رشيد الملك نفسه كان من عمال البلاط، ومن مؤيدى بيوك خان وأمثاله، وكان يسلك طريق النفاق مع جمعية المطالبين بالحياة النيابية.

وتباحثوا فى الجمعية بشأن هذه البرقية، وأبدى بعض النواب خور عزم، وتلوا آية (عفا الله عما سلف)، وجعلوا يذكرون الحكايات منذ صدر الإسلام والأحداث المواكبة للرسول الكريم (صلى)، والنتيجة أنه تم قبول اقتراح رشيد الملك بشأن العفو عن بيوك خان وأعوانه، لكنهم اقترحوا أن يتم إرسال نسائه وأبنائه – المساكين – إلى تبريز، وأن يتجه بعض الرسل من تبريز إلى قره داغ للتحقيق فيما تم من تعديات وإغارات على ممتلكات القرويين، وأرسلوا أمرًا إلى رشيد الملك يفيد بذلك.

وهكذا انتهى حادث قره داغ وتم إطلاق سراح بيوك خان دون أن يناله أدنى عقاب، ولم يرسل رشيد الملك نساءه إلى تبريز، ولم يستطع الرسل – الذين غادروا تبريز – القيام بشىء، وعادوا بعد فترة. لكن ثورة تبريز وغلق الأسواق ظلا قائمين لعدة أيام، وهدأ الرؤساء من ردع الأهالى وحثوهم على فتح الأسواق. وتعتبر هذه الثورة – التى أطلقنا عليها اسم ثورة أردبيهشت وكما سنرى استمرت أكثر من شهر – من الأحداث العظيمة فى تاريخ الحياة النيابية. فهى مثال يوضح إلى أى مدى كان تعلق الأهالى بالحياة النيابية، وكيف تحملوا الصعاب والمضرات فى طريقها.

إن هذا الحادث – فضلاً عن نتائجه الأخرى – يتضمن فائدة، حيث عمل على ازدياد قوة طائفة المجاهدين. وكما رأينا، إنه بعد حادث إغارة ابن رحيم خان، وذلك الحديث الذى دار فى المدينة، تعهد هؤلاء بالدفاع عن المدينة، وكانوا يطوفون فى الضواحى ليلاً فى جماعات ويقومون بالحراسة. فضلاً عن هذا فقد استطاعوا القضاء على حالة الهلع التى انتشرت فى المدينة بامتلاكهم البنادق والذخيرة، ولما كان الرؤساء من ذوى العقول السديدة، لذا سعوا للاستفادة من كل حادث لتقدم أمرهم.

وإلى هنا نختم هذا المقال حتى نورد قصة انفصال رجال الدين عن الشعب – وهى القصة التى حدثت فى تلك الأثناء فى طهران – فى مقال منفصل.

«المقال السابع»

إلامَ انتهى الصراع حول النيابية والشرعية؟!

يدور الحديث فى هذا المقال حول صمود رجال الدين إزاء المطالبين بالحياة النيابية، وغير ذلك من الأحداث التى تمت منذ انفصالهم عن مجاميع الشعب وحتى مقتل ميرزا على أصغر خان الأتابك.

تضامن المجتهدين الثلاثة:

كما ذكرنا سالفًا، انتهت نهضة طهران لمؤازرة تبريز بظفر الشعب وزيادة قوة المجلس. وثمة نتيجة أخرى لتلك النهضة وهى أن الثورة المطالبة بالحرية قد استمدت قوتها ثانية فى قلوب أهالى طهران، وزال ذلك الوهن الذى ظهر نتيجة الصراع بين الشريعة والقانون.

والجدير بالذكر أن الأهالى لم يقوموا بانتفاضة فى خضم الصراع بين القانون والشريعة لعدم معرفتهم بضلوع البلاط فى هذا الأمر، لكن حينما وقع حادث ابن رحيم خان وظهرت يد البلاط فى تلك الأعمال، كان هذا أساسًا لحركتهم ونشبت الثورات ثانية، وكانت هذه النهضة ذات فائدة للأحرار من كل جهة وانتهت بانتصارهم.

وواقع الحال أن هذا الانتصار لم ينه النزاع، بل جعله أكثر ضراوة حيث وضحت يد البلاط فى هذه المرة أكثر من غيرها. وكما ذكرنا، لم يكن ابن رحيم خان قد رحل حتى حل محله إقبال السلطنة. وهذه المرة قام، من كان يطلق عليهم

المطالبون بالشريعة، بالقتال وإظهار العراك بدلاً من التباحث والجدال، وأفضى ذلك إلى انفصال رجال الدين عن الشعب.

فضلاً عن ذلك ظهرت مشاكل أخرى للمجلس والمطالبين بالحياة النيابية، كما سنوردها من بعد، فقد تقرب الشيخ فضل الله بشكل أكثر إلى البلاط طوعًا أو كرهًا بسبب مطالبته بالشريعة وعدائه للحياة النيابية، ثم جاءت نهضة طهران التى زادت من نفوره واستيائه وانضم دفعة واحدة إلى البلاط. وكما قيل، فقد حصل على سبعة آلاف طومان من البلاط كى ينفقها فى هذا الطريق. والحقيقة أنهم أشاعوا أنه كان يستدعى إلى منزله كل يوم ما يقرب من ثمانين طالبًا ويبسط لهم الموائد ثم يسعى للإساءة إلى الحياة النيابية ويمنح كلاً منهم قرانين ويوجههم إلى ما يريد.

من ناحية أخرى، حينما وصل حاجى ميرزا حسن المجتهد التبريزى – الذى أشرنا سابقًا إلى قصة طرده من تبريز – إلى طهران، توجه على الفور إلى عبد العظيم وأقام هناك، وكان من المتوقع أن يذهب الأهالى فى جماعات لزيارته إلا أن هذا لم يحدث، وتوجه إليه رجال الدين فقط، كما أرسل محمد على ميرزا إليه حاجى سعد الملك. وبعد عدة أيام غادر عبد العظيم متوجهًا إلى المدينة وتوجه حاجى محمد اسماعيل ومرتضوى إليه من قبل دار الشورى، وحملا إليه رسالة مفادها أن يكف عن الإساءة إلى الحياة النيابية وإلى أهالى تبريز، ورد قائلاً:

"أى مجنون لا شعور له يستطيع أن ينكر الحياة النيابية؟! حقًا إننى لسعيد بجمعية تبريز، لكن ما صدر عنها من أقوال أو أفعال لا يمكن تحمله قط. فعلى سبيل المثال إنهم يقولون بأنهم سيبنون المنازل من مال ذلك السيد ولا يقدمون الضرائب وينفقون على ذلك من أموال أحد المصد ـات. كما أن قراءة الروضة قد أوقفت، لقد شبهت ذلك الشعب بطفل يضعون فى يده أشرفًا (عملة مالية) ولا يدرى ماذا يفعل به....".

لكن ما بدر منه لم يكن سوى حديث من اللسان، فقلبه كان مفعمًا بالغضب إزاء الحياة النيابية، لذا كان اتصاله بحاجى شيخ فضل الله وانضمامه إليه. وقد

شاهدنا قبل قدومه كيف أطلع حاجى شيخ فضل الله بموضوع طرده من تبريز فى رسالة إلى ابنه، وكيف أبدى مواساته له، ومع كل هذه المواساة لم يكونا على اتصال فى ذاك الوقت.

وحينما استاء حاجى خمامى من أحداث رشت منذ عدة شهور، وجاء إلى طهران، اتصل هو الآخر بحاجى شيخ فضل الله وانضم إليه، وتآزر المجتهدون الثلاثة وعقدوا تحالفًا فيما بينهم، وانضم إليهم بعض رجال الدين غير الراغبين فى الحياة النيابية من أمثال الشيخ عبد النبى وملا محمد آملى وحاجى ميرزا لطف الله – قارئ الروضة – وآخرون، والتفت حولهم كذلك جماعة من الطلاب. وعلى هذا النحو ظهرت طائفة كبيرة فى مواجهة الحياة النيابية والمجلس، وظل هذا التجمع سريًا لفترة حتى اكتشف أمره.

ويشير كاتب حاجى الشيخ فضل الله فى الرسالة التى كتبها إلى ابنه فى النجف إلى هذا الأمر، قائلاً:

"تشكلت فى تلك الآونة جمعية من العلماء، انضم إليها حتى الآن جناب المستطاب حجة الإسلام آقا مجتهد تبريز، وجناب خمامى، وجناب آخوند ملا محمد آملى، و.... وكانوا يعقدون الاجتماعات فى جلسات خاصة كل يوم فى منزل أحدهم. والحق أن العلماء والطلاب كانوا يجتمعون بشكل جيد، وتجمع ما يقرب من ألف شخص من العلماء الأعلام والطلاب الكرام ولا يزالون يجتمعون، وأساس هذه الجمعية هو الحفاظ على بيضة الإسلام ورد ما يوجب مخالفة الشريعة والأحكام الموضوعة للمجلس الوطنى المقدس".

وهكذا ولى رجال الدين وجوههم عن الشعب فى طهران، واتحدوا فيما بينهم لمقاومة الحياة النيابية، وتمكن هذا الاتحاد من إلحاق الأذى الشديد على الحياة النيابية، وتمكن من أن يجتثها من جذورها، خاصة مع ذلك الاتحاد الذى تم بين هذه الطائفة وبين السيد كاظم اليزدى فى النجف، حيث تألفت جماعة قوية بشكل سرّى انضم إليها الجميع من بعد.

ومع ذلك الارتباط الذى كان للأهالى تجاه الدين، ومع ما كانوا يتعهدون به إزاء مبدأ التقليد بشكل لم يحدث من قبل، وضح فى حديثهم وأفعالهم اتباعهم لرجال الدين وعداؤهم للحياة النيابية. ولا شك أن شأن المطالبين بالشريعة قد علا بهذا الاتحاد، ولا شك أن ثمة إراقة دماء قد تمت، ولما لم يكن للحياة النيابية فى ذلك العهد أساس محكم فقد سقطت بسهولة وانمحت.

وما كان يحمى الحياة النيابية هو صمود السيدين وآخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى، ومع ما حل عليهم من ضغوط وما عانوه من أذى كفوا أيديهم عن تأييد المجلس والحياة النيابية. وما أن اكتمل الاتحاد حتى قام رجال الدين بالعمل، فها هو حاجى شيخ فضل الله يسىء إلى المجلس والقانون دومًا فى حلقات درسه. وكان حاجى ميرزا لطف الله يذم الحياة النيابية بلا ورع من فوق المنبر، ويتهم المطالبين بها بالكفر والإلحاد. كما قدمت طائفة من البلاط إلى بهارستان، ووقفت أمام المجلس حتى إذا ما دار الحديث حول الدستور، أو تحدث شخص من نواب آذربايجان أو غيرهم بحديث يخالف الشريعة، يندفعون، ويسحبونه خارجًا ويضربونه.

وكان وقع سلوكهم المتهور هذا ثقيلاً على الأحرار، لذا ظهرت حركات مناوئة، واستعدت جماعة للمقاومة، وتردد اسم حاجى الشيخ فضل الله بأنه يبالغ فى الإساءة لدرجة تأذى لها ابنه الشيخ مهدى. أما حاجى ميرزا حسن – الذى استأجر منزلاً للإقامة فيه – فقد أرسل الجيران إليه يطالبونه بالرحيل من المكان.

وذلك البند الذى أشرنا إلى تدوين الحاج الشيخ فضل الله له واقترح إضافته إلى الدستور تم طبعه وتوزيعه على الأهالى فى تلك الأيام، كما نشرته صحيفة " الصبح الصادق " فى أحد أعدادها، لكن الناس استاءوا من هذا العمل السيىء، واندفعوا إلى إدارة الصحيفة، ومزقوا كل ما عثروا عليه من ذلك العدد.

وعلى هذا النحو ظهرت ثورة أخرى فى طهران، ولكى نقدم نموذجًا لتأثير تلك التجمعات ومدى خشية الأحرار، نورد فى هذا المقام البرقية التى تم إرسالها فى نفس هذه الأيام من طهران إلى النجف:

"النجف – إلى حجة الإسلام خراسانى روحنا فداه، لقد ضحينا بأرواحنا وأموالنا أعوامًا طوالا كالصرعى تحت نير الظلم، والآن مضينا كى نحيا قليلاً فى ظل العدالة، وقد جمعت الدولة العلماء فى طهران حتى يشتبه الأمر على حجج الإسلام والعلماء والأجلاء بأن النيابية تعارض المصلحة، الغوث بكم من حيل المستبدين، نستحلفكم بالصديقة الطاهرة أن تتصلوا بسائر حجج الإسلام فى النجف وكربلاء وكاظمين وسامراء – روحنا فداهم – ولتأمروا بالعلاج... ولما كان من المحتمل ألا تتم المراسلة من طهران فقد تمت من باد كوبه".

(الشعب)

لقد كانت تلك الاستفسارات المتتالية التى كان يبعث بها الأفراد إلى علماء النجف إحدى النتائج الوخيمة لهذه الأحداث، إنهم كانوا سعداء بتزايد الانضمام إلى الدين والشريعة، ويستفسرون عبر الرسائل والبرقيات عما إذا كانت الحياة النيابية شرعية، وحينما وصل الرد جعلوا يقرأونه هنا وهناك، وسوف نرى النتيجة التى انتهت إليها هذه الاستفسارات.

حادثه ماكو:

أما حادث ماكو، فكما أشرنا، حينما راجت الثورة المطالبة بالحرية فى أذربايجان، وظهرت تلك الثورة والحركة فى تبريز وغيرها من المدن، ذاع صيت تلك الأحداث فى ماكو وما حولها، وانتفض الأهالى هناك، ورغبوا فى إقامة جمعية فى ماكو إلا أن إقبال السلطنة – الذى كان يتولى أزمة الأمور هناك وكان من عملاء جهاز الملك – لم يرتض ذلك، وظهر الصراع بينه وبين المطالبين بالحرية، وتم إرسال ميرزا جواد ناطق من قبل المجلس المحلى للتباحث معه وإقامة الجمعية، وتوجه ميرزا جواد إلى ماكو وتباحث مع إقبال السلطنة وأقام جمعية هناك.

بعد ذلك زاد الأهالى من ثورتهم وانتفاضتهم، ولما كان عزت الله خان – ابن أخت إقبال السلطنة – يبدى تضامنًا مع المطالبين بالحياة النيابية، فقد حث

الأهالى على رفض بقاء إقبال السلطنة على أرض ماكو، فطردوه إلى القوقاز. وبدأ التباحث مع المجلس المحلى عبر البرقيات والرسائل يطلبون الحكم هناك لعزت الله، واحتدت الحركة والثورة، وتم افتتاح الجمعيات فى معظم القرى، وأرسلوا الرسائل إلى تبريز، مفادها: "وقتما يرغب المستبدون – لاقدر الله – فى القضاء على هذه النيابية، وإلقاء الفتنة بين أفراد الشعب، فيجب بداية قتل جميع أهالى ماكو والمطالبين بالنيابية كى يبلغوا مقصدهم....".

وبعد فترة لم يمهلوا عزت الله خان، وكفوا يده عن الأعمال هناك، وأقامت طائفة من مؤيدى إقبال السلطنة فى محلة دزى بالقرب من ماكو، فانقضوا عليهم ودار بين الجانبين قتال وعراك.

فى تلك الأثناء كان إقبال السلطنة يقيم فى إيروان أو نخجوان ويتابع الأحداث، وتم الاتحاد بينه وبين محمد على ميرزا والأتابك، وحينما سمع بقصة الحرب ضد مؤيديه أسرع بالتوجه إلى إيران واصطحب معه المئات من فرسان أكراد جلالى ووصل لنجدة أتباعه. وليلاً، أقام الأكراد الاستحكامات لمقاومة المطالبين بالحياة النيابية، ومع حلول الفجر هبوا للقتال، وتغلبوا عليهم، وقتلوا العديد منهم ثم استولوا على المدينة وقبضوا على نواب الجمعية ورواد الحرية وألحقوا الأذى البالغ بالمطالبين بالنيابية. بعد ذلك توجه الأكراد المغيرون إلى القرى وقاموا بأعمال السلب والقتل.

هذا وقد قامت صحيفة "الحبل المتين" الصادرة فى طهران بترجمة أحد المقالات نقلاً عن صحيفة " كاسپى" الصادرة باللغة الروسية فى باكو ونشرته فى أحد أعدادها، وكان يجب أن يكون هذا المقال أساسًا لخزى كل إيرانى. يقول صحفى " كاسپى" عن طهران بعد ذكره لاسم ثلاث عشرة قرية تم تدميرها:

"إن المظالم التى لحقت بأهالى هذه الأماكن خارجة عن نطاق التحمل، فقد قسموا الرجال نصفين، وفصلوا عن النساء أثديتهن، وألقوا بالأطفال فى مجرى الماء، وكانوا يبترون لسان كل من يورد اسم الجمعية على لسانه".

ويقول:

"كانت توجد أعداد غفيرة من مبتورى اللسان هؤلاء".

ورغم ما انضوت عليه هذه الجملة من مبالغة لكن لا يمكن القول بأنها كانت محض افتراء، فظلم هؤلاء الأكراد وسلوكهم الفظ لا حدود له. وحينما فلت لجامهم لم يضنوا قط عن ارتكاب المظالم بشكل يفوق الحد، خاصة عندما أطلقوا اسم "البابية" على المطالبين بالنيابية، فهم بذلك قد منحوا سفاكى الدماء هؤلاء الذريعة الجيدة فى أيديهم.

وكما ذكرنا، كانت ليلة الأربعاء الرابع عشر من خرداد، هى تلك الليلة التى وصلت فيها الأنباء من خوى إلى المجلس المحلى بشأن هذه القصة الدامية، وفى نفس الليلة استدعت الجمعية نواب آذربايجان فى طهران إلى مكتب البرق، وأوقفوهم على حقيقة الأمر، وقدم هؤلاء الوعود ببذل السعى.

لكن أى مسعى كانوا يريدونه سوى ذكر ذلك الحادث فى المجلس وإبداء المواساة والتأسى، أو أنهم سيكتبون بكيفية الحال إلى الأتابك ويطلبون منه الحل. وأية نتيجة يمكن الحصول عليها من هذه الأعمال؟!

فى ذلك العهد كان البلاط يبدى عداءه علانية ويقوم بالنزاع مع المجلس والنيابية عبر عدة طرق، فمن ناحية – كما ذكرنا – تضامن المجتهدون الثلاثة وسعوا إلى تكوين تحالف، وقام ملا محمد آملى بذم المجلس والنواب من فوق المنبر علانية. ومن ناحية أخرى، أظهر نقيب السادات – أحد الإقطاعيين – العداء، ونصب خيمة فى منزله لقراءة الروضة كان يجتمع فيها غيره من الإقطاعيين والمسيئين للمجلس. ومن ناحية ثالثة، احتدمت الثورة فى المدن، وقاوم كل من قوام الملك فى شيراز وحاجى آقا محسن فى العراق، وأبدى كل من مظفر الدولة فى زنجان وعميد السلطنة فى طالش التبعية لهما. وكان محتشم السلطنة – مندوب الأتابك – يقدم ردودًا عجيبة فى المجلس على شكوى النواب، وكان واضحًا أن ما

من رغبة لهم سوى محاربة المجلس، ومثال على ذلك ما ورد فى جلسة يوم السبت السابع عشر من خرداد (٢٦ ربيع الآخر) حينما دار حديث حول قصة سالار الدولة وفتنة كرمانشاه واشتكى حاجى ميرزا إبراهيم آقا مما يقوم به ملا محمد آملى من ثم، حيث رد محتشم السلطنة بقوله:

"يجب النظر إلى المسائل بشكل عام كى يتم القضاء على كل المفاسد لا أن تحولوا دون حدوث بعضها ولا تحولون دون حدوث البعض الآخر، فهاهم يسيئون إلى الأهالى أسفل حجرتكم، وسيادتك لا تحقق النظام الداخلى وتتوقع عندئذ ألا يتناولون ذلك من فوق المنابر!"

فقال حاجى ميرزا إبراهيم آقا:

"ماذا نفعل فى موضوع ماكو؟... فهم مشغولون منذ أيام بأعمال القتال والإغارة".

فرد:

"يجب أن يكون لكم تصور واحد لكل المملكة وأن تعمم الإجراءات لإزالة المفاسد".

هذه هى الردود التى قدمها مندوب الحكومة إزاء إراقة الدماء التى يقوم بها إقبال السلطنة ومطالبة جمعية تبريز بالإنصاف. لقد دمر الأكراد القرى ويرد مندوب الحكومة – التى عليها تحقيق الأمن فى الدولة – بمثل هذه الحجج أمام المجلس.

ودار حديث عن إقامة نقيب السادات للخيام، وقال أحد النواب:

"عجبًا، فبدلاً من أن تحول الحكومة دون ذلك ترسل الفراشين للمساعدة فى إقامة الخيام".

وقال آخر:

"ينبغى طرد المفسد، لمَ لا يمنعون صاحب الخيمة ويزيلونها؟!"

وتحجج محتشم السلطنة بإقامة أهل شيراز للخيام أمام بهارستان، وأجاب قائلاً:

"لقد ذكرت سالفًا أن الحكم يجب أن يكون عامًا... لو ينبغى إزالة الخيام فيجب بداية إزالة تلك الخيام الموجودة أمام الباب فى الطريق العام، قبل أن تزيلوا تلك التى أقيمت فى منزله".

فقال أحد النواب:

"إن نواب شيراز مستعدون الآن لإزالة الخيام شريطة أن يتم إزالة كل خيمة تم نصبها".

فرد محتشم السلطنة:

"إنكم أيها السادة تشتدون فى سلوككم، أولاً، ووفقًا للسنة النبوية، لا يمكن لشخص أن يدخل منزل شخص آخر نصب فى منزله خيمة، لكن أولئك الذين نصبوها على قارعة الطريق العام فيعتبر عملهم هذا غير مستحب فى الشرع".

ودار حديث عن الأمن داخل الدولة، وفى البرلمان الذى أُنشىء على النمط الأوروبى لسن القوانين الأوروبية، يتحدث مندوب إحدى الحكومات الجائرة حول " المسائل الشرعية " وكأنه أحد رجال الدين!!

ودارت مناقشات عديدة على هذا النحو، وفى النهاية اقترحوا تشكيل لجنة من العلماء وبعض النواب والوزراء، ودار حديث مفصل بشأن الحيلولة دون نشوب الفتن، وبهذا الوعد الواهى أنهى المجلس أعماله. وتتبع المجلس المحلى بتبريز الحادث، وكان يستدعى نواب آذربايجان على التوالى إلى مكتب البرق ويشتد معهم، ووصل الأمر إلى قولهم علانية:

"إن الباعث على هذه الفتن هو الحكومة نفسها، لو لم يتقدم عملكم فى طهران، فتعالوا وتضافروا فى آذربايجان ونسعى لحل المشاكل".

كما أرسلوا البرقية التالية إلى الأتابك:

"من نواب آذربايجان المبجلين إلى جناب الأشرف الأتابك الأعظم، لقد عرض أهالى آذربايجان مطالبهم علانية، وحقيقة الحال أنه منذ قدوم جناب الأشرف وقد وقعت كل آذربايجان، بل كل بقاع إيران، تحت وطأة كافة أنواع الشدائد والفتن. ومع الآمال التى كانت تحدوهم تجاه جناب الأشرف إلا أنه خيب ظنهم، بل كان داعيًا لظهور الشبهات لدى العامة بشكل تدريجى، لذا نذكر من باب النية الحسنة وجوب أن تطلبوا العزل الفورى لإقبال السلطنة من الجهاز الملكى إرضاءً للشعب وعملاً على تهدئة الخواطر، وأن تعرضوا برقية خوى على صاحب الجلالة، ولتلاحظوا أى حس يستطيع أن يرتضى تلك الفجائع. لا يجب أن يكون من نتائج توقف جناب الأشرف فى الممالك المتمدينة لمدة أربعة عشر عامًا هو ظهور تلك الأمور غير المتوقعة، والأمل ينحصر فى العزل الفورى لإقبال السلطنة وتعيين أحد المسئولين الوطنيين الأكفاء من قبل جناب الأشرف".

(عامة الشعب)

وفى كل يوم كان يصل خبر آخر عن ماكو يدعو إلى الحرقة والأسى وأبدت جمعية خوى صمودًا وكانت تتطالب بالرد. أما المجاهدون وغيرهم فكانوا يقومون بالجلبة والضجة فى مكتب البرق ويشتدون مع القادة، لكن لم يؤد ذلك إلى فائدة، ولم تتأت نتيجة من طهران سوى قولهم بأن المباحثات جارية مع الحكومة وسوف يتم القيام بإجراء. كما رد الأتابك على تلك البرقية ممتدحًا نفسه وأرسل – من قبيل النفاق – أمرًا إلى نظام الملك يفيد بإتمام التحقيق فى أحداث ماكو والسعى إلى الإصلاح.

قصة سالار الدولة:

وما زاد من وقاحة البلاط فى ذلك العهد تلك الأنباء التى كانت تصل حول هزيمة سالار الدولة وهروبه، ولما كانوا يأمنون جانبه زادوا من عدائهم للمجلس ومؤيديه. وكما ذكرنا، إنه فى الأعوام الأخيرة من حياة مظفر الدين شاه حيث كان عين الدولة يرغب فى خلع محمد على ميرزا من ولاية العهد، كان أحد أبناء الشاه – ممن كانوا يأملون فى العرش – يقوم بالمساعى، وهذا الشخص هو أبو الفتح ميرزا سالار الدولة نفسه. لقد كان يحكم فى ولاية كردستان ويعيش هناك، لكن أعوانه كانوا يسعون فى طهران لصالحه، وكان حاجى ميرزا نصر الله ملك المتكلمين – الذى غادر كردستان متجهًا إلى طهران – أحد أعوانه، لكن كما ذكرنا، لم تتحقق رغبة عين الدولة، وظل محمد على ميرزا فى ولاية العهد، وانتهى الحديث عن تلك الأقاويل، وانضم ملك المتكلمين كذلك إلى الأحرار وصار من الخطباء ذائعى الصيت.

إلا أن فكرة اعتلاء العرش كانت لاتزال تراود سالار الدولة، وحينما شاهد صراع الشعب مع محمد على ميرزا قوى الأمل بداخله. هذا وقد رفع الحجاب عن الأمر تدريجيًا وأعلن تمرده علانية وأغار على بروجرد وما حولها بمساعدة طائفة من المغيرين تنتمى إلى أكراد ولران، وقام بأعمال السلب والإغارة، وعمل هذا الشاب المتهور على استياء الأهالى منه بدلاً من العمل على تعاطفهم معه.

وكانت إحدى أدواته اختلاق الأكاذيب على لسان المجلس والمطالبين بالحياة النيابية ونشرها، فقد أرسل إلى العديد من رؤساء العشائر وقادة الفرسان قائلاً إن استدعاءه قد تم من قبل المجلس لمساندة النيابية، وأنه اتجه إلى طهران بناءً على رغبة الأحرار.

فى تلك الأثناء نشبت الفتن ثانية فى كرمانشاه، وقام الأهالى هناك– وكانوا منقسمين إلى فريقين، أحدهما يؤيد النيابية والآخر يسىء إليها – بالنزاع ثانية وقتل

البعض منهم. واستدعوا آقا محمد مهدى قائد الأحرار من طهران وأعلن عن تمرده واعتصم مع أتباعه داخل القنصلية الإنجليزية. وفى تلك الأثناء وقعت فى يده رسالة من سالار الدولة كان قد أرسلها إليه كتب فيها:

"وفقًا لما أفادت به الأنباء فإن بضعة أشخاص من نواب البرلمان تم قتلهم فى طهران، وطهران مضطربة، وقد وجهوا بطائفة أيضًا من آذربايجان، والآن لو لديكم حس الإسلام فلتبدو تضامنكم، وسوف أعقد العزم على الرحيل أيضًا هذه الأيام".

وحصل القنصل الإنجليزى على هذه الرسالة وأرسلها إلى طهران، وانكشف الأمر وعُلم أن ثمة تضامنًا بين آقا محمد المهدى وسالار الدولة، وأن الأخير يريد أن يجتذب الأهالى إليه باسم تأييد النيابية.

وكثيرًا ما دار حديث فى المجلس حول هذا الشأن، ولما كان الحادث يبدو من بعيد عظيمًا، رغب نواب المجلس فى إظهار التضامن مع محمد على ميرزا، وأبدوا فى تلك الأثناء تأييدهم له وتعاطفهم معه، وأعربوا عن استيائهم من سالار الدولة وأرسلوا برقية من قبل المجلس فى ذمه وإبداء الاستياء منه، كما أساءوا إلى القادة الذين أبدوا خور عزم فى المبادرة لقتاله. لكن الحادث كان أقل بكثير مما كانوا يظنون، ووصل النبأ ليلة الأحد ١٨ خرداد (٢٧ ربيع الآخر) بأن حربًا حامية الوطيس قد نشبت ليلة الأمس بين سالار الدولة وجنده وبين قادة الدولة (يقال إنها كانت بالقرب من نهاوند) وفر سالار الدولة بعد فترة وجيزة من العراك وتجرعت جيوشه الهزيمة وفر أفراده من الميدان.

على هذا النحو انتهى الصراع على العرش، وخمد الحديث الذى كان يدور بين الناس فى هذا الشأن، ووقع الجميع فى الدهشة من تهور سالار الدولة وعدم حنكته. وزادت هذه الدهشة حينما سُمع أن هذا الشاب الأحمق قد اتجه إلى كرمانشاهان ولجأ هناك إلى القنصلية الإنجليزية وحث حكومة إنجلترا على الوساطة.

واضطر محمد على ميرزا لأن يتغاضى عن ذنبه، واستدعاه إلى طهران بعد فترة مع طائفة من القوزاق ومنحه مقرًا فى حديقة الأتابك وظل هناك إلى أن توجه إلى أوروبا بعد فترة.

وكما شاهدنا، كانت نهضة سالار الدولة تلك أحد البواعث التى حالت دون تنفيذ محمد على ميرزا لمخططه بشأن المجلس والنيابية، لكن حينما عُلم ضعف شأن سالار الدولة ووصلت الأنباء تفيد بانتصار أتباع الدولة، استعاد البلاط قوته ثانية وزاد من تجاهله للمجلس، واتخذ الأهالى ذلك ذريعة، وقالوا:

"ما الذى حدث حتى يحولوا دون تقدم سالار الدولة مع كان يتمتع به من قوة فى حين أنهم لم يمنعوا حاجى آقا محسن الذى لا يزيد عن كونه أحد رجال الدين ويقوم بتلك المظالم والتمرد منذ عدة أشهر؟ ولمَ لمْ يضطروا لإحضار قوام الملك الذى تجاهل برقية الحكومة ورفض القدوم إلى طهران؟!... ولمَ لمْ يجدوا حلاً لإقبال السلطنة الذى دمر القرى على هذا النحو؟!... لقد رُفع النقاب عن الأمر وعلم كل شخص أن ما من رغبة للدولة سوى العداء للنيابية والقضاء عليها".

وفى يوم الاثنين التاسع عشر من خرداد (من غد ذلك اليوم الذى وصلت فيه الأنباء تفيد بهزيمة سالار الدولة) جاء الأتابك والوزراء إلى المجلس للتباحث بشأن اضطراب الأوضاع فى المدن وإيجاد الحل، وحينما حل ذلك اليوم وانعقدت الجلسة، ساق النواب الأحاديث حول تدهور الأوضاع فى المدن ومظالم المتمردين، وحملوا مسئولية الوقوف أمامهم على عاتق الدولة، وتذرع الأتابك قائلاً:

"إن ما كان يجب القيام به لم يتم حتى الآن بسبب أمرين، أحدهما: عدم إتمام لوائح الحكام، وعليه فالحكام يعتبرون أنفسهم اليوم بلا مسئولية. والآخر: عدم تهيئة أدوات التنفيذ".

وأحصى فرمان فرما – وزير العدل – الفتن التى نشبت فى إيران منذ عشرين عامًا قائلاً:

"لقد نشبت هذه الفتن لأسباب مختلفة فى أراضى آذربايجان وشيراز

وغيرهما ولم تختص بالشهور الأخيرة فقط".

وتذرع حاجى مخبر السلطنة – وزير العلوم – بحجة أخرى قائلاً:

"إن جميع هذه العيوب والمفاسد التى تذكر ناجمة عن افتقاد المال وجميعها يعود إلى عهد سابق، وهى نتائج أعمال تمت منذ أربعين عامًا حتى الآن... يجب الإعداد على الفور لتوفير الأموال والتفكير فى حل عاجـــل...".

ونهض الأتابك مؤيدًا له، وقال:

"طالما أن الإصلاح لن يتم بدون المال، فما من شك أننا نحتاج فى هذه الحالة إلى الاستدانة، وينبغى أن تكون من الخارج أو من الداخل، وقد عاهدت الله فى الكعبة ألا أستدين من الخارج قط، وعليه يجب الاستدانة من الداخل، والوضع فى الداخل مرهون بالأمور المصرفية. حينما كنت فى أوروبا مال الأهالى إلى إنشاء المصرف الوطنى فى إيران، وتم تأسيسه هنا وصار باعثًا لفخر الإيرانيين، لكن بعد عودتى إلى إيران رأيت أن ما من خبر عن هذا الأمر هنا. والآن من الأفضل أن يسعى حجج الإسلام والنواب العظام لتشجيع الأهالى على إتمام إنشاء البنك".

وهكذا دار الحديث حول موضوع البنك الوطنى الذى كان أحد شروط منح ذلك القرض إلى الدولة وباعثًا على تهدئة الأهالى، ولم يتم إنجازه منذ فترة. وبهذا الحديث أنهى المجلس أعماله دون أن تتأت نتيجة. فى تلك الأثناء أبدى أهالى تبريز حدة، وأبرقوا إلى النواب قائلين:

"لولا يتقدم الأمر هناك، فلتأتوا ولتتضافروا هنا ونسعى لإيجاد الحل".

أو كانوا يقولون:

"إن العجب الشديد لمن شعور وزير الداخلية، حيث أبرقنا إليه نطالب الدولة

بخلاص مسلمى ماكو، فيرد علينا بأنه قد تم إرسال الأحكام اللازمة فى هذا الشأن. وواضح من حديثه هذا أن إراقة دماء المسلمين من أسباب متعته...".

تحقق أحد مطالب رجال الدين:

فى تلك الأثناء، دار حديث فى جلسات المجلس حول الدستور، وذكر هذا الحديث بداية فى جلسة يوم السبت العاشر من خرداد (١٩ ربيع الآخر) حيث قال صنيع الدولة رئيس المجلس:

"جميعكم يعلم أن هذا النوع من الموضوعات المهمة من قبيل اللوائح الدستورية يتطلب البت فيه لعدة مرات، بل وربما تحتاج بعض الموضوعات إلى إطلاع علماء النجف الأشرف عليها".

وهذا الحديث من قبل صنيع الدولة لايكون فهمه بالشيء البسيط. وفى جلسة يوم الثلاثاء العشرين من خرداد (٢٩ ربيع الآخر) بدأوا فى تلاوته وتباحثوا بشأنه، ودار حديث فى البداية حول البند الذى اقترحه حاجى الشيخ فضل الله بشأن رقابة العلماء على القوانين، وطالب بإضافته إلى الدستور، ورأى معظم النواب ضرورة وجود مثل هذا البند فى الدستور، إما بسبب مطالبتهم بالشريعة، أو من قبيل التملق، أو خشية من تجمع الطلاب فى بهارستان، وتباحثوا فيمن سيقوم بانتخاب لجنة العلماء تلك، أهو الشعب؟ أم المجلس؟ أم العلماء؟ ودار حديث طويل فى هذا الشأن. وذكر السيد تقى زاده البند السابع والعشرين الذى ينص على:

"إن استقرار القانون مرهون بعدم معارضته للموازين الشرعية".

وقال:

"مع وجود مثل هذا البند لا تمس الحاجة إلى ذلك البند (المقترح)".

وكان يقول:

"يجب على العلماء كافة الحفاظ على القوانين، وأنتم بهذا البند (المقترح) تعهدون بتلك المهمة إلى بعض منهم".

وتحدث حاجى ميرزا على التبريزى - أحد نواب خراسان - عن اصطلاحات البنود، وقال:

"إن الأحكام الشرعية على نوعين، النوع الأول هو الأحكام الأولية الواقعية، وهى الأحكام الشأنية..... والنوع الآخر هو الأحكام الثانوية الظاهرية، وهى الأحكام الفعلية والمنجزة، وما يقع على المكلف هو ذلك النوع الأخير. وسيكون ذلك متباينًا وفقًا لتباين الموضوع واختلاف حال المكلف، وتحديد الموضوعات على أهل العرف وليس على العلماء. فما يبدر عن العلماء هو بيان الأحكام الكلية، مثلما يشخص طبيبان ماهران عادلان حالة أحد المرضى وينصحانه بضرورة احتساء الخمر، ففى هذه الحالة يكون ارتكاب هذا الإثم جائز على المكلف، ويرفع عنه العقاب. وعليه فإن تشخيص.. صحة حال المملكة أو فسادها - وهو موضوع نقاش المجلس - يكون من قبل أطباء ماهرين هم النواب، وكل موضوع يتحدد من قبلهم يكون لهم فيه الحكم الكلى. وفى هذه الحالة لا تمس الحاجة لوجهة نظر العلماء".

وليس معلومًا ما الذى فهمه مشهدى باقر البقال والسيد غلام رضا صانع الثلج من حديثه هذا.

كذلك دار حديث فى جلستى يومى الخميس والسبت... الثانى والعشرين والرابع والعشرين من شهر خرداد (١، ٣ جمادى الأولى) وارتضى الجميع البند المقترح، وجعلوه البند الثانى من الدستور على النحو التالى:

"إن مجلس الشورى الوطنى المقدس - الذى تم تأسيسه بتأييد حضرة إمام العصر عجل الله فرجه ورعايته، وبرحمة صاحب الجلالة ملك الإسلام خلد الله سلطانه، وإشراف حجج الإسلام أكثر الله من أمثالهم، وعامة شعب إيران - لا يجب أن تكون بنود دستوره فى أى عهد من العهود مخالفة لقواعد الإسلام المقدسة والقوانين الموضوعة لحضرة خير الأنام صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وقد تقرر أن تقع مسئولية تحديد معارضة القوانين الموضوعة للقواعد الإسلامية على عاتق العلماء الأعلام أدام الله بركات وجودهم. لذا تقرر رسميًا أن تُشكل لجنة فى عصر كل من العصور لا يقل عددها عن خمسة أشخاص من المجتهدين والفقهاء

المتدينين المطلعين على مقتضيات العصر على النحو التالى، حيث يقدم العلماء الأعلام وحجج الإسلام مراجع تقليد الشيعة اسماء عشرين شخصًا من العلماء ممن يتمتعون بالصفات المذكورة إلى مجلس الشورى الوطنى، ويُعين خمسة منهم أو أكثر وفقًا لما يقتضيه العصر من قبل أعضاء مجلس الشورى الوطنى بالاتفاق أو بالقرعة، ويقدمونهم على أنهم أعضاء بالمجلس حتى يتم النظر بدقة فى المواد التى تقدم فى المجلسين، ويتم التباحث فيها، ويتم رفض أية مادة مقدمة تعارض قوانين الإسلام المقدسة، ولا يكون لها صفة قانونية، وسوف يكون رأى لجنة العلماء هذه فى هذا الشأن مطاعًا ومتبعًا، ولن يتم تغيير هذا البند حتى ظهور حضرة حجة العصر عجل الله فرجه".

وكان هذا انتصارًا للمطالبين بالشريعة، وسُر من كانوا يعتبرون ذلك أمرًا عظيمًا، ورغب البعض فى أن ينسب إلى نفسه شرف اقتراح هذا البند، ودار صراع فى هذا الشأن، و أعد أتباع الحاج الشيخ فضل الله صورة من الاقتراح الذى دوّنه بخطه، ووزعوه بين الأهالى كى يُعلم أنه مقترح هذا البند. وراج الظن بأن قبول ذلك البند الموافق لرغبة رجال الدين سيعيد العداء تجاه المجلس والنيابية ثانية.

فى تلك الأثناء كان يدور حديث فى الخارج بين السيدين وحاجى الشيخ فضل الله. لقد كانا يحاولان إثناءه عن العداء للنيابية، ويقال إن ثمة جلسة انعقدت فى الحادى والعشرين من خرداد (أول ربيع الآخر) فى منزل السيد طباطبائى وفى حضور السيد بهبهانى وآقا حسين القمى (أحد علماء اللجنة التى تطابق القانون مع الشريعة) والسيد جمال الدين افجه اى وبعض نواب المجلس، وحضرها كذلك الشيخ فضل الله. وبعد المناقشات حول عدم ملائمة قوانين المجلس مع الشريعة، وتقديم السيدين الوعود فى هذا الشأن، وعد الحاج الشيخ فضل لله كذلك أنه لن يعادى المجلس ثانية ولن يجمع الأهالى حوله ولن ينصب الخيام، وأقسم على ذلك بناءً على طلب السيدين، وكتب رسالة فى هذا الشأن عهد بها إلى السيد طباطبائى. وعلى هذا النحو انتهت الجلسة بالرضا والسعادة، وأحضروا الحلوى وقاموا بتناولها معًا.

وتوجد صورة لدينا الآن لأحد الأسئلة والرد عليها بشأن المجلس وعما إذا كانت قوانينه لا تتوافق مع الشريعة، وقد كتب ذلك فى بداية ربيع الآخر ووقع عليه كل من السيدين وافجه اى وآقا حسين القمى وحاجى الشيخ فضل الله وصدر العلماء وذُيل بخاتمهم.. ويجب القول إنه تذكار عن تلك الجلسة.

لقد كان السيدان يرغبان فى تصحيح كل شىء باللسان والنصيحة، ولم يجدا الحاجة ماسة فى تلك الثورات التى قامت فى إيران خلال تلك الأعوام إلى العراك وإراقة الدماء، وكان فكرهما هذا حجر عثرة فى سبيل تقدم أمر الحياة النيابية. نعم، لم يكن لمسعيهما أية فائدة، ولم يتراجع الحاج فضل الله وأعوانه – الذين كانوا جماعة تحصل على المال من الدولة– ورغم تلك الرسالة التى كتبت، وذلك النصر الذى تحقق فى المجلس وقبول اقتراحه فى الدستور، إلا أنه أعرب عن غضبه ثانية ولم يكف هو أتباعه عن مساعيهم السيئة. وفضلاً عن حاجى شيخ فضل الله وملا محمد آملى، كان حاجى ميرزا لطف الله – قارئ الروضة – يسىء فى تلك الأيام إلى النيابية والمجلس من فوق المنابر.

إن المطالبة بالشريعة لم تكن هى المشكلة الوحيدة فقط، فحاجى ميرزا حسن وحاجى خمامى اللذان ابتعدا عن مدينتيهما ولم يتم الترحيب بهما فى طهران أيضًا، وكذلك كثير من رجال الدين الذين كانوا يرون مصالحهم فى خطر، لم يجدوا حلاً سوى التضامن مع البلاط والسعى للإطاحة بأساس الحياة النيابية.

ومن العجائب أن شقيق السيد طباطبائى – السيد أحمد – كان يحسد أخاه على المكانة التى بلغها، ولم يتوان عن إسقاطه وأظهر عداءه للنيابية، وعليه كان انضمامه إليهم. كذلك كان ابن حاجى آقا محسن العراقى متضامنًا معهم، فكان الأب فى العراق يقوم بأعمال القتل والإغارة على القرى بمساندة قبائل له وجند الشاهسون، والابن فى طهران يقوم بالدفاع عن الشريعة.

وكما ذكرنا، أن ثمة تضامنًا تم بينهم وبين السيد كاظم اليزدى، وسوف نرى أن أحد أبنائه فى عبد العظيم قد انضم إليهم، وعن طريقه وصلت إليهم رسائل

السيد كاظم. إنهم كانوا يرون أن المجال مهيأ من كل ناحية للعداء للمجلس، ففتحوا أيديهم وقاموا بمساعيهم. ومن أعمالهم أنهم اختاروا بعض الأشخاص (وفقًا لما كتبته صحيفة الاتحاد أنهم كانوا سبعة عشر فردًا) ووجهوا بهم إلى المدن لإثارة الأهالى. وفى يوم الخميس التاسع والعشرين من خرداد (٨ جمادى الأولى) تذرعوا بأن يوم الثالث عشر من جمادى الأولى يوافق ذكرى وفاة ابنة الرسول ﷺ وينبغى قراءة الروضة، فأرسلوا خيمة كبيرة جدًا (تفوق الخيام الحكومية فى حجمها) إلى مسجد آدينه كى تنصب هناك، وكانوا يريدون أن يجعلوا لهم مقرًا هناك تحت مسمى "قراءة الروضة". ومن ناحية أخرى، حينما علم المطالبون بالنيابية بذلك، أسرع الآلاف منهم إلى المسجد للحيلولة دون ذلك، ولما كانوا هم الأكثر عددًا كانت لهم الغلبة.

تقول صحيفة "الحبل المتين":

"صاح أحد عملاء الاستبداد؛ ما من هدف لنا سوى قراءة الروضة. فقبض الأهالى عليه وفتشوه ووجدوا بحوزته سلاحًا وبعض الذخيرة، فقالوا له: أيها الغادر، متى كان السلاح مستخدمًا فى قراءة الروضة؟".

وتقول كذلك:

"أدى فداء الشعب المضحى بروحه فى سبيل الوطن أديب كرمانى خدمات جليلة فى ذلك اليوم لن تنساها القلوب لمئات السنين".

وتقول:

"وفى النهاية أزالوا الخيمة، بل قاموا بتمزيقها وتوجهوا بهم إلى إمام زاده واعتقلوهم".

وهكذا انتهى الصراع بانتصار الأحرار، وفى اللحظات الأخيرة من غد ذلك اليوم اجتمعت الحشود من جمعيات طهران فى مدرسة صدر (وكانت مقرًا لجمعية اتحاد الطلاب) وذكروا حادث الأمس وقاموا بجلبة، واتجه بعضهم إلى منازل

طباطبائى وإمام الجمعة وصدر العلماء وغيرهم، وأحضروهم إلى المدرسة. وكان السيد بهبهانى يعانى من ألم بالعين وكان خارج طهران، وذكروا حديثًا حول ملك المتكلمين والسيد جمال والشيخ على الزرندى، وقيل إنهم سيندفعون بهذه الحشود إلى منازل حاجى الشيخ فضل الله وغيره ويطردونهم جميعًا من المدينة، واعتلى المغفور له السيد طباطبائى المنبر، وقال:

"لقد تعهد حاجى الشيخ فضل الله أمامى منذ أيام بأنه لن يعادى النيابية ثانية وأنه لن يجمع الأهالى حوله، وكتب ذلك وقدمه لى".

قال هذا وأخرج الرسالة وأظهرها للجميع ثم أخمد الجلبة بالنصيحة والرجاء وقدم رسالة إلى الأهالى من فوق المنبر على النحو التالى:

"بسم الله الرحمن الرحيم. إذا ما تصرف جناب الشيخ فضل الله بعكس ما عاهدنى به، فإننى أتعهد بالقيام بطرده من طهران، ويجب أن يمضى ملا محمد آملى وحاجى ميرزا لطف الله".

(شهر جمادى الأولى. محمد بن محمد صادق الطباطبائى)

لجوء المطالبين بالشريعة إلى عبد العظيم:

على هذا النحو انتهت الجلسة، وتفرق الأهالى وتوجهوا إلى دورهم، ورأى المطالبون بالشريعة أن الميدان قد ضاق بهم، وفى الليلة نفسها عزم ملا محمد آملى وحاجى ميرزا لطف الله على الخروج من المدينة وتوجها إلى عبد العظيم، كما رحل كذلك حاجى الشيخ فضل الله وحاجى ميرزا حسن وغيرهما مع أتباعهما. والوحيد الذى بقى هو حاجى خمامى الذى انفصل عنهم. وقد تحدث بهبهانى منذ عدة أيام عنه فى المجلس وأثنى عليه، وكان هذا أساسًا لانفصاله عن الآخرين.

وعلى هذا النحو انفصلت طائفة من العلماء عن الشعب، وأوجدوا مقرًا لهم، وأظهروا صراعهم وعداءهم تجاه النيابية علانية وكان هذا أحد الأحداث الجسام فى

تاريخ الحياة النيابية وظهر له توابع عديدة. لقد كان الصراع يدور حتى الآن بين النيابية والاستبداد، وكان رجال البلاط وأتباعهم فقط هم من يبدون العداء للنيابية، لكن منذ ذلك الحين ظهر صراع آخر تحت مسمى النيابية والدين، وكما سنرى إنه رغم تقدم أمرهم فى البداية إلا أنهم صاروا فى النهاية ذا تأثير بعزلتهم هذه حتى أتبعهم الأكراد وطوائف غفيرة من الأهالى ومن المطالبين بالنيابية أنفسهم وأظهروا العداء للحياة النيابية والمجلس. وكما ذكرنا، انشق الشيخ زيد الدين زنجانى وغيره منذ ثلاثة أشهر واتجهوا إلى عبد العظيم. وواقع الحال إنهم لم يتمتعوا بمكانة بين الأهالى، ولم يتمكنوا من إنجاز عمل، لكن هذه الطائفة كانت تحظى بمكانة بين الأهالى، وحينما أبدت الحكومة التأييد لهم كانت الخشية من الأذى والضرر.

وراج الظن فى طهران بداية أن بعض الأفراد لجأوا إلى عبد العظيم خشية على أرواحهم، وأنهم لن يستقروا هناك طويلاً، وسوف يتجهون إلى العراق أو قم. لكن عُلم بعد ذلك أن لهم رغبة أخرى، وعندئذ انضمت إليهم طوائف أخرى من الطلاب والإقطاعيين وبعض الأوباش. وبوجه عام تجمع هناك ما يقرب من خمسمائة شخص، وكان حاجى الشيخ فضل الله ينفق عليهم جميعًا. وما قاموا به كان كالتالى:

– فى البداية أرسل ملا محمد آملى فى الثالث من شهر تير (١٣ جمادى الأولى) البرقية التالية إلى علماء النجف وكربلاء:

"بسبب طغيان الزنادقة ودعوتهم إلى الإلحاد والزندقة من فوق المنابر وفى المجالس بشكل علنى، وبسبب عدم وجود رادع لهم، أقام العلماء جميعًا – باستثناء اثنين أو ثلاثة – فى زاوية حضرة عبد العظيم، يا الله، يا الله".

(روحى فداء لحفظ الإسلام، محمد آملى)

– وفى السابع من شهر تير (١٧ جمادى الأولى) كتب برقية أخرى وقع عليها كل أتباعه وأرسلوها إلى مدن إيران الكبرى (أربع عشرة مدينة) مفادها:

"جناب السادة حجج الإسلام دامت بركاتهم، إن البنود الخاصة بحفظ قوانين الإسلام وهيئة المجتهدين العظام وسائر الإصلاحات قد رفضت جميعًا وانكشف المكنون، ووقع العامة فى الحيرة، وتزلزل أساس الدين، لذا، وعلى غير المعهود قد هاجر معظم العلماء بحكم التكليف إلى الزاوية المقدسة متجهين إلى العتبات".

(فضل الله نورى، أحمد الحسين الطباطبائى،
أحمد الحسين العراقى، على وعلى أكبر)

وكما يلاحظ، استخدم رجل الدين ذكاءه فى هاتين البرقيتين، فقد رغب فى استخدام أكثر الكلمات والجمل تأثيرًا، والعجيب أنهم قاموا بهذه الخدع، فذلك البند الذى تم اقتراحه بشأن رقابة العلماء قد قبله المجلس - كما ذكرنا - وتم إضافته إلى الدستور، بينما يذكر هؤلاء فى البرقية السابقة أنه تم رفضه.

وتقول صحيفة "تمدن":

"كان مكتب البرق يقبل هذه البرقيات مجانًا بأمر الشاه".

وتقول أيضًا:

"تم فى نفس هذه الأيام إرسال برقية إلى المدن من قبل جمعيات طهران تعارض برقية رجال الدين تلك".

- فضلاً عن تلك البرقيات التى أرسلوها إلى المدن كتبوا رسالة إلى الشاه على سبيل التملق، مفادها:

"إننا سنتوجه إلى قم، وسنجمع العلماء هناك ونسعى معكم".

وكتبوا أيضًا:

"إن المجلس لا يعمل بأصولنا الأربعة: التوحيد، النبوة، الإمامة والميعاد".

وانضم الإقطاعيون إليهم، وبشكل عام كان بينهم إناس سيئو النية، لذا سعوا لإيذاء الأهالى، وقبضوا على الذين جاءوا من طهران للزيارة وضربوهم بجريرة مطالبتهم بالحياة النيابية.

وكتبت صحيفة "الحبل المتين" وبعض الصحف الأخرى المقالات فى هذا الشأن، وأفرطوا فى مذمة رجال الدين، كما دار حديث فى المجلس حول هذا الحادث يوم الأحد الأول من شهر تير (١١ جمادى الأولى)، وتحدث المغفور له السيد بهبهانى حول ذلك بحديث مفصل، وقال السيد طباطبائى:

"لو تعلمون الصلاح سنمضى لإتمام الحجة إلى حضرة عبد العظيم ولنرَ ما هو حديثهم".

إلا أن النواب لم يوافقوا على سفره.

وفى يوم الثلاثاء الثالث من شهر تير (١٣ جمادى الأولى) حيث كانت الأسواق مغلقة وكان يوم عزاء، قامت جلبة فى مسجد السپهسالار القديم. وكيفية ذلك أن ابن نقيب السادات قد قدم إلى المدينة برفقة البعض، وأقاموا احتفالاً لقراءة الروضة فى مسجد السپهسالار. والحقيقة أنهم كانوا يرغبون إثارة الأهالى متذرعين بقراءة الروضة، وعلمت بعض الجمعيات برغبتهم هذه فأرسلت مندوبين عنها إلى المسجد، واعتلى أحد رجال الدين المنبر، وبدأ حديثه قائلاً:

"كل من يلحق الإهانة بالعلماء، فهو كافر...."

ولم يمنح الفرصة لأحد الأحرار كى يرد عليه من أسفل، فالتفت إليه حاجى ملا حسن الشهير بالأصفهانى، وقال:

"إنه يقول الحق، لقد أفسد هؤلاء المتفرنجون الإسلام ومحوا الشريعة".

فنهض أحد الأحرار من أحد الأركان وقال:

"نحن نعلم كينونة هذا الجمع ومن الذى أرسلك..."

وعلى هذا النحو قامت ضجة وجلبة، وتدخل الطلاب بحقائبهم وجعلوا يضربون بها.

من ناحية أخرى علم الأحرار فى الخارج بهذا الأمر فبادروا لمساعدة إخوانهم وقامت جلبة شديدة. وحينما بلغ النبأ إلى وزير الداخلية أرسل بعضًا من قوات الحرس لإخماد الفتنة وتخليص ابن النقيب - الذى قبض الأحرار عليه ليزجوا به فى السجن - من أيديهم.

وفى يوم الثلاثاء العاشر من شهر تير (٢٠ جمادى الأولى) حينما وصلت برقية زنجان (سنوردها فيما بعد) دار الحديث ثانية فى المجلس حول رجال الدين المعتصمين، وامتد الحديث طويلاً، وأعرب النواب عن شكواهم بسبب عدم قيام الدولة بالحيلولة دون ذلك وانتهى الحديث بقولهم:

"إما أن تتصرف الدولة وإما أن تعهد بالأمر إلى الشعب".

وفى اليوم التالى قاموا بضرب ميرزا إبراهيم خان سكرتير السفارة الفرنسية - وكان من الأحرار المشهورين وقد توجه للزيارة - فى عبد العظيم، وساهم هذا الحدث - بالإضافة إلى ذلك الحديث الذى دار فى المجلس فى الليلة السابقة - فى إثارة أهالى طهران، واتحدت الجمعيات معًا، واقترحوا ألا تفتح الأسواق يوم الجمعة، وأن يجتمع الأحرار كافة فى مسجد الشاه ومعهم كل أنواع أدوات القتال، ويتجهون من هناك إلى عبد العظيم لإخراج رجال الدين، وأطلعوا الجميع على فكرتهم هذه.

ورغب السيدان فى القيام بالوساطة ثانية، واتجها يوم الجمعة الثانى عشر من شهر خرداد (٢٢ جمادى الأولى) برفقة صدر العلماء وافجه اى وإمام الجمعة - دون أن يعلموا بالأمر - من المجلس إلى عبد العظيم، ونزلوا فى منزل حاجى الشيخ فضل الله، وقاموا ثانية بالنصح والرجاء، وكانوا يريدون موافقة حاجى الشيخ على العودة إلى طهران، لكن نقاشهم معه لم يثمر عن نتيجة واضطروا للعودة إلى طهران.

وفى غد يوم الخميس دار الحديث ثانية فى المجلس، ولم يرتض النواب ما كانت تريده الجمعيات، وبعد حديث مطول اتفقوا على إرسال بعض النواب إلى

السوق لإثناء أهل السوق عن فكرة عدم فتح الأسواق، كما كتبوا الرسائل إلى الجمعيات يطالبونها بالتزام الهدوء والصمت.

وهكذا حالوا دون وقوع ثورة كانت ستفضى حتمًا إلى إراقة الدماء. وفى غد يوم الجمعة اجتمعت جماعة فى مدرسة صدر وقامت بالثورة والجلبة، لكن لما كان المجلس قد طالب بالتزام الهدوء سعى الرؤساء لمنعهم. وفى نفس هذه الأيام أرسل المجلس البرقية التالية إلى المدن:

"جناب السادة حجج الإسلام والعلماء الأعلام وعامة الشعب المطلع على الأمور زيدت توفيقاتهم، لما كان حاجى الشيخ فضل الله النورى يرى منذ البداية أن استحكام أساس الحياة النيابية يضر بمصالحه الخاصة، وعلم أن التوسع فى أسباب العدل والتحقيق – الذى هو من بين مزايا هذا الأساس العالى – سوف يغلق طريق الاستفادة الشخصية، لم يقصر فى السر أو فى العلن، حينًا تحت مسمى الاتفاق، وحينًا آخر تحت مسمى المعارضة، فى إلحاق الخلل بأركان سعادة المملكة. لكن السادة حجج الإسلام المؤسسين لهذا البناء السامى ومجلس الشورى الوطنى المقدس قاموا باستخدام اللين والرفق لإعادته إلى جادة الصواب والحق ظنًا منهم أن جناب الشيخ سيندم فى النهاية بسبب سيره فى الطرق الضيقة المعتمة الباطلة. لقد سعى سعيًا حثيثًا منذ فترة للأخذ دون وجه وحق، ومنح حكومة سجستان وقاين لحشمت الملك، وعندما رفض المجلس حكم المشار إليه لأسباب عديدة، أعلن تمرده على المجلس المقدس بشكل علنى، وقد ضاق أهالى دار الخلافة ذرعًا بسبب أعماله المخالفة فاضطر إلى مغادرة العاصمة، وفى زاوية حضرة عبد العظيم المقدسة جمع حوله بعض المفسدين والمتمردين من أمثال ابن حاجى آقا محسن العراقى الذى تم استدعاؤه إلى العراق منذ فترة بسبب تعدياته الكثيرة وتمت محاكمته. ولكى يلحق الخلل بالرأى العام ولتضليل المسلمين وبث الفتن أرسل إلى الولايات ببرقيات تحث على الفساد.

وعلى الرغم من التوجهات الخاصة لآية الله فى العتبات العالية وعامة حجج الإسلام وعلماء إيران الأعلام والموافقة التامة لأكابر الدين المبين وإرشاد عقلاء

المسلمين فإن الظن بإغفال هذا القسم للعلماء العاطلين لن يكون مظهرًا لأى نوع من العناية والثقة. ورغم هذا، ولكى لا يقع العامة المساكين فى البلاد القريبة والنائية فى فخ التزوير لهؤلاء المغرضين يستلزم الأمر أن يتعرف الجميع على تفاصيل أكثر حول هذه الشخصية حتى يسود وجهه ويصير عبرة لغيره".

(مجلس الشورى الوطنى)

الفتنة فى النجف:

كان حاجى الشيخ فضل الله وأعوانه الذين أرسلوا تلك البرقية إلى المدن يأملون إثارة الأهالى لكن دون فائدة. ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى سمع فيها الأهالى الإساءة إلى الحياة النيابية، فقد تحركت مشاعرهم وتم إفساح الطريق فى قلوبهم وقامت الثورة فى زنجان حيث تذرع ملا قربان على بذلك وأساء إلى الجمعية ونشبت الثورة كذلك فى نيسابور على حاجى ميرزا حسين الذى كان يعرف بعدائه للحياة النيابية، وقام بالعراك مع الجمعية وأسفر ذلك عن جرح أحد الأشخاص.

ولم يحدث فى مدن إيران أكثر مما تم ذكره خاصة بعد وصول برقية دار الشورى التى كانت باعثًا لمواساة الأهالى، ووصلت الردود من معظم المدن تفيد بالاستعداد لإبداء التعاون.

لكن الفتنة نشبت فى النجف بسبب هذه البرقيات، لأن السيد كاظم اليزدى – كما ذكرنا – كان يبدى العداء هناك تجاه النيابية، وحينما وصلت تلك البرقيات وعلم بالحادث أبدى تعاونه معهم وقام أعوانه ببث الفتن. وكان السيد كاظم هذا فى خندق واحد مع آخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى إلا أنه كان أكثر تخلفًا منهما. فعندما شاع عدم الوفاق آنذاك بين المذهب الشيعى والحياة النيابية ودار صراع بين هذين الاتجاهين وأظهر أتباع المذهب الاستياء من المجلس والحياة

النيابية، رأى أن العداء للنيابية هو الطريق لتقدم أمره، فى حين أن آخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى وحاجى طهرانى قد أبدوا بعض الشهامة وتغاضوا عن مقامهم، ولم يكونوا فى قيد استرضاء الأهالى أو عدم استرضائهم ولم يكفوا عن تأييدهم للمجلس فى مثل هذه الأوقات. لكن السيد كاظم لم يكن يبحث سوى عما يحقق مصلحته الخاصة، ولم يكن يبغى سوى مقام " آية الله "، ولم يكن للشعب ولا للدولة ولا لمثل هذه الأشياء قيمة لديه.

وكان الإيرانيون كثرة فى النجف، وأبدى العديد منهم تأييده للحياة النيابية، كما كانت طائفة كبيرة من الطلاب هناك من المطالبين بالحرية. ورغب هؤلاء فى منع السيد كاظم من الإساءة وطالبوه بالإبراق إلى المجلس غير أنه رفض. فى تلك الأثناء بدر عمل أحمق من قبل بعض الأشخاص حيث قاموا بإعداد منشورٍ مثيرٍ للفزع مع صورة لمدفعين وقاموا بلصقه ليلاً فى الساحة، وكان مثل هذا العمل يتم كثيرًا فى تلك الأيام. وتذرع أتباع كاظم بذلك وقاموا بجلبة وأشاعوا أنهم يريدون قتل السيد، وجعلوا من ذلك العمل التافه أمرًا عظيمًا وأظهروا عداءهم علانية للنيابة والأحرار وبسطوا ألسنتهم باللعن والذم.

وهكذا ظهر فريقان فى النجف، ولما لم تكن الدولة العثمانية ذات حكم نيابى حتى ذلك العهد، وكان عمال السلطان عبد الحميد يبدون العداء الشديد تجاه الحياة النيابية، لذا قام حاكم النجف بتأييد السيد كاظم، كما أعرب الطلاب العرب ومن يقيمون على حدود النجف عن تأييدهم له. فى تلك الأثناء وصلت برقية آملى من طهران إلى السيد كاظم وأرسل الرد التالى:

"جناب السيد ثقة الإسلام آملى دامت بركاته، بسبب تجرؤ المبتدعين وشيوخ كفر الملحدين الذى هو نتاج الحرية الواهمة نطلب من الله ألا تتم أمانيهم، ومما لاشك فيه أن رد الكفر والحفاظ على العقيدة وتنفيذ القوانين القرآنية المحكمة

والشريعة المحمدية الأبدية لهو من أهم فرائض أرباب العلماء. مع ملاحظة أن ما يُبذل من جهد كي يتم صلاح الدين والحفاظ على دماء المسلمين".

ثم دونت رسالة أخرى حول نفس المضمون، وبعد يومين أو ثلاثة وصلت برقية رجال الدين الثانية، ولم يعتن الآخوند وأتباعه بها إلا أنها منحت السيد كاظم وأعوانه الذريعة، وزادوا من ضغوطهم بما يرضى أتباعه. وبعد عدة أيام وصلت برقية المجلس وتم إرسالها إلى كافة العلماء. كما وصلت برقية مطولة من جمعيات طهران أعربت فيها عن شكواها من مساوئ المعتصمين والبلاط، وطالبت العلماء باستدعاء حاجى الشيخ فضل الله وأعوانه إلى النجف، ولم يكترث السيد بذلك، واعتبرها أعوانه دليلاً على خور المجلس، لكن الآخوند وأعوانه ردوا بالرد التالى:

"مجلس الشورى الوطنى المبجل رفع الله قواعده، لقد وصلت البرقية المخذية للمجلس الشريف، واستاءت خواطر أهل الإسلام قاطبة بسبب مخالفة المعارضين للمجلس الوطنى الإسلامى المبجل، وقد أشهد عامة أهل العلم وكافة ممتحنى الشريعة المطهرة خاتم الأنبياء ﷺ أن الله تعالى عليم بأن ما من هدف لنا سوى تقوية الإسلام والحفاظ على دماء المسلمين وإصلاح أمور العامة. وعليه فإن المجلس الذى تأسس بغية رفع الظلم وإغاثة المظلوم وإعانة الملهوف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتقوية الأمة والدولة ورفاهية الرعية وحفظ بيضة الإسلام لا شك أنه راجح عقلاً وشرعًا وعرفًا، بل وواجب، ومن يخالفه أو يعارضه فهو مخالف للشرع المنير ومجادل لصاحب الشريعة، ولتثقوا بأن ما من شخص قد خالفه حتى الآن ولن يخالفه، وأينما نما إلى علمنا ما يعارض ذلك فلم يكن سوى محض افتراء، ولتطلعوا على واجباتكم".

(الأحقر نجل حاجى ميرزا خليل، الأحقر محمد
كاظم الخراسانى، الأحقر عبد الله المازندرانى)

وأدى وصول تلك البرقيات المتتالية، وتدوين تلك الردود المتناقضة إلى ظهور فتنة فى النجف، واشتد الانقسام والعداء وتسبب السيد كاظم الذى كان يقوم بخداع الأهالى وبإثارة العامة فى إلحاق هزة عنيفة بهم، وكانت القبائل العربية القاطنة حول النجف وكربلاء على ساحل نهر الفرات على المذهب الشيعى، فأرسل يخبرهم بأن يأتوا زرافات زرافات إلى النجف بأسلحتهم وذخيرتهم ويلتفوا حول السيد ويقوموا بثورة، وكانوا يقومون كل يوم بالثورة على الطريقة العربية، وينشدون الأشعار فى مذمة الحياة النيابية، ولم يسلم من أذاهم كل من عرفوا ميله تجاه النيابية.

كان السيد يأتى كل يوم إلى الساحة للصلاة ويؤم آلاف الأتباع من الإيرانيين والعرب، فى حين لم يكن يقف خلف الآخوند أكثر من ثلاثين شخصًا، وبلغ الأمر أن رغب الآخوند وبعض أتباعه فى الكف عن التوجه إلى الصلاة وكان ذلك منهم من قبيل الخجل أو من الخشية. وكما ذكرنا كان للحكومة العثمانية ضلع فى هذا الحادث حيث كانت تبدى الاستياء من النيابية فى إيران وتخشى بشدة من وصولها إلى الأراضى العثمانية. ولتوضيح هذه المسألة نورد فى هذا المقام الرسالة التى كتبها أحد أتباع السيد كاظم فى هذه الأيام ويدعى الشيخ عبد الحسين اليزدى إلى ابن السيد أحمد الذى ذكرنا أنه كان فى عبد العظيم عند حاجى الشيخ فضل الله، وقد ذكر خلالها هذه الواقعة، وتم إرسالها فى العشرين من شهر تير (الأول من جمادى الآخرة) إلا أنها تأخرت فى الوصول إلى طهران، وطبعت فى إحدى صحف المعتصمين مع رسالة أخرى كانت قد وصلت من السيد على ابن السيد كاظم:

"أتمنى أن يمن الله على وجود جناب السيد المبارك بالرعاية والحماية من جميع الآلام والعلل، وأعرض الآن شرحًا لبعض الأحداث التى قام بها السادة المفسدون فى تلك الحدود، هذا وقد رغبوا فى الحقيقة أخذ البرقية المخذية التى تحوى ما يهدم الإسلام ويطئ كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) الطيبة من

حضرة المستطاب حجة الإسلام وآية الله فى الأنام، وحينما امتنع بشدة عزم المفسدون على إيذائه بل وهددوه بالقتل، ودونوا ذلك المنشور الذى يفيد بذلك، ورسموا عليه صورتين لمدفعين وألصقوه على أبواب الساحة المقدسة. واطلع أهل النجف من العرب والعجم الذى رأوا معنى هذا على بطلان هذا الأمر وأغراض المفسدين، ولعنوهم بكلمة واحدة، وأفضى ذلك إلى قيام رجال الدين والعلماء وأهل العلم بمذمة هذا الأمر الشؤم وإنكاره، واستمد أهل الحق القوة بحمد الله. وظل شيوخ العرب وعلماؤهم يستفسرون دون انقطاع من جناب السيد وأصحابه حول مرتكبى هذا الأمر الشنيع كى يلحقوا بهم العقاب ويقضوا عليهم، ولم يسمعوا من جناب السيد سوى ردًا واحدًا وهو أننا سلمنا أمرنا إلى الله ولم نعرف واحدًا منهم. وذات يوم اعتلى السيد نفسه المنبر، وألقى درسًا فى حضور جميع السادة الطلاب بأن الأمر يختص بالدين الإسلامى ويجب أن تُصان نفوس المسلمين وأعراضهم وتُحفظ شوكة المذهب الجعفرى صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المعصومين، ولن يحدث هذا إلا بتطبيق الشريعة المطهرة، وأنا لا أهاب القتل، فلم يتبق من العمر شيء أخاف عليه كى أرفع يدى عن دينى. وصمت جناب السيد ثانية، ولم يتفوه بشيء قط حتى وصلت من العلماء والمتدينين فى بلاد العجم وأهل العلم ورجال الدين هناك المكاتيب المشحونة تفيد بتكوين تشكيلات فوق العادة بسبب ظهور الفتن وشيوع البدع وتتبع الكفرة والزنادقة والملاحدة والمتفرنجين وانتشار كلمات الكفر والتجرؤ على الأنبياء والأئمة وبخاصة على خاتم الأنبياء ﷺ وجناب ولى العصر عجل الله فرجه حتى أنهم كتبوا أن الملاحدة جاهروا بأن الوجود المبارك لإمام الزمان عليه السلام ما هو إلا وهم، وصمت السيد ثانية حتى وصلت منذ أيام قليلة برقية جناب ثقة الإسلام السيد آخوند آملى دامت أيام إفاضته التى يشكتى فيها من شيوع هذا الحديث ولجوء أهل العلم والأخيار إلى حضرة عبد العظيم، وهذا ما تسبب فى استياء الخاطر المبارك للسيد فأمر بإرسال الرد على تلك البرقية موضحًا أن اضطراب هؤلاء الشياطين وشركاء الملحدين كان داعيًا لإيذاء خاطره المبارك.... فى تلك الأثناء وصلت برقية من طهران مفادها أن شدة ضعف الملاحدة هناك واضطرابهم مثل ضغطًا شديدًا على هؤلاء المفسدين فخلعوا

نقاب الحياء بشكل تام وقاموا بإحداث هذه الجلبة لعلهم يتمكنون بها من إيذاء خاطر السيد، وأخذوا برقية تتوافق وأغراضهم الدنيئة، وعلم العرب والعجم فى النجف بذلك، ومن غد تلك الليلة كان كافة الأهالى من الحرفيين والتجار والعرب والعجم مسلحين فى مقر صلاة الجماعة وهاجموا جناب السيد وهم يصيحون "نريد قتل مفسدى النجف" وكلما حاول السيد وأعوانه التزام الهدوء لم يتمكنوا. وقامت الحكومة بما لديها من جند يمتثلون لكل ما يأمرون به ويطيعونه ليكون ردها "إننى عاهدت بهم إلى الله وليس لى من شخص سوى الله ولن يكون". وبلغ الأمر مداه أن أطفال النجف كانوا يلعنون مفسدى أهل العجم ويقولون إن الحكومة العثمانية تسعى لطرد المفسدين. وكانت أنباء فتنة النجف تلك – التى وصلت إلى العشائر والأطراف – تصل من قبل شيوخ العرب بشكل دائم إلى رسول جناب السيد ويعربون عن استعدادهم فى كافة الأحوال للقدوم إلى النجف الأشرف مع قبائلهم، وليمنح الله طول العمر إلى حضرة المستطاب حامى الشريعة السيد آخوى آقا سيد على فهو بحق غوث الشريعة وحامى الشيعة، وكان منذ دخوله إلى النجف الأشرف يدعو بالموعظة الحسنة بلسان بليغ بآيات قرآنية ويخطب نهج البلاغة وبأدعية الصحيفة السجادية وبأخبار آل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين) فى كافة المجالس والمحافل فى الساحة المطهرة ومجالس الدرس كى يكون إنجاز الأمور فى إيران طبقًا للشرع المنير حتى تصان نفوس المسلمين ودماؤهم وأموالهم وتستكمل عقائد المسلمين الإسلامية، وقد استيقظ المقدسون والمتدينون بفعل أحاديثه وبلغ الأمر هذا الحد".

(شكر الله مساعيه الجميلة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، العبد عبد الحسين اليزدى)

عمل بلا طائل فى اصفهان:

وهو حادث انفصال المطالبين بالشريعة عن المجتمع. ففى تلك الأثناء التى كان يدور فيها الصراع بين طهران وعبد العظيم وتنشب فيها تلك الفتنة فى

النجف، فإن ثمة أحداثًا أخرى كانت تقع فى إصفهان وآذربايجان وزنجان وقزوين، وكذلك فى طهران نفسها، وقد دار النقاش ثانية بين طهران وتبريز، ولما كنا نتحدث هنا عن صراع المطالبين بالشريعة فننحى ذلك جانبًا، لكن يجب علينا الآن العودة إلى الوراء قرابة الشهر لندون أحداث تلك الفترة الواحد تلو الآخر.

نذكر بداية حادث إصفهان، فكما ذكرنا سالفًا، إن الحركة المطالبة بالحياة النيابية لم تكن ذات طابع واحد فى كافة المدن الإيرانية، واتخذت الحركة طابعًا مميزًا فى كل مدينة من حيث كثرة المعلومات حولها أو ندرتها، أو من حيث خور عزم النفوس واستحكامها، أو من حيث وجود الرواد الجديرين أو عدم وجودهم.

وفى إصفهان كانت الغلبة قبل الثورة لرجال الدين، وبخاصة لحاجى آقا نور الله وآقا نجفى، وكانوا يكتسبون رضا الأهالى فى كل شيء، لذا تصادمت الحياة النيابية فى إصفهان برجال الدين، وقام أهالى إصفهان – أكثر من غيرهم – بأعمال لا طائل من ورائها وبعروض هزلية.

وكما ذكرنا، لما قام ابن رحيم خان بالفتنة فى قره داغ وقتل بعض القرويين الأبرياء وأوجد ذلك الحدث الثورة فى طهران، أقيمت مراسم ختم القرآن والعزاء فى العديد من المدن باسم أولئك القتلى – أو وفقًا لقولهم – باسم شهداء آذربايجان. لكن بعد ذلك، حينما وقع حادث ماكو لم يتم إقامة هذه المراسم ثانية فى أى مكان سوى فى إصفهان، حيث تم إغلاق الأسواق لعدة أيام بأمر من رجال الدين، وقاموا هناك بعروض لا طائل منها، ولما كان أحد أهالى إصفهان قد دون هذه القصة وأرسلها إلى صحيفة البلدية وتم نشرها على صفحاتها، رأينا من الضرورى أن نورد بعضًا مما كتبه فى هذا المقام، يقول:

"فى يوم الثلاثاء (٢٠ خرداد) توجه الأهالى إلى الجمعية المقدسة واجتمع عدة آلاف منهم فى چهل ستون وتليت البرقية التى وصلت ليلة الثلاثاء من أهالى آذربايجان الغيورين والتى تفيد بتضحياتهم فى سبيل أهل الوطن وكذلك دار الحديث فيها عن شهداء ماكو الذين تم حصارهم بوساطة إقبال السلطنة فى قلعة ماكو وتم قتلهم والإغارة على القلعة وإحراق أجساد أهلها الأخيار... وطالبوا إصفهان بمد يد

العون. وحينما بلغ هذا النبأ الموحش مسامع الأهالى فى إصفهان علت الأصوات بالنحيب والبكاء دفعة واحدة، وتجمع الأهالى كيوم الحشر وجعلوا يبكون حتى فقد بعضهم الوعى... وبدر عن أهالى إصفهان ما لا يخطر على بال أحد، فكان من الأفضل أن يعلم الآخرون بالخبر، ولم يكن قد تبقى على الغروب بعد تلاوة برقية آذربايجان سوى ساعتين، فأغلقوا جميع الأسواق والحوانيت، وتوجه العلماء والتجار والمندوبين عن كل طبقة إلى مكتب البرق وتليت البرقية ثانية، وارتفعت أصوات العويل من الخلق، ثم أبرقوا إلى المجلس الوطنى المقدس وإلى صاحب الجلالة الملك.

وفى يوم الأربعاء (أواخر ربيع الآخر) كان الأهالى يعدون مجالس تلاوة القرآن، وفى يوم الخميس (غرة جمادى الأولى) اتشحت الأسواق بالسواد وأقيم مجلس تلاوة القرآن فى "چهل ستون" وأعدت جميع غرف "چهل ستون" وانشغل قارئو القرآن بالتلاوة لمدة ساعة بعد الظهر، وحضر جناب السيد آية الله والسيد ثقة الإسلام مد ظله العالى فى "چهل ستون"، كما حضر السادة العلماء الآخرون مع التجار المبجلين، واعتلوا المنبر، وتحدثوا عن حادث شهداء ماكو وقامت جلبة لا يستطيع اللسان ولا القلم وصفها.

وخرجت طائفة وهى تدق الصدور من المسجد الجامع بأعلام سوداء صائحين "وا شريعتاه وا شريعتاه" وخرجت طائفة أخرى من أحمد آباد وثالثة من مسجد حكيم و... و... و... من جميع ضواحى إصفهان. وإذا ما رغبنا أن نتحدث عن أولئك فسوف نحتاج إلى مجلدات، وتم استقبال الأهالى لهم بالغليون والشاى والقهوة وغير ذلك، وظل الحال على هذا الوضع حتى الغروب.

وفى يوم الجمعة (الثانى من جمادى الأولى) غلقت فى البداية جميع حوانيت إصفهان باستثناء سوق شيرازى، وتوجه الجميع إلى المجلس لتلاوة القرآن، ولو رغبت أن أتحدث عن تعداد من تواجدوا فى ذلك اليوم لما استطعت، فتعدادهم كان يفوق الحصر، كانت إصفهان بأكملها فى حال من الثورة، فقد خرج الأهالى اليوم

من نواحى ره نون، دست جرد، نصرت آباد، و... و... فى مجاميع يحملون الأعلام السوداء والبيارق صائحين "وا إسلاماه، وا إسلاماه" برءوس عارية وهم يدقون الصدور، طائفة منهم مقيدة بالسلاسل، وأخرى تدق الصدور، وثالثة تدق بالأحجار، ولضيق الوقت أعرض باختصار أن طائفة خرجت من مدرسة الأيتام بالأعلام السوداء ومعهم أطفال تتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعاشرة، ينشدون أشعارًا بلغة فصيحة، منها البيت التالى:

– أيها الشيعى، أية غوغاء تلك، فقد صار النهار ليلاً، فلتبك دمًا بسبب عدم النخوة وغربة الإسلام.

واحتدمت ثورة الأهالى، وخرجت طائفة من مدرسة السادات وأخرى من مدرسة المعارف و... و... و... ومن جميع مدارس إصفهان فى جماعات، وتشاهد فى كل جماعة نموذجًا لثورة أهالى إصفهان الغيورين.

وفى يوم السبت كانت الأيام الثلاثة الخاصة بتلاوة القرآن قد انتهت، وكانت جميع أسواق إصفهان لا تزال مغلقة، وبعضها قد اتشح بالسواد. واليوم احتشد جمع لا حصر له من الوضيع والرفيع فى "چهل ستون"، ومضت ساعة من النهار، وحضر كافة السادة العظام ورؤساء المدينة إلى المسجد وكان بعضهم من المقرئين وقاموا بقراءة الروضة، وبكى الأهالى من كافة الطوائف على شهداء تبريز، وقامت طائفة اليهود بداية من الطفل ذى السبعة أعوام حتى الكهل ذى السبعين عامًا بإمساك الشموع وهم يتفوهون ببعض الكلمات بلغتهم ويبكون، وداروا حول المجلس ثلاث مرات، وهكذا فعلت طوائف أخرى من القرى... وقامت جماعة أخرى بما يلى: أولاً قدمت وكأن كلاً منها جندى وطنى، إذ كانوا يحملون البنادق على أكتافهم والذخيرة حول خصورهم بسيوف مستلة وأكفان حول أعناقهم ينشدون بصوت عال:

– نحن عبيد الله، أرواحنا للنيابية فداء.

وكان الأهالى يبكون بحرقة دون وعى عند رؤيتهم لهذا المشهد، وكان بعضهم ينشد وهم عراة الرءوس يدقون الصدور:

– قُتلوا بسبب الإسلام مثلما حدث فى قلعة ماكو، يا ملك النجف، يا أسد الله، يا صاحب ماكو.

وكان يوجد كذلك ثلاثمائة شخص ممن يضربون أنفسهم بالخناجر والمُدى، ومن كثرة ضربهم على رءوسهم صاروا كتلة من الدماء وفقد بعضهم طاقته وعجز عن الوقوف وحملوا بعضهم على حوامل والبعض الآخر فوق الرءوس وجعلوا يدورون. والخلاصة، إنه فى هذه الأيام، وبخاصة فى اليوم الثالث، اجتمعت حشود غفيرة بعد الظهر بساعة، وأنهى المجلس تلاوة القرآن وعقدت الجمعية جلستها....

وفى يوم الأحد فتحت أربعة حوانيت وانهمك الأهالى فى أعمالهم. ليدم الله هذا الاتحاد والاتفاق فيما بين المسلمين بحق محمد ﷺ وآله الطاهرين" !!

هذا نموذج من هداية رجال الدين لشعب إيران ولم يكونوا يرغبون إنهاء أو نسيان هذه العروض الحمقاء.

سوء الظن فى تبريز:

أما ما كان يدور بين طهران وتبريز آنذاك فهو ذيوع أكذوبة فى طهران فيما يتعلق بتبريز، فحواها أن أهالى تبريز رغبوا فى الانفصال عن طهران وإعلان الجمهورية بعدما يأسوا من محمد على ميرزا، لذا استدعوا نوابهم من البرلمان، إلا أن مثل هذا الحديث لم يدر فى تبريز ولم يفكر أحد هناك فى مثل هذه الفكرة. لقد اختلقوها فى طهران، ورددوها على الألسنة، وما تسبب فى ذلك هو البرقية التى ذكرنا سالفًا أن أهالى تبريز قد أرسلوها إلى نواب آذربايجان يعربون فيها عن شكواهم من إقبال السلطنة، وقالوا فيها:

"لو لم يتقدم أمر هناك فلتأتوا ولنتضافر سويًا هنا، ونسعى لإيجاد الحل".

ومن هذه الجملة اختلقوا تلك الأكاذيب، وزادوا عليها تدريجيًا بأن البعض يخشى الرواد، فأرسل السيدان برقية مطولة إلى علماء تبريز ورد فيها:

"إن مدينة آذربايجان هى الركن الركين لإيران، وكل ما يبدر منها سواء أكان سيئًا أم حسنًا له عميق الأثر فى تأمين سعادة إيران أو فسادها، وذلك الحديث الذى يتردد على ألسنة أهالى آذربايجان هو فى الحقيقة سهم زعاف يقضى على استقلال إيران، ويتعارض تمامًا مع الوطنية والحمية القومية التى هى من سمات أهل آذربايجان، وعليه لا يمكن أن نصدق قط أن شخصًا ذا معرفة ولو بسيطة عن سياسات الدول وأوضاع الأمم محبًا لوطنه يرتضى أن يخطر على الأذهان ولو للحظة تهيأة أسباب انقسام إيران".

وفى تبريز أحضر المغفور له ثقة الإسلام هذه البرقية، وتلاها فى الجمعية، وأرسل نسخًا منها إلى رجال الدين ودار نقاش طويل فى هذا الشأن، وكما ذكرنا، لم يكن فى تبريز علم بهذا الأمر، لذا لم تتأت نتيجة من النقاش، وفى النهاية ردوا ببرقية مطولة أعربوا فيها بداية عن شكواهم من عدم اكتراث البلاط بمطالب الشعب، وكذلك من الحيل التى يقوم بها، ورد فيها:

"حينما بلغ إقبال السلطنة فى الظلم مداه، وتمرد رحيم خان، وقام بأعمال وحشية بتحريض من إكرام السلطان فى عاصمة آذربايجان ومكتب البرق حيث مقر اعتصام العامة والرعية للمطالبة بالإنصاف، هل يمكن بعد ذلك أن يعاقب الشعب؟! ثم فيما يتعلق بتلك المذكرة التى ورد فيها: ذلك الحديث الذى يتردد على ألسنة أهالى آذربايجان ويتعارض تمامًا مع الوطنية والحمية القومية هو سم زعاف يقضى على استقلال إيران... فما كان موجودًا فى قلوب أهالى آذربايجان وعلى ألسنتهم، وما هو موجود حتى الآن هو الرغبة فى الحياة النيابية والقانون ولا شىء سوى ذلك".

لكن ثمة حدث مخزى وقع فى وتبريز فى تلك الآونة كان باعثًا آخر على سوء الظن، ألا وهو انقسام المجاهدين وصراعهم مع بعضهم البعض. هذا وقد ذكرنا سالفًا قصة ظهور المجاهدين، ونذكرها ثانية فى هذا المقام فى شىء من الاختصار.

فى البداية، وقبل الثورة المطالبة بالحياة النيابية بعام واحد، أسس إيرانيو القوقاز فى باكو جماعة باسم "الاجتماعيون العاميون" بتأثير من لائحة "مرام نامه" وجماعة "الاشتراكية الديمقراطية" فى روسيا، وكان رئيسها هو نريمان نريمانوف. بعد ذلك، حينما قامت الثورة المطالبة بالدستور فى إيران، قام المغفور له على مسيو والحاج على دوافروش والحاج رسول صديقانى وغيرهم بترجمة لائحة "مرام نامه" إلى الفارسية، وأسسوا جماعة المجاهدين، وأقاموا جمعية سرية تحت مسمى "المركز الغيبى" كانت تتولى أزمة الأمور.

وفى الفترة نفسها قدم آخرون من إيرانيى القوقاز إلى تبريز وغيرها من المدن. وعلى هذا النحو صار المجاهدون فى تبريز على طائفتين، إحداهما تتألف ممن قدموا من القوقاز، والأخرى تتألف ممن نهضوا من تبريز نفسها. وذلك الانقسام لم يشمل أهالى تبريز فقط، ولما كانوا قد قدموا من القوقاز، ويرتدون الزى القوقازى كان يطلق عليهم اسم "القوقازيين"، وكانوا أكثر حنكة ومهارة، ولم يكترثوا برجال الدين ولا بالمذهب، لذا كان نفور الأهالى منهم. ولما كانوا يعتبرون أنفسهم منتمين إلى جمعية باكو فلم يكن من الواجب لديهم إظهار الولاء والطاعة للمركز الغيبى، وكانوا يفكرون فى تقصير يد على مسيو وأعوانه وتولى زمام الأمور بأنفسهم، لذا نشأ الصراع والعداء الشديد، وكان الأهالى يترقبون الأوضاع من كل جانب دون أن يدركوا ماهية ذلك الصراع، وكانت الخشية فى كل لحظة من التعبئة العامة وإراقة الدماء، وأدى ذلك إلى عدم فتح الأسواق فى أيام الخميس والجمعة والسبت ٢٩- ٣٠ – ٣١ خرداد (٨ – ٩ – ١٠ جمادى الأولى)، ولم تعقد مجالس الجمعية، وظل الناس يعيشون فى خشية وقلق.

لكن لما كان رؤساء كلا الطرفين ممن يتمتعون بالخبرة والحنكة، فقد حالوا دون إراقة الدماء وتصالحوا معًا دون أن يعلم أحد فى الخارج. وفى غداة يوم الأحد تم فتح الأسواق ثانية، وانهمك الأهالى فى أعمالهم، ولم يحدث شيء، ولم ينشر خبر فى هذا الشأن على صفحات الجرائد، وقد أبدى على مسيو وأتباعه الكياسة والفطنة فى هذا المقام.

ورغم كل ذلك، طرحت هذه القصة فى طهران على نحو آخر، وكان ذلك – كما ذكرنا – باعثًا آخر لسوء الظن. حقيقة أن بعض الأحداث التى تمت فى تبريز فى ذلك العهد كانت تقلل من قيمة أهالى تبريز فى طهران وتبسط ألسنة النقد والذم تجاههم، وأحد هذه الأحداث ذلك الاستقبال الحافل الذى لا محل له لميرزا آقا الإصفهانى، والحدث الآخر هو مقتل الحاج قاسم الأردبيلى، والحدث الثالث هو قصة الانفصال عن طهران وفكرة إقامة الجمهورية التى ذكرنا أنها ذاعت كذبًا وافتراءً، وحينما وقع هذا الحدث الأخير، وبلغت أنباؤه طهران زاد الانتقاد وسوء الظن واتخذوا ذلك دليلاً على غلبة الأوباش، وتم انتقاد نواب آذربايجان أكثر من غيرهم.

فى ذلك العهد لم يعلموا قيمة المجاهدين، ولم يقدروا النتيجة التى حصلوا عليها بفضل ظهورهم، وما حدث أنهم ساووا بينهم وبين جمعية طهران التى لا طائل من ورائها، ودونوا رسالة إلى أهالى تبريز، ورد فيها:

"يوجد فى طهران ما يربو عن العشر جمعيات وهى منفصلة عن بعضها البعض فى الظاهر، إلا أنها فى حال من الاتفاق والوحدة فى الباطن".

وبدلاً من أن يعلموا تعلموا الحرب، فإعادة عدة آلاف من الأشخاص والحفاظ عليهم أمر جد صعب، ومن هذه المساعى قدروا حق المركز الغيبى، وعلى هذا النحو أبدوا سوء الظن والمذمة. حقيقة أن نواب آذربايجان وغيرهم من ذوى القدرة لم يحبذوا تقدم أمر المجاهدين – وكان أكثرهم من الفقراء – لذا كان السيدان – وهما من مؤسسى الحياة النيابية – يرغبان فى الحصول على النيابية بالحوار والطرق السلمية، وتقدم أمرهما عبر ذلك الطريق، وعليه لم يرتضيا الاستعدادات الحربية أو المساعى الأخرى، وكان هذا أمرًا محيرًا منهما. من ناحية أخرى كان ضلوع عملاء البلاط فى نشر هذه الأكاذيب واستمالة القلوب من أهالى تبريز واضحًا، وكانوا يرون مصلحتهم فى هذا، ومن العجيب أن السيدين كانا يبديان حسن الظن دومًا تجاه البلاط، وكانا ينخدعان دومًا بحيل محمد على ميرزا.

ولم يكن لنظام الملك – الذى كان يعيش فى تبريز – من مهمة سوى إرسال

التقارير الكاذبة حول جمعية تبريز والمجاهدين إلى محمد على ميرزا وكان يشكو كذلك إلى السيدين.

والخلاصة: ازداد سوء الظن، وبلغ الأمر أن استدعى نواب آذربايجان رؤساء تبريز ونواب الجمعية إلى مكتب البرق فى يوم الاثنين الثانى من شهر تير (١٢ جمادى الأولى) وقاموا بالتباحث معهم، وتم تبادل الرسائل بينهم، ووصلت برقية مطولة من طهران يقولون فيها:

"لقد بلغت مظاهر الفوضى والفتنة مداها فى تبريز هذه الأيام، وتردد ذلك على الألسنة، وبلغ الأمر أن تسبب ذلك فى قلقنا واضطرابنا واستيائنا ليل نهار".

ولما ذاع فى طهران أن أهالى تبريز لا يبالون بدار الشورى ولا يطيعون أوامر جمعيتهم، لذا تساءلوا:

"بداية نود أن نعرف هل قدرة ونفوذ هذه الجمعية المبجلة كاف كى تقوموا بإصلاح واف فى ظل هذا الخلل وتلك الفوضى فى الولاية؟ وهل ما تقولونه إلى أولئك الأهالى صحيح؟ أم أنه غير كاف – لا قدر الله – وينبغى اليأس من هذه الولاية المنكوبة؟ ثانيًا: هل فى عقيدة أهل هذه المدينة فى عاصمة دولة الإسلام هذه وإمبراطورية إيران التى هى مركز السلطنة ومقر مجلس دار الشورى الوطنى المبجل ومقام حجج الإسلام حماة الحرية والنيابية يوجد شىء أو شخص أو نقطة أو إدارة تعتبر واجبة الطاعة وفقًا للعقيدة الإسلامية والقومية الإيرانية أم لا؟ ولو كان ذلك موجودًا، فلتقولوا حتى تُقدم العرائض".

وردوا من تبريز على هذين الاستفسارين الغريبين:

"فيما يتعلق بالسؤال الأول الذى طرحتموه، فإن العلماء والعقلاء والفضلاء فى هذه الولاية مشغولون بالإصلاح هذه الأيام بشكل جاد وواقٍ... وردًا على الاستفسار الثانى، فإن آذربايجان جزء من إيران، ومن الناحية الدينية فهى مسلمة تتبع الشريعة الغراء، ومن الناحية الاجتماعية فهى خاضعة لأوامر الملك ودار الشورى".

ثم قالوا:

"لا وقت الآن للشكوى، لو لديكم شيء فلتقولوه".

فأرسلوا برقية مطولة مرة أخرى من طهران، وردوا عليها من تبريز، ولما كان أساس هذه الواقعة منعدمًا، لم نر الحاجة ماسة لذكرها فى هذا المقام.

تبادل الزيارات بين الضواحى:

كما ذكرنا سالفًا، لم يكن لسوء الظن هذا تجاه تبريز أى أساس من الصحة، لكن ثمة حدث آخر كان يقع فى تبريز. فقد كانت هذه المدينة منقسمة إلى ثمان عشرة ضاحية كانت المنافسة تدور بينها فى الفترة السابقة على ظهور الحياة النيابية، وكان فتوات كل حى يضمرون الحقد والعداء تجاه الآخرين. من ناحية أخرى، فقد انضم معظم هؤلاء الفتوات خلال تلك الفترة إلى المجاهدين، وصارت البنادق والذخيرة فى حوزتهم، ومن هنا كانت الخشية من قيامهم ببعض الأعمال غير اللائقة، وأحيانًا ما كان يحدث شجار بين الجانبين.

من ناحية أخرى، حينما وصلت البرقيات الشاكية من طهران، رأى ثقة الإسلام وغيره ضرورة عقد المجالس للقضاء على تلك الأحقاد والمنافسات، فكتبوا منشورًا إلى البلدية وطلبوا من كل ضاحية استدعاء الشيوخ والرؤساء يوم الأربعاء الرابع من شهر تير (١٤ جمادى الأولى) إلى الجمعية، ليدور النقاش فيما بينهم. ونظرًا لعدم حضور الرؤساء جميعهم فى اليوم المحدد قاموا بتأجيل الجلسة إلى اليوم التالى. ولما حضر الجميع فى اليوم التالى دار نقاش طويل فيما بينهم وحثوا المجاهدين على التضامن والاتحاد مع بعضهم البعض، واقترحوا أن يجتمعوا كل ليلة فى إحدى الضواحى قبل الغروب بثلاث ساعات لتوطيد أواصر الصداقة والوئام بينهم، وأظهر هذا الحدث (أى تبادل الزيارات بين الضواحى) أحد الأحداث العظيمة ذات القيمة فى تاريخ الحياة النيابية.

وبداية توجهوا إلى ضاحية " خيابان "، وهى إحدى الضواحى الكبرى والشهيرة فى تبريز، وأهلها مشهورون بالثراء والحمية وكانوا ضمن الرواد

المطالبين بالنيابية، واجتمع الأحرار والمجاهدون هناك يوم الجمعة السادس من شهر تير (١٦ جمادى الأولى) عصرًا، وقام أهالى الضاحية باستقبالهم، واعتلى المغفور له الشيخ سليم المنبر، وخطب بأحاديث تدعو إلى التضامن والأخوّة وذكر فوائدهما، وحرك القلوب بلغته القروية.

وفى نهاية ذلك اليوم حل الدور على ضاحية "نوبر"، وهى إحدى ضواحى تبريز التى تتمتع بالقوة والثراء، واتجه الأهالى إليها قبل العشاء بثلاث ساعات، وجاء المجاهدون فى أفواج وهم يدقون الأرض بأقدامهم، وملأوا ميدان "مقصوديه" ومسجده، وبعد استقبالهم، اعتلى الشيخ سليم المنبر ثم تبعه السيد ميرهاشم، وتحدثا كذلك عن التضامن والأخوة وفوائدهما، وانتهى اليوم على هذا النحو، وعاد الأهالى إلى دُورهم سعداء مسرورين.

وفى يوم السبت، حل الدور على ضاحية "ويجويه" وهى من الضواحى المهمة فى مدينة تبريز، ولما كان الطريق إليها طويلاً، فقد اشتكا المجاهدون، فتقدم علماء كل حى وساداته الفوج الخاص بهم، وسلكوا طريقهم بالطبول والدفوف والبيارق الملونة. كما قدمت فى هذا اليوم أفواج الأطفال وقد أمسكوا بنادق خشبية، واحتفى أهالى "ويجويه" بالضيوف، وقاموا برش الضواحى بالماء، ومع وصول كل طائفة كانوا يستقبلونها بالمشروبات والشاى، وبلغت صيحات "تحيا الحياة النيابية" المسامع من كل ناحية، وتجمع الأهالى حتى امتلأ مسجد "سفيد" – مقر الاستقبال – والمناطق من حوله.

وفى نهاية يوم الأحد حل الدور على "دوتشى" على نحو ما ذكرنا، حيث تدفقت الأفواج الواحد تلو الآخر، وسعى أهالى "دوتشى" العظماء للاحتفاء بهم بكل ما لديهم، ووفقًا لما نشر على صفحات جريدة "انجمن": أضاءوا عين الأصدقاء وأعموا عين الأعداء"، وهنا أيضًا اعتلى الوعاظ المنبر، وألقوا الخطب، وقاموا بإسداء النصح.

وفى يوم الاثنين رغبوا فى التوجه إلى ضاحية "سرخاب"، ولم يضن الأهالى هنا أيضًا بما لديهم احتفاءً بالمجاهدين، وعلقوا الزينات والمصابيح فى سويقة

سرخاب - وكانت على الطريق - ووقف مجاهدو تلك الضاحية عبر الطريق لاستقبال الضيوف والاحتفاء بهم، ووصلت الأفواج زرافات زرافات فى عظمة وجلال، ومع وصول كل فوج ينال نصيبه من الترحيب والاحتفاء. واعتلى هنا أيضًا كل من السيد ميرهاشم ثم الشيخ سليم ثم ثقة الإسلام - كل فى دوره - المنبر، وخطبوا فى الأهالى.

وفى يوم الثلاثاء حل الدور على ضاحية "باغميشه"، وكانت الزينات ومظاهر الاحتفاء والترحيب تزداد يومًا بعد يوم، فمن ناحية كان كل حى يقوم فى دوره بالاستقبال والاحتفاء، ومن ناحية أخرى كان تعداد الضيوف فى ازدياد، ومع تزايد أفواج المجاهدين كانت تزداد مظاهر الاحتفاء والزينات، لذا بالغ أهالى باغميشه اليوم كذلك فى احتفائهم، وعلقوا الزينات على طول الطريق بداية من البوابة وحتى مقار الشرطة، واصطف مجاهدو الحدود عبر الطريق، وكانوا يؤدون التحية العسكرية لكل فوج يصل إليهم.

من ناحية أخرى تدفقت أفواج الأهالى هناك رغم بعد الطريق حتى امتلأت الشوارع عن آخرها بالبشر.

وفى يوم الأربعاء حل الدور على ضاحية "أمير خيز"، وأقام الأهالى هناك أيضًا الزينات على طوال الطريق، ووقفوا على امتداد الطريق للاستقبال، وكانت الأفواج تصل فى حشود غفيرة، ومعهم العلماء والسادة ورواد الحرية، كذلك كان المشاهدون يصلون فى جماعات من كل صوب وحدب، واعتلى الوعاظ المنبر هنا أيضًا، وألقوا الخطب فى الحضور.

وفى يوم الخميس رغبوا فى التوجه إلى الأحياء الغربية من المدينة - أى ليلاوا، والأهراب وچرنداب - وأقاموا الزينات عبر طرقها، وبين المسافة والأخرى وضعوا أريكة ومقعدًا وأعدوا الشاى والمشروبات والغليون، وقاموا بتعليق السجاجيد الباهظة الثمن ووضعوا المزهريات على الطرق. ولما كان حى أرمنستان يتصل بهذه الضواحى، لذا انضم الأرامنة إليهم، وتعاونوا معهم فى استقبال الوافدين وتعليق الزينات.

وقبل العشاء بخمس ساعات ازدادت وفود المجاهدين ومجاميع المشاهدين، ومع هذا الاحتشاد بدا المكان ضيقًا، ورغم هذا الزحام الشديد لم يُشاهد أى شخص سوى الحب والمودة من الآخرين، ولم يحدث قط أن نشب صراع أو عراك بين الحشد. ومع نهاية اليوم، اعتلى الشيخ سليم والسيد ميرهاشم المنبر، وقاما بالوعظ كما خطب الشيخ على أصغر ليلاواى فى الحضور.

وفى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر تير (٢٣ جمادى الأولى) حل الدور على ضاحية "هكماوار"، ولما كانت هذه الضاحية بعيدة وتعتبر من منتزهات المدينة، لذا بدأ توافد الأهالى إليها منذ الظهيرة، وقام أهلها كذلك – رغم فقرهم – بكنس الأحياء ورشها بالمياه وتزيينها بداية من البوابة وحتى ميدان "حاجى حيدر" – مقر الاستقبال – وأعدت غرفة كانوا يحضّرون فيها الشاى والمشروبات والغليون من كل ناحية. وكان هذا دليلاً على مروءة الأحرار، حيث إنهم لم يتناسوا هذا المكان رغم بعده وصغر مساحته، ولم يخرجوه من حساباتهم.

ومع حلول الليل زاد احتشاد الأهالى حتى امتلأت الأحياء عن آخرها بالبشر، واعتلى هنا أيضًا كل من الشيخ سليم والسيد ميرهاشم وحاجى شيخ على أصغر – كل فى دوره – المنبر وقاموا بالوعظ.

ومع نهاية يوم السبت رغبوا فى التوجه نحو "ششكلان"، وتعتبر هذه الضاحية من أثرى الضواحى فى تبريز، ومعظم أهلها من الأعيان وأفرطوا فى استقبالهم واحتفائهم بالضيوف وإقامتهم للزينة، لقد علقوا الزينات على طوال الطريق بداية من محال مجيد الملك وحتى مسافة بعيدة وبسطوا الفرش والورود، وزينوا جميع الحوانيت، ونصبوا الخيام أمام المنازل واستعدوا لاستقبال الضيوف وأعدوا غرفة لذلك، وكتبوا أشعارًا فى مدح النيابية والثناء على الحرية بخط عريض وواضح على لافتات علقوها على الجدران.

وقبل العشاء بثلاث ساعات حيث بدأ ذهاب الأفواج وإيابهم امتلأت "ششكلان" بأصوات الطبول والدفوف، وسُمعت صيحات "١ –٢" من كل ناحية، واصطف فوج مجاهدى "ششكلان" عبر الطريق يؤدون التحية العسكرية للضيوف.

وعلى هذا النحو من التبجيل والتعظيم انتهى الاستقبال دون أن يضن الأهالى عن إبداء أى نوع من أنواع الاحتفاء. وارتفعت الصيحات اليوم أكثر من أى يوم آخر بحياة أهل طهران والنيابية ومجاهدى إيران.

وفى عصر يوم الأحد رغب قادة الدولة ورجال المدفعية فى استقبال أفواج المجاهدين والأحرار فى ميدان المدفعية، وعلقوا الزينات كذلك عبر الطرق بداية من بوابة السوق والمنازل حتى ميدان المدفعية، وأعدت طائفة من القادة مكانًا لاستقبال الضيوف والاحتفاء بهم، وقبل العشاء بساعتين بدأ تنقل الأفواج ومجاميع الأهالى وتم الاحتفاء بهم، وتأثر المجاهدون والأحرار من هذا الاستقبال الحار ومن ذلك الاحتفاء الأخوى.

على هذا النحو انتهى تبادل الزيارات بين الضواحى، وكانت العشرة أيام تلك من أكثر أيام تبريز سعادة وحمية. وكما ذكرنا، لم يكن المجاهدون بمفردهم فى تبادل الزيارات هذا، فقد شاركهم الأهالى كذلك. ومن رأى تلك الأيام مرأى العين يعلم أية سعادة وبشاشة بدت على وجوه الأهالى آنذاك، وكيف كانوا يتعاملون معًا بمحبة وود. وكان العلماء والرواد – الذين اقترحوا هذا – يرغبون فى زيارات بسيطة، وكما رأينا، بدأت بسيطة، لكن نظرًا لأن كرم الضيافة هو أحد سمات الإيرانيين، ولأهالى تبريز الريادة فى ذلك الكرم، لذا كانت كل ضاحية تضاعف مظاهر الاستقبال والاحتفاء. وتدريجيًا ازدادت مظاهر الزينة والتعظيم، وانبسطت موائد الاستقبال بشكل أكثر. من ناحية أخرى، كان تعداد الأهالى، وكذلك الحمية والثورة فى ازدياد يومًا بعد يوم، وكانت الأسواق تغلق كل يوم بعد المغرب، ويتجه الأهالى إلى الضاحية التى يحل عليها الدور فى الاستقبال، كأنه العيد الكبير، وعاش الأهالى جميعًا فى سعادة وسرور.

وفضلاً عن المارين ذهابًا وإيابًا عبر الطرق، امتلأت أسطح المنازل بالمشاهدين من النساء والرجال، والأكثر عجبًا فى ذلك كله هو تنقل أفواج المجاهدين وأصوات طبولهم ودفوفهم. لقد أفضت جهود بضعة أشخاص من أهل السوق خلال عدة أشهر إلى ظهور هذه الجماعات الحربية المنسقة.

وكان يُشاهد خلال عمليات الذهاب والإياب تلك إلى أى حد نمت هذه المجاميع خلال شهر واحد. حقيقة إن واقعة إغارة ابن رحيم خان والخشية التى عمت المدينة بسبب ذلك حثت العديد من أهل تبريز على شراء البنادق والذخيرة والانضمام إلى المجاهدين، لكن ما حث العديد منهم الآن هو ذلك الاحتفاء وذلك الصمود، وكان تعداد هذه المجاميع وتلك الحشود فى ازدياد يومًا بعد الآخر.

هكذا امتلأت القلوب بالأمل والأمانى، وظن كل فرد أن الحقد والفرقة قد زالا عن تبريز، وما من أحد كان يعلم أية أيام محزنة فى الطريق، ولم يفكر شخص قط أن يومًا سيأتى يحل فيه العراك وإراقة الدماء محل هذه الأخوة وذلك التضامن، وأن هذه الضواحى التى تصالحت وتعاضدت سيناصب بعضها البعض العداء، وأن هذه المنازل وتلك الجدران المزدانة الآن سوف تدمر بطلقات المدافع والبنادق.

ويقال إن آقا ميرتقى نوبرى – وهو رجل بسيط حسن الطوية – لقب أثناء تبادل الزيارات هذا بـــ " قلج آقا " – أى سيف أغا – حيث كان يمسك سيفًا مستلاً فى يده دومًا وهو بذلك الرداء الطويل وتلك العمامة السوداء ويقف أمام فوج مجاهدى نوبر ويبدى كثيرًا من الحمية والتأثر.

الاضطرابات فى مدن آذربايجان:

فى تلك الفترة التى عمت فيها مظاهر الاحتفال والسعادة فى تبريز، عمت الاضطرابات العديد من مدن آذربايجان كماكو، وأرومى وأردبيل. ففى ماكو، كان الأكراد – كما ذكرنا سالفًا – يغيرون على القرى، وبذلوا ما فى وسعهم لإلحاق الأذى بالأهالى، وفى كل لحظة كانت الأنباء المحزنة تصل متتالية من هناك، وكما شاهدنا، كثيرًا ما أبرقت جمعية تبريز إلى طهران فى هذا الشأن دون جدوى، وأثمر ذلك فى النهاية عن صدور الأوامر من طهران بأن يقوم نظام الملك بإرسال إجلال الملك إلى ماكو للتحقيق معه فى الحادث وأن يتم التباحث مع إقبال السلطنة، ولما لم يكن هناك سوى هذا الحل، فقد ارتضته الجمعية، وأرسلت السيد تقى شجاع

الملك – أحد التجار المطالبين بالنيابية – برفقة إجلال الملك ليكون مندوبًا عنها.

وفى أرومى، كانت المباحثات حول الحدود تدور مع العثمانيين، وكانت بعض الكتائب العثمانية العسكرية قد تجاوزت الحدود الإيرانية (سنورد قصة ذلك فيما بعد) لذا انتهز الأكراد الفرصة، وقاموا بأعمال السلب والإغارة، وهاجموا القرى، وأقاموا المذابح، وألحقوا الأذى بالقرويين المساكين. ولما كان اليأس من الدولة، جهز مجد السلطنة – أحد قادة جيش الدولة، وكان من المؤثرين فى الثورات الشعبية – جيشًا بنفسه كى يبادر هو بسحقهم، وطلب العون من جمعية تبريز، وأرسلت الجمعية بدورها فريقًا من المجاهدين وبعض المعدات الحربية.

أما عن أردبيل، فكما أسلفنا الذكر، فضلاً عن الانقسام هناك بين الحيدرية والنعمتية، كان اثنان من كبار رجال الدين يعيشان فى تلك المدينة، هما: آقا ميرزا على أكبر وحاجى ميرزا إبراهيم، وكان النزاع والتنافس بينهما مستمرًا. كان آقا ميرزا على أكبر هذا من رجال الدين غريبى الأطوار حيث كان يبدى انتماءه التام إلى المذهب الشيعى (أى إلى الشريعة) وتحدث قدر استطاعته عن الحكومة الشرعية، وكان يحصّل الزكاة والخمس من أتباعه. وكما كان يقول الأهالى، كان يقوم بالبت فى الشكاوى وإصدار الفتاوى، ولم يكترث بالدولة ولا بالحكومة ولا بالشعب وما أشبه. لقد كان أحد رجال الدين المماثلين للحاج الشيخ فضل الله والسيد كاظم اليزدى، والخلاف بينه وبينهما أنه لم يكن لديه حب الجاه والعظمة كالحاج الشيخ فضل الله ولا خداع السيد كاظم، بل كان رجلاً بسيطًا حسن الطوية، وما كان يحصل عليه من الأهالى كان يستخدمه لتحقيق مصالحهم.

لقد كان نموذجًا آخر من المطالبين بالشريعة، فلم يكن يعرف سوى طريقه، ولم يبد تضامنًا مع النيابية وأسس الجمعية وفق رغبة الأحرار وهو جاهل بمعنى النيابية. فكما ذكرنا، لم يكن لهؤلاء مفهوم واضح تجاه الثورة سوى أنها صراع مع الحكومة، ولم يروا نتيجة لها سوى رواج الشريعة. وحينما قامت الثورة المطالبة بالحياة النيابية وتأسست الجمعيات فى المدن كافة، قام هذان الرجلان أيضًا فى

أردبيل وأنشأ كل منهما جمعية، ودار الصراع بين الحيدرية والنعمتية، واستدعى كلاهما إحدى طوائف الشاهسون المغيرة لمؤازرته، وأفسحا المجال فى المدينة للنزاع.

وكما ذكرنا، أرسلت جمعية تبريز آنذاك نوابًا لإغلاق كلتا الجمعيتين وتم تأسيس جمعية أخرى لأهالى المدينة كافة. وعلى هذا النحو خمدت نار الفتنة، وعم الهدوء وبخاصة بفضل الحنكة التى أبداها رشيد الملك حاكم أردبيل. لكن لما كان رشيد الملك آنذاك فى قره داغ وجد رجال الدين الميدان فسيحًا لهم، وأظهروا العداء بينهم ثانية ودار التنافس فيما بينهم واستدعى كل منهم إحدى طوائف الشاهون إلى المدينة لمؤازرته، وصار هذا باعثًا لتدهور الأوضاع، وانتشرت الاضطرابات سواء داخل المدينة أو خارجها.

وأبرق الأهالى إلى دار الشورى وإلى جمعية تبريز يطالبون بالإنصاف وبادرت الجمعية على الفور لإيجاد الحل، وأصدرت أمرًا بعودة رشيد الملك إلى أردبيل، كما انتخبت النواب التالى ذكرهم لإرسالهم إلى هناك، وهم: الشيخ إسماعيل الهشتوردى، شريف العلماء، الحاج سطوة السلطنة، الحاج معتمد همايون والحاج إسماعيل أمير خيزى. وبادروا بالتوجه إلى أردبيل، ووصلوا إليها قبل عودة رشيد الملك وأنهوا النزاع عن طريق الوساطة والمباحثات. وبعد فترة وصلت برقية من قبل آقا ميرزا على أكبر وحاجى ميرزا إبراهيم، ورد فيها:

"لقد تم تهيئة أسباب الود والمحبة وإزالة الخلافات بشكل تام ببركة الأنفاس المقدسة لجناب المستطاب صاحب الشريعة آقا شيخ إسماعيل آقا سلمه الله تعالى، وكذلك بفضل إجراءات الوفد المبجل واهتمامه البالغ دامت توفيقاته".

مقتل سعد السلطنة فى زنجان:

أما مدينة زنجان فقد نشبت فيها ثورة دامية، وكانت زنجان إحدى المدن التى تفتقد أسس الحياة النيابية، ولم تتقدم الحركة المطالبة بالحرية فيها، لقد أقيمت الجمعية هناك إلا أنها كانت غاية فى الضعف. وكما ذكرنا، لقد ظهر التمرد

والطغيان فى العديد من المدن نتيجة لمساوئ البلاط، وهنا أيضًا قام مظفر السلطنة – وكان رئيسًا لإحدى الكتائب – وحث فرق التدريب الموسيقى لإلحاق الأذى والظلم بالأهالى، وكان تجار زنجان يجلسون فى مكتب البرق لفترات متأخرة من الليل ويطالبون طهران بالإنصاف. من ناحية أخرى، فإن ثمة رجلاً غريب الأطوار كان يوجد هنا أيضًا ويدعى آخوند ملا قربان على، كان يتولى أزمة الأمور ويمنع الأهالى عن تأييد الحياة النيابية، وكان من مؤيدى الحكومة الشرعية وكان له الحكم على زنجان وما حولها ويحقق فى الدعاوى ويصدر الفتاوى ويقوم بالقصاص وإقامة الحد ويحصّل الزكاة ومال الإمام. لقد كان ملكًا يحكم دون تاج أو عرش، وكان كذلك من رجال الدين الذين لا يأبهون بالدولة ولا بالشعب ولا بالوطن وما أشبه، لقد كان بعيدًا عن مثل هذه المفاهيم، ولم يكن يقتفى أثر شىء سوى بلوغ الزعامة الدينية، كان يشبه ميرزا على أكبر الأردبيلى فى عدم اكتنازه للأموال، ويعيش فى حالة من الفقر لذا حظى بالسمعة الطيبة والمكانة الرفيعة بين أتباعه، وبلغ صيته معظم المدن.

لقد كانت قوة ميرزا على أكبر تفوق علمه، لذا لم ينل المكانة بين رجال الدين أنفسهم، لكن آخوند كان يعتبر أحد العلماء والمجتهدين ذوى الصيت. ولما كان هذا الرجل وقصته نموذجًا جيدًا لقلة العلم والطوية المعوجة فى بعض رجال الدين، لذا نتحدث عنه فى هذا المقام، لقد كانت إحدى سماته قسوة القلب، كان يعشق إراقة الدماء، ويقال إنه أصدر فتوى ذات مرة تفيد بقتل أحد الأشخاص ثم أمر بفصل رأسه عن جسده فى الميدان العام.

وعلى أوقات متقاربة وجد مثل هذا النوع من رجال الدين فى زنجان، فثمة شخص يدعى ملا محمد على قد تمرد على الحكومة فى عهد محمد شاه، ثم جاهر بالعراك فى عهد ناصر الدين شاه تحت مسمى البابية، وهذه القصة توضح أحد الأحداث التاريخية العجيبة. أما الشخص الثانى فكان ملا قربان على هذا الذى أوردنا ذكره. وجدير بالذكر أن ملا محمد مع ذلك العمل الأحمق الذى بدر منه إلا أنه اختتم حياته بشكل أفضل من نظيره السابق.

كان ذلك الرجل يبلغ قرابة التسعين من عمره آنذاك، ورغم كهولته إلا أنه لم يبد خورعزم، ولم ينحل من يديه زمام الحكم وكان يحول دون ميل الأهالى إلى الحياة النيابية.

فى تلك الأثناء، كان سعد السلطنة يحكم فى زنجان – وكان يحكم فى قزوين فى عهد ناصر الدين شاه، ومكث بها ستة أعوام وسعى كثيرًا لإعمار تلك المدينة، وبصفة عامة كان يتسم بحسن السمعة – وقد أبدى فى تلك الفترة سلوكًا طيبًا فى هذه المدينة، ومع كثرة أتباع ملا قربان على إلا أنهم لم يثنوه عن عزمه فاستاءوا منه.

وفى الثالث من شهر تير (١٣ جمادى الأولى) رغب أحد خدام الحكومة فى إحضار الشيخ عبد الله إلى إدارة الحاكم ففر الشيخ عبد الله واتجه إلى منزل ملا قربان على واعتصم فيه، ولما علم أتباع ملا قربان على – ومعظمهم من الأوباش والفتوات – بحقيقة ما حدث، تتبعوا أثر الخادم، وأمسكوا به وأفرطوا فى ضربه وجرحوه ثم قصوا له شاربه، وقالوا له:

"امض واخبر سعد السلطنة".

وفى ذلك اليوم تقابل سعد السلطنة بأحد هؤلاء الأوباش ويدعى السيد بشير وذلك أثناء مروره من ميدان سبزه، وأمر باعتقاله، وضربوه ضربًا مبرحًا فى إدارة الحكومة، ثم أطلقوا سراحه. ولما بلغ نبأ ذلك إلى ملا قربان على، قال:

"يجب أن تنفى الحكومة فى الغد".

وليلاً أطلع عملاءه الطلاب وغيرهم بالأمر، واستدعوا الأهالى من الأماكن المعمورة القريبة من المدينة. ومع بزوغ النهار فى غد ذلك اليوم اجتمع أتباعه – قرابة الستمائة شخص – حول منزل الآخوند. ولما شاع أن الآخوند سوف يصدر حكمًا بالجهاد، حمل معظمهم الأسلحة والمدى والخناجر، وامتلأت أذيال أردية

البعض بالأحجار، واندفعوا بداية إلى السوق برسالة من الآخوند، وقاموا بإغلاق الحوانيت التى كانت مفتوحة ثم وقفوا فى وضع الاستعداد يترقبون تلقى الأوامر.

وصدر أمر الآخوند:

"امضوا تجاه ميدان المدفعية".

وانصاع الجميع، واصطفوا فى أحد أركان الميدان أمام مبنى الحكومة، وعين سعد السلطنة بعض الجند للحراسة أمام البوابة، لكنهم لم يطلقوا طلقة واحدة لذا انبسطت الألسنة بالمذمة ولم يرد الجند، فتشجعوا، وأطلقوا عدة طلقات.

فى تلك الأثناء وصل واحد من أهل السوق يدعى نصر الله مع شخص آخر من المطالبين بالنيابية إلى الميدان، فأطلق رجال الآخوند وابلاً من الرصاص عليهما، وأسلم نصر الله الروح بعد نصف الساعة. وبعد ساعة اعتلى جند الحكومة أحد الأسطح وأطلقوا عدة طلقات فى الهواء لإدخال الرعب فى نفوس الأهالى، ووجد رجال الآخوند الفرصة مواتية، وقام بعضهم – ممن لديهم بنادق – بالعراك، واندفع الأهالى نحو مبنى الحكومة، وقاموا بأعمال السلب والنهب، وحملوا معهم كل ما وجدوه فى طريقهم، وخلّعوا الأبواب والنوافذ. وحمل سيدان واثنان من رجال المدفعية سعد السلطنة إلى إحدى الحجرات الداخلية وألحقوا به الأذى ثم جرحوه بالمُدى والخناجر، كما جرحوا الخدام كذلك. وحمل نبىُّ الخادمُ سعدَ السلطنة على كتفيه وذهب به إلى ميرزا حاجى وزير – أحد أثرياء زنجان – كى يضمدوا جراحه هناك.

ولما سمع ملا قربان على بذلك أمر بالمضى إليه وإخراجه من هناك، واتجه الأوباش إلى منزل حاجى وزير ورغبوا فى الإغارة عليه، فتقدم أسعد الدولة وغيره وحالوا دون ذلك. واضطر حاجى وزير إلى إخراج سعد السلطنة، فأخذته جماعة من الأوباش بجراحه تلك، وأجلسوه فى إحدى العربات، وحينما بلغوا به خارج المدينة أطلقوا سراحه، فتوجه ذلك المسكين الكهل إلى سلطانية وتوفى هناك

بعد فترة وجيزة متأثرًا بجراحه.

وكان هذا نموذجًا لحكم رجال الدين بالجهاد، وسوف نرى مثل هذا السلوك المعوج من ملا قربان على فى حادث عظيم زاده.

وما يثير الدهشة، أنهم عندما قاموا بذلك، أبرقوا فى خبث إلى دار الشورى على لسان الأهالى، يقولون:

"لقد تجاوزت تعديات سعد السلطنة كل الحدود، لقد ألقى بأحد الأشخاص فى جب ضيق، وأراد أن يغتصب فتاة وتوجه إلى منزل السيد وتحصن فيه، ولم يكن للسيد يعقوب أية مستحقات ضريبية إلا أنه حصل منه على مبلغ ثلاثمائة طومان دون وجه حق".

من ناحية أخرى أرسل ابن شقيق الآخوند برقية إلى محمد على ميرزا تقترب فى مضمونها من التالى:

"كان سعد السلطنة من المطالبين بالنيابية، ورغب فى تأسيس النيابية هنا أيضًا، فطردناه من المدينة".

وتم مناقشة هذه البرقية فى المجلس إلا أن محمد على ميرزا لم يكترث بالبرقية الأولى وأخفى البرقية الثانية، وبعد يومين من هذا الحادث، وصلت برقية حاجى الشيخ فضل الله وأتباعه – وقد ذكرنا أنهم أرسلوها إلى جميع المدن – إلى زنجان، وسر ملا قربان على منها، وتوجه إلى المسجد وجمع حوله الأتباع، وجعل يذم الحياة النيابية والمطالبين بها.

وبشكل عام، لم تصمد النيابية فى هذه المدينة، ومنذ ذلك الحين كانت زنجان فى يد ملا قربان على وأتباعه. ودار نقاش فى المجلس فى جلسة يوم الثلاثاء العاشر من شهر تير (٢٠ جمادى الأولى) بعدما وصلت برقية جمعية زنجان، وأبدى المغفور له طباطبائى – كعادته – تأييده إلى ملا قربان على، قائلاً:

"لا يخرج جناب الآخوند فى أى وقت قط من منزله، ولم يقم بشىء، إن هذه الأعمال من فعل رجاله".

ولم يكن هذا الحديث مستبعدًا، فلم يكن لملا قربان على وهو فى هذه المرحلة العمرية القدرة على القيام بمثل هذه الأعمال، وكان ابن اخيه وغيره هم الذين يقومون بمثل هذه الأعمال باسمه، لكن هذا لا يعنى أنه كان يجهل ما يحدث تمامًا.

وفى فترة مقاربة لذلك الحدث وقع حدث آخر فى قزوين تلك المدينة المجاورة لزنجان، فكما ذكرنا، أرسل حاجى الشيخ فضل الله وأتباعه بعض الأشخاص لإثارة الفتن فى المدن، وذلك قبل أن يخرجوا من طهران، وكان أحد هؤلاء هو ميرزا على تقى ابن السيد أحمد طباطبائى حيث اتجه إلى قزوين. وفى هذه المدينة كان يوجد السيد جمال وهو أحد رجال الدين المعادين للحياة النيابية، وكان أحد المسيئين مثيرى الفتن، وقد حل ميرزا على تقى ضيفًا عليه فى منزله، وبعد النقاش، اتفقا على السعى لإثارة الفتن فى المدينة. وليلاً، استدعى السيد جمال فتوات المدينة وأوباشها إلى منزله وقام بتقسيمهم إلى مجموعات، وأرسل كل مجموعة إلى منزل أحد رواد الحرية كى يقبضوا عليه ويقتلوه.

فى تلك الأثناء، حيث كانت كل مجموعة فى طريقها المحدد لها وصل فجأة شخص من مكتب الهاتف وذكر حادث مسجد الجمعة، حيث نصب أتباع حاجى الشيخ فضل الله الخيام وتم عرقلة الأهالى لهم وتم الظفر فى النهاية للأحرار. فخشى السيد جمال الدين عند سماع تلك الأنباء وأرسل البعض لإعادة تلك المجموعات، ولم يبق منها سوى واحدة كانت قد اتجهت بالفعل إلى منزل ميرزا غفار، ودار عراك بين أفرادها وبين أتباع ميرزا وتم جرح البعض منهم.

وفى الغد ثار المجاهدون حينما علموا بذلك الحادث وكاد الأمر يفضى إلى إراقة الدماء فى قزوين، وقد حال شيخ الإسلام وابنه ميرزا حسن رئيس المجاهدين دون ذلك، وتم نشر هذا الحادث فى صحيفة "الاتحاد".

الاحتفال بالذكرى السنوية للسيد عبد الحميد والسيد حسين:

نعود الآن إلى طهران، فقد وقعت هنا أيضًا بعض الأحداث أثناء الصراع الذى دار بين النيابية والشريعة، أحد هذه الأحداث هو التحقيق فى موضوع بيع فتيات القوتشى. فكما ذكرنا، كان هذا الموضوع محل نقاش منذ افتتاح المجلس، ورغب المجلس فى إعادة تلك الفتيات إلى دورهن والتحقيق مع المتورطين فى هذا الأمر ومحاكمتهم؛ لذا استدعى آصف الدولة - والى خراسان - وسالار مفخم البجنوردى - قائد الفرسان هناك - إلى طهران، وألح على التحقيق معهما ومحاكمتهما. وتم انتخاب ستة من النواب - وكان السيد تقى زاده من بينهم - للإشراف على هذا الأمر. هذا وتم عقد الجلسات فى المحكمة فى حضور وزير العدل وآخرين، ودارت التحقيقات فى هذا الصدد، وقامت صحيفة المجلس وكذلك صحيفة الحبل المتين بتدوين تلك الاستجوابات ونشرها على الأهالى.

أما الحدث الآخر فهو خلع كاميران ميرزا من وزارة الحربية. فكما ذكرنا، قبض هذا الرجل على وزارة الحربية بكلتا يديه، ولم يكن على استعداد قط للتخلى عنها، ورغم كونه أحد الوزراء إلا أنه لم يخط خطوة إلى المجلس، بل كان يبدى عداءه الشديد له، وكان كالعهود السابقة، يبدى غطرسة وكبرياء، وفى يوم الخميس الخامس من شهر تير (١٥ جمادى الأولى) دار حديث فى المجلس حول مساوئه، وصوت النواب لخلعه من الوزارة.

والحدث الثالث هو إقامة الذكرى السنوية للسيد عبد الحميد والحاج السيد حسين وهما من أوائل ضحايا الحرية، ولما كان يوم الثامن عشر من جمادى الأولى يوافق ذكرى مقتل السيد عبد الحميد، ويوم العشرين من جمادى الأولى يوافق ذكرى مقتل حاجى السيد حسين، لذا عزمت جمعية اتحاد الطلاب على إقامة مراسم فخمة تخليدًا لذكراهما فى الثامن عشر من جمادى الأولى (٨ تير)، واستعدوا لهذا الأمر منذ عدة أيام، حيث غطوا شاهد قبر السيد عبد الحميد فى مسجد الجمعة بقطع القماش السوداء وباقات الورود، كما غطوا ساحة المسجد بقطع

القماش السوداء، وأعدوا مراسم ختم القرآن والعزاء. ولما حل اليوم المحدد كان الأهالى يتوافدون فى جماعات ويتلون الفاتحة على طريقة المسلمين، ثم يضعون باقات الزهور فوق شاهد القبر على طريقة الأوروبيين ثم يخرجون من البوابة الأخرى. كما جاءت جماعات من لواء القوازق وقوات حرس الحدود لوضع باقات الزهور ثم رحلت. وفى نهاية اليوم، اجتمع هناك جميع الوزراء مع العلماء ونواب المجلس وغيرهم، وزاد التجمهر حيث امتلأت أسطح المنازل، وفى البداية، تُلى القرآن ثم اعتلى الحاج الشيخ محمد الواعظ المنبر، وقص حكاية إطلاق الرصاص على السيد عبد الحميد بالنحو الذى شاهده بنفسه، قصَّهُ على طريقة قراءة الروضة وأبكى الأهالى. بعد ذلك قدم تلاميذ المدارس بملابس الحداد والبيارق السوداء وهم ينشدون، وقامت كل جماعة منهم فى دورها بإلقاء خطبة أمام القبر، ثم قاموا بوضع باقات الزهور ثم رحلوا. وأثناء رحيلهم كانت النساء تقمن بإلقاء الأزهار فوق رءوسهم من فوق الأسطح.

بعد ذلك قدم مندوبو جمعيات طهران لوضع باقات الزهور ثم خرجوا. وألقى السيد جمال الواعظ وملك المتكلمين وغيرهما الخطب، وظلت الجلسة منعقدة حتى قبل العشاء بنصف الساعة واستمر ذهاب الأهالى وإيابهم إلى هذا المكان حتى مرور ثلاث ساعات من الليل، وقضت طهران ليلة بديعة.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها إقامة مراسم العزاء فى إيران وفقًا للأسلوبين الإيرانى والأوروبى، وسوف نرى أن هذا المكان كان ضمن الانتقادات التى أبداها المعتصمون فى حضرة الشاه عبد العظيم تجاه المطالبين بالحياة النيابية. هذا وقد دونوا أشعارًا فى صحيفة جمعية تبريز وكانت تتلى فى هذه الجلسة أمام قبر السيد عبد الحميد، ونوردها فى هذا المقام:

- منذ ذلك اليوم الذى خلعت فيه الرداء عن دار الفناء، تخلينا عن أرواحنا ولم نتخل عن دمائك.

- كل قطرة دماء سالت من جسدك، حملناها ومزجناها بدماء قلوبنا.

– كل ما أخفوه ولم يتفوهوا به فى طريق الوطن، تفوهنا به ودوناه على قارعة الطريق.

– حمدًا لله أننا لم نمت وشاهدنا اخضرار كل بذرة بذرناها منذ حين.

– على ذكرى تلك اللحظة التى واريناك فيها التراب، نضع باقة الزهور هذه على مزارك.

فى نفس هذه الأيام ازدادت الشكاوى من حاجى آقا محسن، وفى جلسة الرابع عشر من شهر تير (٢٤ جمادى الأولى) تليت فى المجلس برقية وصلت من العراق، مفادها:

"لقد دخل صمصام الممالك – المسئول عن تحرك حاجى آقا محسن– المدينة، وقبل أن يقوم بأى عمل أرسل حاجى آقامحسن الأشرار وغلقوا الحوانيت، والبارحة انشغلت جماعة بإطلاق الرصاص من فوق أسطح الأسواق، وسلبوا المدينة الأمن والأمان، فلتبادروا بعلاج الأمر".

(جمعية العراق المحلية)

وأدى هذا الحادث إلى قيام بعض النواب بخدمة الأتابك. حقيقة أن حيل الأتابك وخدعه كانت شائعة فى ذلك العهد، وكان كل شخص يعلم أن نشوب الفتن وإراقة الدماء فى هذه الناحية أو تلك من الدولة لم تكن لتقوم إلا بتحريض منه، وقد شاع هذا الحديث منذ فترة وكتبت صحيفة الحبل المتين مقالات مهمة فى هذا الشأن، حيث قالت:

"إن الدولة كانت تعيش فى أمان حتى شهر مضى، وكان مؤيدو الاستبداد عاجزين، لكن الفتن نشبت خلال هذا الشهر فى العديد من أطراف الدولة، ويُشاهد مؤيدو الاستبداد وقد صاروا أكثر جرأة وقوة".

وقامت الصحيفة بإحصاء الفتن التى نشبت، ثم تساءلت:

"حسنًا، ما الجديد الذى حدث فى هذا الشهر؟!... هل تغيرت هيئة النواب؟!... هل قدم شخص جديد؟!...".

وتركت الإجابة على هذه الاستفسارات إلى قريحة القراء.

لقد كان الأتابك يسعى قدر طاقته للتحكم فى الأمور، وكان مؤيدوه يحاولون قدر طاقتهم التستر على الأمور، سواء فى المجلس أو فى غيره من الأماكن، لكن الحقيقة لم تبق مستترة، وكان لزامًا أن تظهر إن آجلاً أم عاجلاً، وازدادت نسبة من يسيئون الظن به يومًا بعد يوم، وبلغ الأمر اليوم أن أداروا الحديث فى المجلس بشأنه، وأطلقوا عليه علانية لفظ "الخائن".

تدوين لائحة المعتصمين:

والآن نعود ثانية إلى قصة المعتصمين. فكما ذكرنا، أنهم أرسلوا البرقيات بداية إلى المدن، ولما كانوا يأملون فى نتيجة فقد ظلوا على حالتهم تلك. هذا وقد أقاموا مجلسًا دينيًا عجيبًا، وكان الحاج الشيخ فضل الله يؤمهم للصلاة كل ليلة فى الساحة ثم يعتلى المنبر ويقوم بذم الحياة النيابية والمجلس.

وقد رغبوا أثناء ذلك فى توزيع المنشورات بين الأهالى، لكن ما من مطبعة فى طهران وافقت على طباعة تلك المنشورات، لذا لجأوا فى البداية إلى تدوينها بخط جيد وطبعوا نسخًا منها ووزعوها بين الأهالى. لكن بدا واضحًا أن هذا الأمر يستلزم الكثير من النفقات، فاضطروا إلى إنشاء مطبعة خاصة بهم، وقاموا بشراء الحجر الخاص بذلك مع المعدات اللازمة من السيد مرتضى برغانى بمبلغ مائة وثلاثين طومان، وحملوا تلك المعدات ليلاً إلى حضرة الشاه عبد العظيم وقاموا بعملهم هناك، وهذا ما أوجد انفتاحًا فى عملهم. وفى أواخر شهر تير قاموا بالانتهاء

من إعداد اللوائح الخاصة بهم، وتوجد نسخ عديدة منها لدينا، وقد كتبت بخط جميل بعضها بخط النستعليق والآخر بخط النسخ وتم طبعها [١].

إنهم لم يستطيعوا تدوين صحيفة، أو لم يكونوا راغبين فى ذلك، لذا أطلقوا على كتاباتهم اسم "اللائحة" وأخرجوها على نحو آخر، فلم يسوقوا الحديث فيها حول أكثر من موضوع مثلما تفعل الصحف، واختصت كل لائحة بموضوع محدد. على سبيل المثال، اختصت إحداها بمطالبهم التى انحصرت فى ثلاثة أمور. واختصت أخرى بما ورد على لسان حاجى الشيخ فضل الله من أفكار وانتقادات موجهة إلى المجلس. واختصت ثالثة بما ورد على لسان السيد أحمد طباطبائى حول بواعث إعراضه عن النيابية. واختصت رابعة بنشر برقية آخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندانى إلى المجلس التى قامت الصحف بنشرها (وهى نفس البرقية التى أوردناها)، وكانوا يعلقون عليها بقولهم:

"نحن كذلك نريد مجلسًا بالشروط التى ذكرها المجتهدان، لكن المجلس الموجود حاليًا لا تتوفر فيه هذه الشروط".

ودار نقاش فى إحدى هذه اللوائح حول البرقية التى أرسلها آخوند خراسانى وحاجى الشيخ فضل المازندرانى بوساطة حاجى الشيخ فضل الله إلى المجلس، ويقول حاجى الشيخ فضل الله أنه قد أرسلها إلى رئيس المجلس قبل خروجه من طهران، ونتيجة لانعدام وجود هذه البرقية فى أى موضع آخر، فإننا نوردها فى هذا المقام:

"من النجف الأشرف، بوساطة جناب حجة الإسلام النورى دامت بركاته، إلى مجلس الشورى الوطنى المبجل شيد الله تعالى أركانه، إن البند الشريف الأبدى

---

(١) قام ميرزا محمد على خان تربيت بنشرها فى كتاب دونه حول صحف إيران كما ترجمها البروفسور إدوارد براون إلى الإنجليزية، وقيل إن هذه اللوائح صدرت حتى العدد التاسع عشر، لكن هذا يخالف الواقع حيث إن أعدادها تفوق هذا الرقم. لقد دونوها بداية بخط النستعليق ووضعوا التاريخ أو العدد على بعض منها، هذا وقد رأيت بنفسى هذه اللوائح حتى العدد (١٥)، ويقال إن الكاتب تغير بعد ذلك، ودونت هذه المرة بخط النسخ، وبدأ الإحصاء من جديد واستمر حتى العدد (١٩).

الذى أدرج فى الدستور بموجب الأنباء الواردة، وكذلك قانونية البنود السياسية وما أشبه يتوقف على موافقتها للشريعة المطهرة، وهى من أهم البنود اللازمة والحافظة الإسلامية لهذا الأساس. ولما اغتنم زنادقة العصر الفرصة لإفساد الحرية ونشر الزندقة والإلحاد، وأساءوا إلى هذا الأساس القويم، لذا يستلزم أن يُدرج بند آخر للرد على هؤلاء الزنادقة ولتنفيذ أحكام الله عز اسمه، ولعدم شيوع المنكرات. هذا وقد عرض أتباع الله تعالى النتيجة المرجوة على المجلس المبجل، وأدخلوا اليأس فى قلوب الفرقة الضالة، ولن تحدث أية مشاكل بإذنه تعالى".

(الأحقر محمد كاظم الخراسانى، الأحقر عبد الله المازندرانى، فى السابع من جمادى الأولى)

ولم تكن هذه البرقية محض افتراء، فكما ذكرنا من قبل، لم يسئ الآخوند وحاجى الشيخ الظن فى البداية بحاجى الشيخ فضل الله، وكانا يبديان هذا التضامن معه وهما بعيدان، وكُتبت هذه البرقية من هذا المنطلق. إنهما كانا يسعيان بشتى الطرق لإعراض الأهالى عن الحياة النيابية، وكانا يطلقان على المطالبين بها فى كل مكان اسم "البابية" و"الطبيعية" وكانا يوضحان أن رغبتهما هى "نشر مذهبهم" أو "التحرر من قيد الدين"، ولإثارة عامة الشعب قاما بتذكيره بالحرية والمساواة التى تم منحها إلى اليهود، كما قاما باختلاق بعض الأكاذيب الخبيثة. والأكثر من هذا أنهما تعقبا الصحفيين، وكانا يشتكيان لهم، والكلام الذى لم نجده قط فى صحف تلك الفترة قد كتباه باسميهما، وكل شىء وصل حديثًا من أوروبا وشاع بين الأهالى كفّراه وجعلا ينتقدانه. وبصفة عامة، فهذا كله يوضح أنهما كانا يسلكان طريق الإجحاف والتعدى والتحجج بالمعاذير وكان الباعث على أعمالهما هو مصلحتهما الشخصية أكثر من أى شىء آخر. ومن الأفضل أن يرى القراء بعض تلك اللوائح ويقرأوها حتى يعلموا أى الأشياء كانا يريدان وأية معاذير تمسـكا بها، وبأية عناوين لا جدوى منها كانا يبديان صمودهما وتمردهما إزاء مساعى الأحرار الحماسية.

وكما ذكرنا أنهم دونوا العديد من اللوائح بخط النستعليق الجميل.

الاحتفال بفرمان الحكم النيابي:

أثناء ذلك، ونظرًا لاقتراب يوم الرابع عشر من جمادى الأولى وهو ذكرى يوم منح الأمر بالحكم النيابى، اقترحت دار الشورى أن يكون ذلك اليوم عيدًا تحت مسمى "الذكرى الأولى للحكم النيابى"، وأن تقام الاحتفالات فى ذلك اليوم فى أرجاء إيران كافة، وأرسلت بمقترحها هذا برقيًا إلى كل الأرجاء، فقام الأهالى بدورهم بالإعداد للاحتفال، وفى طهران نفسها أقاموا حفلاً عظيمًا، وقامت الجمعيات وغيرها بالإعداد لهذا الأمر، وسعى أهالى طهران أكثر من غيرهم، فخلال تلك الفترة كان يوجد ما يقرب من أربعين جمعية فى طهران، وقد شكلوا لجنة لهذا الأمر، واختير آقا ميرزا محسن كذلك من قبل المجلس، وفى البداية أعدوا حجرة أمام الباب الرئيسى للمجلس لجلوس السيدين وغيرهما من العلماء، وعلى جانبيه أعدوا حجرتين لجلوس الوزراء والنواب من خارج المدينة، ثم قسموا الجانبين أمام المجلس بين الجمعيات وأعدوا لكل منها حجرة باسمها، كما أعدوا للأرمن واليهود والزرادشت لكل منهم حجرة خاصة. فضلاً عن ذلك، أعد كل من صدر السلطنة ومشار الدولة ومعين السلطان – وكانت منازلهم قريبة من ذلك المكان – حجرة، كما أعد ظل السلطان – الذى كان يبدى ميله للمطالبين بالحكم النيابى منذ فترة – حجرة أمام منزله، وجهز جماعة للاستقبال، كما أعدت حجرة لكل إدارة حكومية فى كل مكان، ولم يضنوا فى كل حجرة أعدوها بالقيام بتزيينها وبسط الفرش الثمين فيها ووضع باقات الزهور وتعليق المصابيح، وأقاموا فى كل حجرة جهازًا منفصلاً للاستقبال، وشوهدت هذه المساعى من الأهالى فى أقل حركة.

وفى الثانى من مرداد (١٤ جمادى الآخرة) بدأت الاحتفالات واستمرت يومين بليلتهما. وذلك الرجل الأذربايجانى العاقل الذى ذكرنا أنه دوَّن رسالة إلى حاجى مهدى آقا قد امتدح فى رسالته تلك هذا الحفل، وسوف أورد بعضًا مما قاله فى هذا المقام:

"لقد زينوا المكان أمام قصر بهارستان – وهو ميدان فسيح – بإعداد الحجرات وتعليق الزينات والمصابيح والورود وفرش البسط الثمينة، وكانت هناك ثمانون حجرة كل منها تختص بإحدى جمعيات طهران أو أحد التجار، وجعلوا

يستقبلون الوافدين بحفاوة بالغة، ويقدمون إليهم أنواع الشراب والليمون والفاكهة والحلوى، وكان امتداد الألعاب النارية الحديثة الصنع يكفى لانشغال الأهالى بمشاهدتها على مدى ساعتين. كما أعدوا الحجرات فى صحن بهارستان وعلقوا الزينات والمصابيح ووزعوا الحلوى والفاكهة، وكان مقهى بهارستان وكأنه صورة فوتوغرافية لجنة العلا.

وحضر سفراء الدول الأجنبية بموجب دعوات رسمية، كذلك حضر تلاميذ المدارس فى جماعات، وانشغل الوزراء العظام ورجال الدولة ونواب المجلس بالاستقبال. وفضلاً عن بهارستان وميدانه والمكان الواقع أمامه، فرش ظل السلطان البسط أمام منزله ولمسافة عدة آلاف قدم عن اليمين وعن اليسار، كما علق المصابيح وقامت زوجته بتزيين واجهة المنزل والحى والجدران والأسطح وتعليق المصابيح.

وإذا ما أردنا الحديث عن ذلك الاحتفال من حيث الكم والكيف فلن يوجد فى هذه العملية الحسابية مكان لخانات الآحاد والعشرات والمئات، فأقل عدد وأدناه فى هذا الشأن يُقدر بالآلاف. على سبيل المثال، يجدر بنا القول بأنهم علقوا فى بهارستان ألف مصباح بل آلاف من المصابيح المضيئة، وفى كل شارع من شوارع بهارستان تم وضع ألف مقعد وألف منضدة، كان يوجد فى كل حجرة ألف مصباح مضىء على الأقل، كان يُستهلك عدة آلاف من زجاجات الشراب والليمون كل بضعة ساعات، وبلغت نفقات هذا الاحتفال ما يربو على العشرين ألف طومان، وارتفعت صيحة "تحيا الحياة النيابية" دفعة واحدة من ألسنة خمسمائة ألف شخص.

ولما كان السادة حجج الإسلام وكذلك الفقهاء حاضرين، فقد تم منع الموسيقى وآلات الطرب، وفى المقابل كان لدينا نغمات عذبة الألحان أجمل من كل النغمات، حيث كان الأهالى يصفقون كافة دون استثناء وهم يصيحون " تحيا الحياة النيابية ". وكان من العسير على السيد عبد الله والسيد محمد والسيد جمال افجه اى وسائر العلماء أن يجلسوا فى كل حجرة لتقديم التهانى، بل كانوا يقفون أمام الحجرات وتقدم الجمعيات التهانى لهم.

وفى الليلة التالية تبادل أعضاء الجمعيات والتجار الزيارات فيما بينهم وكان أهالى آذربايجان قد أعدوا حجرتين، وكانوا يمتازون عن غيرهم فى أن مصابيحهم وأزهارهم وكتيباتهم كانت قرمزية اللون".

كان هذا فى طهران، وفى تبريز أعدوا كذلك لهذا ا لاحتفال منذ ثلاثة أيام، فقد زينوا مبنى الجمعية وسوق صفى وما حوله، كما رفعوا الأعلام فى السوق، وقام كل شخص بتزيين المكان بقدر استطاعته. ولما حل يوم الرابع عشر تجمع العلماء والرؤساء فى الجمعية وأقاموا الاحتفالات العظيمة. ومن غد يوم الخميس، تحركت أفواج المجاهدين من كل ضاحية، وكان كل فوج يتجه نحو الجمعية بملابسه وعلاماته المميزة، وكان العلماء والسادات والرؤساء فى المقدمة، يليهم المتدربون ومن يدقون الأرض بأقدامهم تصحبهم الأعلام والفرق الموسيقية. كان كل فريق يأتى ويمضى فى دوره، كما حضر الناس زرافات زرافات، وكانوا يعودون بعد تناول الشاى والحلوى. وقدم الأرمن فى جماعة، وتلا البارون هامازاسپ خطبة نيابة عنهم، كما تحدث كل من صاحب شيخ على أصغر وآقامير هاشم.

وعلى هذا النحو انتهى الاحتفال والاستقبال بتلك الحفاوة البالغة.

ومن الأعمال الطيبة التى وقعت فى طهران فى تلك الآونة والتى تظهر قدر الأحرار، أنه فى اللحظات الأخيرة من يوم الجمعة الثالث من مرداد (١٥ جمادى الآخرة) اتجهت جماعة تتألف من نواب الجمعيات ودار الشورى بالمظلات والأعلام إلى تكية الدولة وتلوا الخطب هناك فوق ثرى مظفر الدين شاه، ووضعوا باقات الزهور على قبره، وطلبوا له المغفرة والرحمة نظرًا لكونه "ملك الحكم النيابى".

إحدى لوائح المعتصمين:

أما المعتصمون فكانوا حتى الآن فى أماكنهم يصدرون اللوائح، ولما كانت هناك لائحة من بينها تفوق غيرها من حيث الأهمية، فقد أصدروها فى نفس هذه الأيام (٦ مرداد – ١٨ جمادى الآخرة) لذا نوردها فى هذا المقام:

"إن شرح أهداف السيد الحاج الشيخ فضل الله وسائر المهاجرين إلى الزاوية المقدسة من العلماء العظام وغيرهم أنه قد تسرب إلى مملكتنا فى العام الماضى حديث من قبل الغرب يفيد بأن كل حكومة يتعامل فيها الملك والوزراء والحكام وفق أهوائهم مع الرعية فإن تلك الحكومة هى منبع الظلم والتعدى والتطاول، والمملكة التى يفتح فيها أبواب الظلم والتعدى والتطاول لا تجد طريقها إلى العمران، ويزداد فيها بؤس الرعية وسوء حال الأهالى حتى يزول عنها الاستقلال تمامًا وتبتلع فى أجواف الحيوانات آكلة البشر. وقالوا إن علاج هذا المرض العضال المفنى هو أن يجتمع الناس ويطالبوا الملك بتغيير السلطنة التى تسير حسب الأهواء، وأن يقرروا مهام الدولة والخدمات الديوانية وواجبات البلاط بحيث لا يتجاوز سلوك الملك وأفعاله وكذلك طبقات خدمه وحشمه هذه القوانين فى أى وقت قط، وأن يتم تدوين هذه القرارات عن طريق إناس من الرعية يتسمون بالعقل والأمانة والصحة ويوقع الشاه عليها وينشرونها فى المملكة. وقالوا إن اسم ذلك الحكم السائر حسب الأهواء بلغة هذا العصر هو "الحكم الاستبدادى"، أما اسم هذا الحكم بهذه القرارات، فهو "الحكم النيابى" واسم واضعى القرارات هم "النواب أو المبعوثون"، واسم مقر مباحثاتهم هو "مجلس الشورى الوطنى"، واسم قراراته هو "القانون" واسم الكتيب الذى يدونون فيه هذه القرارات هو "اللائحة".

وإذا أدرك العلماء العظام وحجج الإسلام هذا التقرير وذلك النظام إدراكًا تامًا وتلاقوا مع بعضهم البعض ويتلون المقالات، فإنهم يقرون جميعهم على أن هذا الخراب الذى لحق بمملكة إيران إنما هو نابع من عدم وجود القانون وعدم محاسبة الدولة. ولابد أن يُعلم مجلس الشورى الوطنى الدولة بأن مهام الدوائر الحكومية محددة وأن تصرفاتها محدودة، حتى يلحق التوفيق بحمد الله تعالى بالملك المرحوم، وتحمد مساعى العلماء العظام، ويُفتح مجلس دار الشورى الإسلامية الكبرى، ويحظى صاحب الجلالة ملك الملوك خلد الله سلطانه بالسعادة لما يبذله فى هذا المجال.

إذن فإن عنوان الحديث ومبدأ المشاورات هو عدم وجود قوانين فى الدوائر الحكومية، وتنحصر حاجتنا نحنُ شعب إيران فى وضع الأصول والقوانين لواجبات

البلاط والمعاملات الديوانية، وبعد ذلك، بمجرد أن تبدأ مباحثات المجلس وتطرح فيها الشئون المتعلقة بالحكم النيابى وحدوده تظهر أثناء الحديث والمناقشة أمور لم يتوقعها أحد، وتصير أساسًا لوحشة رؤساء رجال الدين وأئمة الجماعة وكافة المقدسين والمتدينين وحيرتهم.

ومن تلك الجملة التى دونت فى المنشور الملكى "لقد منحنا مجلس الشورى الوطنى الإسلامى" ضاع لفظ الإسلامى، ومضى أينما مضى، ولهذه الفقرة سند صحيح، وهذا مشهور ومعروف وقتما تمس الحاجة إليه.

والأمر الآخر أنه فى أثناء صدور الأمر بالحكم النيابى من قبل صاحب الجلالة ملك ملوك العصر المقدس أدام الله ظله الممدود فى المجلس وفى حضور ما يربو على الألف شخص، قالوا صراحة: نحن لا نريد الشريعة.

والأمر الثالث رأيناه جميعًا مرأى العين ولا نزال نراه، وهو أنه منذ بداية افتتاح هذا المجلس تحركت جماعة من اللامبالين الملحدين ممن عرفوا مسبقًا باسم البابية، وكذلك أشخاص ممن أنكروا الشريعة وكان اعتقادهم فى الطبيعة، وألقوا بالأحجار حتى الأفلاك ودقوا الصدور وتعاركوا مع خلق الله.

والأمر الرابع هو ظهور الصحف والمنشورات السرية والتى اشتمل معظمها على سب العلماء والطعن فى أحكام الإسلام وما ينبغى أن يُسلك فى هذه الشريعة، وغيروا من فروعها على أنهم يجعلونها على نحو أفضل وأنسب، وتلك القوانين التى كانت قد وضعت منذ ألف وثلاثمائة عام كان ينبغى أن تكون موائمة للأوضاع الراهنة ومقتضيات العصر من قبيل إباحة المسكرات وانتشار بيوت الفاحشة وافتتاح مدارس لتربية النساء وأخرى لتعليم الفتيات، وصرف موارد قراءة الروضة وزيارة الأماكن المقدسة والسعى فى إنشاء المصانع وتعبيد الطرق والشوارع ومد السكك الحديدية واستيراد المنتجات الأجنبية، ومن قبيل الاستهزاء بالمسلمين قالوا بأنهم يسلمون أمرهم إلى سيف أبى الفضل وإلى رأس الصراط المستقيم، كما قالوا إن أفكار الرسول المختار ﷺ وأفعاله كانت تتصاعد – والعياذ

بالله – من بخار طعام البدو كلبن الناقة ولحم الضب وأن فلاسفة أوروبا اليوم هم أعلم وأعقل وأعظم من الأنبياء والمرسلين. ونستجير بالله، لقد أطلقوا على الإمام ابن الحسن – عجل الله تعالى فرجه – اسم الإمام الموهوم، واستخدموا صفحات القرآن الكريم فى أوراق لعب الميسر، ومزقوا الصفحات التى تشتمل على لفظ الجلالة فى فناء مجلس الشورى، وكتبوا أن أهالى إيران الجهال ينفقون فى العام عشرة ملايين طومان، مقابل أن يحضروا قليلاً من الماء – ماء زمزم – ومقدارًا من الثرى – من المقبرة – ولو لم يكن هؤلاء القوم متوحشين برابرة لما قتلوا كل تلك الأغنام والإبل فى عيد الأضحى، ولأنفقوا أموال ذلك فى إنشاء الكبارى وتعبيد الطرق. هذا وينبغى أن تكون جميع الدول على قدم المساواة وأن تساوى أهل الذمة مع المسلمين فى الدم، وأن يختلطوا معًا ويتم التزاوج بينهم (تحيا المساواة).

والأمر الخامس هو ظهور تلك الفوضى فى أرجاء المملكة وعدم الأمان والاضطراب، وشيوع سفك الدماء والإغارة وإثارة الفتن والمفاسد فى شتى البقاع، وانتشار التخاصم والتنافس والعداء بين أهالى المدن الكبرى، خاصة تلك الأحداث التى وقعت فى آذربايجان وعلى حدودها، وتلك المذابح التى تمت فى كرمانشاه وفارس وحدود نهاوند وغيرها.

والأمر السادس هو تجرؤ طبقات الشعب فى القيام بأعمال الفسق والفجور والمنكرات، ولما كنا نحن وأنتم معًا فى طهران، فسوف أسألكم عن طهران فقط، إلى أى حد بلغ ضعف عقيدة الأهالى وازداد التهريج والجرأة منذ أن شاع فى هذه المدينة اسم الحرية؟ هل مر بسمعكم قط أن يهوديًا مارس اللواط مع طفل مسلم؟ اسألوا صالح عن هذا اللوطى. هل رأيتم قط أن يهوديًا اعتدى على فتاة مسلمة على رءوس الأشهاد؟ لقد رأيتم جميعًا فى هذا العام وعرفتم أن الذاكرين والوعاظ يقولون إن مجالس قراءة الروضة وتكايا العزاء واهتمام الناس بهذه العادات – وهى من شعائر الشيعة – كاد أن يتعطل ويترك. هل انتظرتم مثل هذه العاقبة؟ هل مر بسمعكم قط أن أحدًا قال أو كتب أو نشر أن الألوهية هى الحكم النيابى؟ لقد

قالوا كلمة الكفر. هل سمعتم قط فى الألف والثلاثمائة ونيف هذه التى مرت من عمر الإسلام - أيد الله أنصاره - أن صورة أحد المجددين فى الدين فى عداد كليتى وعلم الهدى ومحقق وشهيدين، وقد رسموها بشكل دابة تحمل حملاً وشهروا به.

والأمر السابع هو عدم الإشارة إلى التاريخ الهجرى كما يجرى فى بلاد الكفر. لقد أقاموا فى البلاد الإسلامية المآتم ومجالس ختم القرآن طبقًا لأوامر الإفرنج، وتتم قراءة الفاتحة على الصديقة الطاهرة - سلام الله عليها - فى المسجد الجامع داخل عاصمة الإسلام بوضع أكاليل الزهور كما يفعل الأوروبيون، ويضعون المناديل المعطرة بالمسك على سواعد مجاميع الأطفال المسلمين، وتدخل طائفة الزرادشت بيت الله، ويقرأون الفاتحة فى ذلك المجلس ومعهم الأجانب وعبدة باريس، ويتجه إلى ذلك المجلس أرباب العمائم وكبار رجال الشرع طوعًا أو كرهًا[1]. يا أتباع الدين الإسلامى، هل رأيتم مجلسًا لختم القرآن على هذا النحو؟! هل مر بسمعكم أو شاهدتم قط اجتماع رؤساء رجال الدين فى مجلس يحضره نساء الإفرنج ويحضرون معهن فى الزحام على الرغم من إسلاميتهم؟ وذلك السوق الليلى، والدق بالطبول للتحية، وتلك الألعاب النارية، وقدوم السفراء، وتلك العادات الأجنبية، وتلك الزينات، وتلك الكتيبات التى تدعو بالحياة (تحيا المساواة) و(تحيا الأخوة)[2].

كنتم تريدون أن تكتبوا شيئًا آخر، (تحيا الشريعة)، (يحيا القرآن)، (يحيا الإسلام). حقيقة، لقد أنيرت عين خاتم الأنبياء، وسُر خاطر خاتم الأوصياء، قرت الأعين وسُرت الأنفس، نقسم لكم أيها المسلمون، يا أهل طهران، بالقرآن المجيد، بأمير المؤمنين بسيد الشهداء وبإمام الزمان - أرواحنا لهم فداء - لو أن رسولكم كان حاضرًا الآن، ورأى تلك الجلبة، ماذا كان يقول؟ هل كان يقوم باللعن أم بتقديم التهانى؟! هل كان يقول: ما أبهى ذلك الحفل الذى أقمتموه من أجل المجلس؟! أم

---

(١) فى مراسم ختم القرآن فى الذكرى السنوية للسيد عبد الحميد والحاج السيد حسن.

(٢) فى احتفال الذكرى السنوية للحياة النيابية.

كان يقول: ما أجمل مراسم الختم التى عقدتموها من أجل الإسلام؟! هل كان يقول: تحيا الحياة النيابية؟ أم كان يقول: أهكذا تخلفون محمدًا فى أمته؟!

"اللهم أنعم على مجلس الشورى الوطنى الإسلامى عدو الكفار".

ويعلن من قبل مجلس المهاجرين إلى الله إلى الجماعة المطالبة بالحرية: إذا قمتم بآلاف من الأعمال الحمقى، فلن تصلوا إلى نتيجة قط، ولن يأتى السحر بالمعجزات، ولن نخضع لإضعاف الإسلام وتحريف الأحكام ما دامت الروح فى الجثمان.

وثمة أمور أخرى تشبه ذلك، بل هى أكثر من ذلك، فهذا الطفل الذى بلغ عامه الأول سلك طريق مائة عام، لكن يخشى تذكرها وإحصاءها.

والآن نطرح سؤالاً على الأخوة الذين طهرت نفوسهم وعلى أبناء ديننا من الإيرانيين: هل حدثت هذه الفتنة العجيبة وهذه المفاسد العظيمة في هذه المملكة أم لا؟ وهل هذه الحوادث الخاصة قد وقعت بعد تأسيس هذا الوضع الجديد أم لا؟ نحن نحترم المجلس، ولا نقول إن هذه الشرور وتلك المفاسد حلت بسببه أو إنها وليدته، إنها مولودة معه. ومع وجود مجلس دار الشورى الإسلامية الكبرى، ونظرًا لأن كل شخص لا علم ولا دراية له بشئون العصر وأوضاعه، فينبغى علينا أن نشرح له السبب والدليل وفق التكليف، لأنهم قالوا: حينما تظهر البدع على العالم أن يُظهر علمه.

(إخواننا فى الدين) لقد ظهرت فى عصرنا هذا فرق أنكرت الأديان بشكل قطعى، كما أنكرت الحدود والحقوق، ولهذه الفرق – على تفاوت أغراضها – اسماء شتى مثل: (الفوضويون)، (المحويون)، (الاشتراكيون)، (الطبيعيون) و(البابيون) ولهم نشاط ملحوظ وقدرة فى إثارة الفتن ونشر الفساد، وبواسطة ما تمرسوا عليه من تدريبات فهم يثيرون الفتن والاضطرابات أينما كانوا، ومنذ أعوام، ظهرت الفرقتان الأخيرتان فى إيران وأفرادهما كالشياطين مشغولون بالوسوسة والسرقة وخداع العوام الأضل من الأنعام، إحداهما تسمى بالبابية والأخرى تدعى الطبيعية.

وهاتان الفرقتان تختلفان فى الاسم وتتفقان فى حقيقتيهما ومقصديهما الأساسى حول إيران، وتهدفان إلى أمرين عظيمين، أولهما: تغيير الدين. والآخر: تبديل نظام الحكم. وفى هذه الفترة دخل أفراد من هاتين الفرقتين إلى المجلس النيابى وسيطروا عليه، وهم يعوقون بشكل جاد إسلامية المجلس النيابى الإيرانى، ويريدون أن يجعلوا منه ما يشبه برلمان باريس، هذا وقد وقع الشيخ الحاج فضل الله طرفًا لهذه الجماعة دون إرادة منه، وأدى ذلك إلى أن سبوه وذموه فى الصحف والمنشورات السرية ومن فوق المنابر، ونبحت عليه كلاب جهنم، ولا شك أن البابية يخافون ولذلك فقد صمد البعض أمام هاتين الفرقتين النجستين لتطهير المجلس، ولن يقصروا – بتوفيق من الله – ولن يضنوا فى بذل الأرواح والأموال فى هذا السبيل حتى يحققوا أهداف جميع علماء المذهب الجعفرى من العرب والعجم، وبذلك يوفوا بجميع هذه التكاليف الحتمية، ولا يهددون هذه الحضرة بفتنة السفلة والأراذل، ولا يتلقون الأموال الباهظة من إحدى السفارات أو من إحدى الدول أو غير ذلك، وإلا فكل شخص يعلم أن خراسان أكبر من قاين، وأن وزارة الحربية أهم من حكومة سيستان، وأن أعضاء المجلس هم أمناء الشعب، وهذه البرقية وهى محض افتراء وقبح لا تليق من أمناء الشعب، و مثل هذا الخلاف مع القسم والخيانة للأعضاء يوجب العزل من عضوية المجلس باستثناء الأشخاص الذين لا علم لهم، وهم الأكثرون.

والخلاصة، إن جميع هذه المفاسد ظهرت من هنا حيث إن المجلس النيابى مختص فقط بشئون البلاط والحكومة والديوان والبلاط الذى يديره وفق هواه. والمجلس يصدر القوانين التى يحد بها من حكم الملك والحكومة، ويسد طريق الظلم والتعدى والتطاول. واليوم نراهم وقد أحضروا الكتب الخاصة بقوانين البرلمان الأوروبى إلى المجلس، وإذا مست حاجتهم توسعوا فى هذه القوانين غافلين عن أن شعوب أوروبا لم يكن لها شريعة مدونة، لذا قاموا بتدوين لائحة لكل موضوع ونفذوها فى حينه. أما نحن أهل الإسلام فلنا شريعة سماوية خالدة لا تقبل النسخ لما

لها من قوة وثبات وأصالة. وقررت هذه الشريعة الحكم فى كل موضوع، وعينت التكليف فى كل موقع، إذن فحاجة إيران تنحصر فى سن قانون خاص بالشئون الملكية يسن من قبل أحد العلماء وفقًا للشريعة، ويتم تنفيذه على الدولة والساسة فيها.

نعم بعد صحوة الحضرات مؤسسى المجلس من حجج الإسلام وسائر المسلمين اتضح أن كل هذه المفاسد التى ظهرت كانت من جراء طائفتين من أعداء الدين والدولة، وهما طائفة البابية وطائفة الطبيعية. وقد وضع القرار الحاسم الخاص بالحيلولة دون تصرفات اللادينيين فى هذا الأساس المتين، ودون القرار الخاص بمنع تدخل مثل هذه الفرق الفاسدة وتضمن عدة بنود فى اللائحة الأساسية للمجلس، فى أحد هذه البنود كُتبت كلمة الشريعة بعد كلمة النيابية، وثمة بند آخر يختص بمراعاة اللوائح والقوانين الخاصة بالمجلس مع الشرع المقدس، ومراقبة هيئة تتألف من عدول المجتهدين فى كل عصر فى المجلس النيابى بنفس تلك العبارة التى دوناها وأضيفت إلى بنود اللائحة، ولن يكون لمجلس الشورى نفسه أى حق فى التدخل فى تعيين تلك الهيئة من عدول المجتهدين ويكون اختيار تلك الهيئة من قبل العلماء مرجع التقليد فى كل عصر.

وثمة بند آخر يختص بالوقوف فى وجه الفرق الملحدة خاصة المرتدين عن الدين كفرقة البابية وما أشبه.وقد أمر آخوند ملا محمد كاظم بإضافة هذا البند، وحكمه معلوم، ولابد من إطاعته، خاصة تلك الفقرة التى أدرجت فى اللائحة والخاصة بتنفيذ الأحكام الشرعية تجاه الفرقة البابية وسائر الزنادقة والملاحدة.

وثمة أمر آخر وهو أنهم حينما دونوا لائحة المجلس الأساسية وفق قوانين تتعارض مع ديننا، فقد عرض بعض ما كان متباينًا مع ديننا فى حضور جميع حجج الإسلام، وكان ينبغى أن تضاف هذه البنود بنفس الإصلاحات والتصحيحات التى أقرها الجميع على ألا يلحق بها أى تغيير، ولنورد مثالاً على هذه التصحيحات حتى يعلم جميع إخواننا فى الدين ما الذى وقع فى أول الأمر وما آل إليه بعد ذلك.

من بين ذلك أنهم ترجموا بندًا من القوانين الأجنبية يفيد بحرية الصحافة المطلقة (أى أن كل شخص لا تتم مساءلته عن أى شىء يقوم بكتابته ونشره) وهذا القانون لا يتفق وشريعتنا، لذا قام العلماء العظام بالتغيير وصححوه، لأن نشر الكتب الضالة وإشاعة الفاحشة أمر ممنوع فى الدين الإسلامى. فليس لكائن الحق فى أن يدون كتابًا يضل الناس به أو يذم فيه المسلمين أو يقول هراءً فى حقهم ثم ينشره ويقدمه إلى الناس، وعليه، فإن طبع كتب والنثر الفرنسى- وجميعها فى ذم الأنبياء عليهم السلام – وكتاب البيان لسيد على محمد باب الشيرازى وكتابات الحاج ميرزا حسين على تاكرى وكتابات أخيه وأبنائه – وهم كالإله والأنبياء والأئمة للبابية – وكذلك الصحف واللوائح التى تضم كفرًا وسبًا للعلماء المسلمين، هذا كله ممنوع فى قانون القرآن ومحرم دون شك.

إن هؤلاء الملاحدة يريدون فتح هذا الباب حتى يتمكنوا من القيام بهذه الأعمال.

نعم، لم يكن للمهاجرين إلى هذه الزاوية المقدسة من هدف سوى تنفيذ هذه الفقرات التى لم تدون سوى لحراسة الإسلام وحفظ شريعة خير الأنام عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

وفى كل وقت كان النواب المبجلون يتحدثون عن الإسلام والتدين والتقوى، وامتنعوا عن التعبير عن ضيقهم من هذه البنود الأربعة وتقبلوها، ولن يكون لأحد العلماء حديث معهم فى هذا الشأن، وسوف يصبح المجلس النيابى الإسلامى جديرًا بأن يُلقب بـــ "المقدس" وبأن يدعو له الداعون بقولهم " شيد الله أركانه ".

"إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".

الصراع على الحدود مع الدولة العثمانية:

فى خضم هذه الأحداث وقعت أزمة سياسية لإيران على حدود آذربايجان كما وقعت بعض الأحداث الأخرى. وكيفية ذلك أن العثمانيين دخلوا أراضى إيران بحجة النزاع على الحدود، ولم يتركوا الأكراد آمنين، وكانوا يحثونهم على الفتنة

وأعمال الإغارة والسلب والنهب، لذا ومنذ فترة، كانت الفتن وعدم الاستقرار يعمان المنطقة حول أرومى، وقام الأكراد كذلك بانتفاضة بالقرب من ساوجبلاغ، لذا نشب القتال فيما حول أرومى مع العثمانيين.

وقد بدأ هذا الحدث مع العثمانيين منذ عامين، وتقدمت فرقة من جيوشهم من ناحية العراق تجاه پشت كوه، وتقدمت فرقة أخرى من ناحية كردستان تجاه آذربايجان، وكان ذلك فى غضون عام ١٢٨٤ ق (١٢٢٣ش). وفى پشت كوه قام الوالى هناك بالقتال ولم يحل شيئًا. وفى آذربايجان وصل جيش من تبريز وقام بمنعهم، لكن أثناء ذلك قام نواب من الروس والإنجليز بالوساطة فى طهران واسطنبول، ونتيجة ذلك اقترح أن تُشكل لجنة فى الحدود من نواب إيران والعثمانيين مع وجود نواب من كلتا الدولتين الوسيطتين، ويتم التباحث فى ذلك. كان هذا يحدث بينما كان السيدان وأتباعهما فى صدام وعراك مع عين الدولة فى طهران يطالبون بالحكم النيابى، وكان احتشام السلطنة يبدى تأييده لهما، ولما كان عين الدولة يريد أن يبعده عن طهران، انتهز هذا الحادث فأرسله إلى كردستان لتمثيل إيران، وظل احتشام السلطنة هناك فترة طويلة لكنه لم يحصل على نتيجة وعاد إلى طهران.

من ناحية أخرى، أثار العثمانيون الأكراد القاطنون على الحدود كى يندفعوا إلى المناطق العامرة ويقوموا بأعمال السلب والقتل، ولم يترك الأكراد – الذين كانوا راغبين فى مثل هذه الأعمال دومًا – الفرصة تفلت من أيديهم، خاصة وأن نتيجة الحركة المطالبة بالحرية هى وقوع العداء بين الحكومة والدولة، لذا ضعف الأمن وانعدمت الطمأنينة.

ومنذ شهر تير أخذت الشكاوى تتوالى من أرومى وساو جبلاغ إلى جمعية تبريز ومجلس الشورى. وفى أرومى قام مجد السلطنة – أحد القادة هناك – بجمع الجيش بعلم من جمعية تبريز، وأرسلت الجمعية الأسلحة والآلات إليه. ولما لم يذكر اسم تركيا، وما حدث كان يحدث باسم إغارة الأكراد، لم يهتم كثيرًا بالحدث وتهاون فى تعامله مع الأمر.

وخرج مجد السلطنة مع الجيش الذى أعده من المدينة، وأقام خيمة على بعد

عدة فراسخ، وفى فترة قليلة أبعد المغيرين ونشر الأمن، لكن فى فجر التاسع من مرداد (٢١ جمادى الآخرة) ظهرت فجأة الجيوش العثمانية على قمم الجبال والتلال، وقاموا دون إنذار بالقصف بالمدافع والرصاص، ولم يصدق مجد السلطنة أنها الجيوش العثمانية وكان يظن أن الأكراد هم الذين قاموا ثانية بالفتن، وأصدر أمر القتال من هذا المنطلق وحاول منعهم.

لكن لما وصلت رصاصات المدافع وصار مؤكدًا أنها الجيوش العثمانية، ولما لم يصدر مجد السلطنة أمر القتال معهم، ولم يكونوا فى تكافؤ من حيث عدد الجيوش والآلات الحربية، أرسل شخصًا إلى القائد العثمانى يفيد بأننا لسنا فى حالة حرب معكم. فأجاب: "لكننا لم نأت إلا لمحاربتكم، وينبغى الآن كما يقولون إن تجمع جندك خلال ساعتين وتعودوا إلى المدينة".

فتح مجد السلطنة بوق العودة، واتجه إلى المدينة خجلاً، وقُتل فى هذه الحرب عدد كبير من الجند، وسلبت خيام ومعدات كثيرة، ولما اضطرب الجند ولحقت بهم الهزيمة عادوا إلى المدينة، وكان هذا باعثًا لاستياء الناس.

من ناحية أخرى، وجد الأكراد الميدان مفتوحًا أمامهم وازدادوا جرأة فى أعمال السلب والنهب، فكان يرتفع أنين المظلومين كل يوم فى ناحية، وكانت النساء والأطفال يأتون إلى المدينة باكين نائحين، وكان اسماعيل آقا شكاك (سيمكو) أحد القائمين بأعمال الإغارة تلك، يلوث يديه بدماء الأبرياء انتقامًا لمقتل أخيه جعفر آقا. وكان البعض ممن يسكن القرى فيما حول أرومى من الشيعة والبعض الآخر من الآشوريين، ولما كان الأكراد يعادون الطائفتين كلتيهما بسبب المذهب، كان يريقون الدماء فيها دون ورع قط. فضلاً عن ذلك، كان العثمانيون يحرضونهم، وكان العديد من هؤلاء الأكراد من الأراضى العثمانية. وتقول جمعية أرومى فى برقية لها كانت قد أرسلتها إلى جمعية تبريز بعد عدة أيام من هزيمة مجد السلطنة:

"... قد أغير على جميع قرى المدينة، ونهبت ذخائر المعسكر وأسلحته، ويوجد الآن ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين قتيلاً من المسلمين ولا نستطيع دفن

جئث إخواننا خارج المدينة، وجميع أهالى المدينة مضطربون، ونحن لا نعلم الليلة إذا كنا سنحيا أم لا! فجميع المسلمين ينتظرون الموت والقتل... ولم يبق مكان فى القرى دون إعمال القتل والإغارة فيه..."

وكما رأينا، كانت الفتنة وعدم الأمان فى هذه الأيام فيما حول ساوجبلاغ أيضًا، وقد تقدم الأكراد العثمانيون من هذه الناحية، وقاموا بأعمال القتل والإغارة فى تلك المناطق. وأبلغت جمعيتا تبريز وأرومى دار الشورى بكيفية ما حدث، ولما كان اليأس من محمد على ميرزا والأتابك دار حديث فى هذا الشأن فى جلسات دار الشورى يومى الحادى عشر والثانى عشر من شهر مرداد، وأبدى النواب ثورتهم وحماستهم. وانتهز البعض الحادث وتحدثوا عن الأتابك وعن عدم مبالاته، واقترح البعض وجوب منع الزيارة إلى العراق عقابًا على هذا التصرف من قبل العثمانيين، وأن يكتب إلى العلماء فى النجف كى يهاجروا من هناك ويأتوا إلى إيران. وقال أحد النواب: "إنهم قدموا من بوابة آذربايجان ونحن نمضى من بوابة العراق، وهذا هو حكمه".

واقترح السيد بهبهانى أن يبرقوا إلى السلطان العثمانى أولاً، وبعد ذلك إذا لم تكن هناك نتيجة، يقومون هم بالعمل. لكن لم تتم الموافقة على هذا الاقتراح، وألح المجلس على أن يُرسل جيشٌ، لكن محمد على ميرزا لم يكترث ولم يفعل أكثر من أنه جعل فرمان فرما واليًا على آذربايجان كى يمضى إلى هناك ويحاول البحث عن حل. وكانت ولاية فرمان فرما على آذربايجان منذ عهد بعيد لكن جمعية تبريز لم ترتض ذلك وأبدت مقاومتها، وانتهزت الفرصة فى تلك الأثناء وأظهرت تلك النية.

وفى يوم السبت الثامن عشر من شهر مرداد (٣٠ جمادى الآخرة) حيث كانت البرقيات الشاكية تصل ثانية من أرومى ودار حديث حول ذلك فى المجلس، قال فرمان فرما:

"لقد جئت وأخذت الإذن من المجلس وأمضى رسولاً".

كان يقول كذلك إنهم أرسلوا الأوامر برقيًا فى تلك الأيام إلى فرسان آذربايجان وجندها كى يستعدوا ويتجهوا إلى أرومى. وبهذا الحديث أخمد غضب أعضاء المجلس.

وللحق إنه اتجه مسرعًا إلى آذربايجان، وفى الثلاثين من شهر مرداد (١٢ رجب) دخل تبريز، ولم تمتنع جمعية الولاية والأحرار عن استقباله مع عدم الرضا الذى كان لديهم من ولايته. لكن لم يظهر دليل على إرسال الجيش إلى أرومى، ولما كان محمد على ميرزا غير راغب فى ذلك فى داخله لم يستطع فرمان فرما فعل شىء.

ومن أرومى كانوا يستغيثون مطالبين بالإنصاف، وانتهى الأمر فى دار الشورى إلى أن قال بعض النواب:

"إما أن تقوم الدولة بالحل وتمنع الأعداء وإما أن تتحدث بوضوح حتى يفكر الأهالى أنفسهم فى الحل".

كان مثل هذا النوع من المناقشات الحادة يدور كثيرًا، لكن لم تُشاهد أية نتيجة، ولم يكف محمد على ميرزا عن التصلب والعناد فى حادث مثل هذا، وكان يتذرع بقوله:

"لقد بدأنا المباحثات مع الحكومة العثمانية وسوف ننهى الأمر بالتشاور".

كشف النقاب عن خدع الأتابك:

بدأ فرمان فرما بمسلك جيد فى آذربايجان مع كل الخشية التى كانت لهم من سوء سلوكه، وأظهر نفسه من مؤيدى الحكم النيابى، ولم يساهم فى أى عمل يكون باعثًا لأذى الأحرار، ولكن فى هذه الأيام وقع حادث فى خوى كشف النقاب دفعة واحدة عن سوء طوية الأتابك.

وقد أوردنا قصة إقبال السلطنة ومظالم أكراد ماكو فى تلك النواحى، وكما ذكرنا، اختار الأتابك إجلال الملك من قبل الحكومة حيث مضى إليه فى ماكو، وأعاده عن مسلكه هذا بالنقاش، ولما لم تر جمعية الولاية حلاً آخر، جعلت بصحبته آقا نقى ممثلاً عنها، وذهبا إلى ماكو وقابلا إقبال السلطنة وتباحثا معه، لكنهما عادا دون الوصول إلى نتيجة.

فى تلك الأيام وقع هناك حادث آخر، وهو أنهم أرسلوا من خوى طائفة من المجاهدين مع الجنود لرعاية القرى هناك،وأغار الأكراد عليهم فجأة وقتلوا بعضًا منهم وتشتت الباقون، وأغاروا على قريتى كلوانس وزور آوا، ولم يكفوا عن القيام بأعمال القتل والإغارة، وفر الفلاحون المساكين ووصلوا إلى المدينة، وقد اشتد وقع هذا الحادث على أهالى خوى، ومضى حاجى حيدر خان أمير طومان – الذى كان هو نفسه من قادة الحكومة وصاحب قرية زور آوا – من المدينة إلى هناك حتى يشكل قوة مرة أخرى من الجند والمجاهدين ويتشابك مع الأكراد، وعلم إقبال السلطنة بنيته، فأرسل إليه يقول:

"إننى أقوم بهذه الأعمال بأمر من الأتابك".

وأرسل أمير طومان البرقية إلى المدينة لدى الحاكم كى يحققوا بشأنها فى مكتب البرق، وأثارت هذه البرقية المجاهدين فى المدينة، وانجهت جماعة منهم إلى مكتب البرق واحتشدوا فى فنائه واستفسروا من رئيس البرق، وكان الرئيس لا يبغى الرد، وعيل صبر البعض وقاموا بجلبة، وأثناء ذلك انطلقت رصاصات المسدسات فجأة وقُتل أحد الأحرار وجُرح اثنان، كما جُرح رئيس البرق[1]، وبهذه الضجة أخذوا نسخة البرقية، وتحققوا من حقيقة الحال، وها نحن نوردها فيما يلى:

"إلى جلالة أمير الأمراء العظام إقبال السلطنة زيد مجده، لقد وصلت برقيتكم فيما يختص ببعض المفسدين... وينبغى أن تعلموا أولاً أن خدماتكم تحت النظر على الدوام، ونحن نكن لكم كمال المحبة، وإننى لأتعجب من تلك الأفعال الوحشية،

---

(١) ذكرت جريدة الحبل المتين أنه قتل.

وقد أكدت على إجلال الملك وعلى الحكومة أن يلاحظوا هذه المسائل، وأن يعدلوا من إجراءاتهم، وأن يقترحوا نظامًا يراعى فيه راحتكم، وقد عين حضرة المستطاب الأشرف الأفخم الأمير الأكرم فرمان فرما دام إقباله لحكم آذربايجان وقيادتها، وسوف يتحركون خلال هذين اليومين، وقد قُدم إليه نظام العمل فى هذا الشأن، وأرسلت الجيوش والاستعدادات اللازمة، وإن شاء الله سوف ترفع بعض الأحداث وتوقف بعض الأحوال كليةً، ولا ينبغى عليكم أن تيأسوا من مثل هذه الأحداث، ولا ريب أن الدولة سوف تقوم ببعض الإجراءات فى إصلاح أموركم، ولتطمئنوا من كل ناحيةً، وينبغى أن تنشغلوا بالخدمة فى تلك الحدود بكل الحماسة والغيرة".

(الأتابك)

ويتضح من هذه البرقية أن جميع المذابح التى قام بها إقبال السلطنة وأكراده كانت برضا البلاط بل وبتحريض منه، واضطرب مجاهدو خوى كثيرًا من هذه البرقية، ولما حصلوا على هذا السند القوى لم يكفوا عن مذمة الأتابك علانية، ولما أرسلوا نسخة منه إلى تبريز تم طبعها فى جريدة الجمعية، قام الأحرار هنا أيضًا بحركة وثورة.

وقع هذا فى الأيام التى كان ينتقل فيها فرمان ما بين طهران وتبريز، وكما ذكرنا، لما وصل إلى تبريز، فمع ما كان يبديه الأحرار من استياء تجاه الأتابك وإقبال السلطنة فى الأيام الأولى، ومع ما أبدوه من جلبة وصخب، اضطر إلى المجئ، لذا لم يقع سوء الظن به، وأرسل البرقية التالية كرهًا أو طوعًا إلى إقبال السلطنة:

"من خوى إلى جناب إقبال السلطنة القائد العجيب، منذ أمرت بحكم آذربايجان وحضرت لم تصل ورقة أو برقية منكم قط، ولم تطلعنى أبدًا ما عملكم وماذا تفعل؟ ولم ترسل تقريرًا من وقائع الولاية وشأن الحدود هناك، والآن أكتب لأستعلم عن سلامة حالكم وأخطركم ضمنًا إنه بعد دخولى تبريز أوضحوا لى جانبًا من أخبار أهالى ماكو وجمعيتها التى هى باعث لتعجبى وحيرتى، ولا أتصور

أبدًا مع ما لكم من علم غزير فى الوضع الحالى الذى تبدل فيه مزاج الولاية أن تظهر بعض الإجراءات التى تسبب الخوف وتثير القيل والقال. وعلى أية حال عليكم أن تطلعونا برقيًا بأحداث أمور الولاية والوضع على الحدود وحقيقة هذه الأخبار مع الإجراءات التى قمتم بها حتى نعلم بها مسبقًا. وفيما يتعلق بالأمور الخاصة بأرومية فمن المحتمل أن نعلم بلزوم عدد من الجند، ولا أعلم أنك خادم وقائد بين الدولتين، وفى مثل هذه الأوقات وهى أوقات مظلمة ووقت الخدمة وتحصيل الشهرة تستطيعون إرسال خمسمائة فارس من فرسانكم إلى أرومية، وينبغى أن تؤدوا هذه الخدمة، وأمير الأمراء محمد پاشاخان قائد فرقة ماكو مستعد، ولم يمض لأداء مهمته، وينبغى أن يحضر بالضرورة، وينبغى أن يسافر إلى أرومى باتفاق معك أو مع شخص أو اثنين من أصحاب المناصب المرموقة المحنكين وينجز هذه الخدمة، ولتصرحوا بالرد على هذه المطالب برقيًا".

(فرمان فرما)

ولكن فى ظل هذا النزاع الذى كان قائمًا بين إقبال السلطنة وأهالى خوى وصلت إليه هذه البرقية بعد شهر ونيف، وسوف نورد الرد الذى أرسله إقبال السلطنة فى تلك الأثناء فى موضعه، وفى هذا المقام ينبغى أن نعود إلى طهران ونتحدث ثانية عن المعتصمين.

تتابع جهود المعتصمين:

كما ذكرنا، لقد أعدوا هناك مطبعة حجرية وكانوا يكتبون اللوائح ويطبعونها ويرسلونها إلى كل مكان، ولم تبق هذه اللوائح دون تأثير، فكانت المناقشات بين الناس تدور، وأعداء النيابية يتحججون بها فى المدن البعيدة، وكانت لائحة السادس من شهر مرداد التى أوردناها دليلاً واضحًا على انتقاداتهم التى لا محل لها:

"افتتاح مدارس الفتيات، صرف موارد قراءة الروضة ونفقات زيارة المشاهد المقدسة فى إنشاء المصانع وتعبيد الطرق والشوارع ومد السكك الحديدية واستيراد

مستلزمات الثقافة والاستهزاء بالمسلمين فى خضوعهم لسيف حضرة أبى الفضل وبالصراط المستقيم..." وغير ذلك من معاذير وحجج كانوا يتخذونها لإبداء عدائهم لإحدى الحركات العظيمة.

لكن لم تستطع هذه المعاذير أن تكون عاملاً مؤثرًا فى تلك الأيام، فكان الناس يصمدون إزاء هذه الظنون، والمذهب الشيعى أساسه هذه المعتقدات. من ناحية أخرى، فإن عدم الوفاق بين النيابية والدستور الأوروبى، وبين المذهب أو الدين الذى يعتنقه الناس لم يكن موافقًا لإيجاد الحل. وكتبوا الردود فى الصحف الفارسية بهذه اللائحة، لكن إذا ما أردنا الحقيقة لم يكن هذا إلا نفاقًا وخداعًا. نقول ثانية: إذا لم يكن تأييد آخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى من النجف لأطاحوا بالحكم النيابى، خاصة أن هذه الفتنة وهذا الفساد كان مقترنًا باضطراب البلاد والعباد.

ومع التأييد الذى كان يبديه السيد اليزدى لهم، ومع ما كانت الدولة العثمانية تبديه له من مساندة وتأييد عظيمين، فبعد توزيع لائحة شهر مرداد دار الحديث مرة أخرى عنهم فى المجلس، وقال النواب:

"على أقل تقدير يمنعون المطبعة".

وألح المجلس فى هذا على وزير العلوم الذى كتب إلى حاكم طهران وأرسل البعض للاستيلاء على المطبعة، إلا أن المعتصمين أبدوا صمودًا، ولما كان الشاه يؤيدهم خفية لم يتم انجاز أى شىء.

وكان الحاج الشيخ فضل الله وأتباعه فى استياء شديد لأنهم جعلوا آخوند خراسانى مرافقًا له، وكانوا يسعون كثيرًا فى هذا. على سبيل المثال كانوا يبرقون إلى آخوند خراسانى وغيره يقولون:

"إن المجلس الذى أمرتم به والذى أساسه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورفع الغبن وحفظ بيضة الإسلام وتحقيق رفاهية العامة، نحن مطيعون له وراغبون فيه، لكن المجلس القائم الآن ليس كما أمرتم".

هكذا كانوا يوضحون الطريق لهم بأنهم رجعوا عن تأييد دار الشورى

ويقولون إننا لم نطالب بمثل هذا المجلس. هذا المجلس الذى يوجد يخالف الذى نبغيه، لكن آخوند وحاجى الشيخ أجابا بعد إطلاعهما على أسلوبهم وعملهم:

"نحن نبغي نفس المجلس الذى أقيم فى بهارستان".

وورد فى إحدى الرسائل التى كتبها كاتب حاجى الشيخ فضل الله على لسانه إلى ابنه فى النجف:

"واحسرتاه أن حجة الإسلام والمسلمين آية الله آقاى آخوند مد ظله العالى انصت فى هذه الواقعة إلى كلام المغرضين وأراجيفهم ولم يأمر بالمساعدة فى القضاء على الزنادقة والملحدين، ودفعهم إلى تشييد الشرع المبين، ونفس القسم الذى كان مقدمًا على كل هذه الشئون لم يكن على هذا فى تلك الواقعة".

وكتب حاجى الشيخ فضل الله بخط يده:

"إن الأهداف الإسلامية بحمد الله تعمى عين من ينكرها، وهى على وشك الإنجاز... وآمل أن يكون جناب حجة الإسلام والمسلمين آقاى آخوند مستعدًا لرفع الشبهة عنهم".

ولما كان هذا دليلاً على مكانة الآخوند الجليلة وقوة ذلك المغفور له فقد ذكرناه فى هذا المقام.

وفى رسالة أخرى كتب آملاً فى تقدم أمره، يقول:

"تقدمت الأمور كثيرًا بحمد الله تعالى، فصدق حضرة المستطاب حجة الإسلام روحى فداه، ونيته التى هى بلا غرض معلومة وواضحة لكل شخص، وقد قام المخالفون والمعارضون، الذين يقولون كلمة حق يراد بها باطل، بثورة عارمة فى هذه الأيام عن طريق نشر لوائح الزاوية المقدسة ومطبوعاتها حتى تتم إثارة الأهالى".

ونورد فى هذا الموضع لائحة أخرى عنهم تتضمن أحد أحاديث الشيخ على لاهيجى تم طبعها فى الخامس والعشرين من شهر مرداد (٧رجب) وهى من الدلائل الجيدة التى تحوى معاذيرهم وحججهم الواهية، وما تم نقده على صفحات

الجرائد كان أغلبه من قبيل الكذب ولم تكن مثل هذه الأشياء تنشر على صفحات الجرائد.

لائحة أخرى للمعتصمين:

بسم الله الرحمن الرحيم

"إن ما عرض من رأى إخواننا قاطنى طهران ومسلمى تلك المناطق يتضمن إنكم تقسمون بحق الله الذى أنتم به مؤمنون وله عابدون أن تطرحوا عن آذانكم قطن الغفلة وأن تمعنوا النظر فى هذا البيان، إنه بناءً على قوله تعالى": ﴿وما أرسلنا رسولاً إلا بلسان قومه﴾ إن ذلك فى مستوى فهم الناس قاطبة، وانظروا إذا كان ثمة أمارة على حق فمن قبيل الإنصاف أن تصدقوا هؤلاء المهاجرين إلى حضرة عبد العظيم حتى يصدق عليكم قوله ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ". وحتى لا تتعرضوا لسخط الله عليكم ونقول لكم جميعًا بصوت جهورى يا من تنظرون إلى نظام الخلق وما تتسع له الآفاق، وتعتمدون على البراهين العقلية ولا تملكون إنكارًا لوجود الصانع عز وجل، وحتى من يعبدون الأصنام الذى جاء فيهم قوله تعالى: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾. واعتقدوا أن أصنامهم تشفع لهم عند الله المنان، إنهم لا يعبدون رب السموات والأرض الذى حدثهم عنه أنبياؤهم، وأنتم تعلمون أن محمدًا بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين، وتؤمنون بخلفائه وأوصيائه الأئمة الإثنى عشرية واعتقدتم أن هذا الإقرار اللسانى وذلك الاعتقاد القلبى إيمانًا تعمر به قلوبكم وسببًا لنجاتكم، وتذكرتم بمقتضى الآية الشريفة: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾. فاعتبرتم من قبلكم من المؤمنين إخوة لكم فى الإيمان، واعتبرتم من قبيل العادة أن تعقدوا الألفة معهم، وأن تزوروهم وتضيفوهم، وتسعون فى قضاء حاجتهم وتعودوا مرضاهم وتشيعوا موتاهم وتسعدوا أرواح آبائهم وأجدادهم وأمهاتهم بتلاوة آيات الذكر الحكيم، واعتبرتم أن العلماء الأعلام ورواد الإسلام بناءً على قول النبى ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل». ونظرًا لقوله: ﴿إن العلماء ورثة الأنبياء﴾.

اعتقدتم أن ميراثهم واجب الحرمة، وإذا ما تبينتم خطأ منهم كنتم تقولون: ليس للجاهل كلام مع العالم. وكل نقص ترونه تقولون من جهلكم: حول نظرك عنهم لتقطع النظر إليهم. وأدركتم وجوب أن تكونوا فى عونهم وأن تكرموهم بناءً على توصيته ﷺ: «من أكرم عالمًا فقد أكرمنى». وإذا ما اتفق أن لحق الاضطراب فى عمل من الأعمال فبناء على قوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» تعزون أنفسكم. لذلك ينبغى أن تنظروا مقدم الإمام كى يملأ الله الأرض قسطًا وعدلاً بعدما امتلأت ظلمًا وجورًا، فظهور العدالة مقرون بظهور هذا الإمام، ما الذى وقع بيننا وبينكم يا أصحاب هذه العقيدة سالفة الذكر فى غضون هذه المدة القصيرة التى أشرتم إلى وهن عناصرها، وما أن ارتفع صوت مجلس العدل معلنًا ظلم المظلومين والجور والطغيان طلبتم من الملك خلد الله ملكه أن يبسط سلطانه على جمع من النفوس غير المغرضة والمتدينة العالمة لكن فقط فيما يتعلق بأمور الدولة الخاصة بأوضاع المعيشة التى ينبغى تسويتها وإصلاح ذات البين بينها وبين الرعية.

وقد لوحظ فجأة أن الصحف – ويفوق عددها الثمانين – والرسائل والإعلانات جاءت من هنا وهناك وكلها مفعمة بكلام سخيف وكفر وهراء باطل، وما كان منكم ضعفاء الإيمان أن أقدمتم على قراءتها وصدقتم ما ورد فيها بدلاً من رفعكم أكف الدعاء وتلاوتكم للقرآن صباح مساء وإقامة مراسم التعزية فى سيد الشهداء. وقد كنتم أنتم أنفسكم قبل أعوام ثلاثة فى مجلس قراءة الروضة بمسجد ميرزا موسى تلقون السمع إلى ما ورد على صفحات جريدة الحبل المتين الصادرة فى كلكتة، وكان الآلاف من الأهالى يتحدثون لغوًا عن الزيارة الخاصة لآل العباد، وأحضروا حفنة من الثرى على أنها من تربته وأنفقوا فى طريق الحج، وعوضًا عن ذلك أحضروا ماءً مالحًا أجاجًا تحت مسمى "ماء زمزم"، وقد رفعتم أصواتكم إلى عنان السماء بالنواح والنحيب، وحقيقة الأمر أنكم من كثرة ما آنستم هذه الصحف تغير حالكم غير الحال، وأظهرتم الرغبة فى معاشرة الفرنج والمتفرنجين

والطبيعيين والملاحدة، وجالستم اليهود والنصارى والمجوس وفرقة البابية الضالة، وعليه أصبحتم كمن ينكرون الله والرسول والأوصياء والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد تم خداعكم بهراء ووعود كاذبة قالها لكم هؤلاء الضالون الأربعة العابدين للدنيا فقد علقتم بأمل عمران المملكة وزيادة الثروة وحرية الرعية، وانصرفتم عن مؤانسة العلماء والأبرار والأخيار الأتقياء، وحجج الإسلام والداعين إلى إقامة شعائر الإسلام الذين اقتديتم بهم طوال حياتكم، بل ناصبتموهم العداء، فقلت فى نفسى سبحان الله إن المشكلة تضاعفت، فأولاً كان ظهور هذه الصحف الممتلئة بالكفر فى مدة قصيرة منذ بداية تشكيل المجلس الوطنى. والمشكلة الأخرى، هى عودتكم إلى هؤلاء القوم الذين يصلون بالناس جماعة ويعرفون الحقائق ويسهرون ليالى الجمع فى حضرة عبد العظيم. ومن الاعتقادات القلبية وما تجرى به الألسنة واتباع ما يقول به أهل الضلالة فى القول والفعل جاءنى هاتف غيبى قائلاً: أيها المسكين المنزوى، لقد سرت بين الناس كالأعمى والأصم والأبكم، وقيدت نفسك بقول أمير المؤمنين: "تركت الدنيا الخسيسة شركاؤها وكثر عناؤها وقل بقاؤها". وكنت على الدوام تعتقد فى صحة أفعال المؤمنين، وقد أنقذت الناس من أذى اليد واللسان، ولعلكم غفلتم عن مكر الأشرار والفجار الذين أفسدوا الأسواق، وكل مجلس انعقد فى تلك الآونة ويجتمع فيه عشرة أشخاص يكون منهم أربعة من الطبيعيين، وواحد بابى، واثنان من المتفرنجين وثلاثة من الشيعة الإثنى عشرية، وهؤلاء جميعًا من الجهال أو العوام ممن يتبعون شهواتهم ولا يفكرون إلا فى إشباع بطونهم ولا يدركون أى معنى، فضلاً عن ذلك فهم لا يميزون بين الخير والشر. إذن ما سيحدث من بعد لهذا المجلس الذى ينعقد باسم العدالة وعدد من فيه ثلاثمائة وثلاثون من النواب المنتخبين؟ ولا ريب أن هذا المجلس سيضم أناسًا من هؤلاء المذكورين، علاوة على الجالسين فى الحاشية كالجمال الذين اشتروا رضا المخلوق بسخط الخالق، وباعوا الدنيا فى هذه الأيام واشتروا آخرتهم بالدراهم والدنانير الحقيرة، وهؤلاء ظلوا أعوامًا طوالا فى انتظار يوم ما، وكانوا ينثرون بذور تهيئة المجال لذلك فى أراضى إيران من قبيل: إنشاء المدارس الحديثة

للأطفال، والتشبه بالإفرنج فى ارتداء النظارة والقبعة والبزة ومسك عصا اليد، والبكاء بصوت والتبول على الجدران. من أجل هذا اجتمع المجلس النيابى وجعل مثل هذه الصحف أدوات لعمله وألقاها بين المسلمين المستضعفين ونشرها وخدع معظم الأهالى الذين لا علم لهم بحقائق الأمور وردهم عن العقائد الأولية فيما يختص بالأخيار والعلماء والأبرار وبدّل ذكر خيرهم الآن بالسوء والمذمة، وتكشف هذه النتائج الخبيثة وتلك العواقب الوخيمة عن زيف إيمانهم وكثرة حيلهم ومكرهم وخدعهم وكذبهم وقسوتهم.

إخوتى فى الدين: أين المجلس؟ أين المذهب؟ لقد توجهت إلى المجلس وحثثته على تعديل أمور الدولة أو إعلان المذهب الذى يحرك هذه الصحف التى تجعل الناس يعتلون المنابر للإفساد، وأجلست أربعة فى أركان المجلس للتصديق على ذلك حتى يرفعوا أصواتهم ويجعلوا سائر الأهالى فى ثورة وجلبة. ولو تسألنى عن كفر تلك الصحف أقول: إن منها صحيفة الحبل المتين المذكورة فى باب الزيارة الخامس لآل العباء وحجج بيت الله واليوم جعلوا فى ملحقها الخاص بالعدد (١٨٣) قتل العثمانى ذريعة للرحيل إلى أرض روم والزيارة، وقد أوقفوا الأهالى تحت مسمى تلافى الزيارة. والأمر الآخر هو إعلان المجاهدين القوقازيين الذى تم إرساله إلى طهران ومضى إلى النجف الأشرف كذلك، ومن هناك كتب العلماء إلى طهران وأدرج فى جريدة المجلس العدد (١٤٣) حيث كتبوا أن دين الرسول صار متقادمًا وأن الرسول وعيسى تلميذان لساسة أوروبا وعلمائها، وتحدثوا فى ذكر الرسول والإمام عن أعمال القتل والأسر ونهب الأموال. ولن نلقى السمع من بعد إلى هذه المزخرفات والمهاترات ولا تتطفلوا أكثر من هذا. وقالوا فى صحيفة صور إسرافيل عن دين الرسول إنه لعبة، وذكروا فى جريدة الكوكب الدرى آباءه وأجداده فى أعمالهم وعقائدهم على أنهم بلهاء حمقى. وفى العدد (١٣) من جريدة العراق العجمى اعتبروا مقر المجلس النيابى فى منزلة تالية على الكعبة والبيت العتيق، بل وعدوه فى بعض عباراتهم أشرف منهما، وأمروا الأهالى بالتوجه إليه

حتى عند الموت، وفى لائحتهم المعروفة اعتبروا أوامر النبى من أثر لحم الضب وبخار لبن الناقة وسفهوا ذبح الأضحية وإيتاء الزكاة فى كتاب طالبوف. كما ذكر فخر الإسلام فى صحيفته أن زكاة الفطر ونذور الشمع فى عاشوراء وسائر الصدقات شيء خارج عن القانون. واعتبروا فى صحيفة الكوكب الدرى أن تحصيل العلوم الدينية والفقهية مضيعة للعمر، وقالوا على الإنسان أن يعمل لرقى السياسة وزيادة الثروة، ولم يعلم هذا الأحمق أن أمر الرزق والأجل فى يد الله، فما أكثر من عملوا على تدبير حفظ الرزق وجلبه ولم يصلوا إلى شيء، وإذا ما وصلوا كان مع نهاية عمرهم، أو مع خروجهم عن الدين: ﴿إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى﴾.

أيها المسلمون، تصوروا بإنصافكم هل يكون هذا توهينًا للعلم وتخريبًا وتحقيرًا للأحكام الشرعية أم لا؟ كذلك استهزأوا فى صحيفة الكوكب الدرى بسيف أبى الفضل وتشككوا فى أحد المنشورات السرية على إمام الزمام، وفى صحيفة نداء الوطن، اعتبروا بيوت الفاحشة وبيع الخمر شيئًا لازمًا لزيادة دخل البلد وتعمير المنازل، وصوروا فى صحيفة تنبيه علماء المذهب الجعفرى على هيئة حيوانات،كما أوردوا فى صحيفة زشت وزيبا صورة الرسول ﷺ والملك محمد على شاه فى صفحتين وقالوا إن الرسول مقنن سياسة ممالك العرب وخالفوا القرآن فى كثير واتصلوا بكل جماعة نادت بالحرية والأخوة والمساواة حتى بلغ بهم الأمر بأصواتهم الوقحة هذه إلى أن لاط يهودى طفلاً مسلمًا وتعرض آخر للنساء العفيفات، ومن جملة أعمالهم المساواة بين اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين فى الحدود.

بعد ذلك أقول لكم واحسرتاه عليكم أيها المسلمون، حيث اعتبرتم قراءة هذه الصحف سببًا لرقيكم وحسن إدراككم، وأنفقتم عليها ما تنفقون على زوجاتكم وأولادكم، حيث أظهرتم البراءة من أهل الإسلام والعلماء إلى درجة وكأنكم لم تكونوا معهم على مذهب واحد قط، وهؤلاء العلماء الذين كانوا حجة عليكم بعد

الغيبة الكبرى اتهمتموهم بآلاف العيوب وأخذ الدراهم والدنانير، وأطلقتم عليهم أعداء المجلس بالرغم من أن هذا المجلس يتألف بعض أعضائه من الأشرار، وعندما يحل الليل يدخلون منازل بعضهم البعض ويقضون ليلهم حتى الصباح فى احتساء الشراب وتضاعف جورهم على الجور الذى ساد فى عهد الاستبداد، ففى زمن الاستبداد، إذا ما ظهر ملك ظالم، ظهر فى الحال مائة ظالم آخرون يتقاضون الرشوة ويقومون بظلومات مختلفة، ويكف الناس جميعهم عن الكسب والعمل، والمعارض لمثل هذا النوع من المجلس يتهمونه بالإلحاد وإنكار ضروريات الدين كالصيام والصلاة والحج، لكن العلماء هم الذين تكون جميع عباراتهم ومعاملاتهم وعقودهم وأنكحتهم وإيقاعاتهم وعمران دينهم من المهد إلى اللحد فى أيديهم وإذا كانت هذه العداءات والفتن من تأسيس هذا المجلس الوطنى الذى اتخذه بعض المارقين والزنادقة من طالبى الحرية مقرًا لهم بعد بوار تجارتهم وجعلوه شماعة يعلقون عليها عقائدهم الفاسدة وأفعالهم الشنيعة وجرحوا المحترمين من أهل العفة وطلاب الدين علانية بعصا الظلم وأطاحوا بجميع العلماء والعوام، ولما كان غرضهم هو تخريب القوانين المحمدية فليهنأوا بالاً، والحال أن المجلس تأسس من أجل مطالب الدولة وليس من أجل الأمور الدينية، ولو يقولون الحقيقة، لمَ لا يرتضون إدراج ثلاث أو أربع فقرات حول المسائل الشرعية فى اللائحة الأساسية والتى هى هدف حضرة حجة الإسلام النورى وبتوقيع علماء النجف الأشرف العظام دامت بركاتهم؟ وتلك البرقيات العديدة التى أرسلتموها والتى أدرجت جميعها فى اللائحة الأساسية والتى لا توضح هذه التهم عن هذه الجهة أو تلك ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾،

أيها المسلمون، فلتكونوا منصفين، هل هؤلاء هم مخربو المجلس أم أولئك الذين جدوا وجاهدوا منذ بداية تأسيس هذا الأساس العظيم – ألا وهو المجلس الوطنى – وتحملوا مشقة لا نهاية لها من أجل إصلاح القوانين الخارجة لمجرد تهذيب المجلس وإبعاده عن النواهى الشرعية، وكتب فى لائحته من قبل قاطبة

المسلمين وجوب أن يكون هذا المجلس مستمد من القانون المحمدى. وهناك أربعة من الزنادقة والطبيعيين فهموا عكس ما يهدف بأن لهم الحرية المطلقة، ومارسوا عداءهم مع هؤلاء العظام وخرجوا يقومون بأعمال السب والقتل، وتعاونت مجموعة من أهل الإسلام الذين يؤمنون ظاهريًا وعادوا هؤلاء العظام حتى اضطروا إلى اللجوء إلى زاوية حضرة الشاه عبد العظيم المباركة، لقد بلغ تخاذلكم أن سللتم حسام اللسان وقاتلتم نواب تلك الحضرة فى الوقت الذى تدعون فيه أنكم فى عون إمام الزمان. حسنًا على دينكم وإيمانكم، لعلكم لا تعلمون أن الله لم يخل أرضًا قط من حجة، وكانت تلك الحجة هى الأنبياء أو الأوصياء، وبعث لكل رسول قانونًا فى كتاب سماوى لأمور المعاد ومعاش العباد وبعث بقوانين القرآن – التى هى أكمل جميع القوانين السالفة – إلى رسولكم الذى هو أكمل جميع الأنبياء لأمته التى هى أكمل جميع الأمم السابقة والتى ستظل إلى يوم الدين، والحاجة غير ماسة لقوانين أوروبا وألمانيا، وإذا ما كان قانون هذا الرسول الخاتم ناقصًا فوجب عليه تعالى أن يبعث رسولاً من بعده يمده بقانون آخر طالما أن حجته ناقصة، وجزاء سوء الآخرة ليس إلا بسبب الظلم، ونحن نرى أنه لم يرسل أحدًا،بل قانون تلك الحضرة كان قرطًا ثمينًا للأجانب حيث اقتبسوا منه قوانينهم الحالية، وبعد الأنبياء والأوصياء يحفظ العلماء دين الله وهم مكلفون باتباع أمر المولى، ومأمورون بذلك القانون الذى وصل إليهم يدًا بيد ليوصلوه إلى الناس ليصبحوا مقلدين لهم. إذن، لمَ أيتها الأمة تبدين تمردك على هؤلاء العلماء وتحقرين من شأنهم؟ وفى الوقت الذى أظهرت فيه المذاهب المختلفة الكثير من الفوضى والقتل الذى لا حصر لهما فى معظم البلاد، نسيتم دينكم ومذهبكم وجلستم فى هدوء تام، ولم تهتموا بعلماء الدين ولا بالمهاجرين المنتمين للدين الذين يعلون من صوت محمد وقرآنه.

يا أهل الإسلام، ألم يقل رسولكم: "إن إهانة العالم إهانة لى وإهانتى إهانة لله والرد على العلماء رد علىّ والرد علىّ رد على الله". لعلكم لا تعلمون أن الفساد قد

ظهر بسبب مخالفتكم ولن يظهر العلماء أى خلل فى الدين. وما أكثر من أنبياء مرسلين وخلفاء راشدين وعلماء عالمين رأوا فى القتل حفاظًا للدين من جور المعاندين وزكوا من سبهم وطعنهم ولعنهم.

يا متبعى الهوى والهوس، لمَ تبطلون صوت العلماء الحق على مسامع العوام وتسقطونهم كالشياطين تحت أقدام البلهاء وتخفون مكاتبات العلماء وبرقيات السادة وحجج الإسلام من النجف الأشرف أو تبدلونها وتطبعونها وتوقعون الأمر فى الشبهات، وتقدمون الآيات والأخبار فى المنابر والكتابات على صفحات الجرائد على أن معظمها من المهاجرين إلى الزاوية المقدسة وتفسدون إسلامكم كبنى أمية الذين أباحوا قتل سيد الشهداء بالآيات والأخبار، ولستم فى صدد ذلك حيث توقفون بعضنا من أهل المنبر المفسدين ومن الصحف الفاسدة لمدة أربعة أيام ولا تنشأون هذه الجمعيات التى هى من أسباب اختلال أمور الناس، ربما ينهى المجلس العظيم هذا الأمر، ولا تسلكون فى الحقيقة إلا قانون الأجانب، لعلكم لم تعلموا أن المجلس فى إنجلترا مقصور على مجلس برلمانى واحد وأنتم تقيمون مجلسًا فى كل ضاحية من ضواحى طهران تحت اسم ما وشكل ما وتوفرون له سبل الدخل.

يا أهل الإسلام، هل يليق بأى مملكة إسلامية وملك مسلم وعلماء مسلمين وقانون القرآن المحكم ينفذ فيهم جميعًا أن يقوم أربعة من الملاحدة بإعمال خيالاتهم الفاسدة والعمل وفق قانون الأجانب؟! والحال كذلك، فمع وجود خمسة عشر مليون مسلم لا شك سيظهر النزاع والخلاف ولن تحمد عاقبة هذا الأمر مطلقًا، بعد ذلك فعلاوة على أنكم لا تملكون عقل الإيمان، ولا تملكون عقل المعاش كذلك تكفرون بنعمة الإسلام والعقل.

أيها الملاحدة الذين تطيحون بأهل الإسلام، لم لا تمضون كما كان فى السابق وتعطلون المجلس من وجودكم المدمر وتقدمون الوعود للأهالى بإتمام القوانين؟ هل تتخيلون أنكم تستطيعون أن تجعلوا من خمسة وعشرين مليون مسلم ملاحدة؟ والله لم تذهب غيرة الإسلام حتى الآن، ولم يجد علماء طهران وسائر

البلاد المجال حتى يستطيعوا أن تنفذ الحرية المطلقة فى بلاد الإسلام رغم قتالهم، ولن يكون هذا القتال مشيدًا لأمر المجلس وموجدًا لمرادكم، فلتتركوا العامة يتحدون وينظمون أمر هذا المجلس بالقانون المحمدى. تم الكلام والسلام على من اتبع الهدى".

رغبة الأهالى فى إقالة الأتابك:

فى تلك الأثناء أضحت حكومة الأتابك فى طهران بلا قيمة دفعة واحدة لدى الأهالى الذين انبسطت ألسنتهم بالمذمة، بل إن كثيرًا منهم كان يذم المجلس لإبدائه التأييد للأتابك. وفى مساء يوم الأحد الثانى عشر من شهر مرداد (٢٤ جمادى الآخرة) تجمع حشد من المشاهدين فى فناء بهارستان، وكانوا يتحدثون عن عدم الأمان فى البلاد وعدم مبالاة الحكومة وخور المجلس، وكان من بينهم يحيى ميرزا الذى كان يعتبر من الأحرار، حيث تحدث علانية وتناول الكثير من أعضاء المجلس بالقدح والذم، وكان نتاج أحاديثه أن خدع وزير الداخلية النواب بالأموال، وبذلك لم يترك الأمور تسير فى اتجاهها الصحيح. بعد ذلك وزع البعض رسالة تكفير الأتابك - التى كانوا قد كتبوها إلى علماء النجف منذ أعوام - وقرأوها، ولم يكفوا عن المذمة بقدر استطاعتهم. وبعد هذه الأحاديث تم الاقتراح بأن يغلقوا الأسواق من الغد، وتفرقوا بهذه الضجة ومضوا إلى ديارهم. وهذا دليل على أن نقاب الأتابك قد مُزق.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر مرداد (٢٦ جمادى الآخرة) حيث عقد المجلس ثانية، ذكر السيد محمد تقى - الذى كان يُعرف بتأييده للأتابك - حديث تلك الليلة، وأورد أقاويل يحيى ميرزا، وتحدث حديثًا مطولاً حول وجوب عقاب أولئك الأشخاص الذين تعدوا على النواب، وتحدث معظم النواب حول هذا الشأن وظهر الاضطراب بينهم، وطالبوا بأن يتم التحقيق مع يحيى ميرزا وأخيه سليمان ميرزا، وقضى المجلس وقتًا طويلاً فى هذا دون جدوى. وهنا علت أصوات حادث آخر.

في غضون ذلك توالت البرقيات من أرومي مطالبة بالإنصاف الواحدة تلو الأخرى، فبعد هزيمة مجد السلطنة لم ير الأكراد المغيرون قاطنو الحدود مقاومة تتصدى لهم، فأغاروا على القرى. وفي قرى أرومي كان يوجد الآشوريون والسنيون والشيعة، وتم مراعاة الأكراد السنة فقط ولم يكفوا عن أعمال القتل والإغارة على غيرهم، هذا وقد ترك الفلاحون المساكين ديارهم ومزارعهم واتجهوا إلى المدينة باكين نائحين وهاموا مضطربين في الأحياء والضواحي.

وفتح القنصل الروسي باب القنصلية أمام الآشوريين تحت اسم المسيحية وسياسة الاسترضاء ومنحهم الأموال والتموين. كما تعاطفت معهم كذلك قنصليتا أمريكا وإنجلترا. وكان يقال إنهم يظهرون الشكوى والاستياء إلى الحكومة العثمانية باسم حكوماتهم، وكان هذا باعثًا لتأذي المسلمين، فلمَ لم تقم دولة برعايتهم ومعاونتهم؟! هذا وكانوا يداومون في إرسال البرقيات إلى طهران يطالبون بالإنصاف، وأثارت هذه البرقيات حفيظة الأحرار، وقامت جمعيات طهران – التي كانت كثيرة آنذاك – بحركة وثورة.

وفي يوم الخميس السادس عشر من شهر مرداد (٢٩ جمادى الآخرة) تجمع النواب من إحدى وثلاثين جمعية في مكان واحد، وكتبوا رسالة إلى المجلس طالبوه فيها بأن يضغط على الحكومة في هذا الشأن.

وبعد ذلك، في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر مرداد (١١ رجب) وقعت حركة وثورة أخرى في جميع آذربايجان، فلما وصلت برقية أهالي أرومي المطولة تجمع أهالي آذربايجان في مقر الجمعية وتلوا البرقية في البداية ثم تناقشوا حولها. ويقال إن الدولة كانت تبدي عدم مبالاتها علانية. وقال أحدهم إنهم ردوا هاتفيًا من وزارة الداخلية على تجار آذربايجان، وقالوا إن الدولة أصدرت أمرًا بأن يتجه الفرسان والجند في آذربايجان من كل صوب إلى أرومي لتشكيل معسكر هناك، فقام الآخرون بجلبة قائلين إن هذا كله محض افتراء والدولة لا تصغي لنا، وتدريجيًا زادت الجلبة وبكى البعض، واقترحوا في النهاية أن يمضي الجميع إلى

المجلس ويتناقشوا حول إقالة الحكومة، واتجهوا بهذه الجلبة وذلك الاحتشاد إلى المجلس وبعد وصولهم، أسرع إليهم تقى زاده من قبل المجلس وكذلك ميرزا فضل على وحاجى إمام الجمعة لتهدئتهم، لكن لم يهدأوا وقيل فى النهاية إنهم سيختارون خمسة من بينهم للمضى إلى المجلس والتباحث معه كممثلين عنهم.

ولما مضى هؤلاء الخمسة إلى المجلس تحدث منهم صادق رحيموف، وكان صنيع الدولة يحاول تأييد الأتابك ويقدم الردود متحججًا بعدم وجود الأموال والجند، ثم بدأ الحديث مع وزير العلوم – حاجى مخبر السلطنة – الذى كان حاضرًا فى المجلس، ولما كانت هذه المسألة مهمة فسوف نوردها فى هذا الموضع:

رحيموف : إننى أتساءل من قبل هؤلاء الناس، هل وزير الداخلية هذا قد قبل مسئولية النظام الداخلى أم لا؟

وزير العلوم : نعم، نحن الثمانية وزراء قد قبلنا المسئولية.

رحيموف : أنا أتحدث إلى الثمانية وزراء، لقد قبلتم المسئولية بالشكل الذى تبتغونه، فلأى سبب لا تنظمون ما بينكم؟

وزير العلوم : إننى أفعل قدر طاقتى ونقوم بما ينبغى السعى فيه.

رحيموف : إذن، فمن المعلوم أنه لا يمكن انجاز أكثر من هذا من قبل الوزراء الثمانية فيما يختص بتنظيم الأمور، وعلى كل حال فأنا أتحدث عن هؤلاء الناس وأقول إننا لسنا راضين بهذا القدر.

وزير العلوم : إن ليلة أنسنا هى تلك الليلة التى نقدم فيها استقالتنا، لكننى قلت فى المجلس منذ عدة أيام إن ضميرنا يمنعنا من أن نتراجع فى وقت راحتنا عن وقت عملنا، فضلاً عن أننى أعلم علم اليقين أن ذلك اليوم الذى نتراجع عن العهد فيه سيلحق الفناء بدولة إيران.

رحيموف : إن ما تقوله هذا من قبيل الظن.

وزير العلوم : لعل ما تقوله من كلام لا يرضى به سائر الشعب.

رحيموف : إننى أعرض كلامى على لسان الشعب، وفى حالة ما لم ينظم هؤلاء الوزراء المسئولون إداراتهم، أو لديهم ما يعوق ذلك، فإما أنهم لا يريدون أن ينظموا فيعفوا أنفسهم، وسوف نقبل هذا بكل الشكر والامتنان. وأقول من قبل الناس إذا ما نظم الوزراء إداراتهم وأزالوا الفتن فى سائر الولايات منذ اليوم وحتى العشرة أيام المقبلة، منها، وإلا عليهم أن يستقيلوا ولن نقبل لهم عذرًا.

رئيس المجلس : حسنًا جدًا.

وزير العلوم : ولو أطل علينا شخص فى اليوم الحادى عشر وهشم رأس شخص، ماذا ترون من الوزراء؟

رحيموف : سأعرض اسم من تخلى عن النظام وأقوم بنقده.

وإلى هنا انتهى الحوار، رأيتم إلى أى حد كانت الوقاحة، ويتضح من حديث حاجى مخبر السلطنة ومن الحجج التى كان يتذرع بها أنه رغم ضغوط الأهالى لم تكن الاستقالة فى فكر الأتابك وأتباعه، وكانوا يريدون البقاء حتى القضاء على الحياة النيابية، ولما كان اثنان من الوزراء غائبين فى تلك الأثناء حيث أقال المجلس وزير الحربية – كاميران ميرزا – بينما مضى وزير العدل – فرمان فرما – إلى آذربايجان لذا نُشر على صفحات جريدة الحبل المتين الصادرة فى طهران مقال مطول تحت عنوان "أزمة الوزراء"، ولما كان عدم الرضا من قبل الأهالى ذهب ظن معظمهم أن الحكومة تبحث أمر الإقالة. لكن هذا لم يكن إلا ظنًا، واختار الأتابك شخصين آخرين لملء الأماكن الخالية، وكانوا يفكرون فى حل للإقلال من حدة الغضب بين الأهالى، وبصفة عامة كانوا يفكرون على عكس ما

كان يفكر فيه الناس، فكان فى فكرهم الصمود والضغط. من ناحية أخرى - وكما سنرى - كان المجلس مؤيدًا له كما أن معظم النواب - خاصة رئيس المجلس والسيد تقى زاده وغيرهما - لم يكفوا عن تأييده رغم ما كانوا يرونه من خدع.

نهضة أهالى آذربايجان لعداء الأتابك:

فى نفس هذه الأثناء ظهر عداء واضح ضد الأتابك من قبل آذربايجان، فكما ذكرنا، اندفع مجاهدو خوى إلى مكتب البرق وحصلوا على برقية الأتابك الموجهة إلى إقبال السلطنة وأرسلوا نسخة منها إلى تبريز حتى يتم طبعها فى جريدة الجمعية، وأدى ذلك إلى أن يبدى الأهالى عداءهم أكثر من ذى قبل تجاه الأتابك ويبسطوا الألسنة فى ذمه.

وفى نفس يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر مرداد، استدعوا نواب الجمعية من أرومى إلى مكتب البرق حتى يعرضوا مشاكلهم، ولما انتهى الحديث، أرسلت الجمعية برقية مؤثرة إلى المجلس بينت خلالها غلبة العثمانيين وإغارة الأكراد وتأذى الأهالى، ثم ذكرت الأتابك وكتبت جملاً شديدة اللهجة.

من ناحية أخرى، فإن مجاهدى خوى كانوا قد تقدموا فى رفع النقاب عن حيل الأتابك، وأرادوا أن يكون السبق لهم كذلك فى عزله، خاصة فى ذلك الوقت الذى كان يلحق فيه الأذى بقرى خوى من قبل أكراد إقبال السلطنة. هذا وكتبوا لائحة مطولة وطبعوها وذموا فيها الأتابك بشدة (أو كما أطلق عليه فى اللائحة: أمين السلطان) وأطلقوا عليه "خائن السلطان"، كما سبوا نواب المجلس وأعربوا عن تأييدهم ليحيى ميرزا وسليمان ميرزا، وكتبوا فى نهاية اللائحة:

"ينبغى أن يثيروا الشعب ويبعدوا الوجود النحس لأمين السلطان من هذه الأراضى بثورة واحدة".

كما كتبوا:

"ستصل اليوم برقيات مثيرة من خوى، ومن الضرورى أن يجتمع أهالى

تبريز ويظهروا حميتهم وغيرتهم، ويرسلوا البرقيات المؤكدة إلى طهران كى يخلعوا ذلك المفسد وتبدأ انتخابات جديدة، وسوف يقوم بعض هؤلاء النواب الذين أخطأوا فى مقامهم بإقامة صرح الاستبداد من جديد، وإذا لم يعزلوا أمين السلطان هذه المرة من منصبه، سيكون هناك عمل غير لائق لدفع نحس وجوده فى ذلك الوقت".

كان هذا الحديث الشديد اللهجة من خوى مصدرًا للعجب، ولكن كما سنرى كان ميرزا جعفرزنجانى وأتباعه الذين قدموا من القوقاز يقيمون آنذاك فى خوى أساسًا قويًا للمجاهدين، وهذه الكتابات عن لسانهم، وقد تجمعوا فى نفس هذا اليوم فى مكتب البرق، وأرسلوا البرقيات إلى تبريز والمدن الأخرى فى نفس الخصوص وظلوا فى مكتب البرق يأملون فى النتيجة.

أما فى تبريز، فقد كان المجال مهيأ لحركة بعد نشر برقية الأتابك إلى إقبال السلطنة وفى ليلة الثلاثاء الرابع من شهر شهريور وكذلك فى نهار ذلك اليوم ظهرت حركة وثورة بين المجاهدين، كان البعض يريد أن يتمرد على فرمان فرما الذى أرسله، وكانوا يعرفونه بأنه مندوب الأتابك، وخشى فرمان فرما واستدعى بعض نواب الجمعية وتباحث معهم، وأظهر ميله الواضح إلى الحكم النيابى، ونتج عن ذلك أن أيده ميرزا آقا الإسپهانى وغيره وهدأوا من روع المجاهدين.

وبعد ذلك، فى يوم الأحد التاسع من شهر يور حيث كانت الجمعية منعقدة منذ الصباح وكان النواب يتباحثون، وصلت رسالة من فرمان فرما بأن يمضى شخصان إليه، فاختار النواب حاجى محمد جعفر مؤمن وحاجى مير محمد على الإسپهانى ووجهوا بهما إليه. وقد توجها إليه، ثم عادا بعد نصف الساعة وأحضرا رسالة من فرمان فرما، مفادها:

"كما وصلت الأنباء إلىّ بأن الأحرار تجمعوا فى مكتب البرق، وأبرقوا إلى ستة أو سبعة أماكن كى يثيروا الأهالى ويستميلوهم إليهم ويطلبوا عزل الأتابك".

ويقول:

"أنا لا أعلم هذا جيدًا فى هذا الوقت، فهم يطلبون من الجمعية أن تبرق إلى خوى وغيرها من الأماكن كى تتخلص من هذه الحركة وألا يكونوا سببًا فى إثارة البلاد".

ودار حديث حول هذه الرسالة بين النواب، وتليت لائحة أهالى خوى الواردة حديثًا، وكانت رغبة فرمان فرما أن ينال التأييد من الأتابك وأن يستميل إليه بعض النواب، لكن الآخرين لم يريدوا أن يكونوا أداة فى أيديهم، لذا دار النقاش، لكن وسط هذه الأجواء الساخنة دخل فراش مكتب البرق فجأة إلى الحجرة وسلمه رسالة يقال إن رئيس البرق قد كتبها إلى ميرزا آقا الإسپهانى تفيد بعزل الأتابك إلى الأبد. وعُلم أن الأتابك توفى أو قُتل، واضطرب الجميع من سماع هذه الأنباء ولم يبق المجال ثانية للحديث، ثم وصلت برقيات أخرى علم منها أن رغبة أهالى خوى قد نفذها من يدعى عباس آقا الصراف التبريزى بشكل أفضل بكثير مما أرادوه.

مقتل الأتابك:

كما ذكرنا، لم يكن الأتابك يفكر فى التنحى، فقد استدعى من أوروبا للإطاحة بالحكم النيابى، وفضلاً عن أن محمد على ميرزا كان متفقًا مع روسيا فى هذا الشأن، ولا ينبغى قط أن ينحى نفسه، فقد اختار وزيرين لم يكونا حاضرين وهما مستوفى الممالك وعلاء الملك كى يحلا محلهما. أما الاستياء الذى أبداه الشعب ودار الحديث عنه مرارًا فى المجلس فهو متعلق بأمرين، أولهما أن يؤمن البلاد والآخر هو التنحية. وفكروا حلاً لهذا أن يكتبوا رسالة على لسان الوزراء إلى محمد على شاه كى يعربوا فيها عن تعاطفهم تجاه البلاد والمجلس والحكم النيابى ويكتب الشاه كذلك رسالة تحمل البشرى، وبصفة عامة فقد يؤخذ من الرسالة والرد عليها أن الذنب واقع على عاتق محمد على شاه وإلا كان الأتابك راغبًا فى تقدم الأمور ويحاول استمالة محمد على ميرزا إلى جانبه، واتخذوا ذلك

ذريعة لهم وزفوا البشرى ثانية إلى المجلس والشعب، وأبدوا حماستهم، وتقدموا فى أعمالهم مرة أخرى بالنفاق والكذب، ولما كانوا يعرفون عن الإيرانيين سرعة التصديق والانخداع كانوا يتحمسون لتحقيق خطتهم.

وفى مساء يوم الأحد الثامن من شهر شهريور (٢١ رجب)، كان المجلس منعقدًا، وكان السيدان هناك، وحضر الوزراء كذلك، وبعد أن تحدثوا قليلاً دخل الأتابك خلف المنبر، وقال:

"بما أن هناك تغييرًا وتعديلاً فى هيئة الوزراء فى هذه الأثناء، فقد يأتيان أولاً اليوم لتقديمهما فى المجلس، وقد انتخبوا جناب مستوفى الممالك وزيرًا للحربية وجناب علاء الملك وزيرًا للعدل. ثانيًا: تشرفنا بالحضور أمام الشاه فى جميع الشئون مع هيئة الوزراء وعرض كل ما تمس فيه الحاجة إلى الإصلاح وصدرت بعض الأوامر التى ينبغى إطاعتها، لذا حضرنا فى المجلس حتى نحيط النواب علمًا بمجريات الأمور، وصدر فرمان لتأكيد تنفيذ الحكم النيابى وإتمام الدستور وسائر القوانين حتى يقدم السادة النواب على إنجاز أعمال عظيمة ونؤكد إنهم سيستكملون الدستور فى القريب العاجل".

وبدلاً من أن يرد النواب إزاء هذا الحديث الذى اتسم بالخداع وعدم الحياد، قائلين إننا لن نساندك مرة أخرى، أبدوا رضاهم بحماقة، وأثنوا عليه، وبعد ما قيل من حديث قرأ السيد محمد تقى الهراتى – الذى كان أداة من أدوات الأتابك – رسالة الوزراء (أو وفق قولهم عريضة الوزراء) التى أرسلوها إلى الشاه مع رد الشاه عليها، وها نحن نوردها فى هذا المقام:

يقول الوزراء:

"نحن فداء الموطئ المقدس لملكك الشبيه بالجوهر، إننا مضطرون بموجب التعهد الذى أخذناه على أنفسنا فى موطئك المقدس وأشهدنا القرآن عليه للقيام بكل ما فيه صلاح الدولة ونعلم الذات الملكية المقدسة، ونرى أن مصلحة المملكة والدولة والشعب هى مصلحة الملك، لذا نعرض عليكم أن اضطراب الخلق وقلق

العامة واختلال أوضاع المملكة لا يكون أكثر من هذا، وهم يطلبون تسوية الأمور من المجلس، وللمجلس الحق وفق ما منح إليه من قوانين فى الدستور أن يرجع إلى الوزراء المسئولين وينفذ قوانين الدستور بشكل قطعى وأن يقوم الوزراء بتنفيذ تلك القوانين بدعم الشاه وتأييده، ولا ريب أن هذا الملحظ عند الملك مبرهن على ألا تتقرر حتى صدور الأحكام وفق الدستور. إن شكوى المجلس لن تزيل خوف الأهالى واختلال الأمور، ولا شك فى سوء العاقبة، ونحن على يقين من أن النيات المقدسة للشاه لا تتعارض مع العرائض التى تتطلب السعادة لهؤلاء الغلمان. ونطلب نحن العبيد من أجل رفع تزلزل دعائم الملك وتطييب الخاطر المبارك للشاه أن يصدر أمرا ملكيا يؤكد على تنفيذ الدستور جديًا حتى يرفع المحظور عن هؤلاء العبيد ونقوم بالخدمة دون إبداء الملاحظات.

زيادة القدرة لا تملك الجرأة فالأمر الأقدس الأعلى مطاع"

ويكتب الشاه الأمر التالى:

"إلى جناب الأشرف الأتابك الأعظم، إن تنفيذ القوانين بدعم المجلس هو هدفى ومقصدى على الدوام، وتكليف هيئة الوزراء لإتمام ذلك ودومًا نأمر الوزراء بذلك وسوف نأمر أن يقوموا بالخدمات دون إزعاج وسوف يلزم تأكيد منا للوزراء ونكتب ذلك خاصة أن الوزراء يريدون الإسراع فى تدوين الدستور من قبل المجلس وتنفيذه فى أسرع وقت. شهر رجب ١٣٢٥ق".

وبعد قراءة ما سبق اضطرب النواب، ولما تحدثوا عن عدم الأمان أجاب الأتابك بدهاء أن هذا كله بسبب عدم وجود القوانين، فالقوانين التى دونت ووافق المجلس عليها تنمحى جميعها، كذلك كما حدث فى إحدى الجلسات منذ عدة أسابيع حيث ورد الحديث عن البنك الوطنى وطالب أن ينتهوا من ذلك سريعًا، وفى النهاية قال رئيس المجلس:

"آمل إن شاء الله تعالى فى القريب العاجل أن يتم إصلاح الأمور وانتظامها باتحاد النواب وتعاونهم مع الوزراء".

وانتهت الجلسة بهذه الجمل الخداعة، وصدق النواب سريعًا، ونهضوا من أماكنهم وهم يضحكون، ومضى الوزراء وعدد من النواب إلى الطابق العلوى لتناول الشاى والغليون حتى انقضت ساعتان من الليل. وخدع الأتابك النواب بعذوبة لسانه ومكره، فكان يتحدث ويسمع ويضحك بقلب مسرور ووجه منشرح، ولم يعلم أحد أنه كان يعيش آخر لحظات عمره وأن حياته تنتهى فى اللحظة التى يجلس فيها هناك.

ولما انتهوا من تناول الشاى والغليون نزل الأتابك مع السيد بهبهانى يمسك كل منهما بيد الآخر وسلكا الطريق وهما يتحدثان حتى وصلا خارج بهارستان، وهناك طلب أحد المتسولين المال من السيد بهبهانى ودفعه وسقط وحده على بعد خطوتين أو ثلاثة، لكن الأتابك كان لا يزال يخطو خطواته ويترقب العربة التى ستقله وهى تقترب منه، وفجأة قدم شاب من أمام الباب وأطلق عليه ثلاث رصاصات متتالية من مسدس كان بيده وتمت إصابته، وأصابت رصاصة أخرى أحد السادة من المشاهدين وجرحته، وسقط الأتابك على الأرض، ولما أراد الجانى الفرار تعقبه أحد حراس المجلس وضربه، لكن نظرًا للاضطراب ونظرًا لضيق الميدان أفرغ رصاصة عليه أصابته فى قلبه وأردته قتيلاً فى الحال، وكان الأتابك لا يزال على قيد الحياة، ولما وضعوه فى المركبة، وأرادوا أن يحملوه إلى داره فاض رمقه الأخير.

وأوصلوا الأتابك إلى داره لتغسيله وتكفينه ثم أرسلوه إلى قم لدفنه، لكن القاتل كان لا يزال ملقى على الأرض، ولم يتعرف أحد عليه حتى خلعت الشرطة ملابسه وقامت بتفتيشها وأخرجت كارتًا من جيبه مدون عليه:

"عباس آقا صراف الآذربايجانى، عضو الجمعية رقم ٤١ فداء الشعب".

وعرف بعد ذلك أنه شاب فى الثانية والعشرين من عمره من أهالى تبريز ويدعى عباس آقا ووالده هو حاجى محمد، وكان يعمل فى طهران بالصرافة وتعرف كثيرون عليه فى السوق. وأحضروا جثمانه إلى فناء بهارستان وألقوه على الأرض ومكث هناك يومًا أو أكثر، ولما كان الكثيرون من أهالى طهران يجهلون

أمره كانت إدارة الشرطة تتعقب أولئك الذين كانوا يعرفونه أو يصادقونه، وظل جثمان ذلك الشاب الفدائى على الأرض، ولم يستطع أحد الاقتراب منه حتى أنهت الشرطة التحقيق ثم حملوه بمذلة من الأرض وتوجهوا به إلى المقابر.

من كان عباس آقا؟ ولمَ قام بهذا العمل؟:

جدير بالذكر أنهم تحدثوا كثيرًا بحديث لا طائل من ورائه عن مقتل الأتابك، ولا يزال البعض يقول: "ضرب يحيى ميرزا الأتابك، وأساءوا الظن بآخر وأصابت رصاصة عباس آقا فأطاحت به".

أو يقولون: "بعد مقتل الأتابك أصاب حيدر عمو أوغلى عباس آقا حتى لا يبقى على قيد الحياة وينتهى سر هذا الأمر".

أو يقولون: "لقد أصدر محمد على ميرزا أمرًا بقتل الأتابك لكون هذا من المطالبين بالحياة النيابية خفية".

لكن هذا كله لم يكن سوى ظنون نُسجت من قبيل الاسترضاء والتباهى وليست لدينا معلومات صحيحة فى هذا الشأن، وما حصلنا عليه بعد البحث ندونه فيما يلى:

لما كان الأتابك يبدى إلحاحه للإطاحة بالحياة النيابية كما يبدو من تصرفاته، وللحق إنه أساء إلى العديد من النواب وتملك زمام القوة فى المجلس، وهذا ما اشتد وقعه على الأحرار، كانوا يسعون إلى قتله. أثناء ذلك، كان أحد الأحرار يعيش فى طهران، وكان شابًا لكنه كان كثير الجرأة والخبرة ثم صار أحد الرواد المشاهير فى ثورة إيران، ولما كان هذا الشاب يعمل فى مصنع الكهرباء لدى حاجى أمين الضرب وكان مهندسًا فيه فقد اشتهر باسم حيدر خان الكهربائى. ولكن نظرًا لشهرته فى السنوات الأخيرة باسم "حيدر عمو أوغلى" فسوف نذكره بنفس الاسم، كان هذا الرجل من أهالى سلماس لكنه نشأ فى القوقاز ودرس العلوم الهندسية فى تفليس، ويقولون عن قدومه إلى إيران إنه لما أراد أحد تجار تبريز ويدعى

رضايوف مد بلاط مشهد بالمصابيح الكهربائية قبل النيابية بعام أو اثنين، وكان فى حاجة إلى مهندس مسلم لإتمام هذا العمل، لذا أحضر حيدر عمو أوغلى – وعمره لم يكن يتعدى العشرين عامًا – من تفليس إلى مشهد وتوجه حيدر عمو أوغلى بعد ذلك من هناك إلى طهران وعمل فى مصنع الكهرباء هناك، ولما ظهرت الحركة المطالبة بالحياة النيابية كان من مؤيديها.

وفى العام الثانى للحكم النيابى حيث كانت الجمعيات تنعقد فى طهران، أسسوا جمعية فى آذربايجان باسم "جمعية آذربايجان"، وجدير بالذكر أنها كانت من أقوى الجمعيات هنا وأكثرها تأثيرًا.

وكان حيدر عمو أوغلى أحد المجاهدين فى هذه الجمعية، وهكذا يتضح أن ثمة صلة بين إيرانيى القوقاز وبين لجنة الاجتماعيين العاميين.

وأيًا ما كان، فإن مسئولية قتل الأتابك تقع على عاتق حيدر عمو أوغلى، ويقولون إن تقى زاده كان على علم كذلك بالأمر، ولإنجازه اختاروا عباس آقا، وكان شابًا غيورًا وأمروه بتنفيذ العملية. وفى اليوم الذى أطلق فيه عباس آقا الرصاص كان حيدر عمو أوغلى أمام بهارستان، ويقولون إنه ألقى بالحصى والرمال فى أعين الجند لمساعدة عباس آقا، لكن لم يُعلم إلى أى مدى كان هذا الحديث صحيحًا. والجمعية رقم ٤١ المدون اسمها على الكارت الذى كان فى جيب عباس لم يكن لها سوى الاسم فقط، فلم نحصل على معلومات عن هذه الجمعية مع البحث والتحقيق. وصار هذا الاسم سببًا لرعب آلاف الأشخاص وطالب العديد منهم بالانضمام إليها رغم عدم وجود أساس لها.

وثمة شىء ينبغى أن نضيفه فى نهاية هذا المقال. لما كان الإنجليز يعرفون أن الأتابك أداة فى يد السياسة الروسية لذا كان استياؤهم منه، ولعلهم كانوا يتمنون قتله، وقد علموا بذلك مسبقًا بوساطة السيد تقى زاده. وواقع الحال أن مقالات عديدة نشرت على صفحات الصحف الأوروبية بعد مقتل الأتابك وكان معظمها فى

الصحف الإنجليزية، والشيء الذى يثير العجب أكثر هو تلك الجمل التى ترجمت فى صحيفة الحبل المتين الصادرة فى كلكتة نقلاً عن صحيفة ويلز، هذا ونوردها فى هذا الموضع:

"استمدت الجمعية السرية لمجاهدى القوقاز وآذربايجان قوة كبيرة، وبلغ العدد الرسمى لأعضائها ٨٦١٥٠، وتعدادهم السرى ٦٣٠٠، وقد انتخبوا من الجمعية السرية عن طريق القرعة ٣٠٧ أشخاص ليراقبوا تحركات ١٣٢ شخصا من المستبدين، ولكل منهم حكم مختوم يوضح عملهم وهو مطابق للائحة الجمعية، وقد كبروا صورة عباس آقا ووضعوها فى ركن من أركان الجمعية السرية دون برواز".

ولا نعلم من أين أتى محرر الجريدة الإنجليزية بهذه المهاترات، ولو أن الجمعية كانت سرية – حسب قول المحرر نفسه – فمن أين حصل على كل هذه المعلومات بالاسماء والدلائل والأرقام الدقيقة؛ وهى بعيدة عن الجريدة الأوروبية، وينبغى القول هنا إن ثمة سرًا ما.

ونكتب أيضًا ونقول لما كان حيدر عمو أوغلى متضامنًا مع جمعية القوقاز فليس بعيدًا أنه تلقى هذا الأمر من هناك، وما يؤكد هذا جُمل لائحة مجاهدى خوى التى ذكرناها سابقًا:

"لو أنهم لم يعزلوا أمين السلطان من منصبه هذه المرة على أثر الهمة العالية لتبريز وحماستها فعندئذ سيكون هناك سبب آخر لدفع نحس وجوده".

وكان هذا الحديث – كما ذكرنا – من قبل ميرزا جعفر زنجانى – مبعوث لجنة القوقاز – ويتضح من هذا أن اللجنة كانت تسعى إلى قتل الأتابك.

«المقال الثامن»

كيف مال البلاط إلى الهدوء؟

يدور الحديث فى هذا المقال حول أحداث الثلاثة شهور منذ مقتل الأتابك حتى تهيئة المجال لفتنة ميدان دار المدفعية.

مواساة المجلس التى لا محل لها تجاه الأتابك:

يعد مقتل الأتابك أحد الأعمال الجسيمة، وكما سنرى، أدخل هذا العمل العظيم الرعب والفزع فى قلوب رجال البلاط وازدادت مكانة الأحرار فى نظر الأجانب. وفضلاً عن هذا كله، جعل الأمور تأخذ طريقًا آخر وفتح دورًا جديدًا لتاريخ حركة الحكم النيابى، وأظهر الفدائى عباس آقا فى شهامة كبيرة.

ولم يترك الأتابك – مع طريق الخداع الذى كان يسلكه – حركة المطالبة بالحياة النيابية تنتهى منذ بدايتها، وكثيرًا ما أوقع الفتن وساهم فى إفساد الأمور، وجعل من شعب إيران كله شعبًا عديم الشرف. إن ألد الأعداء هو من يظهر نفسه فى حب المجتمع ويكون مثل الأتابك رجلاً محنكًا صاحب تجارب سابقة ثم يقوم عباس آقا بدمه القانى بتبييض وجوه الأحرار.

لكن مما يعجب له أن دار الشورى اعتبرته أجنبيًا، ولم تكن ترغب فى تبجيل التضحية الثمينة لهذا الشاب، بل إن مؤيدى الأتابك أبدوا تسلطهم وكانوا يريدون أن يظهروا رجلهم على أنه رجل فاضل ووزير عطوف، وأظهروا عباس آقا على أنه رجل سيىء قاتل.

وفى ليلة الأحد التاسع من شهر شهريور (٢٢ رجب) حيث وقع هذا الحادث، ومن فجر الغد، تجمع السيدان والعديد من النواب فى فناء بهارستان، وجعلوا يتناقشون حول الحادث، وأرسلوا البرقية التالية – التى هى دليل على فكر المجلس – إلى الجمعيات فى المدن:

"لقد أطلعت مكاتب البرق فى عامة الولايات الحكام والجمعيات والأقاليم بأن الأتابك الأعظم وزير الداخلية قد حضر بالأمس لتقديم وزيرى الحربية والعدل كالمعتاد إلى مجلس الشورى الوطنى، وبعد انعقاد المجلس، وبعد مضى ساعتين من الليل، وفى خارج بهارستان ضُرب بالرصاص من قبل شخصين مجهولين بالقرب من مكان العربة وتوفى إلى بارئه بعد دقائق قليلة، وقتل القاتل – أو رفيقه – نفسه مباشرة. وينشغل مجلس الشورى الوطنى وكذلك أمناء الدولة جديًا فى التحقيق كى يُعلم السبب فى هذا العمل والمرتكبون الأصليون له. إن قتل الأتابك الأعظم لمن الأمور الجسام ويستوجب الحسرة والأسف الشديدين، ونأمل أن ينكشف سبب هذا الفساد، وأن ينال المرتكب وشركاؤه الجزاء القانونى فى ظل قدرة مجلس الشورى الوطنى وسطوته ويتشفى بالقصاص منهم من أجل عامة شعب إيران".

وانعقد المجلس مساءً وبدأ النقاش، وتحدث فى البداية محقق الدولة – أحد نواب خراسان لكنه كان من مؤيدى البلاط – بلهجة شديدة قائلاً:

"بسبب هذا النوع من السلوك أصيب هؤلاء الخدام ببلاء عظيم، وينبغى على المجلس أن يعرض هذا حتى لا يستطيع هؤلاء الخونة أن يتعدوا على هذا النحو فى أى وقت قط".

وقام من بعده السيد محمد تقى الهراتى – وكان من أكثر المؤيدين للأتابك – وأخذ يقرأ اللائحة التى كتبها أهل السوق والتى أحضرها معه إلى المجلس، وكان أحد المحرضين لأهل السوق لكتابتها، هذا وقد ورد فيها بعد الديباجة:

"الآن، حيث أوقعت هذه الواقعة العظيمة الظلم والطغيان على الدولة والشعب بقتل هذا الشخص المحترم ألا وهو صدر المملكة الأعظم وأول المطالبين بالحياة النيابية وخادم الدولة والشعب، لذا فنحن نطلب مع كامل الاحترام أن يطلب المجلس المحترم جديًا من الحكومة وهيئة الوزراء القاتل والمحرك الأصلى لهذا العمل الشنيع وأن يعاقبه عقابًا قانونيًا، وإلا لن نترك نحن التجار النواب المحترمين فى راحة".

ومضت عدة ساعات على هذا الحدث، وانتهز البعض الفرصة، وأخرجوا ما بهم من شحنات سيئة ضد التحول النيابى، وبينما كان الآخرون يلزمون الصمت إما خوفًا أو أنهم لم يكونوا فى وفاق إلى هذا الحد مع المطالبة بالحرية. وقيل إن المجلس اختار لجنة كى تراقب أستجوابات الشرطة والمحكمة وتحقيقاتهما، لكنها لم تصل إلى شىء. وفى النهاية عزموا على إرسال برقية إلى الشاه - الذى كان آنذاك فى سلطنة آباد - وبعد المواساة، طالبوه بالضغط على الدولة لمواصلة التحريات والتحقيق وتعقب المجرمين.

فرغم كل هذه الأكاذيب والخدع التى شوهدت منه كانوا يبدون تأييدهم له، والأعجب من هذا أن تحجج البعض قائلاً:

"فضلاً على كل ما كان، فقد أبدى الأتابك فى جلسة المجلس الأخيرة تعاطفه الشديد تجاه الحكم النيابى".

وكانوا يبدون هذا الاهتمام تجاه أقواله الخداعة بشكل أحمق. وهذا دليل على أن الأتابك قد جعل معظم النواب تحت سيطرته وأفقد المجلس قوته.

حدث هذا بهذه الصورة الطيبة ولم يهتم المجلس به، من ناحية أخرى، كان العديد من أعداء الحياة النيابية يعربون فى الخارج عن ثورتهم، وكانوا يريدون أن تتخذ الدولة هذا الحادث حجة للقبض على بعض أعداء الحرية. ومن الصحف كذلك من لم تكن تسعى إلا لتحقيق مصلحتها، ومن بينها صحيفة "نداء الوطن" لمجد

الإسلام كرمانى، فقد نشرت الحادث فى إطار أسود اللون تحت عنوان "إنا لله وإنا إليه راجعون".

من ناحية أخرى فتحت الشرطة أيديها بأمر الشاه وتأييد المجلس، وألقت القبض على ميرزا صادق طاهباز بسبب رفقته لعباس آقا، كما قبضت على تلميذ عباس آقا وبعض الأشخاص الآخرين وزجت بهم فى السجون، وتمكن أخو عباس آقا من الفرار من طهران إلا أنه قتل نفسه فى قزوين لسبب غير معلوم.

وجثة عباس آقا التى ظلت على الأرض أكثر من يومين، فقد طالب بعض أهل السوق – باسم إبداء التعاون – بأن يعهد إليهم بها كى يقوموا بدفنها لكن الشرطة رفضت ودفنته ليلاً فى كثير من المذلة. فقد قيل إنهم ألقوه بداية فى حفرة بنفس ما كان يرتديه من ملابس، إلا أنهم أخرجوه بعد ذلك خوفًا من أن يعلم الأحرار وقاموا بتكفينه.

على هذا النحو كانت الغلبة للبلاط خلال ثلاثة أيام، ولم يكن فى استطاعة الأحرار أن يتحدثوا أو ينتقدوا، إلا أن ألسنتهم انبسطت رويدًا رويدًا. وفى البداية، كتبت صحيفة "روح القدس" – التى صدرت حديثًا آنذاك – فى عدديها الرابع والخامس مقالات حول مساوئ الأتابك، وأعربت عن استيائها من السلوك الذى اتبع مع جثة عباس آقا. من ناحية أخرى، نهضت جمعية آذربايجان لتأييد المعتقلين وانتقدت مسلك الشرطة، وانضمت إليها كذلك الجمعيات الأخرى. وتدريجيًا دار الحديث حول ذلك فى المجلس، ونتيجة لذلك كفت الشرطة عن القبض على أى شخص آخر، وانتهى الحادث عند هذا الحد.

من ناحية أخرى قام للبعض بالبحث عن الأرض التى دفن فيها عباس آقا، وكان السعى فى هذا للمغفور له قاضى أرداقى ولأخيه ميرزا على أكبر، وظفرا بها حيث عثرا على المرقد الخالد لذلك الشاب الغيور، وأقاما عليه بناءً، وقاما بتعليته بالجص والآجُر. وبعد ذلك، فى يوم السبت الخامس عشر من شهر شهريور

(٢٨ رجب) حيث كان اليوم السابع لوفاة ذلك الشاب، جاء ما يقرب من ألفيى شخص من أهالى آذربايجان وطهران وغيرهم إلى قبر ذلك الشاب، ووضعوا فوقه باقات الورود. وتحدث المغفور له ملك المتكلمين وكذلك بهاء الواعظين وقاما بتجليل العمل الفدائى لعباس آقا ووفياه ما يستحقه بجدارة.

كان هذا فى طهران، وفى آذربايجان – كما أسلفنا – كانت ثمة حركة لعداء الأتابك فى كل من خوى وتبريز، وما أن وصلت الأنباء عن مقتله حتى أعربوا هناك عن سعادتهم. ففى تبريز، امتطى قليج آقا جواده ماسكًا بيده سيفًا مسلولاً وتبعه جماعة من المجاهدين، وقدموا إلى السوق تصحبهم الموسيقى وأنبأوا بمقتل عدو الحكم النيابى، وأضاء أهل السوق المصابيح من فرط سعادتهم.

من ناحية أخرى، كان الغموض فى البداية يحيط بعباس آقا، ولما لم يكن يُعلم فى الأيام الأولى أنه آذربايجانى لم يقوموا بعمل هناك، لكن لما عُلم ذلك، وعُلم أنه من المجاهدين قاموا بالإعداد لحفل ختم القرآن عليه. وفى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شهريور (١١ شعبان) أقاموا مراسم الختم فى مسجد ميدان مقصوديه، وكان الأهالى يغدون ويروحون فى ذلك اليوم من كل الأحياء فى جماعات، وكان المجاهدون يغدون ويروحون فى صفوف منتظمة ومعهم الأعلام وتصحبهم الموسيقى. ومن غد يوم السبت ظل الحال هكذا حتى منتصف النهار، ولما حان وقت إنهاء مراسم الختم ألقى ميرزا غفار زنورى – أحد مجاهدى القوقاز – مقالاً هامًا ومؤثرًا باللغتين التركية والفارسية، وتلا أشعارًا مناسبة أثرت فى قلوب الجميع، وقال فى النهاية:

"لتأتوا أيها الإخوة فى صفوف المجاهدين للتأسى بهذا الشاب المغفور له ولنطهر صفحة الوطن العزيز المقدسة من الخائنين الكفرة".

ثم تلا بعد ذلك بعض الأشعار التركية.

وقلما شوهد حفل لإقامة مراسم ختم القرآن مثل هذا الحفل بتلك العظمة وذلك الإجلال حتى ذاك اليوم.

خروج المعتصمين:

أعقب مقتل الأتابك نتائج عديدة، منها تنحى صنيع الدولة رئيس المجلس، وكان هذا الرجل محبًا لإيران متعاطفًا معها، لكنه كما يبدو من سلوكه، لم يستطع التضامن مع حركة الشعب، لذا لم يكن يظهر رضاه عن الحكم النيابى، وكان يبدى تعاطفه للبلاط فى الصراعات التى قامت، وهذا ما ذكرناه، فكان يقترح أن يرسلوا الدستور إلى علماء النجف، وهذا دليل على عدم معرفته بمفهوم الحياة النيابية، أو دليل على عدم تضامنه. من ناحية أخرى، كانت أسرته ترتبط بالأتابك منذ عهد بعيد، وكان أخوه حاجى مخبر السلطنة من الوزراء فى حكومته.

من هذا المنطلق، فمنذ اليوم الذى قدم فيه الأتابك إلى إيران زاد صنيع الدولة من حنقه على الحكم النيابى، وكان يسعى للتنحى عدة مرات، لكن أعضاء المجلس لم يقبلوا، ولما كان رجلاً هادئًا ووقورًا كانوا يراعون خاطره، لكنه تنحى عن المجلس بعد مقتل الأتابك.

أثناء ذلك، قدم احتشام السلطنة إلى طهران، وقد عرف عن هذا الرجل بمطالبته بالحرية، وقد اختير ممثلاً عن طهران، كما كان فى لجنة الحدود، وعاد من هناك فى تلك الآونة، واغتنم النواب فرصة قدومه واختاروه بدلاً من صنيع الدولة ومضى البعض إلى داره وأحضروه إلى المجلس. وفي نفس هذه الأيام اختار محمد على ميرزا الحكومة وقدمها إلى المجلس على النحو التالى:

مشير السلطنة رئيس الوزراء ووزير الداخلية، سعد الدولة وزير الخارجية، مستوفى الممالك وزير الحربية، قوام الدولة وزير المالية، مشير الملك وزير العدل، مهندس الممالك وزير المنافع العامة، مجد الممالك وزير التجارة ونير الملك وزير العلوم والأوقاف.

ولما دار الحديث فى المجلس لم يعلق معظم النواب أملاً حسنًا على هذه الحكومة، لأن معظم أعضائها كانوا من رجال البلاط العاطلين. من ناحية أخرى، فقد أبدى سعد الدولة وزير الخارجية اشمئزازه من المجلس ونحى نفسه عنه.

ورغم هذا اليأس، ورغم أن المجلس نفسه كان معطلاً، فقد وافق عليهم، وأتوا فى جلسة الاثنين الرابع والعشرين من شهريور (٧ شعبان) لتقديمهم إلى المجلس، ولم يفتح شخص لسانه بالنقد.

ونتيجة أخرى لمقتل الأتابك وهى عودة حاجى الشيخ فضل الله وغيره إلى ديارهم، فقد عُلم بعد مقتل الأتابك أن نفقات من اعتصموا فى حضرة عبد العظيم كانت من حر ماله هو نفسه، ولما قُتل لم يقدم إليهم أى شخص آخر ذلك المال، واشتد الحال عليهم، ولم يكن هناك من حل سوى أن يكفوا عن الصراع ويعودوا إلى طهران لكنهم كانوا فى حاجة إلى الذريعة وإلا فقدوا ماء وجههم دفعة واحدة، واقترح السيدان أن يعد صدر العلماء - صهر بهبهانى - رسالة استفسارية يسأل المجلس من خلالها عن مفهوم الحكم النيابى والحرية، وعما إذا كان المجلس سيطبق أحكام الشرع أم أنه سيكتفى بالأمور العرفية فقط. من ناحية أخرى، قدم المجلس ردًا مرضيًا للمعتصمين وختم عليه السيدان. وكان هذا التساؤل والرد عليه هو الذريعة لعودة المعتصمين إلى دورهم.

وكان هذا تعاطفًا لا محل له من قبل السيدين تجاه حاجى الشيخ فضل الله وأتباعه وعلى أية حال فقد تصرف صدر العلماء، وأعد رسالة استفسارية باسم العلماء ورد المجلس عليه، وكتب السيدان وآقا حسين الرضوى جملاً فى نهايتها ووقعوا عليها ومهروها بخاتمهم. وتليت الرسالة المذكورة والرد عليها فى جلسة يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهريور (الأول من شعبان) فى المجلس دون أن يُذكر اسم حاجى الشيخ فضل الله أو غيره.

أخذ المعتصمون الرد، وختم عليه حاجى الشيخ فضل الله والسيد أحمد الطباطبائى وحاجى ميرزا حسن، وأوضحوا لهم أن المجلس قبل مطالبهم، واتخذوا هذا حجة وعادوا إلى المدينة فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهريور (٧ شعبان) ومضى كل منهم إلى داره ولزموا الهدوء.

وعلى هذا النحو انتهت قصة المعتصمين – التى بدأت بتلك الجلبة والضجة – بهذا الهدوء وتلك المذلة، ولم يكن لها أكثر من نتيجتين، إحداهما: حفظ ماء وجوههم. والأخرى: بسط الألسنة بمذمة الحياة النيابية والمجلس.

ويقول كاتب الشيخ فضل الله فى الرسالة التى دونها إلى ابنه فى النجف فى هذا الشأن:

"لقد تحققت المقاصد الإسلامية دفعة واحدة ببركات إمام العصر صلوات الله عليه، ووقع عليها حضرات الحجج والمجلس، وبعد الحصول على هذا المكتوب – الذى تكبدنا آلاف المشقات للحصول عليه – وكذلك على مذكرة الحكم النيابى، قررنا العودة إلى المدينة".

وقد طبعوا تلك الرسالة الاستفسارية والرد عليها وقاموا بتوزيعهما، ثم التقطوا لهما صورًا وأرسلوها إلى جميع الأرجاء.

اتفاقية عام ١٩٠٧م بين روسيا وانجلترا:

كما سبق وذكرنا، وضع مقتل الأتابك حجرًا كبيرًا فى بناء تقدم الحكم النيابى، وكان الأمل أنه من الآن فصاعدًا سيكون التقدم أفضل وأسرع، لكن واحسرتاه، فقد وُضع فى نفس هذه الأيام حجر كبير آخر فى طريقها وهو اتفاقية عام ١٩٠٧م بين دولتى روسيا وانجلترا والتى نشرت فى نفس تلك الأيام فى صحف كلتا الدولتين. لقد كانت المباحثات تدور منذ فترة بين الدولتين حول هذه الاتفاقية، وكانت الصحف فى كل منهما تتناول هذا الموضوع، وكتبت صحيفة الحبل المتين الصادرة فى كلكلتة مقالات أيضًا فى هذا الشأن وكانت الخشية من وُصولها إلى إيران وظل الحديث بشأنها يدور إلى أن انتهى فى تلك الأيام، وفى يوم الحادى والثلاثين من أغسطس (٨ شهريور، وهو نفس اليوم الذى قتل فيه الأتابك) تم توقيع ممثلى تلك الدولتين عليها فى مدينة بطرسبورج، وملخص هذه

الاتفاقية هو أن دولتى روسيا وانجلترا كانتا فى إيران فى حالة تنافس دائم مع بعضهما البعض وكانت كل منهما تسعى فى عهد مظفر الدين شاه وناصر الدين شاه للحصول على امتيازات أكثر لها فى إيران وتثبيت أقدامها أكثر من الأخرى، وحرصت كل منهما على إبعاد الأخرى والتقليل مما تستفيد به. وكان الروس يأملون منذ أعوام طوال فى تقدم جيوشهم إلى إيران، لكن كلما كانوا يرغبون فى هذا الأمر كان الإنجليز يحولون دون تحقيقه بالطرق السياسية.

هذا، وبالرغم من أن جوار تلك الدولتين لإيران قد تسبب فى أضرار كثيرة لها إلا أن منافستهما كانت ذات منفعة، لكن لما كانت قوة الألمان تشتد فى أوروبا فى تلك الأثناء، وكانت كل من الدولتين ترى أنها تقترب من الحرب معها أو كانت هذه نواياهم، لذا كانتا تريان أفضلية الاتحاد معًا وإزالة أى نوع من الصراع أو النزاع فيما بينهما، وكان نتيجة ذلك أن عقدتا تلك الاتفاقية، وكانتا ترغبان فى إيجاد حدودًا جغرافية لتطاولهما والحصول على امتيازات فيها، وهذا ما كان يتسبب فى إيجاد النزاع والعداء بينهما.

وللحق، فإن الإنجليز فى أوروبا كانوا يرون أنفسهم فى حاجة إلى جيش لا حصر له من الروس، لذا كانوا يتغاضون عن سياستهم الأسيوية مراعاة لسياستهم الأوروبية، وفتحوا باب إيران للروس عملاً على استرضائهم. والضرر الذى لحق بإيران من جراء هذه الاتفاقية أن الغلبة صارت للروس أكثر وصار ضغطهم وضررهم أشد. ولما كانت حكومة روسيا تبدى عداءً واضحًا للحكم النيابى فى إيران، لذا ظهر ضرر آخر، حيث جعلت محمد على ميرزا أكثر قوة وسقوط فى صراعه مع الأحرار، وضغط عليهم أكثر وكان الروس يساعدونه علانية.

وجدير بالذكر أن نصيبًا كبيرًا من عداء محمد على ميرزا أظهره بعد ذلك تجاه المجلس والحكم النيابى، كذلك حادث قصف المجلس بالمدافع ثم قدوم الجيش الروسى إلى إيران وسلوك بعض الأفراد المشين فى آذربايجان وجيلان، ثم عودة محمد على ميرزا عام ١٢٩٠، ثم الإنذار، كل ما سبق كان من نتائج هذه الاتفاقية،

ولو لم تنشب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، ولو لم تقم فى نهايتها الثورة الشيوعية العظمى، فالله وحده أعلم أية أضرار كانت ستلحق بدولة إيران من جراء هذه الاتفاقية. هذا ونرد فى هذا المقام بعضًا من بنودها:

"نظرًا لأن حكومتى روسيا وانجلترا قد تعهدتا مسبقًا برعاية استقلال إيران وحكمها الذاتى، ولأنهما ترغبان فى حفظ النظام فى جميع بقاع هذه المملكة والرقى المسالم لها واستقرار الحقوق التجارية والصناعية على الدوام لسائر الأمم، ولما كانت كلتاهما ذات اهتمام خاص بحفظ الأمن والنظام فى بعض المناطق المتصلة بإيران أو المجاورة لها على حدود روسيا من جانب، وعلى حدود أفغانستان وبلوچستان من جانب آخر وذلك طبقًا للترتيب الجغرافى والاقتصادى، ولاجتناب أى نوع من أسباب حدوث الاختلاف بالنسبة لمصالحهما فى المناطق السالفة الذكر، فقد اتفقا فيما بينهما بشأن إيران كالتالى:

البند الأول : تتعهد حكومة انجلترا بألا تطالب بالحصول على أى امتياز سياسى أو تجارى من نظير امتيازات مد الطرق الحديدية وسائر الطرق والبنوك والبرق والمواصلات والتأمين وما إلى ذلك لها أو لأحد رعاياها أو لأحد رعايا الدول الأخرى فى المنطقة الممتدة من قصر شيرين عن طريق إصفهان ويزد والخليج إلى أن تنتهى بحدود إيران وتتقاطع عند حدود روسيا وأفغانستان.

البند الثانى : كما تتعهد حكومة روسيا بألا تطالب بالحصول على أى امتياز سياسى أو تجارى من نظير الامتيازات السالفة الذكر لها أو لأحد رعاياها أو لأحد رعايا الدول الأخرى فى المنطقة الممتدة من حدود أفغانستان المارة بقازبك وبيرجند وكرمان وتنتهى عند ميناء عباس، كما تتعهد بألا تمتنع أبدًا بأى وجه من الوجوه عند طلب انجلترا مد يد العون فى المطالبة بمثل

هذه الامتيازات المذكورة، ومن المسلم به أن الأماكن المذكورة عاليه جزء من تلك المناطق التى تتعهد روسيا بعدم التدخل للحصول على امتيازات بها.

البند الثالث : تتعهد حكومة روسيا بدون التشاور مسبقًا مع حكومة انجلترا بألا تعارض قط الامتيازات التى منحت لرعايا انجلترا فى مناطق إيران الواقعة فيما بين الخطوط المذكورة فى البندين السابقين. كما تتعهد انجلترا بذلك أيضًا فيما يختص بالامتيازات التى منحت للرعايا الروس فى نفس المناطق الإيرانية".

والأعجب من هذا كله إنهما لم تعلما إيران بالمباحثات التى دارت حول هذه الاتفاقية ولم تطلبا مندوبًا عن هذه الدولة، وبعد ذلك وقعتا عليها فى الثامن من شهريور فى مدينة بطرسبورج وأرسلتا بمعلومات عنها إلى وزارة الخارجية الإيرانية فى الثامن من شهرمهر (٢٢ شعبان). ورغم أن صحيفة الحبل المتين الصادرة فى كلكتة قد تحدثت مرارًا منذ عام فى مقالات لها عن إبرام مثل هذه الاتفاقية، وأطلعت إيران على مدى الضرر الواقع عليها من جراء هذه الاتفاقية، لكن حينما ذاع خبر التوقيع عليها كتبت صحيفة الحبل المتين الصادرة فى إيران مقالات أخرى، ونشرت معلومات عنها. وكان هذا أحد البواعث التى ساهمت فى ذيوع حديث هذه الصحيفة.

وعلى أية حال، فقد دار حديث فى المجلس حول هذه الاتفاقية يوم الاثنين العاشر من شهرمهر (٢٤ شعبان)، وتليت رسالة السفارة الإنجليزية الموجهة إلى وزارة الخارجية، كذلك تم قراءة نص الاتفاقية ودار حديث بين النواب. لكن للحق، لم يكن معظم النواب على علم بمدى ضررها، لذا لم يشاهد أثر للثورة أو للأسى على ذلك وكان ردهم:

"إن هذه الاتفاقية تسرى فقط على روسيا وانجلترا، ونحن أحرار فى أعمالنا،

ولو نرغب نستطيع أن نمنح امتيازًا لأحد الرعايا الروس فى الجنوب أو لأحد الرعايا الإنجليز فى الشمال".

وهكذا أعربوا عن عدم خنوعهم لهذه الاتفاقية.

وفى الخارج، اشتد وقع هذا الحادث على الأحرار، وكانت دولة انجلترا – التى أبدت تأييدها للأحرار منذ بداية الحركة المطالبة بالحكم النيابى – تتمتع بمكانة رفيعة لديهم إلا أنها هوت من تلك المكانة بهذا الحادث وأعربوا عن استيائهم منها. وهذا ما أدركته السفارة الإنجليزية، فأرسلت إلى وزارة الخارجية تقول:

"لن يكون لهذه الاتفاقية أى ضرر على حرية دولة إيران واستقلالها، وسوف تمتنع الحكومة الروسية عن التدخل فى الخاص من شئون إيران".

وطُبعت هذه الرسالة فى صحيفة الحبل المتين، وحدث بعض من استياء الأحرار وغضبهم، وتحدثوا حول هذه الاتفاقية – سواء فى تلك الأثناء أو فى الأعوام السابقة – كثيرًا فى الصحف الإيرانية والأوروبية. وبعد قيام الثورة الشيوعية فى روسيا والتى أفشى فيها الشيوعيون بأسرار بلدهم، عُلم أن هذه الاتفاقية تتضمن بنودًا سرية بشأن الإطاحة بالدولة العثمانية وتقسيم أراضيها بين الروس والإنجليز والفرنسيين، أما فيما يختص بإيران فلم تكن نواياهم سوى الإطاحة بالحرية والاستقلال فى هذه البلاد، لكن نظرًا لأن هذا الكلام قد انقضى وزال، فقد اكتفينا بهذا القدر فى هذا المقام.

ميل رجال البلاط إلى الحكم النيابى:

فى نفس هذه الأيام وقع فى طهران حادث آخر مثير للعجب وهو أن عددًا كبيرًا من رجال البلاط أبدوا ميلهم دفعة واحدة إلى الحكم النيابى وقاموا ببعض العروض. وكيفية ذلك أنه حينما قُتل الأتابك بيد عباس آقا وتم إخراج ذلك الكارت من جيب القاتل اعتقد معظم الأهالى أن هناك جمعية حقًا من الفدائيين قد تأسست وأعدت العدة لقتل أعداء الحكم النيابى، وكان عباس آقا العضو رقم (٤١) فيها.

وهذا الاعتقاد كان يملأ قلوب رجال البلاط بالخوف وخشى كل شخص على حياته وظل يأمل فى الدخول فى زمرة الأحرار، وتباحث رؤساؤهم فى هذا وفكروا فى طريق يدخلون به وسط الأحرار.

ولا أعلم ماذا دار بينهم من أحاديث وأية اقتراحات وضعوها، وما كان يبدو فى الظاهر أن احتشام السلطنة - رئيس المجلس - والأمير الأعظم - الذى كان يظهر نفسه منذ فترة بأنه من المطالبين بالحرية - حالا دون ذلك وقاما باستدعاء كبار رجال البلاط إلى دار علاء الدولة - شقيق احتشام السلطنة - وتبادلوا الحوار هناك ودونوا رسالة إلى محمد على ميرزا فى هذا الشأن، يقولون فيها: " نرى اليوم قدرة السلاطين عظام الشأن وشوكتهم على الأرض وقد حصلوا على تلك العظمة بواسطة أساس النيابية هذا ". وطالبوا محمد على ميرزا بأن ينضم كذلك إلى المطالبين بالحكم النيابى وأن يسعى فى طريقه، وكتبوا يقولون: "بالله الأحد الواحد إن أبواب الحل مسدودة من كل جانب، والملك الذى امتد لعدة آلاف من الأعوام فى طريقه إلى الإنهيار. إن الخدام الحق هم الذين يعترفون بحق الأسرة الملكية ويساندون الدولة الخالدة، لكن ما من شك ولا كلام فى وليد هذا الوطن وشريك هذا الماء وذلك الثرى".

وطالبوا: "من المقرر أن يحضر جميع الوزراء المسئولين إلى فى مجلس وأن يأتى نفس العدد المعتاد من نواب المجلس النيابى ويحددون فى حضور الخدام التكاليف الكلية والجزئية حتى لا يبقى عذر لأحد من بعد".

وحمل هذه الرسالة - أو وفق قولهم العريضة - الأمير الأعظم إلى الشاه وأحضر الرد منه - أو وفق قولهم الأمر - على النحو التالى:

"إن مجلس الحكم النيابى الذى منَّ به الملك المغفور له نور الله مضجعه على الشعب نوقع نحن كذلك عليه، ونتعهد من الآن بالتعاون التام معه، ونحن نعتبر المجلس من أسباب سعادة المملكة ورقيها، والآن، وأنتم مستعدون للتعاون والخدمة ما الضرر من أن نبدى أيضًا أقصى جهدنا للمساعدة بالشكل الذى كتبتموه، وليجلس الوزراء والنواب والأمراء ليزيلوا الخلاف".

وبهذه الوسيلة أظهر رجال البلاط أنفسهم من المطالبين بالحكم النيابى، وأسسوا جمعية باسم " جمعية الخدمة " وقالوا إن هدفها هو خدمة الوطن. من ناحية أخرى، قاموا فى يوم السبت الخامس من شهر مهر (١٩ شعبان) – أى بعد مضى عام على بداية افتتاح المجلس – بإرسال اللائحة ومسودتها وأمر الشاه إلى المجلس، وطلبوا الإذن بأن يمضى الجميع إلى هناك، وبالفعل توجه ما يقرب من خمسمائة شخص إلى هناك واستقبلهم النواب بسعادة ولم يضنوا عن إبداء مظاهر الاحتفاء بهم، وألقى كل من البهبهانى والحاج إمام الجمعة وتقى زاده وغيرهم خطب الثناء، وأعربوا عن رضاهم.

من ناحية أخرى تحدث كل من السبهدار والأمير الأعظم وبدت مظاهر السعادة والبهجة على جميع أعضاء المجلس، ولما كانت البرقيات المحزنة قد وصلت فى نفس اليوم من أرومى وخوى وقُرأت فى المجلس قبل قدومهم، امتزجت لدى بعض النواب مشاعر الحزن والسعادة وكانوا يبكون بحرقة. وانتهى المجلس بسعادة بالغة، ورأى رجال البلاط الذين خرجوا من هناك الحفاوة والرضا من الأهالى فى فناء قصر بهارستان. وفى نفس اليوم أرسلوا برقية إلى المدن وبشروهم بهذا التضامن وذلك الاتحاد، وصار هذا باعثًا للسرور فى جميع الأرجاء.

بعد ذلك، وفى نهاية يوم الثلاثاء السابع من شهر مهر (٢٢ شعبان) قدمت جماعة منهم إلى المجلس ثانية وأقسم الجميع من خلال قسم كانوا قد دونوه من قبل "إنهم سيحمون أساس الحكم النيابى وسينفذون قوانينه باليد والقلم والقدم فى السر والعلن، وإذا ما صدر عنهم ما يعارض ذلك القسم تقع عليهم لعنة الله ورسوله".

هذا وسوف نحصى اسماءهم فى هذا الموضع وفق ما ورد فى جريدة المجلس:

جلالة الدولة، آصف الدولة، الأمير بهادر جنگ، ظفر السلطنة، موثق الدولة، اقبال الدولة، علاء الدولة، السبهدار، سردار فيروز، الوزير الأفخم، الأمير الأعظم، وزير مخصوص، مؤتمن الملك، سردار منصور، محتشم السلطنة، قوام

الملك، مجير الدولة، صدر السلطنة، علاء السلطنة، آجود انباشى توپخانه، على رضا خان گروسى، سالار السلطنة، حاجب الدولة مدير التشريفات، معين السلطنة، معين الدولة، السالار الأعظم، سالار نصرت، حميد الملك، فارس السلطنة، ليث السلطنة، سيف الممالك، قولر آغاسى، سالار نظام، بهادر نظام، فتح السلطنة، حاجب الدولة، مختار الدولة، حشمت الدولة، مجيد الممالك، وزير البلاط مدير الملك، معاون الدولة وزير مخصوص، إبراهيم خان أمير طومان، سردار مسعود، موثق الملك، وزير نظام، سردار كل، عزيز السلطان، سردار مفخم، نصر الملك، اعزاز الدولة، شعاع السلطنة، سهم الدولة، حمزة آقا، حسين قلى خان نواب وآصف السلطنة.

وذكرت جريدة الحبل المتين:

"لما فرغ الأمير بهادر جنگ من أداء القسم نزل وألقى خطابًا على عامة المشاهدين الذين كانوا فى حيرة من جرأتهم قائلاً: " لقد وقعت على القرعة من حظى الميمون، وسأتجه خلال يومين إلى أرومية، وسوف أفتدى بنفسى من أجل الهدف المنشود، وقد لا أصل ثانية لخدمة الإخوة، وسوف أفدى بروحى بكمال الشرف، فلتدعوا لى حتى أقوم بخدمة هذا الوطن".

وانخدع الأهالى المساكين بهذه الأكاذيب وامتلأت قلوبهم بالفرحة من هذه العروض الخداعة، وظن نواب المجلس أن هذه اللعبة حقيقة، وكان ذلك إما لسذاجتهم أو لعدم اكتراثهم، وقاموا بذلك الاستقبال. وسوف نرى أن معظم من أدوا اليمين – خاصة الأمير بهادر جنگ واقبال الدولة – سرعان ما أظهروا العداء الواضح للحكم النيابى خلال فترة وجيزة.

وكما ذكرنا، كان هذا العرض نتيجة للخوف من أن تستقر رصاصات عباس آقا فى قلوب رجال البلاط أكثر من أى شىء آخر، وكانوا يعتقدون أن هناك العديد من أمثال عباس آقا، لكن لما علموا بعد ذلك بالعكس، أمنوا على أنفسهم واستأنفوا العداء وسوء النية مرة أخرى. وهذا نموذج على ما قام به عباس آقا من عمل عظيم.

وقد وقع حادث تاريخى آخر فى طهران فى نفس هذه الأيام وهو الاحتفال بذكرى الأربعين لوفاة عباس آقا. ففى يوم الأحد الثالث عشر من شهر مهر (٢٧ شعبان) - حيث انقضى سبع وثلاثون يومًا على مقتل ذلك الشاب - غلقوا الأسواق، ومضى الأحرار جميعهم وغيرهم إلى مرقد ذلك الشاب، وزينت جمعية آذربايجان قبره بالورود، وأعدت الخيام العظيمة لاستقبال الأهالى، وكانت الجمعيات وتلاميذ المدارس يأتون فى جماعات ويضعون باقات الأزهار على مرقده. تقول صحيفة الحبل المتين:

"غطى الجمع الصحراء بحيث لم يبق مكان للعبور، ويُعتقد أن عدد الجمع كان حوالى مائة ألف شخص... وتم إعداد الشاى والقهوة وسائر المستلزمات بفضل همة الوطنيين... كانت قطع الحلوى تنثر بشكل يفوق الحصر...".

وألقى كل من المغفور له الحاج ملك المتكلمين والسيد جمال خطبة، وتلا الشعراء بعض الأشعار، وكان من بينهم السيد بهاء الواعظين الذى نورد ترجمة لبعض أبياته فى هذا المقام:

- أيها المزار المبجل، على الرغم من أن هذا محفل عزاء، لكنك نمت هانئًا سعيدًا لوجود هذه الأزهار.

- تحوى مكانًا عاش فيه ذلك العالم، ونام عيسى فى أطرافك، وكذلك مريم.

- يا عالم الغيرة، يا عباس آقا، الذى من شرفك داويت بالمرهم قلب المملكة والشعب.

- أيها التركى، إيرانى العنصر، يا من تهمتك إعلاء عظمة فريدون وإحياء مكانة جمشيد.

- قال التاريخ فلتبجلوه بشدة، فهو رجل أحيا العالم بست طلقات.

فى تلك الأثناء انتهى المتمم للدستور فى المجلس، وانتهى قانون دار حوله

هذا العراك وعقد الجميع حوله الآمال. وفى يوم الخامس عشر من شهر مهر (٢٩ شعبان) أرسلت دار الشورى البرقية التالية إلى المدن:

"بحمد الله ومنه تم الانتهاء من المتمم للدستور الذى ينحصر فيه الأساس المقدس لسعادة إيران وسلامتها، وهو الأساس الحافظ للإسلام الحامى لحوزة الدين القويم المروج لأحكام الشريعة المحمدية الغراء الباعث على رقى المملكة واستحكام الدولة واستقلالها وكذلك استقرار حقوق الشعب. واليوم، وطبقًا للتقويم الشمسى يكون اليوم الأول للعام الثانى على افتتاح مجلس الشورى الوطنى فى إيران، ومن حسن الطالع أنه زين بتوقيع صاحب الجلالة الملك قوى الشوكة المقدس الأعلى ملك الملوك خلد الله ملكه وسلطانه، وحان الوقت أن يشكر عامة الشعب من صميم قلبه هذه الهبة العظمى وأن يحسن استقبال هذه الحرية فى رفع الأغراض الشخصية والالتزام بكافة قوانين المملكة لكى يكون جديرًا بهذه الهبة المقدسة".

(مجلس الشورى الوطنى)

الجمعيات الإقليمية:

نعود الآن إلى آذربايجان، فى هذا الشهر (من منتصف شهر يور حتى منتصف مهر) وقعت بعض الأحداث هناك. فكانت الجيوش العثمانية تستقر فى أراضى إيران، كذلك كان الأكراد فيما حول أرومى يقومون بظلوماتهم، كما تمرد اقبال السلطنة واندفعت طوائف كثيرة من الأكراد التابعين له نحو قرى خوى وكانوا يغيرون كل لحظة على منطقة ما، كذلك أعلن اسماعيل آقا، أو حسب قول الأكراد سيمكو، تمرده وكان يقوم بأعمال الإغارة والنهب على ما حول سلماس، فى نفس الوقت كانت تحدث بعض الأمور أيضًا فى تبريز نفسها. وبالرغم من أن حادث خوى يعتبر أعظم هذه الأحداث جميعًا، لكن لما كان الحديث حوله يحتاج إلى سرد طويل، سنتحدث أولاً عن تبريز ثم نذكر حادث خوى بعد ذلك.

كانت تبريز آنذاك تتسم بالهدوء، فقد أظهر فرمان فرما شغفه ببعض الأمور، وكانت الجمعية تعاونه، ومالت طائفة المجاهدين إلى الهدوء وكانوا

يحاولون تدعيم أساس الاتحاد فيما بينهم، بعد ذلك وقع الصراع بين القوقازيين وبين على مسيو وأتباعه بشأن الزعامة وانتهى بانتصار على مسيو ومن معه، وقد علموا أنه من الأفضل القيام بتنظيم جماعتهم، لذا فتحوا يد العقاب وطلبوا من المركز الغيبى أن يصدر أمرًا بقتل بعض المجاهدين وتم قتلهم بيد أتباعهم. وكان يوسف خزدوز أحد القتلى وهو من رؤساء المجاهدين، وكان رجلاً فصيحًا يواظب على الحضور فى الجمعية والحديث فى الحضور، وكان المركز الغيبى يعلم جرأته لذا أصدر الأمر بقتله، ولما ذكرت جريدة الجمعية هذا الحدث بجمل منمقة بدا واضحًا أن الكاتب ينتمى إلى المركز الغيبى، هذا ونورده فى هذا الموضع:

"إن مستوى يوسف خزدوز التبريزى الذى يقوم منذ فترة بأعمال فدائية إنما هذا من محض تقدم خيالاته وأفعاله التى يكشف النقاب عنها المخبرون السريون فى دائرة قضاء فرقة المجاهدين فى سبيل الله فى كل دقيقة، وكانوا يضعون صفر العصيان يوميًا فى دفتر أعماله حتى انتهت الحدود القانونية لهذه السلسة النجيبة ودون أمر إعدامه. وفى يوم الأربعاء الثانى من هذا الشهر، وأثناء عبور المشار إليه من ميدان هفت كچل الشهير وقف أحد المجاهدين أمامه وأخبره: احذر، إن قرعة الفناء سحبت سهم الأجل باسمك وسوف ترحل. وما كاد المجرم يلتفت حتى يقول شيئًا أو يقوم بحركة، فإذا بطلقة نفذت من ضلعه الرابع وقلبه وخرجت من ظهره، وأعقب تلك الطلقة طلقة أخرى فأسلم الروح ولم يبق يوسف خزدوز ثانية...."

وقع هذا الحادث فى التاسع عشر من شهريور (٢ شعبان) وفى نفس هذه الأيام انتخبت جمعية الولاية ستة أشخاص لإرسالهم إلى خوى وماكو ووجهت بهم إلى هناك، وسوف نورد اسماءهم أثناء الحديث عن الأعمال التى قاموا بها.

وفى الثامن والعشرين من شهريور (١١ شعبان) أقاموا مراسم ختم القرآن على روح عباس آقا بكل الإجلال وقد ذكرنا خبر ذلك.

وفى الخامس عشر من مهر (٢٩ شعبان) وصلت برقية دار الشورى بشأن الدستور وأعرب الأهالى عن سرورهم واتجهت طائفة من المجاهدين نحو الأسواق

تصحيبهم الموسيقى وأعربوا عن سعادتهم، ومضى نواب الجمعية إلى مكتب البرق وأبرقوا إلى دار الشورى وإلى محمد على ميرزا ببرقيات الثناء.

في هذه الأثناء كانوا فى تبريز يشرعون فى اختيار نواب جمعية الولاية من منطلق القانون، ولما كان لهذا الحادث سابقة فى تاريخ الحكم النيابى ظهرت وقتئذ بعض النتائج لهذا الاختيار، لذا فسوف نتحدث فى هذا المقام عنه بشىء من التفصيل:

كما سبق وذكرنا، كانت تبريز من أوائل المدن التى أقامت جمعية للإشراف على الأعمال وإدارة الأمور، وما أن تم الحصول على الحكم النيابى ووصلت لائحة الانتخابات إلى هذه المدينة حتى رشحوا بعض الأشخاص لإنجاز هذه اللائحة واختيار نواب دار الشورى،واستأجروا منزلاً لإقامتهم، ولما كانت الخشية من تمرد محمد على ميرزا فقد جعلوا هذا المنزل مقرًا لهم باسم " الجمعية الوطنية " وكان الأحرار يجتمعون هناك كل ليلة ويتشاورون بشأن تقدم مساعيهم وأثناء ذلك يتمون بعض الأعمال كخروج إمام الجمعية ومير هاشم من المدينة وغير ذلك.

وكان محمد على ميرزا مستاءً من تصرفهم هذا بشدة، ولما انتهى أمر اختيار النواب لدار الشورى بعد أسبوع أو اثنين أرسل رسالة كى يغلقوا الجمعية، ونفذ المقيمون فى الجمعية ما ورد فى الرسالة وتخلوا عنها، لكن المجاهدين والأحرار لم يرتضوا ذلك، وقاموا ليلاً بثورة، وكما حدث وذكرنا أنهم اضطروا لسحب كلامهم مع ضغط محمد على ميرزا وأقاموا الجمعية مرة أخرى.

إنهم كانوا يريدون أن تُشكل جمعية فى تبريز (وفى غيرها من المدن) من المنتخبين من قبل الشعب للحفاظ على الأوضاع هناك، خاصة فى تلك الفترة، حيث كانت بداية الثورة وكان الأحرار فى حاجة ماسة لمقر لهم فى كل مدينة، هذا وقد أسسوا فى المدن الأخرى كذلك جمعيات تبعًا لما فعلته تبريز كى تتولى زمام الأمور، وكانت دار الشورى تنتقد ظهور هذه الجمعيات فى بعض الأحيان وكانت تبدى عداءها الواضح خاصة تجاه جمعية تبريز، لكن مقر الحرية هذا – الذى

أطلق عليه من بعد جمعية الولاية – أبدى جدارة كبيرة خلال فترة قليلة، وعلا شأنه أمام دار الشورى وسيطر على زمام الحركة والثورة فى أرجاء إيران كافة وقادها بحنكة، ولما أبدى تأييده فى بعض الأحداث لدار الشورى خلصه ذلك من المتاعب. ومن هذا المنطلق قام بتدعيم مكانته أكثر.

وبعد ذلك، لما وزع الدستور الذى أعدته دار الشورى قامت هذه الجمعية بانتقاد ما ظهر فيه من أوجه نقص عديدة. وكما ذكرنا، تم عرض العديد من الاقتراحات، كان من بينها إنشاء الجمعيات فى المدن، وبهذا الشكل اتخذت لنفسها واجهة قانونية. واضطرت دار الشورى نتيجة لذلك الاقتراح أن تضيف متممًا على الدستور، وكما نعلم أن هذا المتمم كان أهم من الدستور نفسه وأعظم، وكما أسلفنا قد دارت صراعات حوله، فضلاً عن هذا سنت دار الشورى قانونًا مستقلاً للجمعيات الإقليمية والجمعيات المحلية فى شهر خرداد من عام ١٢٨٦هـ.ش (ربيع الثانى ١٣٢٥هـ.ق).

وكان ينبغى فى تلك الأثناء أن تنمحى الجمعيات التى كانت تتبع أهواءها فى كل مدينة وتم اختيار جمعيات على أساس هذا القانون، لكن لما حوى ذلك القانون نوعين من الجمعيات (الإقليمية والمحلية) ولم يكن يعلم أين تقام هذه وأين تقام تلك، لذا تأخر الأمر حتى تسن دار الشورى قانونًا فى هذا الشأن بحيث تكون الجمعيات الإقليمية فى آذربايجان، وخراسان، وفارس وكرمان، أما بقية الأماكن الأخرى يتم إنشاء الجمعيات المحلية فيها. وبالرغم من أن هذا الأمر كان سببًا لاستياء أهالى جيلان، ونشبت الفتن فى الرشت، إلا أن دار الشورى لم تكترث ولم تتراجع عن فكرتها.

على أية حال، كانوا ينفذون ذلك القانون فى تبريز آنذاك وكانوا يختارون البعض للمراقبة، وعلى هذا النحو كانت جمعية تبريز التاريخية والنشطة – والتى يجب أن يبقى دومًا فى التاريخ – تطوى أيامها الأخيرة، وسوف نرى أية نتائج ظهرت من اختيار الجمعية القانونية.

حروب أهالى خوى مع اقبال السلطنة:

الآن نسرد حكاية خوى، فكما أسلفنا، كانت خوى من بين المدن التى أبدت تعاطفها تجاه حركة الحكم النيابى وكذلك تجاه مساعى تبريز. وأبدى الأحرار هناك غيرة وحنكة، وحدث فى تلك الأيام الأخيرة أن اتجه ميرزا جعفر زنجان من باكو إلى هناك من قبل لجنة الاجتماعيين العاميين مع ستة من أهالى خوى، وكان ميرزا جعفر هذا حارسًا على أحد النزل لكنه كان من الذكاء والعقل بحيث تمكن من القراءة وتحصيل العلم. ولما أسس الإيرانيوُن حزبًا كان أحد الرواد فيه، وكانت له المكانة بين الآخرين لغيرته وحنكته، ولما كانت اللجنة ترسل مبعوثين عنها إلى كل مدينة، فقد أرسلته إلى هناك برفقة ستة من أهالى خوى وواكب وصولهم إغارة أكراد إقبال السلطنة على قرى خوى وقيامهم بأعمال السلب والنهب والقتل، ولم تتأت نتيجة من برقيات الشكوى التى كانت ترسل إلى طهران.

هذا وقد قام ميرزا جعفر منذ اليوم الأول لوصوله بأعمال بطولية، و أول أعماله هو تلك البرقية واللائحة الخاصة بالأتابك والتى ذكرناها سالفًا. بعد ذلك عزم على تشكيل جماعات من المجاهدين وأهالى خوى وتصدى بنفسه لإقبال السلطنة. وقد شكل بالفعل الجماعات، وأخذ من الحكام ثلاثة مدافع وعدة مئات من الجند وقسمهم إلى طائفتين، أرسل واحدة منهما إلى سكمن آباد مع مدفعين، والأخرى إلى قراضياء الدين مع مدفع واحد حتى يعدوا معسكرًا فى مواجهة الأكراد. وكان مير أسد الله قراعينى هو قائد الجند فى سكمن آباد، أما ابنه ميرهدايت فقد تولى قيادة جيش قراضياء الدين، وعرف كلاهما بالشجاعة، كما اتجه ميرزا جعفر بنفسه إلى سكمن آباد حتى يترقب الأوضاع عن كثب.

وكان هذا العمل دليلاً على شجاعة ميرزا جعفر وأهالى خوى وحميتهم، فقد تصدوا للأكراد السفاحين بهذا الجيش غير المدرب قليل العدد، لكن للأسف لم ينالوا النصر وضحى ميرزا جعفر بحياته فى هذا السبيل. وكيفية ذلك أنه فى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شهريور (٤ شعبان) أغار الأكراد فجأة على معسكرهم من كل جانب وصرعوا عددًا كبيرًا منهم بالمسدسات ثم اندفعوا إلى الخيام وقبضوا

على جماعة منهم وسلبوا كل ما كان موجودًا من المدافع والآلات والأمتعة، وقُتل في هذه المعركة ما يقرب من الستين مجاهدًا. كما قُتل من الأكراد نفس العدد، وكان ميرزا جعفر نفسه من بين المعتقلين.

على هذا النحو تم تدمير معسكر سكمن آباد وهُزم الباقون واتجهوا مضطرين إلى خوى وأبلغوا بحقيقة ما حدث.

ومن غد ذلك اليوم وقع حادث آخر في خوى وهو أن أحد المجاهدين توجه إلى دار حاجى ميرزا إبراهيم، وكان الأخير مجتهدًا في مدينة خوى، وتم قتله دون أى سبب، كما أطاح آقا ضياء كذلك بشقيق الحاج إمام الجمعة، وقد أفزع هذا التصرف أهالى خوى وفر العديد من الأثرياء والمشاهير من المدينة وتوارى البعض عن الأنظار. كذلك لم يستطع أحد أن يتجه إلى جثتى القتيلين لدفنهما. وعلى هذا النحو حدث اضطراب كبير. فمن جانب، كان يُشاهد هذا القتل غير المبرر. ومن جانب آخر، كان وصول الفارين من الحرب ورؤية النساء والأطفال المساكين.

فى تلك الأثناء حدث اضطراب شديد حيث وصل رسل جمعية تبريز الإقليمية إلى هناك، وكما ذكرنا، اختارت الجمعية الإقليمية ستة لتمثيل خوى، وهم: شاهزاده مقتدر الدولة، وشيخ الإسلام، وحاجى جليل مرندى، وسالار معزر، ووثوق الممالك وحاجى اسماعيل، وأرسلت هذه اللجنة لإيجاد الحلول للفتن والاضطرابات فى كل من خوى وماكو. وكتب شيخ الإسلام – عبد الأمير – حكاية هذه الرحلة بلغة سلسة وتم طبعها، هذا وسوف نورد مقتطفات منها:

"وصل هؤلاء المبعوثون إلى خوى ليلة الجمعة وهو نفس يوم هزيمة سكمن آباد ومن غد ذلك اليوم وقع حادث قتل آقا ميرزا إبراهيم، وآقا ضياء، وقد مارسوا عملهم منذ ذلك اليوم، فقاموا بداية بصد الأكراد الذين كانوا يغيرون على القرى ويقومون بظلوماتهم فيها انتقامًا منهم لأهالى خوى، وكتبوا الرسائل مطالبين بالكف عن الإغارة والقتال، وأملوا نتيجة وساطة المبعوثين، كما سمحوا لأهالى القتيلين

بروِيتهما ودفنهما. ثم كتبوا رسالة إلى إقبال السلطنة وألحوا فى إطلاق سراح الجند وغيرهم من المعتقلين، ولما كان ميرزا جعفر – المقبوض عليه – يبدى شجاعة دون ضعف لذا لم يحافظوا عليه حيًا وقتلوا ذلك الشاب الغيور".

وكان من هؤلاء المبعوثين مقتدر الدولة وبعض رجال البلاط السابقين الذين لم يبدوا ميلاً فى داخلهم إزاء الحكم النيابى، وانعدم وجود ذلك الحماس الذى كان ينبغى فى الشيخ عبد الأمير والحاج جليل المرندى، فلو كانا يرغبان فى الحكم النيابى لما كان تعاونهما مع الفتنة. ومن هذا المنطلق لم يهتما بتصرفات مجاهدى خوى الشجاعة، وكانا يعربان عن فتورهما تجاههم بدلاً من تأييدهما لهم، وكانا يلحان على وجوب الكف عن القتال وإنهاء الصراع بالطرق السليمة، كما كان فرمان فرما يبدى تعاونه معهما برقيًا من تبريز، ولما اقترح أن يختار أهالى خوى عشرة للتمثيل عنها للمضى إلى چورس برفقة المبعوثين والتشاور مع رؤساء الأكراد ونواب إقبال السلطنة وإنهاء القتال لم يرتض أهالى خوى ذلك، ولكن نظرًا لضغط المبعوثين عليهم اختاروا بعض النواب كرهًا أو طوعًا.

وبعد عشرة أيام بادر المبعوثون بالتوجه إلى خوى ومنها إلى چورس واستقروا بالقرب منها، وجعلوا يكتبون الرسائل إلى رؤساء الأكراد المتمركزين فى قراضياء الدين على بعد نصف فرسخ منهم، وبعد المشاورات العديدة والذهاب والإياب والضيافات، وبعد مضى ما يقرب من الشهر استقروا هناك، ونتج عن ذلك أن أنهوا الصراع واقترحوا ألا يغير الأكراد ثانية على القرى وأن يأمنوا الطرق وأن يطلق سراح الجند وغيرهم ممن أسروا من قبل إقبال السلطنة وأن يعيدوا ما سلبوه من القرويين وأن يرفعوا الضرر عنهم وأن يسلموا القتلى الذين قتلوا فى الخارج فى العراك إلى ذويهم فى القرى. ولما كان إسماعيل آقا شكاك (سيمكو) قد تمرد كذلك فى سلماس وقوطور وكان يقوم بأعمال القتل هناك؛ فقد اقترحوا أن يسلكوا معه مسلكًا هادئًا بحيث تعهد الحكومة إليه بحكم قوطور شريطة ألا يكرر ذلك السلوك المشين وأن يعيد ما سلبه من الأهالى ويتعهد إقبال السلطنة بتنفيذ ذلك الشرط.

أثناء ذلك دونت اتفاقية وقع عليها كلا الطرفين وألبس إقبال السلطنة الجند أردية جديدة وتوجه بهم مع بقية الأسرى، ولما أنهى المبعوثون أعمالهم عادوا إلى خوى وتبريز.

على هذا النحو انتهت الحرب بين أهالى خوى وبين إقبال السلطنة، وكما ذكرنا، كانت هذه إحدى الحركات الشجاعة من قبل مجاهدى خوى التى قاموا بها بزعامة ميرزا جعفر، ولو كانت تواصلت لازدادت قوة المجاهدين يومًا بعد يوم، وهذا نموذج يدل على مدى عمق ثورة إيران، لكن للأسف لم تتواصل بسبب أسر ميرزا جعفر وقتله، وكذلك بسبب عدم حماسة مبعوثى تبريز، والنتيجة الوحيدة لها هى الإطاحة بشاب شجاع كميرزا جعفر. من ناحية أخرى، لما أنهى المبعوثون المباحثات تم قتل مائة وثمانية من الأكراد وما يقرب من خمسين مجاهدًا فى حرب سكمن آباد.

رد إقبال السلطنة على برقية فرمان فرما:

فى الوقت الذى كانت تدور فيه المباحثات بين المبعوثين فى چورس وقراضياء وبين الأكراد، ونظرًا لاستياء جمعية تبريز بسبب اضطراب الأمور فى خوى وغلق الأسواق هناك، طالب ميرزا آقا الإصفهانى – الذى كان يعيش حتى ذاك الوقت فى تبريز وكان قد اختير للتمثيل فى دار الشورى ومُنع طبقًا لرغبة الأهالى عن المضى إلى هناك – بأن يأتى بنفسه ويسعى لحل الاضطراب. هذا وقد مضى برفقة ميرزا غفار زنورى ومير يعقوب مجاهد (حارس الجمعية)، ولما وصل إلى خوى حيث كانت مباحثات الصلح تدور*فى چورس، حث الأهالى على فتح الأسواق بالوعظ، وهذا يعد فضلاً له وقام أتباعه فى تبريز بالثناء عليه، وبعد ذلك اتجه ميرزا آقا بمفرده إلى ماكو حتى يرى إقبال السلطنة، وفى هذه الرحلة – كما تردد بعد ذلك على الألسنة – حصل على الأموال من إقبال السلطنة وسوف نرى أن هذا الأمر وما شابهه كان سببًا لفضيحته.

ومنذ ذلك الحين هدأ إقبال السلطنة وخضع لجمعية تبريز، فكان يكتب الرسائل أو البرقيات فى بعض الأحايين، لكنه فى دخيلة نفسه كان معاديًا للحكم النيابى، وسوف نرى من بعد، حينما دارت الحرب بين تبريز وبين محمد على ميرزا فى العام التالى أنه أرسل جيشًا إلى هذه المدينة.

وكما ذكرنا، أرسل فرمان فرما برقية إلى إقبال السلطنة فى نفس الأيام التى وصل فيها إلى تبريز، ولما ظلت هذه البرقية فى خوى ولم تصل إلى إقبال السلطنة، أرسل المبعوثون إليه بعد وصولهم إلى هناك، ورد ردًا مطولاً ألقى فيه الذنب على عاتق أهالى خوى، هذا ونورد فيما يلى نص تلك البرقية:

"جناب السيد المبارك المستطاب الأشرف الأمير الأعظم فرمان فرما القائد العام روحى فداه، لقد صدرت البرقية المباركة فى الثلاثين من هذا الشهر، وقد قمتم بالزيارة فى التاسع منه، وقد لامنى البعض قائلين: لمَ لمْ أعرض أحوال هذه الحدود وأوضاعها حتى الآن؟! أولاً: كيف يحدث أن يشرف المستطاب الأشرف السامى روحى فداه العظيم المبجل القائد العام لمملكة آذربايجان، ولا أبدأ أنا خادم الإنسانية ولا أعرض أحوال الحدود؟! لقد تم عرض الموضوع مرارًا وبشكل تفصيلى عن جميع البقاع إلا أنهم أوقفوا الاتصالات وغلقوا مكاتب البريد، فكيف يصل إلى جناب السيد المبارك؟ فمنذ الوقت الذى فكر فيه المستطاب الأشرف السامى روحى فداه بالتحرك من طهران إلى مملكة آذربايجان قد تعطلت مكاتب البريد والبرق، وتسبب ذلك فى عدم وصول عرائضى أنا الخادم إلى الأماكن الضرورية، وحمدًا لله أن تردد الخدم من الرعية على كل الأماكن قد مُنع وقُطع.

واستدعى هذا أولاً: أن تحكم بأن سد طريق عرائض الأهالى غير جائز فى أى قانون أو طريق. ثانيًا: أن أحوال هذه المناطق لا تسير من منطلق القاعدة حتى يتم عرضها، ولا يمكن ضمها فى برقية على النحو الذى هى عليه، وكل ما كان يشكو منه الخدم من الرعية قام به أهالى خوى ثم قاموا بالشكوى وما من حرف فى حديثهم له أصل أو فرع، فى حين أن الدنيا تلوم علىّ أنا الخادم وأنا لم أفهم لمَ

يلومون؟! ولمَ يريدون تدمير ماكو؟! إن أهالى خوى يقومون منذ عام ببعض التعقيدات مع الخدام ولم يكفوا عن ذلك، فحيناً يحركون الموالين لهم ويغيرون على ما لدينا من مخازن الغلال وما أشبه، وحيناً آخر يطردون الخدام أنفسهم، وحاصروا القلاع، وكادوا أن يدمروا المبانى التى أقيمت منذ مائتى عام، وأسروا أهلنا وذوينا، إن الإعداد لأمر لا يمكن أن يتم إلا بعون الله.

وقد مرت الآن أربعة أشهر منذ عدت أنا الخادم إلى ماكو، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن وهم يسحبون الجيوش إلى ماكو، ولو التزمت الصمت ستهدر الأموال وتزهق الأرواح وتدمر الأملاك، وسوف أدافع، وحينئذ يكون السؤال: هل نتمرد على الدولة الآن بعد أن خدمناها طوال هذه الأعوام أم أننا نصطدم بالمدن المجاورة ونلحق بها الأذى؟! إن الأطفال تسببوا فى إحضار الجند والمدافع والأهالى إلى الخدام، وفى النهاية سحبوا جيشاً إلى سكمن آباد، وتحرك جيش آخر إلى محال چهار پاره وقام بأعمال القتل والإغارة، كما قاموا بقتل أحد السادة من ذوى المكانة وكان يقيم فى إحدى قرى ماكو.

والآن تجمع من طائفته خمسمائة فرد يريدون التوجه إلى خوى للأخذ بالثأر، وقد حلت دون ذلك حتى أعرض على الحضور المبارك ما يدور فى سكمن آباد، هذا وقد اندفعوا إلى المناطق العامرة فى ايل ميلان وقاموا بأعمال القتل والإغارة ومات ما يربو عن الثلاثين، كما قتلوا من نساء الأكراد خمس عشرة امرأة وذلك على عكس القاعدة، وحينما رأى الأهالى القتل بهذه الكيفية اضطروا للبقاء وقاموا بالدفاع، واحتدم الصراع حتى تجرعوا الهزيمة وأسر الأهالى المعسكر، وأطلق سراح فرسان قره داغ وجندها وتركوا الأهالى، ولإيراد نموذج، فإن مائة وخمسة وثلاثين من الجند أصحاب المناصب أخذوا ابن حاجى حيدر خان وابن لطف على خان وهم الآن أكثر استعداداً ولو أنهم خطوا إلى إدارة ماكو فهم مقصرون، فكلما اعتدينا على أراضى خوى فنحن مقصرون.

ولا شك أن الهيئة المبجلة التى عرض عليها بالأمر وقامت بالتحقيقات قد رأت بأم أعينها فى أى أرض كان جيش خوى، فهم ينطبق عليهم المثل الشهير

"يضربون ويبكون" وبعون الله، وبالظل المبارك ما من ملاحظة فى أن خوى لا تقوم لها قائمة خلال نصف الساعة، إلا أننى التزم الصمت، ولتنسوا الأمر تمامًا. فمن ناحية لى ملاحظة على الدولة، ومن ناحية أخرى فهم يظهرون بشكل سئ لدى الأهالى والخدام، ولن تحدث فتنة أكثر من ذلك حيث يبدون أن أمر الرعية سهل، لمَ يبدون مثل ذلك فى الداخل؟ إنهم خائنون للدولة وللشعب وما أبدوه من خيانة للدولة هو أنهم أغاروا على جميع مخازن الأسلحة والمدفعية الخاصة بالدولة، وعطلوا مكاتب البرق والبريد، وبثوا الفتن فى هذه الحدود الثلاثة.

وما أبدوه من خيانة تجاه الشعب هو أنهم قاموا بقتل مجتهد العلماء والسادات وفقراء الشعب، وقالوا إن مال الشعب هو مال الله، ولم يطيعوا المجلس ولا الدولة. وقد شاهدت الحكومة أعمالهم تلك المنافية للقاعدة مرأى العين، ولم يتم عقابهم ولا لومهم. وفى المقابل ليس لى من هدف أو غرض حتى يوجهوا اللوم والمذمة لى، ولاشك أنه يجب أن يكون هناك رادع وإلا سيزيدون فى ذلك، إننى (؟) من هذه الحركة، لم غضت الحكومة ومسئولو الدولة الكبار الطرف عن إيران،؟ ولم تُرك الأوباش واللصوص من أجل (؟). لولا يمانعون فى بتر ذلك، لو كان ذلك من أجل الحكم النيابى، فالحكم النيابى ليس كذلك ولا يمنع أحد منه، وإلا فالهدف هو تدمير ماكو، لقد صدر الأمر المبارك فى كلمتين ولجأ الخدام مع العامة إلى الحكومتين الروسية والتركية، إنهم يأتون ليعمروا من جديد، ولو انعدم وجود حل آخر فهذا يستلزم المبادرة بتحديد مهام الخدام، وتقرر أن يتجهوا لإصلاح ذات البين بين ماكو وخوى، وعلى الرغم من أن أهالى خوى ألقوا خسارة فادحة بالخدام، ومع هذا، ووفقًا للأمر المطاع فإن الخدام مستعدون بأن تكتب الهيئة المبجلة شرحًا ويحددون مكان اللقاء، وقد حددت أن الطرفين على استعداد للإصلاح، ونحن الخدام لا نرتضى السوء فى أى وقت قط ونطلب الخير، بينما يقوم الطرف الآخر بالإساءة دون سبب".

(مرتضى قلى)

استمرار الصراع على الحدود:

أثناء ذلك اتخذ النزاع على الحدود مع العثمانيين لونًا آخر، فبعد هزيمة مجد السلطنة خارج أرومى (وقد ذكرنا خبر ذلك) لم يقم شخص بالتصدى ثانية، وكان العثمانيون يستولون كل فترة على منطقة عامرة أخرى، ولم يكف الأكراد عن أعمال الإغارة، وكانت جمعية أرومى تطالب بالإنصاف مرارًا وتبرق إلى تبريز وطهران، وكان كل من فرمان فرما والجمعية يضغطان على دار الشورى دون جدوى لأن الحكومة لم تكترث بذلك وكانت تبشر فى كل حين بأمل واه، فتكلموا مع فرمان فرما وطلبوا جيشًا من طهران كى يرافق الجيش الذى توجه من آذربايجان للحفاظ على الحدود وسجن الأكراد، لكن لم تُر علامة من ذلك الجيش، وكانوا يتحدثون مرارًا فى المجلس ويبدون حدتهم لكن دون فائدة، وكان البلاط يبدى فتورًا على الدوام.

والأعجب من هذا أن ميرزا رضا خان أرفع الدولة - سفير إيران فى اسطنبول - أرسل مقالاً إلى صحيفة روسية، وكان يعتبر الحادث على سبيل الكذب، ويقول:

"إن ما يكتب فى هذا الشأن قد أعدته جمعية تبريز ونشرته[1]".

ورغم أن صحف روسيا وانجلترا كانت تتناول هذا الحادث فى تلك الآونة، ومن ناحية أخرى أرسل لجنة "الاتحاد والترقى" التابعة للأحرار العثمانيين بيانًا من باريس إلى دار الشورى وجمعية تبريز، وكانوا يعربون عن استيائهم لسلوك حكومتهم الظالم، ومع هذا لم يكن يقبل أرفع الدولة الحادث وحاول إخفاءه. وسلوك سفير إيران هذا دليل آخر على وجود وفاق بين محمد على ميرزا والسلطان عبد الحميد، فلم يكف عبد الحميد عن مؤازرة محمد على ميرزا ومعاونته خشية من أن يُظهر تطور الحكم النيابى فى إيران ثورة الحرية فى تركيا ويجعلها أكثر قوة،

([1]) قامت صحيفة الحبل المتين الصادرة فى طهران بترجمة هذه الجملة عن إحدى الصحف الروسية.

وكانت الضغوط على الحدود لهذا السبب. وذات يوم حصلت إحدى الصحف الفرنسية فى مصر على سند يقول:

"إن عبد الحميد كتب رسالة إلى محمد على ميرزا يشجعه فيها على ضغطه فى مواجهة الأحرار".

ولما ترجمت صحف طهران هذا الخبر عن تلك الصحيفة الفرنسية وطبعته لم يرد البلاط ولا وزارة الخارجية برد واحد، وهذا دليل على صحة ما كُتب.

من ناحية أخرى، وكما ذكر فى بعض الصحف، إن تركيا كانت أداة سياسية فى يد حكومة ألمانيا القوية فى عهد عبد الحميد، ولما كانت هذه الدولة لم توافق على اتفاقية انجلترا وررسيا بشأن إيران والتى كان يدور الحديث بشأنها منذ فترة، كانت تريد من قبيل المنافسة أن تكون لها يد فى أمور إيران، لذا حرضت تركيا على الصراع حول الحدود. وينبغى القول: "إن كلاً من عبد الحميد ومحمد على وحكومة ألمانيا كان مستفيدًا من هذا الحادث".

فى نفس الوقت لم تبد انجلترا وروسيا عدم اتفاقهما، فكان نوابهما فى اسطنبول وطهران يتباحثون مع تركيا وإيران، وفى ظل هذه المباحثات ارتضت الحكومة التركية أن تنهى الحادث والتباحث، وفى الثلاثين من شهريور (١٣ شعبان) قدم وزير خارجية إيران إلى المجلس وأنبأ أن نتيجة لمساعى وزارة الخارجية ووساطة نواب انجلترا وروسيا اقترح أن يسحب الأتراك جيوشهم من الأراضى الإيرانية وأن يتم التحقيق فى الصراع الذى كان بين الدولتين فى لجنة بحضور نواب روسيا وإنجلترا. وأعرب النواب عن رضاهم من هذه الأنباء، ورشحت الحكومة محتشم السلطنة لرئاسة النيابة فى تلك اللجنة وقبل فى البداية لكنه امتنع بعد ذلك ثم قبل ثانية، وفى النهاية توجه به من طهران فى بدايات شهر آبان، وأرسل الأتراك كذلك طاهر باشا لرئاسة النيابة.

وكما ذكرنا، ثمة جماعة كانت فى تركيا فى تلك الفترة باسم "الاتحاد والترقى" تسعى للحرية، وهى نفس الجماعة التى أسست للحكم النيابى فى تلك

الدولة، وفى هذه الأثناء هرب عدد كبير من رؤسائهم من الأراضى العثمانية وكانوا يعيشون فى أوروبا وشكلوا لجنة فى باريس وكانت هذه الجماعة تتولى أزمة الأمور فيها. ولما شوهد الصراع على الحدود من قبل عبد الحميد نهض الأحرار الأتراك لمساندة إيران سواء على سبيل المواساة أو تحت مسمى الجوار، وأرسلت اللجنة بياناً باللغة التركية إلى دار الشورى وجمعية تبريز وردوا عليهم. ولما لم تكن الحاجة ماسة لذكر متن هذا البيان والرد عليه، لا نورده فى هذا الموضع، لكننا سوف نرى أن نفس هؤلاء الأحرار الأتراك قد تعاونوا مع الإيرانيين فى حروب الأحرار ضد محمد على ميرزا، وجاءت جماعة منهم إلى خوى لمساعدة الأحرار.

فى نفس هذه الأيام – أى فى أوائل شهر آبان – تبدلت الحكومة فى طهران، وكما أسلفنا، لم تكن حكومة مشير السلطنة حكومة خبيرة بالعمل، ولم تكن من القوة والأهمية لدى المجلس، ولما تولت هذه الحكومة الأمر لم تمض عدة أيام حتى أعرب موظفو وزارة الخارجية عن عدم رضاهم تجاه سعد الدولة، ونهضوا يقاومون ويلحون، ولما قام سعد الدولة بخدمة الحكم النيابى فى البلاط وغيره من الأماكن بعد الخروج من المجلس واستاءت قلوب الأحرار منه ولم يقم شخص بتأييده، عزله الشاه وأعاد علاء السلطنة إلى وزارة الخارجية وقبله المجلس.

وهكذا لم يكن للحكومة أية أهمية أو قيمة، ولم يُعلم ماذا حدث حتى يتنحوا ويختار محمد على ميرزا ناصر الملك لرئاسة الوزارة واختار الأخير الوزراء، وحضر إلى المجلس يوم السبت الثالث من آبان (١٨ رمضان) وقدمهم كالتالى:

ناصر الملك رئيس الوزراء ووزير المالية، آصف الدولة وزير الداخلية، مشير الدولة وزير الخارجية، صنيع الدولة وزير العلوم والأوقاف والفوائد العامة، مخبر السلطنة وزير العدل، مؤتمن الملك وزير التجارة ومستوفى الممالك وزير الحربية. وأعرب النواب عن رضاهم، ولما كان ناصر الملك قد حصل علومه فى أوروبا كانوا يبجلونه ويقدرونه ولم يبدوا فى تلك الفترة إلا التأييد له. ومما يثير

العجب هو جعل آصف الدولة وزيرًا، لأن هذا الشخص كان يُعتبر من ألد أعداء الحرية وقد ألح المجلس في الشهور الأولى للحكم النيابي على المطالبة بعزله من ولاية خراسان، ثم حققوا معه بعد ذلك في قضية بيع بنات القوتشي، حيث كان المجلس مهتمًا بذلك بشكل جاد ودار الحديث حوله مرارًا، ولما أبدى فرمان فرما - وزير العدل - تعاطفه تجاه آصف الدولة، تعارك تقي زاده معه في المجلس، وها هم الآن يقدمون مثل هذا الشخص إلى المجلس على أنه وزير رسمي.

والأعجب من هذا أن أحدًا من النواب لم يفتح لسانه بالنقد قط (كما فعلوا آنذاك في تأييد مكانة ناصر الملك) باستثناء صحيفة " آدميت " التي كان يحررها ميرزا عبد المطلب اليزدي، حيث نشرت مقالاً مطولاً في هذا الشأن. وهذا دليل آخر على خور المجلس.

بعض الحيل التي تم الكشف عنها:

منذ مقتل الأتابك، وكما ذكرنا، خشي رجال البلاط، وكانوا يتجنبون إظهار العداء للحكم النيابي، وكان محمد علي ميرزا نفسه يبدي ذلك السلوك وقدم إلى المجلس كما سنرى من بعد. لكن في نفس الوقت - في شهر آبان - بدرت بعض الخدع التي عُلم أنها لم تكن إلا عروضًا للرياء، وقد قلت حينما تملك الخوف من قلوبهم بعد مقتل الأتابك ثم عادوا ثانية يبدون عداءهم للأحرار.

وإحدى هذه الخدع أن بعض رجال البلاط من أمثال إقبال الدولة والوزير الخاص وناصر السلطنة وسعيد السلطنة ومفاخر الدولة وغيرهم قد أسسوا جمعية باسم "جمعية الفتوة" تبعًا لأسلوب الأحرار، ولم تكن لها من نية سوى السعي لإلحاق الأذى بالحكم النيابي، وانضم إليهم مرتضوي نائب المجلس الذي تأذى نتيجة للنزاع مع زنوزيان (على الملك) وكذلك ميرزا جواد ناطق الذي كان يعيش آنذاك في طهران وكان قد ضجر هو كذلك من المطالبة بالحكم النيابي، وكانت رغبتيهما هي محاربة الأحرار وحث الأهالي على قتال الترك وفارس، ولما ظهرت سوء نواياهم منذ الخطوة الأولى قامت الصحف بذمهم (كجريدتي الحبل

المتين وروح القدس). وفى تلك الآونة ظهرت جمعيات عديدة فى طهران واختارت كل منها مندوبًا عنها وأسسوا جمعية مركزية، وهذه الجمعية لم تقبل نواب جمعياتها ولما كان معظمهم من أهالى تبريز قامت جمعية آذربايجان – التى شكلها أهالى آذربايجان واتسمت بالقوة – بالحيلولة دون تنفيذ أعمالهم، وأرسلت البرقية التالية إلى تبريز:

"الجمعية الإقليمية الوطنية فى آذربايجان، فى هذه الأوقات أسس بعض أهالى تبريز جمعية فى طهران باسم "جمعية الفتوة" من أشخاص معروفين، ومن الضرورى أن يستحضر جناب المبجل تلك الجمعية المقدسة، وتقدم اسم اثنين من مؤسسيها هما مفاخر الملك والحاج محمد تقى الصراف وأمثالهما، والجمعيات التى تؤيد المطالبة بالحكم النيابى لا تعلم هدف تلك الجمعية، ولم يقبلوا نوابها وإذا ما وصلت برقية أو لائحة من تلك الجمعية إلى تبريز فاطلعوا على مؤسسيها وأهدافهم".

(جمعية الاتحاد بآذربايجان)

فى نفس هذه الأيام وقع حادث آخر وهو أن السيد على اليزدى – أحد رجال الدين المشاهير وصاحب شعبية كبيرة فى طهران وكان متعاطفًا مع البلاط – كان يمضى إلى محمد على ميرزا للدعاء وما أشبه، وكان رجال البلاط يجزلون له العطاء، وفى يوم السبت العاشر من آبان (٢٥ رمضان) اعتلى المنبر فى مسجد الشيخ عبد الحسين وقام بخدمة الحكم النيابى والمجلس علانية وقام بتكفير كل من تقى زاده ومستشار الدولة وغيرهما من المشاهير، وذكر اسم عباس آقا وقال إن مكانه فى الطبقة السابعة من جهنم، ولما أثنت جريدة روح القدس على عمل عباس آقا وأعطته أهمية "حربة على" فى موقعة الخندق، فقد تناولها بالذكر وقام بتكفيرها

ولما كان طلاب مدرسة الشيخ عبد الحسين أسفل المنبر وكانوا مهيئين للتأثير والمراقبة لم يستطع أحد الرد، وتذرع أعداء الحكم النيابى بذلك وقاموا بثورة وحركة، ولما كانت الخشية من أن يتسبب عمل السيد على آقا هذا فى انقسام

طهران نفسها قام المجلس بمنع ذلك وأصدر أمرًا إلى البلدية بمنع ذهابه إلى المسجد، وعلى هذا النحو انتهت القصة.

وكما ذكرت صحيفتا الحبل المتين وروح القدس، كان هذا العمل بتحريض من "جمعية الفتوة" وبتأييد البلاط، لأن السيد على آقا كان متعاطفًا مع البلاط ورجاله، وقد أعد منزلاً وعاش حياة كريمة بفضل أموال رجال البلاط. من هنا ساءت سمعة "جمعية الفتوة" ودخل ميرزا جواد ناطق – الذى كان أحد رواد الحركة فى تبريز وكانت له تلك المكانة والنفوذ بين الأحرار – فى زمرة أعداء الحرية.

فى نفس هذه الأيام عاود الحاج الشيخ محمد الواعظ – الذى كان له ضلع فى حركة طهران وكان مرافقًا للسيدين فى كل مكان وألقى على عاتقه بعد ذلك حادث مدرسة "حاجى أبو الحسن المعمار" ومقتل السيد عبد الحميد ومن هذا المنطلق كان يُعد أحد رواد الحكم النيابى – ذمه للحكم النيابى من فوق المنابر ولم يكف عن توبيخ السيد جمال الواعظ وغيره، بل إنه تطاول كذلك على اسمى طباطبائى وبهبهانى وذكرهما بالسوء، لذلك كان يعد هو كذلك من أعداء الحرية. وهذا يدل على أن العديد من رواد الحرية لم يكونوا على علم بمفهوم الحكم النيابى، ولم يكونوا متعاطفين معه، ولم يقم البعض منهم بذلك إلا من قبيل الأهواء، ولذلك عادوا فى تلك الفترة وأبدوا فتورهم تجاهه، وفى هذه المرة كانوا يبادرون بالعداء. وقد كتبنا فيما يختص بالحاج الشيخ محمد وأفعاله أنهم لم يدركوا معنى للحكم النيابى سوى أنه رواج للشريعة، ونتيجة لذلك لم يعدوه إلا ترويجًا لسوقهم، والآن كانوا يرون عكس ذلك، فاضطروا للرجوع عنه وكانوا يقولون للناس:

"نحن لا نعلم أى هدف لهؤلاء الملاحدة"!

أو يقولون:

"ذلك الحكم النيابى الذى نريده ليس هذا، فقد تدخل البابيون والطبيعيون ولن يتركوه".

على أية حال فهذه أمور تدل على أن محمد على ميرزا ورجال البلاط لم يكفوا عن العداء، وكانوا يسيئون فى الخفاء، لذا اغتم الأحرار ثانية، وزالت تلك الآمال التى عقدوها على التعاون مع رجال البلاط. وكما ذكرنا، كان هذا أحد سذاجات الأهالى فى طهران، فبدلاً من أن يتحدوا لتشكيل قوة يسحقون بها رجال البلاط كانوا يريدون أن يحثوا المطالبين بالحرية بلغة الترغيب أو عن طريق الإرشاد والوعظ، ولما يئسوا كانوا ينوحون ويتألمون ويبسطون ألسنتهم بالسب والمذمة، وهذا ما حدث فى تلك الأيام، فحينما ظهرت هذه الحيل من قبل البلاط كتبت صحيفة روح القدس مقالاً جريئًا حول محمد على ميرزا، والمقال الذى لم يكن له من فائدة للمطالبين بالحكم النيابى صار ثمنًا لدماء كاتب (سلطان العلماء الخراسانى)، فقد أغلقوا الصحيفة بعد صدور المقال وطالب وزير العلوم بالتحقيق فى المحكمة، وتم استدعاء سلطان العلماء إلى المحكمة بجريرة إطلاقه لقب " قصاب" على محمد على ميرزا، واعترض سلطان العلماء وطالب باستدعاء هيئة منصفة وامتنع عن الرد لذا لم يتم التحقيق. وبعد شهرين صدرت صحيفته ونشرت حادث المحكمة ولم تكف عن مذمة محمد على ميرزا.... وما كان منهم إلا أن اعتقلوه وقاموا بتعذيبه كل ليلة فى باغشاه ثم أرسلوه إلى أحد المخازن وألقوا به هناك فى جب عميق ظل به حتى وافته المنية.

وعلى أية حال، لما كان هذا المقال يظهر أحد الأحداث التاريخية لذا نورده كاملاً فى هذا الموضع.

مقال صحيفة "روح القدس":

تم نشر هذا المقال فى العدد الثالث عشر من الصحيفة فى يوم الخميس الرابع عشر من آبان (٢٩ رمضان) تحت عنوان "الحدث الغيبى أو إشارة اللاريب" على النحو التالى:

"لعل الرياح توصل عنى إلى مسامع سليمان

نصيحة فيها يكون خير السلطنة

كم نتمنى لو ظهر فى هذه المملكة ملك عابد يوصل كلمات روح القدس الناقدة إلى الملك المنصف، نحن لا نهوى السلطة، ولا نفكر فى الوزارة، نحن نسعى للحفاظ على الوطن وحماية المواطنين بأرواحنا، ولا نحيد عن قول الحق، ثمة فرق بين الرعية والعبيد، فإطاعة الشهوات النفسية ضرورية للعبيد وليس للرعية، لأن الرعية ليست من العبيد، فهى حرة، بل إنها تتساوى مع الشاه نفسه، ويجب أن تكافأ فقط بحراسة السلطان، فى حين أن الشاه يعمل حارسًا وحاميًا لهم (والخروف ليس للراعى) (بل إن الراعى فى خدمته)، وتنافس الملوك مع بعضهم يكون للتوسع فى المملكة وتحقيق رفاهية الرعية، ولكى تنعم الرعية بالراحة والهناء يلزمها شيئان (أحدهما المال والآخر الروح) وملوك إيران القدامى – كما يشهد التاريخ – رفعوا دومًا لواء الفتوحات للحفاظ على هذين الشيئين، وعاشت الرعية فى هناء تحت ظلهم، ولما كانوا يحفظون ودائع الحق – التى هى الشعب – من شر الأعداء لقبوا بـــ (ظل الله فى الأرض)، وقد تبعهم الملوك اللاحقون وتأسوا بهم واستفادوا من المملكة والرعية وأطاعهم كافة ملوك العالم وقدموا لهم الجزية، وهذا ما تشهد عليه قصة شابور ذى الأكتاف وغيره من الملوك – وكل ملك يقصر فى مهمته يكون مصيره العقاب الغيبى مثل خسرو وپرويز والشاه سلطان حسين الصفوى – إذن فالشعب كان يعيش فى هناء عبر القرون والأزمنة فى فراش الأمن والأمان بكامل الراحة، وكان الحراس يحمونه بكل الجد والجهد ويحافظون عليه – وكان هذا الأسلوب مرضيًا وتبعه جميع الملوك حتى عهد سلطنة فتح على شاه ومحمد شاه، فأثناء ملكيهما، ورغم أن ثمة صدمات ولطمات قد حلت بالشعب وتم فقدان جزءٍ من وطننا العزيز هباء، إلا أن الشعب كان يعيش فى راحة إلى حد ما، وكانت أرواحهم وأموالهم محفوظة إلى حد ما – وحينما حل دور السلطنة على ناصر الدين شاه ظهرت أوراق عودة سوء الفأل للشعب، وصارت طائفة سيئة الفطرة عديمة الشرف معاونة للملك فى الباطن وأظهروا الخسة الذاتية، وفتحوا يد

التعدى على الودائع الإلهية، واقتسموا أموال الشعب المظلوم وأرواحه - قاموا بداية بالإغارة على أموال الشعب كاللصوص للاستيلاء على الحدائق والعربات وأثاث الغرف، وباعوا أثاث الرعية قطعة قطعة إلى الأجانب، وتمت الإغارة على جميع ممتلكات الشعب حتى عهد مظفر شاه العادل، وفى النهاية صار سلطان المستبدين ورئيس الخائنين هدفًا للطلقات الوطنية وجعل الشاه حسن الطوية والصدر الأعظم طيب السجية آثار الوطنية تذكارًا (تعرف الأشياء بأضدادها) ووضع هذان الملكان وهذان الصدر الأعظمان الآثار الخيرية والشرية بسوء الخاتمة وحسن العاقبة نموذجًا ومنشأ للتاريخ للملوك اللاحقين - وحينما آلت السلطنة إلى حضرة صاحب الجلالة، تمت الإغارة على أموال الشعب كله، ولم يبق للشعب سوى روح واحدة. فى هذا العهد، ضاق الشعب ذرعًا - فمن ناحية انشغل إقبال السلطنة فى الحكومة المركزية بإراقة دماء الشعب، ومن ناحية أخرى تحركت الدولة العثمانية وذبحت أطفال الشعب وأسرت أهل بيت الشعب، وكم أهلكوا من الأهالى، ومن ناحية ثالثة أمر وزير الجيش بالقتال وبث الفتن فى خراسان، ومن ناحية رابعة اتجه جهان شاه خان من طهران إلى زنجان وأهلك أهالى زنجان واحدًا بعد الآخر - وإذا ما رغب الشعب فى إنقاذ نفسه من ذئاب الداخل وقع أسير كلاب الخارج وذئابه، ثمة آلام فى كل ناحية، ترتفع الصيحات المظلومة من كل جانب وهم مشغولون ليل نهار بالدعاء لهذا الملك.

والشىء الحسن أن قدرًا من ثمالة السلطة قد أفاقت، وتفتحت الأعين لتلقى نظرة على دولتها وعلى باقى الدول - هل تخلى كل ملوك العالم عن القيام بوظيفتهم وانشغلوا بعمل القصاب؟! هل صارت جميع شعوب العالم أسيرة ظلم ملوكها وشهواتهم النفسية كشعب إيران البائس؟! - لا أعلم السبب فى أن تتجه جميع الممالك تجاه العمران والتوسع وتنمية المجتمع، باستثناء إيران حيث يصير جزءٌ من أرضها ملكا للآخرين، وعلى مدار العام والشهر ويصير شعبها طعمًا للذئاب ويتبدل العمران فيها إلى خراب - أى ملك مستبد لا يضع التاج فوق رأسه

من أجل الظلم والأنانية؟! وأى ملك نيابى لم يبلغ أعلى درجات الملك والحكم بواسطة الحكم النيابى؟ هل انتصر إمبراطور اليابان على إمبراطور روسيا المستبد بوسيلة أخرى سوى الحكم النيابى؟! هل صارت دولة إنجلترا أو أية دولة أخرى موضع حسد الدول المستبدة إلا بفضل النيابية؟! لا أعلم أية فائدة وأى خيال وأية نتيجة لحضرة صاحب الجلالة لدينا من النيابية المقوضة والرعية البائسة؟! لعله لا يعلم أن كلاً من الرعية والملك عبدان للملك الحقيقى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

السماء المنصفة هى التى تمنح الملك العدل

عدل ينقذ أهل الأرض من الجور

لعله لم يفهم أن ما من ملك يستطيع الابتعاد عن الرعية لأن ﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

إن لم يمنح العادل العدل للخلق على الأرض

تسلبه السماء المنصفة العـــدل

أليس من الممكن أن تقع أحداث قصة الملك لويس السادس عشر فى هذه المملكة لأن ﴿الله عزيز ذو انتقام﴾.

هب للقتل والإغارة ليلاً   وعند السحر فقد رأسه وتاجه

لعله على غير يقين من أنه ولد من دماء الفدائى رقم (٤١) فدائى أعظم لأداء مهمة أعظم من ذلك الفدائى، وهو فى انتظار إتمام الحجة!! من وجهة النظر الملكية العظيمة يجب أن يكون قد فهم وأدرك أنه لا يجوز فتح باب القتال مع الثعابين والأفاعى الذين ظاهرهم حسن وفى باطنهم السم الزعاف، وأنه ليس من الصلاح الاختلاء بلصوص هذه المملكة والنواب الأجانب والتصالح معهم لأن اللص يريد سوقًا مضطربة والأجنبى يطلب منفعته، لاريب أنه فهم أن ما من فرق بين هؤلاء الرعية وبين رعايا هذه الدولة وتلك، بل أن ذلهم قد تبدل إلى عزة، لكن مع تسلط الأجانب لا يبقى حكم للملك (ولتدق بكلمة لمن الملك فى بوق الدرويش)

وتتبدل (العزة الملكية بذل الرعية) لو أن صاحب الجلالة الملك يتشرف ويفتخر بتقربه هو وأسرته لخدمة الأجانب فنحن الرعية فى غاية الخذى والعار من تسلط الأجانب، فحمية الشعب هى الباعث على الحفاظ على سلطنة هذه الأسرة، وإلا فقد ظمأت حديقة النيابية التى لم ترتو منذ شهرين تمامًا. لقد حان الوقت كى ترتوى عن طريق البستانى الفدائى وتتفتح الأزهار والرياحين فى روضة النيابية، أو أن يقوم طبيب ماهر غيبى ببتر العضو الفاسد كى يسلم باقى الأعضاء من هذا المرض العضال.

قدوم محمد على ميرزا إلى المجلس:

فى نفس هذه الأيام أنهى المجلس عملاً عظيمًا وهو تعديل ميزانية الدولة، حيث بدأت اللجنة المالية العمل فيه منذ ستة أشهر وانتهى مؤخرًا، وقد قدموا هذه الميزانية إلى المجلس وللمرة الأولى تساوت فيها نفقات الدولة مع دخلها. وكما ذكرنا، أنه فى الأعوام السابقة كان دخل الدولة سبعة ملايين ونصف المليون من الطومانات وكانت نفقاتها عشرة ملايين ونصف المليون طومان، وكان هذا المعدل يتناقص سنويًا بمعدل ثلاثة ملايين ونصف تقريبًا، وكان لزامًا أن يسدد هذا النقص عن طريق الاستدانة، وطالب المجلس بالتفكير فى حل، حيث لا تمس الحاجة ثانية إلى الاستدانة، ونفذت اللجنة رغبة المجلس وقللت من النفقات السنوية إلى أربعة ملايين عن طريق الآتى:

١- قللت من المبالغ الباهظة التى كان يحصل عليها الأمراء وغيرهم كل عام. على سبيل المثال كان شعاع السلطنة يحصل على مائة وخمسة عشر ألف طومان، وكان ظل السلطان يحصل على خمسة وأربعين ألف، ونائب السلطنة على تسعة وعشرين ألف وكان الآخرون على غرارهم، فأقرت اللجنة مبلغ اثنى عشر ألف طومان سنويًا لكل منهم.

٢- كان حكام كل محافظة يؤدون ضرائب مائة عام سابقة إلى الحكومة، لكنهم كانوا يحصلونها من الأهالى أضعافًا مضاعفة فكفت اللجنة أيديهم واقترحت أن ما يتم تحصيله من الأهالى يتم دفعه إلى الحكومة.

٣- القضاء على الإقطاع. وهذا ما سنوضحه فى موضعه.

٤- كان ينبغى على العديد من رجال البلاط وأصحاب النفوذ تقديم القمح والشعير إلى الحكومة كضرائب، لكنهم لم يفعلوا، وكانوا يدفعون الأموال بأسعار مائة عام سابقة، وأقرت الجمعية أن يدفعوها كما هى من نفس النوع.

بالإضافة إلى ذلك تم تخفيض مبلغ ثلاثمائة وثمانية آلالف طومان من نفقات البلاط الذى كان يحصل على ثمانمائة ألف طومان ونيف سنويًا، منها ثمانون ألف طومان نفقات جهاز ولى العهد الذى كان يعيش فى تبريز، والآن، لما كان ولى العهد يعيش فى طهران فى كنف أبيه لم تر اللجنة داعيًا لدفع تلك الأموال.

وكانت نفقات مظفر الدين شاه مائتين وأربعين ألف طومان، أو على الأصح كانت من أجل إسرافه، ولم تجد اللجنة الآن داعيًا لصرف هذا المبلغ. كما كانوا يحددون مبلغ ستين ألف طومان من أجل الإعداد للخلعة واعتبرته اللجنة مبلغًا باهظًا، وقامت بتخفيض هذه الأموال وأقرت خمسمائة ألف طومان فقط للبلاط منها ثلاثون ألفا للشاه والباقى لعمال البلاط والمتصلين به فضلاً عن الأشياء التى كان يجب دفعها.

ولم ينتقد محمد على ميرزا آنذاك عمل المجلس هذا، ولم يبد عدم رضاه، لكننا سوف نرى بعد ذلك عندما رغب فى التعارك مع المجلس أنه تذرع بهذا ولم يدفع الأجر السنوى لبعض العمال الصغار كعمال الإسطبل والخدم والفراشين وحثهم على العداء ضد المجلس. على أية حال، ففى يوم الأحد السابع عشر من آبان (٣ شوال) حيث تمت قراءة مكتوب اللجنة على المجلس، تحدث النواب قليلاً حول ذلك وصدقوا عليه بكل الرضا، كما أعرب رئيس المجلس وغيره عن رضاهم التام.

فى نفس هذه الأيام دار حديث حول قدوم محمد على ميرزا إلى المجلس. وكما ذكرنا أن الشاه بدل سلوكه بعد مقتل الأتابك وكف يده عن الحرب مع الأحرار علانية، وكان يأمل القدوم إلى المجلس استرضاءً للأحرار، وقد اختاروا يوم التاسع عشر من آبان لهذا الأمر، وطلب المجلس أن يكون الاستقبال عظيمًا، وعقدت حجرة " النصرة " أمام بهارستان. وكما أسلفنا، كان نواب المجلس والأحرار فى طهران يهتمون بمثل هذا النوع من النفاق، وفى كل فترة يرون فيها هذا التعاطف من قبل الشاه أو رجال البلاط يخدعون أنفسهم ويسعدون من قلوبهم.

وفى يوم الإثنين التاسع عشر من آبان (٥ شوال) وكما كان مقترحًا، قدم رئيس الوزراء وغيره إلى المجلس، ثم وصل ظل السلطان وولى العهد وأقارب الشاه الآخرون، ثم اتجه الشاه نفسه فى عربة إلى المجلس، وفى الطريق كان الأهالى يهتفون بحياته. وعلى هذا النحو وصل إلى المجلس واستقبله النواب والوزراء، ولما دخل المجلس وبعد الاحتفاء به، قرأ ناصر الملك فى البداية رسالة ثناء من قبل الشاه، ثم تلاه بعد ذلك السيد نصر الله وقرأ ردًا من قبل المجلس. وبعد هذا كله، ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى يدخل فيها الشاه إلى المجلس بعد تتويجه، وكما كان مقترحًا، أقسم على تعاطفه مع الحكم النيابى: "وبأن يصرف همه كله فى حفظ استقلال إيران وأن يرعى الدستور والحكم النيابى فى إيران وأن يحكم طبقًا لهذه القوانين المقررة".

وانتهت الجلسة على هذا النحو وعاد الشاه. لكننا سوف نرى كيف نقض هذا القسم وذلك العهد، بل ينبغى القول إن هذا القسم وذلك العهد لم يكونا إلا من قبيل الخداع، ولم يكن فى قلبه شىء من هذا.

الانقسام بين أهالى تبريز:

نعود ثانية فى هذا الموضع إلى آذربايجان: لقد كانت تقع بعض الأحداث، فكان العثمانيون يتقدمون على الحدود يومًا بعد يوم، وكان الأكراد كذلك يقومون بالفتن وأعمال السلب والنهب، ومع كل ما قام به محتشم السلطنة فى طهران إلا

أنهم ظلوا فى أعمالهم تلك، وأبرق الحاج صمد خان المراغى القائد – الذى كان حاكمًا على ساوجبلاغ – إلى فرمان فرما يبشره أن يقدم حيال الأكراد بحيلة حتى تتفتح أعين الأهالى، لكننا سوف نرى بأية فضائح هرب من ساوجبلاغ.

فى تلك الأثناء قوى الانقسام فى تبريز بين النيابية والاستبداد واتخذ طابع الصراع. وكما ذكرنا، منذ اليوم الذى أبدى فيه الحاج ميرزا حسن المجتهد وغيره عداءهم تجاه الحكم النيابى تبعتهم جماعة من الناس وتراجعوا عن الحكم النيابى. ورويدًا رويدًا نال الحقد من قلوبهم وبسطوا ألسنتهم هنا وهناك بالمذمة. ولم يجدوا عنوانًا لذلك سوى أن "المطالبين بالحكم النيابى ملاحدة"، وكل سلوك كانوا يشاهدونه منهم صادقًا كان أم كذبًا كانوا يتخذونه دليلاً على إلحادهم، ولما كان المطالبون بالحكم النيابى فى تلك الفترة يفترون يومًا بعد يوم تجاه الدين فقد أبدوا عدم اكتراثهم أكثر وكان البعض منهم جريئًا، لذا كانوا يزيدون تدريجيًا من تعداد أعداء النيابية حتى وقع الانقسام بينهم.

وانقسم أهالى تبريز الحاقدون، وكثيرًا ما ظهر العداء بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخيه، وفى السوق حيث يعيش أصحاب الحوانيت بجوار بعضهم البعض، انقسموا فيما بينهم. وكثيرًا ما كان ينشب النزاع فى أحد الحوانيت بين النيابية والاستبداد. وينبغى القول إنهم أوصلوا الأمر بسبب جهلهم إلى أعمال غير محمودة، وما بدر أولاً من المطالبين بالحكم النيابى أنه لما كان يظهر تطورًا فى أمرهم كانوا يكتبون جملة "أيها المستبدون إن الزنجبيل موجود" على الورق المقوى والسراويل ويعلقونها أمام الحوانيت[1]. وكانوا يعلقون فى الزينات حبات الزنجبيل على جوانب الأعلام، أو يملأون طبقًا من الزنجبيل ويضعونه أمام المحال. وسوف نرى أن أعداء النيابية كانوا يفعلون ذلك مع المطالبين بالحكم النيابى.

فى تلك الأثناء كانت تبريز وكأنها ثكنة عسكرية أكثر منها مدينة، فبصفة

---

(١) كانوا يطلقون فى تبريز على الحقد " ألم القلب "، ولما كان الزنجبيل فى اعتقاد الأهالى هو الدواء لألم القلب، لذا إذا ما أبدى أحد حقده وغضبه قالوا: يلزمه الزنجبيل.

إجمالية كان يُشاهد فى كل ناحية ألف أو ألفان من المدربين على المدفعية، وكان واضحًا إنه إذا ما وصل الصراع والانقسام إليهم ينبغى وضع حبات الرصاص بدلاً من الزنجبيل أمام بعضهم البعض وينتهى الأمر بسفك الدماء.

من ناحية أخرى، قبل عهد الحكم النيابى، كانت هناك جماعة فى مدن إيران يطلق عليها اسم "الفتوات" أو "المشهدية"، وكانت متمردة لم تخنع للاستبداد، وتحاول أن تحافظ على حريتها. وينبغى القول إن الخير والشر كانا معًا فيها لأن كثيرًا من رجالها الغيورين لم يحتملوا ظلم رؤساء القرى والفراشين وكانوا يشترون الحرية والكرامة بأرواحهم، هذا ولم يخضعوا لرئيس قرية أو فراش بحميتهم القوية وشجاعتهم، وكانوا يعيشون بحرية، وكثيرًا ما تعاركوا مع أتباع رئيس القرية أو الحاكم، وكان يُقتل بعضهم بينما يفر البعض الآخر من المدينة ويهيمون فى الفيافى والصحراء كالنمور والأسود، وكانوا يحصلون على الطعام بالقوة ويعيشون حياتهم. لكن البعض منهم ممن دخل فى هذا الطريق كانوا يستخدمون قوتهم فى أذى الأهالى، وهذا ما جمع بين الخير والشر فيهم بحيث لا يمكن الثناء عليهم جميعًا أو ذمهم جميعًا، لكن ما كان من فضلهم عدم خشيتهم الموت.

وفى تبريز كان مثل هذا النوع يوجد بكثرة، وقد اشتهر بعضهم، منهم حاجى اللهيار الذى عاش خلال عهدى محمد شاه وناصر الدين شاه وكان رجلاً صالحًا غيورًا. ومن نوادره أنه أثناء قدوم من يدعى رجب على الداروغه من طهران إلى تبريز، وبعد أن أبدى الكثير من الظلم والتسلط وبسط لسانه على الدوام بالمذمة فما كان من حاجى اللهيار إلا أن مضى فى وضح النهار إلى مكتبه الكائن فى أحد دهاليز السوق وقتله بحربة وخرج. ولا تزال هذه الحكاية تدور على الألسنة فى تبريز حتى الآن، وأطلق على هذا الدهليز اسم "الدهليز الدموى".

منهم كذلك الإخوة صلاح أوغلى، وكانوا أخوين أو ثلاثة أعلنوا تمردهم على الحكومة فى عهد ولاية أمير نظام جروسى وحتى وقت بعيد، وكانوا يعيشون

فارين فيما حول المدينة، ولم يقدم الوالى يد العون إليهم. وعرفت قصتهم كذلك فى تبريز وتردد اسم حلاج أوغلى على الألسنة، وإذا ما أبدى أحد الغلبة على آخر يرد عليه الأخير بقوله: "لست حلاج أوغلى حتى أخشاك".

منهم كذلك ستارخان الذى عاش هاربًا لسنوات طوال وذلك قبل الحكم النيابى، وأعلن عصيانه على الحكومة، لكنه تراجع عن هذا الطريق من بعد وكان يعيش فى المدينة على تجارة الخيول، ويعتبر الآن من رؤساء المجاهدين.

منهم كذلك نائب محمد فى الأهراب، وكان الجميع يعرفونه بالخير ويقدرونه.

منهم كذلك كاظم دواتگر أوغلى وحسن الكبابجى، وكانا فى ضاحية الدوتشى واتسما بالشجاعة وذيوع الصيت، وكانا من منافسى ستارخان.

منهم كذلك عباس ويوسف وكانا فى ضاحية هكماوار، وكانا كذلك من تلاميذ ستارخان حيث اتجها إليه دفعة واحدة وأعلنا تمردهما وهربا معه فى الصحراء والجبال حتى وصلا إلى مشهد ثم عادا، وكانا يتعيشان فى المدينة على العمل بالأجر.

كما يوجد العديد من الفتوات فى قراملك واسكو وغيرهما من الأماكن، وقبل الحكم النيابى – حيث راجت المنافسة بين ضواحى تبريز وأعلنت كل ضاحية استقلالها – كان لهؤلاء الفتوات ضلع فى هذه المنافسات وأوجدوا سوقًا رائجة لبضاعتهم، لكن لما جاء الحكم النيابى، زالت تلك المنافسات وابتعدوا عنها، ومالوا إلى الصمت كرهًا أو طوعًا ودخل كثير منهم بين المجاهدين وصاروا من مؤيدى الحكم النيابى، لكن لما ظهر الانقسام فى تلك الفترة بين المطالبين بالنيابية وغير المطالبين بها كانت الخشية من أن يُفتح الميدان ثانية لمنافسات الفتوات، ولما كان الحقد غالبًا فى هذه الفترة؛ انتهى الأمر بالحرب وسفك الدماء اضطراريًا.

تأسيس الجمعية الإسلامية فى تبريز:

اتخذ ذلك الخوف مكانه، وفى تلك الآونة عادت منافسة الضواحى - التى كانت قد زالت - عن طريق آخر، وكيفية ذلك أن ميرهاشم - الذى كان منذ عودته من طهران يبدى تعاونه مع الحكم النيابى وكان يحضر إلى الجمعية وغيرها من المحافل - دخل هذه الأيام ثانية من باب العداء وسوء النية، وأسس فى ضاحيته جمعية باسم "الجمعية الإسلامية"، ونتيجة ذلك أن انفصلت الدوتشى - أحد الأحياء الكبيرة والقوية - عن غيرها من الأحياء وقامت بالعداء والمنافسة، وانضمت إليها سرخاب - المجاورة لها- وعلى هذا النحو ظهر انقسام واضح فى المدينة.

وكانت حجة مير هاشم - كما يتضح من اسم "إسلامية" - هى تأييده للدين، وأطلق على المطالبين بالحكم النيابى اسم "الملاحدة" وكان يحرض الأهلى على عدائهم. أما الباعث على هذا العمل كما قيل أن ميرهاشم كان يريد أن يؤيده نواب الجمعية الإقليمية - الذين اختيروا فى هذه الفترة - بحيث لا يتم اختيار سواه وأتباعه. ولما لم يهتم الأحرار برغبته هذه استاء منهم وسعى فى عدائهم، لكن كما عُلم بعد ذلك كان هناك باعث آخر، وكيفية ذلك أن محمد على ميرزا - الذى كان يسعى فى هذه الفترة إلى تنفيذ خطته للإطاحة بالمجلس - كان يريد هو أيضًا ن تنشب الفتن ويسود الاضطراب فى تبريز حتى يضع العراقيل أمام الأحرار، واختار ميرهاشم لهذا الأمر وأرسل إليه الأموال عن طريق حاجى إبراهيم الصراف أحد أثرياء البلاط.

ومع بدايات شهر آبان قام ميرهاشم بعمله، وكما ذكرنا، كان الفتوات معروفين فى الدوتشى وكانوا يضمرون الحقد والعداء منذ أمد طويل لستارخان - فتوة ضاحية أمير خيز وكان شيخيًا - وذلك تحت مسمى منافسة الدوتشى وأميرخيز وكذلك تحت مسمى الانقسام بين الشيخية والمتشرعة. ولما كان ستارخان فى هذه الفترة مع المجاهدين والأحرار استطاع ميرهاشم أن يحث فتوات الدوتشى بسهولة على العداء للمطالبين بالنيابية. وكان هؤلاء يعيشون فى هذا

الأمل، ولما كان الأحرار فى هذه الأثناء هم الذين يجيبون على أمان المدينة، فقد تهيأوا لإفساد الأمور. كما أن هذا الدرس قد أعطى من طهران ومفداه أنهم إذا ما استطاعوا إلحاق الأذى والضرر باتباع الروس - الذين كانوا كثرة فى تبريز - فإنهم يضعون الحجة فى يد الروس "لمهاجمة المدينة"، وكان محمد على ميرزا يضغط فى عدائه تجاه الحكم النيابى إلى حد أنه كان يتغاضى عن انفصال الدولة وانقسامها.

وعلى أية حال كان يشاهد هذا التصرف السيىء من قبل هؤلاء الفتوات كثيرًا، وفى يوم السبت الرابع والعشرين من آبان (٩ شوال) وقع حادث مُخزٍ، وكيفية ذلك أن كاظم دواتگر أوغلى ومعه ثلاثة من فتوات الدوتشى جعلوا يطلقون المدافع أمام حوانيت مجد الملك وصوبوا على أكبروف المعلم فى المدرسة الروسية وجرحوه، ولما وصلت تلك الأخبار إلى قنصل روسيا طالب الوالى بالتحقيق أو أن يأتى إلى الجمعية ويصدر أمرًا بذلك. وفى الحال صار مع خمسة وعشرين من لواء القوزاق الروسى واندفعوا خارجًا وأصدر أمرًا إلى أقاربهم من الروس بأن يحمل كل شخص بندقيته ومعداته ويخرج. وكانت نيته نشوب العراك بين أهالى تبريز والرعايا الروس ولما وصل إلى حوانيت مجد الملك ترجل عن عربته وأمر بأن يضع القوزاق الطلقات فى بنادقهم ويستعدوا لإطلاق النيران وبسط لسانه فى ذم إيران والإسلام. وإذا ما رد أحد انتهى أمره بإراقة دمائه، لكن أهالى تبريز التزموا الصمت لمعرفتهم بنوايا الروس، وأثناء ذلك وصل رئيس التجار الروسى، ووعده القنصل بالحديث معه.

وهذه القصة تدل جيدًا على أن الروس كانوا يتحينون الفرص، وكان أتباع ميرهاشم يسعون أيضًا فى منحهم الفرص، وضغط القنصل بعد ذلك بسلوكه المشين، فكان يستدعى فتوات الدوتشى ليستميل جانبهم، وألحت الجمعية على فرمان فرما كى يحكم دعائم الأمن والأمان فى المدينة ويتعقب المسيئين ويعاقبهم حتى تنتهى حجج الروس، لكنه لم يقم بعمل فى هذا الشأن.

كانت هذه هى أول نواة لمساوئ ميرهاشم وأهالى الدوتشى، وفى نفس هذه الأيام اتخذ الانقسام فى المدينة طابع العداء، وبدأت المساعى فى كل ناحية، وانفصلت مجموعات مجاهدى الدوتشى وسرخاب الذين كانوا يبدون حتى الآن موافقتهم لغيرهم من المجاهدين واعتبروا من بنادقة ميرهاشم.

وبعد عدة أيام وقع حادث آخر حيث تجمعت طائفة من السادة ورجال الدين وغيرهم فى مسجد "صادقيه" وقاموا بجلبة بحجة عدم الأمان فى المدينة وغلقوا الأسواق.

ولم يعلم من أين كان مصدرهم، ولكن ما كان يعلم أن نواياهم كانت نشوب الفتن، وسلوك ميرهاشم هذا شجع أعداء الحكم النيابى، فكانوا يسعون لأذيتهم. وأيًا ما كان فقد تدخلت الجمعية ورؤساء الحرية وحالوا دون ذلك وفتحوا الأسواق.

وكما ذكرنا، كان يتم انتخاب النواب للجمعية الإقليمية من منطلق القانون، وتم هذا الأمر فى يوم الجمعة الرابع عشر من آذر (٣٠ شوال) واختير الأشخاص التالى ذكرهم:

إجلال الملك، بصير السلطنة، مؤتمن همايون، افتخار الأطباء، حاجى أمين التجار، ميرزا على أكبر، معين الرعايا، حاجى مهدى كوزه كنانى، حاجى محمد حسين الساعاتى، حاجى رحيم باكوچى وحاجى ميرزا أبو الحسن انگجى(١).

وهؤلاء الأشخاص – كما يتضح من اسمائهم – كان بعضهم من التجار والبعض الآخر من رجال البلاط أو رجال الدين، وهذا يدل على أنهم لا يزالون فى تبريز يهتمون بالاسم واللقب رغم كل هذه الحركة وتلك الانتفاضة.

من ناحية أخرى كان حاجى ميرزا أبو الحسن انگجى من صفوف حاجى ميرزا حسن وإمام الجمعة، وفى تلك الأثناء كان يعد اختياره للنيابة فى الجمعية دليلاً على قوة أعداء الحكم النيابى. و كما ذكرنا، كان أعداء الحكم النيابى آنذاك

---

(١) يجب أن يكونوا اثنى عشر شخصًا لكننا لم نستدل على اسم واحد منهم.

يبدون غلبتهم. وفى نفس هذه الأيام تأسست جمعية فى تبريز باسم "جمعية السادات" فضلاً عن الجمعية الإسلامية، ونشروا لائحتها فى الصحف وأعلنت عن نفسها، و كانت هذه الجمعية بوجه عام تسيء إلى الحكم النيابى.

توجه فرمان فرما إلى ساوجبلاغ:

فى هذه الأثناء وقع حادث غريب فى ساوجبلاغ واضطر فرمان فرما إلى التوجه إلى هناك، وكيفية ذلك أن حاجى صمدخان سردار مقتدر المرانى – الذى كان حاكمًا على ساوجبلاغ وكان يؤيد فرمان فرما فى برقياته – كان يقول إنه ينبغى تأديب الأكراد حتى تتفتح أعين الأهالى. وفى يوم الأربعاء التاسع عشر من آذر (٥ ذى القعدة) أثار المدينة فجأة على الأكراد بالمدافع والأسلحة، وخرج هو وأعوانه وفعل هذا بأمر من الشاه، لأن صمد خان – كما سنعرفه – لم يكن جبانًا وضعيفًا وكان يدقق فى الأعمال قدر استطاعته، وما أبداه من ضعف إزاء هذه الطائفة لم يستطع فعله إلا عن رضا. من ناحية أخرى فقد قدم صمد خان إلى طهران بعد هذا التصرف ولم يحقق محمد على ميرزا معه ولم يعاقبه، بل – كما سنرى – منحه لقب شجاع الدولة بعد عدة أشهر ووجه به إلى تبريز.

ولما بدر هذا التصرف الحقير من قبل صمد خان دخل الأكراد المتمردون المدينة بأمر من العثمانيين ورفعوا هناك العلم العثمانى وفتحوا أيديهم بالسلب وألحقوا الأذى بتجار تبريز وغيرهم من غير الأكراد.

فى نفس الليلة قدم فرمان فرما إلى مكتب البرق وتباحث مع طهران، واقترح أن يتجه بنفسه إلى ساوجبلاغ ووصلت الردود إليه من الشاه والمجلس، وما حدث أنه جمع من الغد عددًا من الفرسان والجند ممن هم فى متناول يده وتهيأ للمضى، وكانت البشرى تأتى من طهران بأن القوزاق والجند يواصلون المسير إليهم ولم يكفّوا عن المساندة.

من ناحية أخرى أثرت هذه القصة بشكل كبير على المجاهدين وعزموا

جميعًا على الانضمام إلى فرمان فرما والمضى إلى ساوجبلاغ، ولما لم يساورهم ظن آخر تهيأوا لهذا الأمر عن طواعية وأمل. واهتمت الجمعية كذلك بالحادث، وكانت تسعى من كل طريق ولم تضن بتأييدها لفرمان فرما. وفى عصر ذلك اليوم عزم فرمان فرما على السير لكنه لم يرتض مرافقة المجاهدين فأعادهم. كما عاد نواب الجمعية وعدد من الرؤساء الذين كانوا يرافقونه حتى هناك.

وجاء فى كتاب "بلاء تبريز": إن رغبة فرمان فرما من هذا الذهاب هى حمل الأسلحة والآلات الحربية خارج تبريز حتى لا تبقى فى متناول أيدى الأحرار. ويقول إنه أخذ معه ستة آلاف بندقية وخمسمائة ألف طلقة وأربعة مدافع وحصل من الجمعية على مائتين وثمانين ألف طومان لتجهيز هذا الجيش، وفعل هذا حتى يجعل الجمعية خالية الوفاض.

وهذا الحديث لا يتفق مع التضحيات التى كانت تُرى من فرمان فرما فى ساوجبلاغ (سوف نكتبها فيما بعد) لكن هذا لم يكن بعيدًا عن حيل محمد على ميرزا خاصة – كما سنرى من بعد – أن البلاط كان يسعى فى نفس هذه الأيام لرسم خطة جديدة للإطاحة بالحكم النيابى، ومن هذا المنطلق كانت الوعود التى أعطيت لفرمان فرما بإرسال القوزاق والجند جميعًا كذبًا صراحا، بل إن أزمة آذربايجان كانت فى هذه الأثناء، واستدعى أمير بهادر ثمانمائة فارس من قراجه داغ إلى طهران، ولا ريب أن محمد على ميرزا لم يكن يسعى إلا للإطاحة بالحكم النيابى ولم يكن يهتم بحادث ساوجبلاغ.

هذا ويمكن التصديق بسهولة أن نيته كانت خروج الأسلحة من تبريز، ويمكن القول فيما يتعلق بفرمان فرما أنه كان يقوم بهذه التضحيات لحفظ ماء وجهه. وعلى أية حال – وكما سنرى من بعد – لم يستطع فرمان فرما القيام بشىء رغم هذه المساعى والتضحيات، ومعظم الأسلحة والآلات التى أخذها أعادها بعد بضعة شهور حيث وقعت فى أيدى الدوتشى وأتباع الشاه، وهذا نفسه يعد دليلاً آخر على صحة كلام كتاب "بلاء تبريز".

وبعد عدة أيام من خروج فرمان فرما حيث وصلت الأنباء المحزنة من طهران بشأن " فتنة ميدان المدفعية " وقيام أحرار تبريز بعمل حكيم، وأجلسوا محمد على ميرزا فى مكانه. ونظرًا لأننا سنكتب ذلك بشكل تفصيلى فلن نقوم بسرده فى هذا المقام، وما يجب أن نذكره هنا هو القصة المحزنة للمغفور له السيد محمد أبى الضياء التى كانت فى نفس هذه الأيام. كما ذكرنا، كان أبو الضياء أحد رواد الحرية وكان هو نفسه من المجاهدين فى هذا السبيل، فقبل الحكم النيابى كان يحرر صحيفة "عدالت" بمساعدة السيد حسين خان، وفى عهد النيابية لم يكف عن الجهاد، وقد أسس منذ فترة صحيفة "مجاهد" بمساعدة حاجى ميرزا آقا بلورى وكانت من صحف تبريز القوية.

وفى تلك الآونة نشر فى تلك الصحيفة مقالاً تحت عنوان "مكتوب من النجف" ورد فيه أن الألسنة حينما بسطت بالمذمة فى السيد كاظم اليزدى فقد أطلقوا عليه اسم "ابن ملجم"، وكان ذلك باعثًا على نشوب الفتنة بين الأهالى.

وكما ذكرنا، كان السيد اليزدى يعد من صفوف آخوند خراسانى وحاجى الشيخ مازندرانى وكان يقلده حشد كبير من الإيرانيين، وقد ذكرنا قصة التقليد هذه، وفيما قبل الحكم النيابى بقليل كان يوجد عدد آخر من المجتهدين كالشيخ ممقانى وفاضل الشربيانى، ولما توفيا أخذ هؤلاء الثلاثة مكانهما فتبعهم حشد كبير من الإيرانيين، وبعد الحكم النيابى لما لم يبد الآخوند وحاجى الشيخ اكتراثًا برجال الدين نهضا لتأييد النيابية وعاد عدد كبير من أتباعهما وأعلنوا تبعيتهم للسيد اليزدى، وعليه كثر مريدوه، لذا عندما صدر ذلك العدد من "مجاهد" أعربوا عن عظيم استيائهم. وقيل لما سمع البعض بذلك سحقوا رأسه بأيديهم، وهذا دليل على تعاطف الأهالى مع مجتهدى النجف واستاء بعض المطالبين بالحرية من ذلك المقال، وكان للعديد منهم المكانة بين رجال الدين والمطالبين بالحرية، ولما انقطعوا مرة واحدة عن الأحرار انضموا إلى أعدائهم.

وكان ذنب السيد محمد عظيمًا، فالجمعية الجديدة التى ذكرناها لم يكن لبعض نوابها – كما كان ينبغى – ارتباطًا بالنيابية ولا بالحرية وكان منهم انكجى الذى

كان يعد من رجال الدين والمجتهدين وقد أعربوا عن عدائهم الشديد تجاه أبى الضياء إما تحت مسمى استرضاء الأهالى أو من قبيل فهمهم وتصديقهم، وبرغم وقوع فتنة طهران وانشغال الرؤساء المطالبين بالحرية بها لم يتنحوا عن ذلك ولم يبدوا ضعف أمرهم وأصدرت الجمعية مكتوبا تعرب فيه عن استيائها من ذلك المقال الذى كان من أوله إلى آخره سبا لأبى الضياء ونشرته فى جريدة الجمعية ثم استدعت أبا الضياء إلى الجمعية وقاموا بالتحقيق معه فى حضور انگجى وغيره وقيدوا قدميه فى فلكة حسب أوامر انگجى وضربوه بالعصا، ولم يكتفوا بهذا السلوك المشين وأمروا أن يخرجوه من المدينة. ورأى أبو الضياء عدم الاحترام – الذى لم يره فى عهد الاستبداد – فى عهد الحرية.

وهذا حديث عن آقا بلورى، حيث يقول إننى أحضرته إلى منزله بعد ضربه بالعصا وواسيته، ولما كانوا قد وكلوا بعض فرسان الشاهسون حتى يخرجوه من المدينة فقد علمت أنه إذا ما عهد به الشاهسون (وكانوا قد سمعوا أنه من الملحدين) فلاشك أنهم سيقتلونه فى الطريق، لذا هربت أبا الضياء ليلاً من المدينة ولم أسلمه إلى جند الشاهسون.

«المقال التاسع»

كيف نشأ الصراع ثانية؟

يدور الحديث فى هذا المقال حول فتنة ميدان دار المدفعية، وحول الأحداث الأخرى التى وقعت بعده حتى حادث قصف المجلس النيابى بالمدافع.

سوء نوايا سعد الدولة والأمير بهادر وغيرهما:

كما ذكرنا سالفًا أدخل اغتيال عباس آقا للأتابك الفزع فى قلوب رجال البلاط، وكان نتيجة ذلك الفزع أن ساد الهدوء لمدة ثلاثة أشهر، لكن حينما تقادمت قصة الأتابك ولم يظهر فدائى آخر كما كان الظن، زال الفزع تدريجيًا من القلوب وبدأ محمد على ميرزا ورجال البلاط وغيرهم من أعداء الحكم النيابى العداء ثانية. فى هذه الأثناء ساهم وجود شا بشال والأمير بهادر وإقبال الدولة ومجلل السلطان وغيرهم ممن التفوا حول الشاه فى حثه على الصمود فى مواجهة المجلس، وكان سعد الدولة من ألد أعداء الحكم النيابى وأكثرهم فى حث الشاه ضده. فمنذ أن تنحى عن المجلس وهو يبدى عداءه للنيابية، لكن بعد أن صار وزيرًا للخارجية وبعد أن رفضه الموظفون الأحرار فى تلك الوزارة ازداد حقده على المجلس والنيابية وزاد من مساعيه التى كان يقوم بها بالتعاون مع آخرين فى البلاط، وتردد على الألسنة منذ فترة أن سعد الدولة والأمير بهادر يعقدان الجلسات السرية ويدبران لإلحاق الأذى بالنيابية، ويقال إن الحاج الشيخ فضل الله النورى وكذلك الحاج الشيخ مرتضى آشتيانى قد تضامنا معهما ودار هذا الحديث فى المجلس وذكر اسم سعد الدولة علانية.

وكما أسلفنا، خفضت لجنة المجلس مبلغ ثلاثمائة وثمانين ألف طومان من نفقات البلاط السنوية، وقبل محمد على ميرزا ذلك ولم يعرب عن استيائه، ومضى بعد ذلك إلى المجلس وأدى اليمين، لكن سعد الدولة وأتباعه كانوا فى هذه الأثناء قد اتخذوا من ذلك ذريعة جيدة لهم وقاموا ببعض الأعمال على النحو التالى: فقد أوضحوا لخدام الخيول والجمال والفراشين وخدم القصور ومثل هؤلاء من صغار عمال البلاط أن المجلس اقتطع راتبهم السنوى وحرض محمد على ميرزا على الامتناع عن دفع الأموال لهم. هذا فى حين أن مبلغ الثلاثمائة وثمانين ألف طومان قد اقتطع من مواضع أخرى ولم تكن هناك علاقة بين هذا المبلغ وبين رواتب هؤلاء العمال السنوية. وبذلك نهضت تلك الجماعة من عمال البلاط - الذين كانوا كثرة من الرجال السذج الذين لا دراية لهم بالأمور - لمناهضة النيابية والمجلس واتحدوا فيما بينهم وجعلوا يتنقلون هنا وهناك ويذمون النيابية والمجلس، وذات يوم مضوا إلى دار ناصر الملك وأبدوا وقاحة تفوق الحد، وكان الإقطاعيون - الذين كانوا مستاءين من الحكم النيابى - يزيدون من نارهم.

من ناحية أخرى كان سعد الدولة وأتباعه يجتمعون ليلاً ويخططون للقيام بالحيل، كما كان كل من الحاج الشيخ فضل الله والسيد على اليزدى ومؤسسى جمعية الفتوة يعقدون الاجتماعات ويتشاورون، وبصفة عامة كانت ثورة سرية لإلحاق الضرر بالنيابية تسعى فيها عدة جماعات.

أثناء ذلك استدعى محمد على ميرزا بعض النواب من المجلس إلى البلاط، ومضى بعض الأفراد إلى هناك، منهم الحاج السيد نصر الله، وتحدث محمد على ميرزا فى البداية ثم أمر أحد رجال البلاط بقراءة مذكرة تفصيلية كانت قد دونت من قبل، وكان يهدف من وراء ذلك الحديث وتلك المذكرة إلى أمرين، أولهما: أن يتنحى المجلس عما حدد له ويتدخل فى أعمال الحكومة أو فى أعمال القوة التنفيذية. والأمر الآخر: أن يوضح أن الجمعيات التى أقيمت بكثرة هى سبب الفتنة فى العاصمة. وكان يقول: "إنه طبقًا للدستور ينبغى على المجلس سن القوانين فقط دون القيام بأى عمل آخر لكن المجلس لم يلتزم بذلك، كذلك أفسدت الجمعيات أمن

المدينة وهدوئها وتدخلت فى كافة الأمور السياسية والحكومية، وإذا ما كانت جميعها لرعاية المجلس والمحافظة عليه فقد أقسمت أنا نفسى على ذلك وسوف أرعاه".

وواضح أن من قدم هذا الحديث الذى له السمة القانونية هو سعد الدولة، وكانت رغبتهم هى تقييد الأحرار باسم القانون، ولم تكن هذه الانتقادات دون أساس، فلم يكن خفيًا أن المجلس لم يكتف فقط بسن القوانين وكان يتدخل فى أمور الحكومة وأعمال القوة التنفيذية، لكن هذا كان اضطراريًا لأن الحكومة كانت تعرقل الأمور قدر استطاعتها ولم تكترث بالقانون، واضطر المجلس أن يضغط ويشتد، فضلاً عن ذلك كان هذا المجلس هو المجلس الأول، وكان هو نفسه مؤسس النيابية والدستور، فلا يمكن أن يكتفى بالأسلوب البسيط للمجالس الأخرى خاصة أمام حكومة يملك محمد على ميرزا زمامها، وأقوال الشاه تلك ليست إلا من قبيل الخداع، فهو نفسه يعلم أن المجلس لم يقم بأعمال لا طائل من ورائها.

أما الجمعيات، ففى الواقع كان لها ضلع فى كل ثورة وحركة، وكان البعض منها بلا أساس ولم تستطع إلا أن تكون سببًا فى نشوب الفتن. من ناحية أخرى، كما سنرى من بعد، أنها لم تنجز شيئًا فى الأيام العصيبة. وعلى أية حال فهى تعد تأييدًا للمجلس ويجب وجودها فى كل الأحوال، ولم يجد أحرار طهران طريقًا آخر أفضل من هذا لمساعيهم فاختاروها. وعلى أية حال كانت الشكوى منها فى أوقات الفتنة لا محل لها.

كان هذا الحديث يوم الأربعاء الخامس من شهر آذر (٢٠ شوال) وأنهى الشاه أحاديثه قائلاً:

"فلتمضوا ولتتباحثوا فيما ينبغى عمله خلال هذه الأيام الثلاثة أو الأربعة، ولتطلعونى على رأيكم يوم الأحد".

ومن غد يوم الخميس دار حديث فى المجلس حول هذا الموضوع وتليت مذكرة الشاه وتحدث النواب كثيرًا عن أن المجلس لم يقم إلا بدوره ولم يتعد حدوده،

وأن الجمعيات لم تكن باعثًا لنشوب الفتن، فقد نشبت العديد من الفتن فى طهران ولم يكن للجمعيات دخل فى أى منها، وعزموا على كتابة ردٍ وإرساله إلى الشاه ثم عقبوا على نفس الحديث فى جلسات أخرى، وفى النهاية كتبوا ردًا ورد فيه أن المجلس لم يتعد حدوده قط والحكومة هى التى يجب عليها أن تلزم حدودها ولا تحول دون أعمال المجلس. أما عن الجمعيات فهى قائمة من منطلق الدستور الحر ولم تكن غير قانونية فى أى وقت قط حتى يجب على الحكومة منعها. كتبوا هذه الرسالة وأرسلوها إلى البلاط عن طريق بعض النواب، وأظهر رجال البلاط اللين والرياء ثانية حيث قالوا:

"إن رغبتنا هى استقرار البلاد وأمنها وتحقيق الهدوء للأهالى وما من نية أو أمنية أخرى لدينا".

وعلى هذا النحو أسدلوا الستار.

ضعف أعمال المجلس:

لكن على أية حال لم تبق الحقيقة مستورة، فكان يبدو أن لديهم خطة تستدعى الخشية وكانوا يظهرون علامة أخرى فى كل لحظة. من ذلك أن الشاه منح الأمير بهادر فى هذه الأيام لقب "كبير الحراس" دون علم وزير الحربية، كما استدعى سبعمائة فارس من آذربايجان إلى طهران، وعدم الاكتراث هذا بوزير الحربية واستدعاء الفرسان كان دليلاً آخر على سوء نية البلاط ومساعيه الخبيثة. كما أن الأمر بإرسال كتائب القوزاق والفرسان إلى ساوجبلاغ – الذى بشر به فرمان فرما – لم ينفذ، وبدلاً من ذلك كانوا يصدرون الأوامر فى كل مكان يتواجد فيه أحد أتباع البلاط حتى يحرض الأهالى على القيام بفتنة، وأرسل الشاه الخلعة إلى الشيخ محمود ورامينى الذى نهض منذ فترة ضد النيابية وكان ذائع الصيت هناك، فى نفس هذه الأيام وقعت ورقة فى أيدى الوزراء يقال إنها كانت بخط الشاه نفسه كان قد دونها لأبناء السپهدار فى تنكابن وأمرهم فيها بحث الأهالى على القيام بثورة.

وبصفة عامة، لم يمنعوا اللصوصية وقطع الطريق فى أى مكان، وكما سنورد فى موضعه، تحين النائب حسين كاشانى الفرصة فى نفس هذه الأيام وقام بجمع الأتباع والمؤيدين.

وكتب أحد الكتاب الروس - وكان يعيش فى طهران آنذاك - هذه القصة يقول فيها:

"ما كان يبدو غريبًا من وجهة نظر واحد من الأوروبيين أنه مع عدم وجود أى نوع من العرقلة، فلا دماء تراق، ولا اضطرابات تقع، إلا أن الأهالى نهضوا دفعة واحدة، ورغم ذلك لم تفقد المدينة الأمن والهدوء، وإذا ما وقع مثل هذا الحادث فى إحدى الدول الأوروبية لتخضبت الدولة بأكملها بالدماء ولقضى السيف والنيران على كل شيء"(١).

والأعجب من هذا أن المجلس لم يبد سوى عدم المبالاة إزاء الاستعدادات والعداءات التى كانت تظهر من قبل البلاط وأتباعه ولم يقم بمنعها، وبالرغم من أنهم تحدثوا فى هذا الشأن فى إحدى جلسات المجلس السرية، وقال ناصر الملك - الذى كان رئيسًا للوزراء - فى وضوح:-

"ثمة مساعٍ تتم فى الخفاء لإلحاق الأذى بالمجلس، واستدعاء الأمير بهادر للفرسان لأول دليل على استعداد البلاط".

فكان الحديث يدور حول هذا الشأن فى المجلس واتخذه بعض النواب ذريعة لهم واحتدوا فى النقاش إلا أنهم اكتفوا بتلك الحدة، ولم يتذكروا أنه يجب عليهم الوصول إلى حل لمنعهم.

واستطاع المجلس أن يحث الأحرار على شراء البنادق ومعدات الحرب، كما قام باستدعاء البنادقة من المدن الأخرى. وعلى أية حال فقد استعد بقوة، واستطاع عزل محمد على ميرزا من الملك بسبب نقضه لليمين، وأطاح بخططه بعمل جرئ،

---

(١) Persia and Turky in Revolt . by David Fraser.

كما فعلت جمعية تبريز نفس العمل بعد أيام وجعلت محمد على ميرزا مكتوف الأيدى.

فى تلك الأثناء كان ظل السلطان يعيش فى طهران آملاً فى العرش، وكان يقوم ببعض الأعمال فى الخفاء للوصول إلى هذا الهدف، واستطاع المجلس أن يستميله وألجموا محمد على ميرزا، وبذلك قيدوا قدميه ويديه. لكن لم يقم أى منهم بهذه الطرق وأودع الزمام فى يد الأحداث. وطبقًا لما قاله البعض إنهم كانوا يريدون أن يتم الأمر فى الظلام ولم يروا الحاجة ماسة إلى القوة، وكان هذا التفكير الساذج يجد له مكانًا فى قلوب بعض الرواد، ولما كانوا يتقدمون فى أعمالهم دومًا بالجلبة والصياح والحركة والثورة فقدمت هذه الحجة لهم وكانوا يريدون عدم القيام بشىء إلا من هذا الطريق.

والأسوأ من هذا فى هذه الأيام أن جمعيات طهران اجتمعت فى مكان واحد، وبعد التباحث أرسلوا إلى الشاه يطالبون بطرد سعد الدولة والأمير بهادر من البلاط وقالوا: "لو لم يتم طردهما سيقوم الشعب نفسه بهذا الأمر". بعد ذلك كانت نفس هذه الجمعيات تجتمع يوميًا فى مدرسة السپهسالار، وكان كل من ملك المتكلمين والسيد جمال يتحدثان ويذمان الشاه والبلاط ويوجهان إليهما الرسائل باسم شعب إيران، كانا يقومان بذلك ولم يرد على فكريهما قط أن الحاجة تمس إلى القوة، وكأنهما لم يدركا قط أنه إذا ما شاء الشاه سيفرقهما بقوة البنادق ويقتلع المجلس من جذوره، ولكنهما لم يصدقا شيئًا من هذا. وهنا ينبغى القول إنهما كانا فى غاية السذاجة.

والأعجب من هذا أن المجلس وكذلك الجمعيات لم يخطروا المدن ولو لمرة واحدة بهذا ولم يطلبوا منها المساعدة، ولم يروا الحاجة ماسة إلى ذلك من فرط سذاجتهم، وكانوا يظنون أن ثورتهم وجلبتهم وحركتهم كافية لصد البلاط. وعلى هذا النحو كانت الأمور تسير حتى يوم السبت الثانى والعشرين من شهر آذر (٨ ذى القعدة) حيث كانت حكومة ناصر الملك - التى تنبأت بحدوث الفتنة - تريد أن تكون فى منأى من ذلك فتنحت عن العمل وأخبرت الشاه بحقيقة الحال، وسوف نرى أية ضجة قامت من غد ذلك اليوم.

وهذا نموذج لسلوك ناصر الملك، فكان هذا الرجل يريد ألا يظهر عداءه للأحرار وألا يلحق بهم الأذى، والأكثر من هذا أنه لم يبد تضامنًا. فالرجل الذى تلقى العلم فى انجلترا، وكان يدرك المفهوم الحقيقى للحكم النيابى وفوائده لم يفرق بينه وبين الاستبداد وقلما أبدى تعاطفًا تجاه النيابية. وعلى أية حال كان الناس يقدرونه هو وأمثاله ويعتبرونهم ممن يحترقون من أجل الشعب والدولة.

الهجوم على المجلس وبداية الثورة:

كما أسلفنا كان الأعداء يستعدون بالمعدات، ولما انتهى الأمر قاموا بعملهم يوم الأحد الثالث والعشرين من آذر (٩ ذى القعدة)، ففى هذا اليوم، وما أن سطعت الشمس حتى مضت جماعة من أوباش سنگلج تحت إمرة مقتدر نظام وجماعة أخرى من رعاع چاله ميدان تحت إمرة صنيع، حضرت كل منها من طريقها واتجهتا ناحية مسجد السپهسالار، وعندما تجاوزتا الشوارع ووصلتا إلى هناك اتحدتا معًا.

وكما ذكرنا، كانت مدرسة السپهسالار فى هذه الأيام مقرًا للجمعيات وكانوا يجتمعون فيها لأيام طوال، واليوم كان يوجد بها عدد كبير منهم، ولما جاءت هاتان الجماعتان علموا بقدومهما من قبل الأعداء لكنهم لم يبالوا. ونظرًا لمكوثهم هناك لفترة، ونظرًا لعدم استقرارهم قاموا بالشغب فجأة وجعلوا يذمون فى المجلس والنيابية وخرجوا من المدرسة بتلك الجلبة والضجة واتجهوا نحو المجلس وأغلق أعضاؤه الباب فى وجوههم، ولما وصلوا أطلقوا عدة رصاصات على الباب ثم قاموا بإلقاء الأحجار عليه، لكن لما صعد واحد أو اثنان من المجاهدين أعلى المنارات بالبنادق، بدأوا فى إطلاق النار ولم يقاوموا وعاد المشاغبون والذين يذمون واتجهوا إلى ميدان دار المدفعية حيث اجتمع فيه عمال الخيول والجمال والفراشون والبنادقة وغلمان الحراسة، وجند الأمير بهادر وغيرهم وكانوا حشدًا كبيرًا، وأقاموا الخيام الحكومية وأعدوا المطابخ الكبيرة، وكانت خطة محمد على ميرزا أن يطيح بالمجلس والحكم النيابى بأيدى هؤلاء لذا جعلوا من ميدان دار المدفعية مقرًا لهم.

من ناحية أخرى فقد غلقوا الأسواق نتيجة للجلبة، وحضر إلى الميدان أعداء الحكم النيابى من كل صوب وحدب وانضموا إليهم واختلط خدام الخيول والجمال السذج الجاهلين بأوباش سنگلج وچاله ميدان ورجال الدين العاميين ممن أظلمت دخيلتهم، وكانوا يروحون ويجيئون فى سعادة وجلبة وحركة ويندفعون على التوالى فى سب الحكم النيابى والحرية، ولما أقاموا الخيام بعد ذلك واستحكم أمرهم صعد السيد محمد اليزدى والسيد أكبر شاه وغيرهما من قارئى الروضة والوعاظ على المنبر وتحدثوا بأسلوبهم ولم يكفوا عن توبيخ الحكم النيابى وذمه. وكانت تتردد على الألسنة جملة "نحن نريد دين النبى ولا نريد الحكم النيابى".

كان هؤلاء على هذه الحال بينما تقع بعض الأعمال فى البلاط والمجلس، ففى البلاط كان الأمير بهادر يفخر بنصره، ولم يكف سعد الدولة عن مشاركة الشاه فى تفكيره وإرشاده وكان لياخوف قائد لواء القوزاق قد شوهد اليوم فى البلاط، والقوزاق الذين تحدثوا عنهم بأنهم سيرسلونهم إلى ساوجبلاغ احتفظوا بهم اليوم فى طهران بحجة صد الفتنة وجعلوهم فى حراسة ميدان دار المدفعية. أما فى المجلس – فكما أسلفنا– لم يكن لديهم قط أى نوع من الاستعداد، ومع هذا أبدى النواب صمودهم وضغطهم على النحو التالى حيث قدم المغفور له بهبهانى واحتشام السلطنة وغيرهما إلى قصر بهارستان لإنجاز أعمال اللجنة ولم يهابوا الحديث ولم يتفرقوا، وسارع الآخرون كذلك من الخارج إلى هناك وأعربوا عن تعاونهم، كما اتجه الأحرار – الدانى منهم والقاصى – إلى هناك، كما كان أعداء النيابية يجتمعون فى ميدان دار المدفعية، بينما اجتمع الأخيار فى بهارستان ومدرسة السپهسالار، وكان سلوك المجلس هذا شجاعًا وحكيمًا.

وكتب أحد نواب آذربايجان (مستشار الدولة نفسه) قصة المجلس فى ذلك اليوم وأرسلها إلى تبريز حتى تنشر فى صحيفة الجمعية، هذا ونورد جزءًا منها فى هذا الموضع:

"فى صباح يوم الأحد... توجهت إلى المجلس مبكرًا عن أى يوم، ووجدت الرئيس هناك وبعض رجال الدولة من أمثال معين الدولة وغيره، كما حضر جناب

السيد عبد الله، وعُلم أن المرحوم – الذى كان على اتصال بالمجلس – كان مجتمعًا فى مسجد السپهسالار وقدم إلى هناك أيضًا صنيع حضرت ومقتدر نظام واجتمعا مع رجالهما فى مكان خاص فى أحد أفنية المسجد، وبمجرد أن منع الرئيس الفتنة والفساد أرسل علاء الدولة ومعين الدولة أخاه فى أثر جماعة من المبجلين، واستعد ظل السلطان بسبب قرب منزله وغادروا المكان وأحضروا عضد الملك ونائب السلطنة كى يحملا رسالة من قبل المجلس إلى صاحب الجلالة الملك العظيم وأرسل جناب السيد عبد الله – الذى كان حتى تلك اللحظة يظن أن صنيع حضرت أحد الفضلاء المؤيدين له – شخصًا ليستدعيه من المسجد للقاء السيد، وجاء ذلك الخبيث وخدع السيد قائلاً: إننى جئت للدفاع عن المجلس من محاولة الاغتيال والتآمر التى قام بها مقتدر نظام مع آخرين، لكن ما أن خرج حتى نشبت جلبة وضجة بعد عشر دقائق فى الشارع خارج المجلس، وأعقب تلك الجلبة هجوم الأراذل والأوباش على باب المجلس وتم قصفه بالبنادق والمدافع.

ومعلوم فى ذاك الوقت أن المجلس لم يكن بأكمله باستثناء ثلاثة من البنادقة دون سلاح وجمع من القوزاق العُزل مع بعض النواب وجناب السيد عبد الله وبعض المبجلين، وأدى وقوع هذه المؤامرة وتلك الوقاحة بشكل مفاجئ إلى وقوع الثورة والفوضى، فأغلقوا باب المجلس على الفور وفكر الحضور فى الدفاع عن... وكان يوجد من بين الحاضرين بعض أعضاء الجمعيات ويقال إن اثنين أو ثلاثة فقط قد اعتلوا حصون المسجد والمنارات، وتمكن أحدهم من تفرقة الجمع حول باب المجلس، ولم يتورع الأراذل والأوباش عن التجرؤ على المجلس وقاموا بجلبة وذموا النيابية وتوجهوا إلى ميدان دار المدفعية... وفى كل لحظة كانوا يفكرون فى الهجوم على المجلس، وكانت تلك الأنباء تصل هاتفيًا. من ناحية أخرى، استعد أربعة من البنادقة للدفاع وفكرت بداية فى الثمانية كتائب من البنادقة وبعض الأسلحة التى أعددناها وتخيلنا أن جيش سلم وتور لا يستطيع مواجهتنا، وعلى الفور ملأوا بنادق الجند الخاوية وأرسلناهم أعلى المسجد، واستعد شباب جمعية آذربايجان الغيورون. والخلاصة أن ذلك اليوم مضى ثقيلاً على جميع القوى

لدرجة كان فيها لكل دقيقة قيمتها، وفى كل لحظة كانت تقع الاضطرابات، واستعد الجميع بالسلاح حتى تم إعداد عشرين كتيبة من البنادقة حتى الغروب".

ضغط المجلس وصموده:

لكن المجلس كان يمارس أسلوبه الساذج، وكان احتشام السلطنة يحاول إرسال ظل السلطان أو كامران ميرزا لدى الشاه ويشكو من حادث الفتنة ويطالب بمنعها، وأثناء ذلك لم يتخل عن الحديث بحماسة وأمل. ولم يقبل ظل السلطان والآخرون هذا واضطر احتشام السلطنة إلى البقاء، وأرسل أخويه علاء الدولة ومعين الدولة ولما وصلا إلى الشاه واعتبر الأخير هذا مهانة، وأمر بربط علاء الدولة فى الفلكة وضربه بالعصا[١]، ثم سلمهما إلى القوزاق ووجهوا بهما إلى مازندران.

ولما وصلت هذه الأنباء إلى المجلس قام الأحرار بالجلبة والثورة، وحاول احتشام السلطنة تهدئتهم بالحكمة وتحدث معهم باللين. فى هذه الأثناء وصلت الأنباء تفيد بأن الشاه قد اعتقل ناصر الملك، حيث غضب الشاه على ناصر الملك والوزراء الذين تنحوا بالأمس، واستدعاهم اليوم إلى البلاط، وكان ناصر الملك يعترض بحجة عدم موافقته على الذهاب لكنه اضطر إلى ذلك فى النهاية، وقد وبخه محمد على ميرزا كثيرًا وأمر بضربه بالعصا ثم أمر باعتقاله فى حجرة صاحب الدولة. كذلك أبدى حدة وبذاءة تجاه الوزراء الآخرين لكنه لم يعتقلهم[٢].

---

(١) كما أسلفنا الذكر فإن علاء الدولة قد ربط السيد قندى فى الفلكة وضربه أثناء توليه الحكم فى طهـران، وكان هذا الحديث أحد أسباب حركة النيابية، والآن ينال عقابًا من جنس العمل بيد محمد على ميـرزا، ولم يكن علاء الدولة هذا متعاطفًا مع الحكم النيابى لكنه كان يبدى تضامنه مع المطالبين به فـى هـذه الآونة هو وأخوه احتشام السلطنة رئيس المجلس، وكان لمعين الدولة كذلك نفس الوضع.

(٢) لم يقض ناصر الملك فى المعتقل أكثر من عدة ساعات حيث توجه السفير الانجليزى إلى محمـد علـى ميرزا منكرًا إياه بأنه تلقى العلم فى انجلترا واستلم وسامًا منها فتم إخلاء سبيله، ولم يقم بـشىء آخـر تجاهه، ومن غد ذلك اليوم غادر طهران واتجه إلى أوروبا.

ولما كان ناصر الملك من مؤيدى النيابية فقد استاء الأحرار من هذا، وأعرب البعض عن عدم فهمهم لما حدث واقترحوا أن ينتخبوا بعض العلماء من النواب ويرسلوهم إلى البلاط لإتمام الحجة، واختاروا ستة كان الحاج إمام الجمعة فى خويى أحدهم وأرسلوهم لكنهم لم يجدوا سبيلاً لدى محمد على ميرزا وعادوا.

فى هذه الأثناء، ومع نهاية اليوم، اقترح بعض الأحرار ألا يمضى النواب وغيرهم ليلاً إلى دورهم وأن يقيموا فى بهارستان، وقام كثير منهم بالجلبة، وقالوا للنواب:- "لن ننفصل عنكم". وكان هذا تفكيرًا صائبًا وقبله النواب. فلو مضى النواب إلى دورهم فى تلك الليلة فما أكثر من كانوا يُعتقلون ليلاً.

وقضى الجميع الليلة فى بهارستان وطلب الأثرياء الطعام من منازلهم وكان بوفرة حيث قُدم للجميع، وطبقًا لما ورد فى جريدة الحبل المتين بلغ تعدادهم أربعة آلاف شخص تعهدوا بالحراسة وظلوا أيقاظًا طوال اليوم دون أن يستريحوا للحظة. وكانت الليلة بالنسبة لهم ليلة مخيفة، فلم يكونوا - كما ذكرنا - يملكون أكثر من عشرين بندقية، وإذا ما حدث هجوم من قبل الأوباش لم يكن يُعلم كيف سينتهى الأمر، والعجيب أن محمد على ميرزا لم يصدر أوامره بالهجوم على المجلس فى ذلك اليوم وتلك الليلة.

أما من ساءت نواياهم فكانوا هم كذلك قائمين بالليل فى ميدان دار المدفعية، لكنهم كانوا فى أمان وهدوء نفسى، فضلاً عن أنهم كانوا يمثلون حشدًا كبيرًا وكان لدى العديد منهم المدافع والبنادق فقد كانت طوائف من القوزاق والجند تحاصرهم بالحراسة وهم مدججين بالمدافع، وكان الطعام هنا كذلك بوفرة.

ومن غد يوم الإثنين ازداد الاحتشاد فى مجلس آخر واتجه الناس جماعات إلى هناك وامتلأ بهارستان ومدرسة السپهسالار ووقف البعض أمام المبنى واستقرت الجمعيات فى المدرسة واختارت كل واحدة منها حجرة لها، وازداد عدد البنادق وأحكم البنادقة أماكنهم فوق الأسطح وأعلى المنارات والمنازل. كذلك اختاروا لجانًا للقتال والطعام وأودعوها زمام الأمر، وفى ذلك اليوم رفعوا علم

المجلس الموقر أعلى الباب كما علقوا عليه كذلك قطعة من القماش الأبيض مدون عليها: "الزموا الهدوء". ولما بدأت جلسة المجلس دار الحديث ثانية عن إرسال الرسل ووجهوا بالستة أشخاص الذين تم اختيارهم بالأمس مع مكتوب منهم من قبل المجلس، وأعرب من احتشدوا فى بهارستان وأمام المبنى والمدرسة عن ثورتهم وضجتهم وتحدث معهم البعض. وبعد الظهر عاد هؤلاء الستة ومعهم عضد الملك وأحضروا مكتوبًا من قبل الشاه بشأن تفريق النواب والجمعيات حتى يفرق الشاه الأوباش وبعد ذلك تقام جلسة تعرض فيها الأمور، وكان يريد بذلك أن يقضى على قوة المطالبين بالحكم النيابى ويتغلب عليهم.

والعجيب أن بعض النواب كانوا يقترحون قبول رغبة الشاه، وكانوا يقولون: "وفقًا للأمر، فمن الأفضل الإطاعة حتى تزال الفتنة وينمحى الفساد". لكن الآخرين لم يقبلوا، واقترحوا أن يتم النقاش فى لجنة، وقد أصدرت هذه اللجنة قرارًا غير حكيم وهو تفريق الجمعيات وتشتيت النواب ومضيهم إلى دورهم على أن يعودوا فى الغد، لكن لما عُرض هذا الكلام على الأهالى، لم يرتضوا، وقالوا:

"لن نذهب إلى دورنا ولن نترككم".

وهذا دليل على وجود أشخاص لا قيمة لهم فى المجلس، فالرجال من أصحاب الفكر الحقير خافوا على أرواحهم، وكانوا يقولون:

"نحن دومًا مع المظلوم ونطالب بحقوقه الشرعية ولا نرتضى الفتنة والثورة فى أى وقت قط، فلتمضوا الليلة إلى دوركم ونحن كذلك، وإذا ما بقينا سالمين سنعود ثانية".

وكانت خرافة "مظلوم" هذه ذريعة لهم، وما يستحق الثناء أن هؤلاء التافهين كانوا قلة بين الجماهير الحاشدة.

وعلى أية حال فقد صمموا على الصمود وأقاموا الاستعدادات لليل، ولم يستطع محمد على ميرزا أن يحقق بغيته.

انضمام رجال الدين إلى الأوباش:

من ناحية أخرى اندفع الأوباش اليوم إلى دور الحاج الشيخ فضل الله والحاج ميرزا أبى طالب زنجانى والسيد على اليزدى وملا محمد آملى وغيرهم من رجال الدين وأحضروا كلاً منهم كرهًا أو طوعًا إلى ميدان دار المدفعية. وكما نعلم، كان كل من الحاج الشيخ فضل الله والسيد على آقا يتعاونان خفية مع المسيئين، وكان ملا محمد آملى وكثيرون غيره يعادون الحكم النيابى منذ البداية، وكان عدم ذهابهم إلى الميدان للتغطية على ذلك، ومضى الأوباش وأحضروهم. فى نفس اليوم أرسل بهبهانى شخصًا إلى الحاج الشيخ فضل الله واستدعاه إلى المجلس وتحجج الأخير ولم يأت، وأقسم بالقرآن أنه لن يذهب إلى الميدان، ولكن لم يمض طويل زمان حتى جاء الأوباش وحملوه بأنفسهم، وكان محمد على ميرزا ورجال الدين هؤلاء يريدون أن يقولوا إننا لا نملك أمرًا، وإن هؤلاء الناس لا يريدون الحكم النيابى ويستاءون منه. ويقول كاتب الحاج الشيخ فضل الله الذى كتب هذا الحدث إلى ابنه فى النجف:

"إنهم جاءوا إلى منزل جناب حجة الإسلام السيد... وقد أبدى امتناعه قدر الإمكان حتى لا يذهب معهم، ولم يقتنع الأهالى، وحملوه على الأكتاف بكل وسيلة حتى يصلوا به إلى الممر، وبسبب الإزدحام وهجوم الأهالى وهن جناب حجة الإسلام وتوقف وسط الممر لفترة حتى ضاق فحملوه كرهًا إلى ميدان دار المدفعية حيث كان السادة يجتمعون ومعهم آخرون....".

وتحت أيدينا أيضًا رسالة عن الحاج ميرزا أبى طالب أرسلها إلى أخيه فى زنجان يقول فيها ردًا على المنتقدين:

"نعم، كان هناك فى ميدان دار المدفعية – حيث مكثت هناك حوالى الساعة – ما يربو على الألف شخص من المعممين وعلماء طهران المشهورين من أمثال جناب الآخوند ملامحمد آملى، وجناب سلطان العلماء طهرانى، وجناب السيد إبراهيم القزوينى، وجناب الحاج الشيخ عيسى چال ميدانى، وجناب الحاج الشيخ

فضل الله، وجناب السيد على، وجناب السيد مهدى إمام مسجد نوريه، وجناب السيد محمد بن السيد على أكبر، وغيرهم من أمثال جناب السيد على أكبر البروجردى، والآخوند ملامحمد الإمام وأئمة الجماعة والمدرسين والطلاب والسادات وجميعهم من الأشرار والمرتشين والسفهاء، سبحان الذى لا تنقضى عجائب ملكه".

وكما يتضح من هذه الرسالة كان الحاج ميرزا أبو طالب من المسيئين للنيابية، لكنه كان يعتبر من الرجال ذوى الفهم والتفكير الصائب، ويمكن التصديق بأنه لم يمض إلى ميدان دار المدفعية وفق رغبته، لكن لايمكن أن نصدق هذا فى الحاج الشيخ فضل الله وغيره، ففى هذه الأثناء اتضح مفهوم الحكم النيابى، وعلم هؤلاء من رجال الدين أنه لن يكون هناك وفاق بينه وبين نفوذهم، بل بينه وبين المذهب الشيعى، لذا تمنى عدد كبير منهم الإطاحة به من أعماق قلوبهم.

وعلى أية حال فانضمام رجال الدين هؤلاء إلى المسيئين جعل من نفوذهم قيمة أخرى واتخذت الفتنة طابع الصراع بين النيابية والشرعية ثانية، واعتلى السيد محمد اليزدى والسيد أكبر شاه المنبر وكان كل منهما يقول:

"لتفعل الفاحشة، ولتسرق، ولتقتل، ولكن لا تدنو من هذا المجلس، إن الله يغفر الذنوب جميعًا"

وعلت صيحات الأوباش متتالية وهى تقول:

"نحن لا نبغى الحكم النيابى، نحن نبغى دين النبى".

وكان اليهود – الذين اندفعوا إلى منازلهم وأحضروهم إلى الميدان عنوة – يرددون الجملة الأولى معهم وحينما لم يرددوا الجملة الثانية كانوا يضربونهم خلف رءوسهم. وكلما شاهدوا أحدًا يرتدى قبعة صغيرة من الفراء عدوه من المطالبين بالحكم النيابى وقاموا بإيذائه وجردوه مما معه، وزادوا من جرأتهم تدريجيًا، فكانوا يسرقون العباءة والقبعة من كل من يجدونه من المارة ويسلبونه مامعه، واندفعوا إلى مقر الجريدة بأمر من روادهم وقاموا بأعمال السلب والنهب، وأحضروا ما بداخله من صور وأحرقوها وسط الميدان، وعلى هذا النحو أنهوا ذلك اليوم.

وفى ليلة الثلاثاء ظل كلا الجانبين فى مكانه، وكان البنادقة فى المجلس فى ذاك اليوم – كما ذكرنا – كثرة، وقام عدد كبير من الشباب بالحراسة ولم يرتاحوا طوال الليل رغم برودة الطقس. وفى الميدان كان المسيئون يجلسون كذلك فى الخيام، وكان الأوباش يستقرون فى جانب ورجال الدين فى جانب آخر.

ومن غد يوم الثلاثاء ازداد الاحتشاد فى بهارستان وماحوله، فكان صمود المجلس ليومين مما شجع الأهالى على المضى إلى هناك، كما ازداد اليوم عدد البنادق حيث بلغت المئات، بل الآلاف، وحينما حل المساء كان لديهم ألفان وسبعمائة بندقية.

واليوم قام موظفو مكتب البرق وكذلك عمال السكك الحديدية فى المدينة وفى حضرة الشاه عبد العظيم بالإضراب عن العمل وقدموا لمواساة المجلس، لكن احتشام السلطنة أعادهم حتى يستأنفوا أعمالهم، وكانت قوة الأحرار فى ازدياد، لكن المجلس لم يتوقف عن أعماله الفاترة، حيث كتب رسالة اليوم وأرسلوها إلى السفارات والنواب السياسيين بشأن الظلم والمطالبة بالإنصاف وما فعلته حاشية الشاه لحثه على نقض اليمين وطالبوا الدول الأوروبية بالعون المعنوى.

أما من ساءت نواياهم فقد ازدادوا قوة هم كذلك اليوم لانضمام طائفة كبيرة من ورامين – ومعهم الشيخ محمود وراميني – إليهم، وقد أقاموا لهم خيامًا منفصلة. وورد فى صحيفة صور اسرافيل أن أحد رؤسائهم صاح قائلاً:

"نحن نخرب المجلس، ونقدم البسط هناك ليصنعوا منها سروجًا للحمر فى ورامين".

واليوم اعتلى السيد محمد اليزدى وأكبر شاه وغيرهما المنبر وكانوا يكثرون فى ذم الحكم النيابى وتوبيخه. يقول كاتب الحاج الشيخ فضل الله فى رسالته إلى ابنه:

"كانت الناس ترغب غير مرة فى الهجوم على المجلس، وكانت هذه رغبة السيد محمد اليزدى وغيره كذلك، لكن الحاج الشيخ فضل الله لم يكن يرتضى هذا وكان يمنعهم".

ويمكن القول إن هذا الكلام بين صدق وكذب، حقيقة أن السيد محمد وغيره كانوا يريدون تدمير المجلس، وكان الأهالى على استعداد للاندفاع إلى هناك، لكنهم لم يتلقوا الأوامر من محمد على ميرزا، وليس لأن الحاج الشيخ فضل الله هو الذى منع ذلك. فقد حرض محمد على ميرزا على هذه الثورة من جانب، ومن جانب آخر لم يشأ أن يبدو أنه مَنْ وراءها، وهكذا كان يصمد بوجهين، وكان يقال إن سعد الدولة أرسل مدفعين إلى بهارستان ليفرقوا الجمع بقصف المجلس، لكن محمد على ميرزا لم يكن يرتضى هذا. ويمكن القول إنه كان يخشى من الإطاحة بالحكم النيابى ولم يتجرأ فى الإفصاح عن ذلك علانية.

أعمال القتل فى ميدان دار المدفعية:

واليوم أريقت الدماء أيضًا فى ميدان دار المدفعية وكان ميرزا عنايت – ذلك الشاب الزنجانى – يمضى بينهم وينصت كالآخرين إلى مهاترات السيد محمد اليزدى وتم التمثيل بجسده بيد الأوباش وليس معلومًا سبب هذا الحدث، وكان من فى الميدان يقولون:

"لقد أطلق النار فى البداية وتم قتله عقابًا على ذلك، إلا أن المطالبين بالحكم النيابى لم يقبلوا هذا وكانوا يعتبرونه بريئًا مظلومًا."

ويقول كاتب الحاج الشيخ فضل الله:

"فى عصر يوم الحادى عشر اعتلى السيد محمد آقا المنبر وكان ميدان دار المدفعية ممتلئ بالأهالى، وكنت واقفًا أسفل المنبر، وظهر شخص من بين النساء وأخرج مسدسًا صوبه تجاه السيد الذى كان يعتلى المنبر وأمسكوا بيده ورغم ذلك أطلق ثلاث رصاصات تجاه السيد لكنها لم تصبه، ولم يمض طويل زمان حتى مزق الأهالى جسد هذا الشخص بالمدى وعلقوه فوق شجرة فى ميدان التدريب وأثناء انشغال الأهالى بهذا الشخص تعقبوا شخصًا آخر كان فى حوزته سلاح وألقوا به فى حجرة الحاج السيد على آقا وتعقبه الأهالى ولم يسمح لهم الحاج السيد

على بإيذائه. وحدثت اليوم مصيبة كبرى حيث قالوا إن شخصًا آخر قد قُتل، ولكن لم يعلم صدق ذلك من كذبه. وعلى أية حال أبلغوا هذا الخبر إلى حضرة حجة الإسلام، فأرسلهم كى ينقلوا جثة المقتول من أعلى الشجرة ويدفنوه".

ويقول الحاج ميرزا أبو طالب كذلك فى رسالته:

"أما ما كتب بشأن قتل النفس (فى إحدى الصحف) فلم أكن متواجدًا فى ذلك اليوم، فقد أطلق شخصان من الجمع طلقات الرصاص فأصابت إحداها جنديًا ويقال إن كليهما – أى القاتل والمقتول – قد قُتلا، وثمة شخص آخر كان يجلس بين النساء واضعًا على رأسه النقاب أطلق الرصاص تجاه السيد على ولم يصبه، وأمسكت النساء به وقتله الأهالى وكنت فى منزل جناب الآخوند ملا محمد وبعد أن توضأت سمعت صوت الطلقتين وأعقب ذلك قصف بالبنادق وكلما حاولت إرسال أحد الأشخاص لم يوافق من الخوف، وعلت الصيحات وبعد ذلك عُلم أنهم قتلوا الجانى".

هذه هى كتاباتهم، لكن لايمكن تصديقها بسهولة خاصة مع وجود عدم التوافق بين الكتابتين، من ناحية أخرى – كما سنرى – عُلم فى التحقيق الذى قام به صنيع حضرت وأتباعه أن الباعث على مقتل ميرزا عنايت لم يكن إلا سوء ظن الأوباش، فقد ورد فى صحيفة الحبل المتين:

"كان مع ميرزا عنايت سبعمائة طومان أخرجها، وهو بين الأوباش، من جيبه ووضعها فى حذائه، وقد رأوا ذلك، كما كان فى حوزته ساعة وسلسلة من الذهب وهذا ما حرض الأوباش على قتله".

وتقول كذلك:

"إنهم هجموا عليه فى البداية وأصابوه بعدة رصاصات ثم أصابوه بعدة طعنات بالمُدى ولما سقط صريعًا تقدم ابن النقيب ونحى الآخرين جانبًا، وقال: أيها المسلمون، فلتكونوا شهداء أمام جدى يوم القيامة على أننى أول شخص فى طريق الدين أفقأ عين طالبى الحكم النيابى. قال هذا وفقأ عين ذلك الشاب بالسكين ثم

علقوه أعلى شجرة حتى يصوب الأوباش عليه بالحراب".

وفى هذا اليوم أصابوا كذلك على آقا الصراف الذى كان طريح الفراش منذ فترة، كما تعقبوا اسماعيل شاگرد الدرزى حتى لاله زار وأصابوه فى ظهره. وفى عصر ذلك اليوم توالت برقيات المدن، وكما سنذكر من بعد كانت هذه البرقيات باعثًا لخشية محمد على ميرزا أكثر من أى شىء آخر.

وفى يوم الأربعاء كان كلا الجانبين فى أماكنهما، وقدمت اليوم جمعية عبد العظيم مع جماعة لمساعدة المجلس، وطبقًا لما ورد فى صحيفة الحبل المتين:

"بلغ تعدادهم ما يقرب من ثلاثة أو أربعة آلاف من المسلمين".

كما قدم كذلك البنادقة من شميران وشهريار وغيرهما من المناطق المحيطة بطهران، وكانت البرقيات تصل من المدن على التوالى، واضطر محمد على ميرزا إلى طلب الصلح لذا اختار اليوم نظام السلطنة مافى – وكان كهلاً – لرئاسة الوزراء وتشكيل الحكومة، ولما تم اختيار الوزراء حثهم الشاه ونظام السلطنة كى يتباحثوا مع المجلس بشأن الصلح، ولما لم يكف المجلس – رغم كل هذه الغلبة التى نالها فى تلك الفترة – عن أسلوبه السئ، وكذلك كان يطالب بالصلح وتحقيق الهدوء فقد وجهوا بالستة أشخاص – الذين اختيروا من قبل – إلى البلاط حتى يبدأوا التباحث مع الوزراء وكان للمجلس عدة مطالب، هى:

١- طرد سعد الدولة من طهران.

٢- عزل الأمير بهادر من منصب المراقب العام.

٣- معاقبة الأوباش الذين قدموا إلى المجلس والذين أفسدوا الأمور فى دار المدفعية.

٤- تشكيل قوة من مائتى جندى لحراسة المجلس (من أولئك الشباب الذين كانوا يقومون بحراسة المجلس فى تلك الأيام).

٥- عودة علاء الدولة ومعين الدولة إلى طهران.

وبدأ هذا النقاش، لكن الوضع ظل كما هو عليه فى ميدان دار المدفعية إلا أنهم لم يكونوا يقومون بأعمالهم البذيئة السابقة باستثناء الأوباش. وفى يوم الخميس خلعوا الخيام وفرقوا الأهالى ولجأ رجال الدين والأوباش إلى البلاط لكى يقضوا ليلة الجمعة هناك لكنهم عادوا ثانية يوم الجمعة وبسطعوا الخيام فى الميدان وجمعوا جماعة حولهم والباعث على هذا الذهاب وتلك العودة هو وصول برقيات تبريز إلى جند آذربايجان وإعادتهم عن تأييدهم للأعداء (كما سنرى فى هذه البرقيات). من ناحية أخرى فقد محمد على ميرزا قوة المقاومة وكان يبادر بالصلح، لذا رأى رجال الدين والأوباش أن وجودهم فى الميدان مما يستدعى الخشية فلجأوا إلى البلاط، ولكن من ناحية أخرى رأى الوزراء أن وجودهم أثناء التباحث بشأن الصلح غير ملائم ولم يرتضوا بقاءهم هناك واضطروا إلى العودة ثانية، وسوف نرى بأية فضائح مضوا من هناك مرة أخرى.

أحد الأعمال المهمة الصادرة من جمعية تبريز:

فى يوم الأحد، حيث نشبت الفتنة فى طهران، أمر محمد على ميرزا أن يخبروا المدن بأنه حينما تنحل الحكومة فكل من لديه كلام من الحكام عليه أن يبلغه للشاه مباشرة، كما أمر بألا تبلغ مكاتب البرق أية مدينة عما حدث من فتن واضطرابات، ويقال إنه فى نفس اليوم أرسل كل من السيد بهبهانى والسيد طباطبائى البرقية القصيرة التالية إلى مكتب البرق حتى ترسل إلى جميع المدن:

"إن المفسدين يقومون بالمخالفات والدولة بصدد نقض العهد".

كما أرسل نواب آذربايجان البرقية التالية:

"إن جمعية تبريز الوطنية ومجلس النواب والنيابية فى خطر، وإن الأمير بهادر جنگ وسعد الدولة يقومان بأعمال القتل ويطلبان الحل اللازم".

إلا أن هاتين البرقيتين لم تصلا، وواقع الحال إنه لما كان معظم الموظفين في مكتب البرق من مؤيدى النيابية أخبروا المدن خفية بما وقع، وعلمت قزوين بداية بحقيقة ما حدث ومن بعدها الرشت ثم تبريز وأبلغوا كذلك بقية المدن. وفي جميع هذه المدن قام المطالبون بالحكم النيابي بالجلبة والضجة، وأرسلوا برقيات المواساة وعرضوا في كثير منها إرسال المساعدات إلى طهران، إلا أن جمعية تبريز قامت بعمل حكيم لحل هذه المشكلة وذلك لمساعدة رؤساء المجاهدين حيث عزلت محمد على ميرزا من الملك بذريعة نقضه اليمين، وأطلعت طهران بهذا في الحال، كما أطلعت محمد على ميرزا نفسه والمجلس النيابي. من ناحية أخرى، جلس رؤساء الحرية في مكتب البرق وأبرقوا إلى الرشت وقزوين واصفهان ويزد وشيراز ومشهد وخوى وأرومي وغيرها من المدن، وطالبوا أن يتضامنوا معهم في هذا وأن يضموا أصواتهم إليهم، وأدى هذا الأمر إلى نتيجة سريعة وعظيمة لأنهم قبلوا هذه الرغبة في جميع المدن وأرسلوا جميعًا برقيات الاستياء من ملك محمد على ميرزا إليه هو شخصيًا وإلى المجلس النيابي، وكانوا يطلبون من المجلس اختيار خليفة له.

وهذه البرقيات التي ظلت تتوالى منذ يوم الثلاثاء قد أثرت تأثيرًا شديدًا في محمد على ميرزا، خاصة برقيات الاستياء من ملكه حيث زادت من مخاوفه. وكما ذكرنا، أنه شكل نتيجة هذه البرقيات حكومة يوم الأربعاء، وحث الوزراء على التباحث مع المجلس والوساطة، ولما كانت جمعية تبريز تبدى ضغطها وكانت البرقيات تتوالى كذلك، دخل محمد على ميرزا من باب ضعيف واستعان بنواب روسيا وانجلترا وحثهم على الوساطة.

وما زاد من مخاوف محمد على ميرزا أن ظل السلطان كان يأمل في العرش منذ فترة، وكما ورد في كتاب "آبي"، كان يتباحث في هذا الشأن مع نواب روسيا وانجلترا وكان محمد على ميرزا يخشى من أن يتقدم في هذه الأثناء ويصل إلى الملك بتعاونه مع رواد الحرية، في الوقت الذي لم يكن الأحرار فيه راضين عن ظل السلطان، والظن بأنهم كانوا يرتضون ملكه كان ضئيلاً، وكان نواب

روسيا وانجلترا يظنون أن ثمة ارتباطًا بين ظل السلطان وهذه الأحداث، وهذا ما لم يكن، ولم يكن لذلك الظن أى أساس من الصحة.

وعلى أية حال كان عمل جمعية تبريز فى محله للغاية، ولم تكتف الجمعية بذلك وألقت بلطمة أخرى على رقبة الاستبداد، حيث أرسلت برقية إلى جميع رؤساء آذربايجان – وكان تحت أيديهم الجند والفرسان فى طهران، وكان ميل محمد على ميرزا والأمير بهادر إليهم كثيرًا – وأنبأوهم بأنهم إذا ما فتحوا أيديهم على المجلس النيابى سوف يدمرون منازلهم فى آذربايجان ويقبضون على نسائهم. وكانت هذه البرقية فى محلها، وكما رأينا أنه نتيجة لذلك خشى رجال الدين والأوباش من بقائهم فى ميدان دار المدفعية وأزالوا الخيام ولجأوا إلى البلاط، ولكن لما كان الخوف يتملك محمد على ميرزا لم يستطع المحافظة عليهم فى البلاط، وذكرنا أنهم عادوا ثانية إلى البلاط. والآن نورد جزءًا من هذه البرقيات:

"من قزوين إلى تبريز (الثالث عشر من ذى القعدة)– الحضور المبارك فى جمعية مجاهدى آذربايجان المبجلة أكثر الله من أمثالهم، بخطأ التفتيش (؟) وبتحريض الحكومة تم الاستيلاء على ميدان دار المدفعية وتزلزل بنيان النيابية وتوقفت كل من طهران وقزوين عن العمل كما توقف مكتب البرق فى طهران، وصارت أرواح النواب عرضه للتهلكة، واستقر المجاهدون للتضحية حتى آخر قطرة من دمائهم، والأمر يخرج عن السيطرة ونحن فى انتظار الرد".

(جمعية مجاهدى قزوين)

"من الرشت إلى تبريز – الحضور الأعضاء المبجلين لجمعية "نصرت" بآذربايجان شيد الله أركانها، إن أركان دار الشورى فى انهيار، وليس فى الإمكان حضور نواب طهران فى مكتب البرق، وتتم إجراءات بالفعل والقول من قبل الحكومة، ووقع الإضراب العام ويلزم للإجراءات المجيدة ثبات القدم".

(الاجتماعيون العاميون)

"من طهران إلى تبريز – إن أساس النيابية ينهار ويتعرض مجلس الشورى الوطنى لهجمات المستبدين، وقد اتخذ خمسة آلاف من البنادقة من فدائى الشعب

أسطح المجلس مقرًا لهم، وتم الإضراب العام فى إدارات الدولة والأسواق، وصارت طهران كيوم الحشر حيث يأتيها من كل الأطراف على التوالى الأهالى المؤيدون، وصارت الحياة فى تدهور منذ خمسة أيام، وسوف نطلعكم على بقية الموضوع".

(تقى زاده)

"من تبريز إلى جميع المدن – إن الشاه الذى وافق على قانون الحكم النيابى وأقسم عليه ينقض العهد الآن، وبسبب هذه الخيانة يقوم أهالى آذربايجان بخلعه من السلطنة، وأطلعنا القناصل والنجف، ويجب عليكم أيضًا خلعه وإطلاع السفارات بذلك".

(جمعية تبريز الوطنية)

"من الرشت إلى جميع المدن – إن نواب دار الشورى يتعرضون للأخطار، لذا فإن أهالى جيلان على وشك التحرك بكل قواهم إلى طهران، ولتتحركوا أنتم كذلك، ولتخلصوا النواب من الأخطار".

(جمعية الرشت الوطنية)

"من تبريز إلى طهران – جناب السيد تقي زاده، لقد تم إعداد ألف مجاهد وفارس مسلح على الفور بجميع الاستعدادات للتوجه وإبداء التضحيات بشكل لا حصر له وهم فى انتظار الإذن.

(مؤيدو دار الشورى الكبرى)

"من تبريز إلى طهران – نعرض على كافة المسئولين عند الجند والمدفعية والفرسان الغيورين فى آذربايجان: أيها المواطنون، يا إخوة الإسلام، لقد أقسم الجميع قسمًا غليظًا منذ عامين على أن نخطو خطوة نحو النيابية، وقد ذهبتم واسترحتم لشهور، ووصل الخبر البارحة أن عددًا من المستبدين الذين لا يعرفون الله قد التفوا حول الشاه وجعلوكم أداة لهم كى تحملوا البنادق وتقتلوا المسلمين، فلتعلموا، أولاً: إذا ما لحقت لطمة بالنيابية فما هى إلا شهور ونرى آذربايجان

مفككة. ثانيا: سيتم قتل ذويكم وأطفالكم. ثالثًا: لن تكون لكم وجهة إلى المنزل والحياة. إن مساعدتكم للمجلس كمساعدة أولاد فاطمة سلام الله عليهم، ومعارضتكم له كمعارضة أولاد معاوية، فلكم الاختيار، فمن أجل اثنين أو ثلاثة ممن التفوا حول صاحب الجلالة تطلقون البنادق على المسلمين وتخربون دياركم"؟!

(جمعية مجاهدى آذربايجان)

"من الرشت إلى تبريز – الجمعية الموقرة، إن ما صرحتم به بأن برقية جمعية السيد محمد إبراهيم قفقايچى – أحد أحرار تبريز – ليست مطابقة لبرقية أهالى آذربايجان وأعمالهم، فتلك البرقية الأولى التى تم إرسالها كانت عديدة ويتم إدراج صورة آخر برقية عينًا إلى المقام الرفيع للمجلس المقدس، والإجراءات المحيرة التى شوهدت من قبل الشاه تتعارض وقواعد النيابية وبنود الدستور فى الحقوق الملكية، ومنذ ثلاثة أيام وهم يسكتون الأهالى بإزهاق آلاف الأرواح، وتم إرسال برقيتين إلى الشاه على الفور ولم يصل الرد حتى الآن، وحضر كافة الأهالى إلى مكتب البرق دفعة واحدة وأقسموا على كلمة واحدة وأبدوا جلبة لم تشاهد حتى الآن فى جيلان وطلبوا الانفصال عن النواب وأنا أعرض أنه بموجب قانون النيابية – الذى وقع وأقسم محمد على ميرزا نفسه عليه ويخالفه الآن – يجب ألا يظل على عرش السلطنة، ونحن الشعب نعلن خلعه من السلطة ونطالب مجلس الشورى أن يعين ملكًا على الفور وأن يزف لنا بشرى ذلك برقيًا".

(جمعية جيلان الوطنية)

"من تبريز إلى طهران – إن جماعة جند الفرقة الخامسة من شقاقى وسائر إخوتى متحدون معنا منذ ثلاثين عامًا، وقد تناولنا معًا الخبز والملح، نحن المسلمين نكتب إليكم من باب الأخوة، لقد أخبرت جمعية تبريز المقدسة طهران وأصحاب المقام الرفيع بالأمس بأن ألف مجاهد قد أخذونى البارحة من بيتى ووجهوا بى إلى منطقة باسمنج ثم توجهوا إلى منازلكم كى أقدم اسماء الجند المقيمين فى بلاط

طهران وأذكرهم واحدًا واحدًا، وقد أضرموا النيران فى نسائهم وأطفالهم، ويقولون إن الجند قد تعدوا على المجلس والشعب وتعرضوا بالأذى لأطفالكم وذويكم، فلترجع على الفور حتى يخبروا تبريز برقيًا بتحركاتكم، ولتصدر الأوامر إلى المجاهدين كى يعيدونى، وإلا فأنا أسير، ويجب أن أقدم اسماء جميع جند آذربايجان وينتقم المجاهدون، وقد تحرك اليوم ألف مجاهد تجاه مدينة اهر للقضاء على المجاهدين هناك بالاتفاق مع جمعية المدينة وللاندفاع نحو منازل الفرسان المنتمين إلى قراجه داغ والأمير بهادر، وهم ينتوون الإغارة على منزل الحاج ميرزا رفيع خان معاون الشاه لقتله، وقد أضرموا النيران فى منزله، كما قتلوا أعوان مفاخر الملك داروغه، ولتعلموا واجبكم أنتم كذلك".

(إقبال لشكر)

ولكى تتضح النتيجة التى ترتبت على هذه البرقيات وكيفية تأثيرها على الشاه وحاشيته، نورد فى هذا المقام بعض الجمل التى وردت فى كتاب " آبى " الإنجليز، فهو يشير إلى أحداث يوم الأحد الثلاثين من شهر آذر بقوله:

"فى ذلك الوقت ازداد الأمر خطورة، وأرسلت جمعية تبريز الظافرة برغبتها – ألا وهى الإطاحة بالشاه – إلى كل الأرجاء، وثارت المدن الكبرى التى كانت تمتد فيها جذور المطالبة بالنظام النيابى، وتوالت البرقيات من مناطق شيراز وإصفهان وكرمان وقزوين ومشهد والرشت، وذكروا جميعهم: إننا مستعدون بتوجيه مجموعة من المحاربين إلى طهران".

ويشير إلى أحداث يوم الثلاثاء الثانى من شهر دى بقوله:

"لقد علم المطالبون بالنظام النيابى فى عصر ذلك اليوم أن الغلبة صارت لهم، ورغبوا فى مزيد من السيطرة، فهددوا حرس الشاه بأنهم ما لم يكفوا عن تأييد الشاه سيتم أسر نسائهم وأطفالهم، كما هددوا لواء القوزاق على النحو السابق، وتحدثوا علانية عن قتل الشاه، واستاء رجال البلاط وتملكهم الخوف، كما خشى

الشاه على حياته خاصة بعد أن بدأ البعض من حاشيته والمقربين منه فى الابتعاد عنه، ودار الحديث فى كل ناحية بأن الشاه لن يعيش أكثر من أسبوع".

ويشير إلى أحداث يوم الأربعاء الثالث من شهر دى، بقوله:

"لم يخرج الشاه من قصر الحريم، وفى المرتين اللتين طلب فيهما وزير هولندا المفوض التصريح بلقائه كى يتحدث معه بشأن اعتصام سعد الدولة، لم يأذن الشاه له وتحجج بمرضه".

ظفر المطالبين بالحرية وانتهاء الفتنة:

كما ذكرنا، كان الوزراء يتباحثون حول الصلح لاختيار نواب المجلس، وقد وهن الشاه لدرجة أنه كان يوافق على كل رغبات المجلس دون أية استفسارات، وكان يطلب فقط الإبقاء على الأمير بهادر تحت الحراسة، وورد فى كتاب "آبى" أن ثمة شيئًا آخر كان يبغيه وهو طرد بعض النواب من المجلس، لكنه خشى من التصريح بذلك.

وبلغ حد الخوف لديه إلى خشيته من رجال الدين وأوباش ميدان المدفعية وأرسل يوم السبت كى يقتلعوا الخيام ثانية. وأولئك الذين افتضح أمرهم كانوا يخجلون من المضى إلى ديارهم، وقاموا بتأجير عدة منازل بالقرب من ميدان دار المدفعية فى محلة إرك وتوجهوا إليها.

لقد ألقى الشاه بالدرع واستسلم دفعة واحدة، لكن لما كان رؤساء الحرية فى تبريز لا يزالون يقيمون فى مكتب البرق يطالبون المجلس بالرد على رغبتهم فى الإطاحة بالشاه، ومن ناحية أخرى كانت برقيات تبريز تؤثر بشدة فى قادة آذربايجان، وكانوا يعلنون عن استيائهم من تأييد الشاه، ورغم كل مباحثات الصلح، إلا أن جمعيات طهران لم تكن حتى ذاك الوقت قد تفرقت من مدرسة السپهسالار، ولم تُفتح الأسواق، وكان الأهالى فى انتظار النتيجة الأخيرة.

ووصلت صيحات أهالى تبريز إلى طهران، ودار الحديث فى كل مكان

حول خلع الشاه، وتملك الاضطراب من محمد على ميرزا وسعى لحماية نفسه. وكما ورد فى كتاب آبى، تدخل النواب السياسيون لكل من روسيا وإنجلترا فى تلك الأثناء، وكانوا يصرون على بقائه فى سدة ا لحكم (حتى لا تجتث جذور الفتنة من إيران) وكتبوا رسالة فى هذا الخصوص بمعاونة مشير الدولة وأرسلوها إلى رئيس المجلس، ونتيجة لهذه الأعمال تمت بعض المباحثات فى الخفاء، وسوف نرى إنه فى جلسة يوم السبت التاسع والعشرين من شهر آذر (١٥ ذى القعدة) حيث كان المجلس يتباحث حول نقض الشاه للقوانين، وأبدى بعض النواب حدة فى حديثهم، قام تقى زاده معترضًا، وقال: "لاجدوى من هذه المباحثات التى تدور... لقد تم اتخاذ القرار فى جلسة خاصة وسوف يُخبر الجميع به".

وعُلم بعد ذلك فى جلسة اليوم التالى أن المباحثات قد انتهت، وأن الشاه وكذلك نواب المجلس قد أقسموا على القرآن ووقعوا عليه، وبعد هذا الحديث حضر النواب الجدد إلى المجلس ومعهم نسخة من القرآن الذى أقسم الشاه عليه ووقع خلفه، وفى البداية تُلى ذلك القسم، ثم تُلى قسم النواب الذى كان أيضًا خلف القرآن. هذا ونورد فى هذا المقام هذين القسمين:

قسم الشاه:

"نظرًا لسوء ظن الأهالى بسبب تلك الثورة التى وقعت خلال هذه الأيام فى طهران وفى سائر ولايات إيران بأننا – لا سمح الله – نعارض الدستور وننقضه، لذا فمن أجل إزالة سوء الظن هذا، ومن أجل اطمئنان خواطر عامة الشعب، نقسم على هذا المصحف الشريف أننا ندافع ونرعى بحق أساس النظام النيابى والدساتير جميعها، ولن نتغافل قط عن تنفيذها، وكل من يتصرف بما يعارض النظام النيابى سوف نوقع عليه أشد العقاب، وأينما بدر منا أى نقض للعهد أو معارضة سنكون مسئولين أمام الله وفقًا للعهد والشرط والقسم الذى أخذناه من نواب الشعب. ليلة السابع عشر من ذى القعدة عام ١٣٢٥ هـــق".

قسم النواب:

"فى ذلك الموقف، وبسبب إزالة سوء الظن من قبل الأهالى، ونظرًا لظهور تلك الثورات، نقسم نحن عبيد صاحب الجلالة ملك الملوك محمد على شاه القاجارى خلد الله ملكه على كلام الله المجيد إننا نحن نواب الشعب الموقعين أدناه لن نخون قط أساس سلطنة صاحب الجلالة الملك المقدس طالما أنه كان مدافعًا عن الدستور وحدود النظام النيابى وراعيًا ومنفذًا لهما، وأننا سنخدم حدود ملكنا المتبوع العادل وحقوقه، وأينما نقضنا ذلك العهد والقسم فنحن مسئولون أمام الله والرسول، السابع عشر من ذى القعدة".

وكما ذكرنا كان حلف اليمين هذا فى الجلسة الأخيرة ليوم الأحد السادس عشر من ذى القعدة وكان قد أعد من قبل وتلى فى المجلس، وتدوين التاريخ على كليهما بأنه السابع عشر من ذى القعدة يحوى سرًا ما. فقد ورد فى كتاب "آبى" أنهم اقترحوا أن يأتى الشاه بنفسه إلى المجلس ويؤدى اليمين هناك، ولما كانوا يعتقدون أن قدومه وإنهاء تلك الأعمال سيمتد حتى ما بعد العشاء (مثلما كانت تمتد جلسات المجلس منذ بداية اليوم وحتى ما بعد العشاء)، وضعوا تاريخ حلف الأيمان ليلة السابع عشر لكن الشاه خشى من القدوم إلى المجلس وامتنع عن الحضور لذا اكتفوا بإحضار مذكرة القسم فقط.

وهذا دليل آخر على عدم تقدير المجلس، فبدلاً من أن يستفيد من الحدث ويعزل محمد على ميرزا من العرش ويقتلع جذور الفتنة ويكف من ناحية أخرى يد الأجانب عن البلاد صار أداة فى أيديهم، والأسوأ من هذا أنه قام بخداع الأحرار ونفذ هذه الأعمال من وراء الستار.

وعلى أية حال فبعد تلاوة مذكرات اليمين تم تقديم الوزراء الجدد كالتالى:

نظام السلطنة رئيس الوزراء ووزير المالية، آصف الدولة وزير الداخلية، الأمير ظفر السلطنة وزير الحربية، قائم مقام وزير التجارة، مشير الدولة وزير

الخارجية، صنيع الدولة وزير العلوم والمنافع العامة ومخبر السلطنة وزير العدل.

وبعد تقديمهم تحدث النواب فى أشياء لا طائل من ورائها، فأحدهم يمتدح "الشعب" والآخر يمتدح "الحكومة" وثالث يقرأ "الحمد لله الذى هدانا لهذا..." وبهذا الحديث أنهى المجلس أعماله، والعجيب أنه لم يرد بينهم قط التذكير بحنكة أحرار تبريز أو ذكاء المطالبين بالحكم النيابى فى قزوين والرشت وفطنتهم. وفى نفس الليلة أو من غدها أرسل ذلك المجلس البرقية القصيرة التالية إلى المدن:

"تشكر للبلاد غيرتها النبيلة شكرًا جزيلاً، لقد زالت أسباب الخلاف، وتجددت نوايا المجلس النيابى الوطنى وتم ذلك وفق كلام الله المجيد، ولذلك أصبح كل شخص مرفه الحال مشغولا فى عمله كما كان شأنه سابقًا".

(دار الشورى الكبرى)

كما أرسل مشير الدولة وزير الخارجية البرقية التالية إلى نواب إيران فى الدول الأجنبية:

"إن الشقاق الذى دب بين الشعب والحكومة قد زال تمامًا بحمد الله حيث تعهد صاحب الجلالة والمجلس النيابى الوطنى بالقرآن المجيد على حفظ أساس الحكم النيابى، والحكومة الجديدة مهتمة بالإصلاح ومشغولة به".

(مشير الدولة)

صمود تبريز وعدم جدواه:

كما ذكرنا، كان رؤساء الحرية فى تبريز يجلسون فى مكتب البريد يوميًا ويطلبون الرد من طهران، ولما كان الصمود يبدو من خلال حديثهم كان عدد كبير من المجاهدين يستعدون للمضى إلى طهران إذا ما استدعى الأمر، وكانوا يوم الاثنين كذلك فى مكتب البرق حيث وصلت برقية الحاج ميرزا آقا فرشى إلى أحد

أتباعه وكان يطلعه فيها على حدث الصلح هذا وانتهاء أمر الفتنة، ثم جاءت برقية المجلس النيابى (وكانت أطول وأفصح مما بعثوا بها إلى المدن الأخرى) وكانت توضح ما حدث بعد تقديم الثناء، ولم يرض أهالى تبريز عما ورد بها، وقال البعض:

"من الأفضل أن نستدعى النواب إلى مكتب البرق ونتناقش معهم". هذا ونورد البرقيات التى تم تبادلها فيما بينهم:

- من تبريز إلى طهران:

"السادة نواب آذربايجان المبجلون ضاعف الله تعالى من قدرتهم، لقد حضر اثنان من النواب المبجلين مبكرًا إلى مكتب البرق ومعهما رسالة مشفرة ولن يوقفهم أكثر من عشر دقائق...".

(جمعية آذربايجان الإقليمية)

- رد طهران:

"بعد عرض السلام، نحن فى انتظار الأوامر".

(مستشار الدولة، حاجى ميرزا، آقا إبراهيم)

- رد تبريز:

"بعد تقديم السلام، لقد وصلت برقية مجلس الشورى الوطنى والرسالة المشفرة لصاحب الجلالة، ورغبنا التباحث فى كيفية الأوضاع الراهنة وكيفية استتباب الأمن والتعرف على الأوضاع، فالشعب يبدى الصمود لكلمة قالوها، ولتقولوا كلمة أو كلمتين عن طريق الشفرة حتى يُعلم أنكم صاحب الجلالة".

(جمعية آذربايجان الإقليمية)

- رد طهران:

"الوضع الراهن هو أن الوزراء أحضروا القرآن الذى ختم الشاه عليه إلى المجلس البارحة، وتم وضع الشرح الذى دونه المجلس فى الحاشية خلف القرآن

وختموا عليه، والبنود المشروطة هى: رعاية الدستور وتنفيذه بشكل كامل، وإدارة جميع كتائب الجيش فى وزارة الحربية، ونفى سعد الدولة، وعدم تدخل الأمير بهادر فى المهام الحكومية، ومعاقبة الأشرار ومن يحرضونهم، وإنشاء لجنة (؟) خاصة بالمجلس، وإعادة علاء الدولة ومعين الدولة - اللذين تم طردهما - وتم وضع هذه البنود بناء على الملاحظات التى أبداها العقلاء، وضمنا ثمة مطلب آخر وهو أن جماعة الأشرار قد تفرقت بالأمس، واجتمع المشديون فى إحدى المناطق واستقروا خلف أحد الاستحكامات واستقر الأهالى فى فناء داخل إرك وتقرر أن تفتح الأسواق، إلا أن الأهالى لم يتفرقوا وطالبوا بتنفيذ هذه البنود، وحضر نواب عن السبعين جمعية الموجودة فى طهران فى مسجد السپهسالار، وانشغل السادة وحجج الإسلام والنواب فى المجلس بتهيئة أسباب أمن الأهالى، وتقرر فى هذين اليومين أن ينعقد المجلس رسميًا فى البلاط فى حضور السفراء، ويتم أداء اليمين مجددًا بشكل رسمى".

(الحاج ميرزا آقا إبراهيم ومستشار الدولة)

- رد تبريز:

"نحن نقع بين المحظورين بهذا التفصيل الذى أرسلتموه برقيًا، وفيما يتصل بأن الشعب اتفق على الصمود لتنفيذ كلام آخر فهم لن يكفوا تحت أى عذر، لذا فأنتم متعذرون بالمحظورات ونحن لا نعلم أية مهمة لنا".

(جمعية آذربايجان الإقليمية)

- رد طهران:

"نحن فى غاية الامتنان والأمل من حس نوابكم الغيور، ولكن اعتمادًا على رضاهم وثقتهم فى تضحيات هؤلاء العباد وحسن خدماتهم نحن نطلب منهم جميعًا ألا يوقعوا الخلل فى فكرنا وفكركم بالسليقة والعقائد المختلفة، فالمجلس المقدس حافظ لحقوق إيران بأكملها، وحين يتم القيام بهذه الوظيفة المقدسة الثقيلة يتم وضع كل شىء فى حيز التنفيذ ويعلم عامة الشعب البصير أن الصلاح فى نوابه،

ومقاومة آحاد الأمة حتى اليوم وأوامر المجلس المقدس بلغت حد الكمال وصارت باعثًا لحيرة الشعوب وغبطتها، ولا شك أنهم يرعون هذا الأسلوب المقبول فى هذا الوقت وسوف يتم وقاية دار الشورى وعظمتها بهذا الأسلوب الصحيح، وتم السماح لنا فتوجهنا إلى المجلس حيث لا تجب الغفلة فى مثل هذا الموقف الدقيق فى الوقت الراهن، وبمشيئة الله سيتم مراعاة ما فيه صلاح الأمة بتوجيهات حضرة إمام العصر عجل الله فرجه، وسوف نعرض تباعًا نتائج الإجراءات القادمة".

(مستشار الدولة، حاجى ميرزا، آقا إبراهيم)

وكان هذا رد طهران الأخير، وأولئك الذين انخدعوا يخدعون الآخرين على هذا النحو. ومستشار الدولة على قيد الحياة الآن لكنه لم يعلم بعد خمسة وثلاثين عامًا أن ثمة خدعًا قد انطلت عليه فى ذاك اليوم، ولم يعلم أى خدعٍ خدع بها الآخرين، وكان جزاء مثل هذا المجلس وأولئك النواب أنهم أدركوا ذلك بعد عدة شهور وتفرقوا عن بعضهم بشكل مخزٍ.

نعم، فى نفس اليوم – يوم الاثنين – كان ينبغى على سعد الدولة الخروج من طهران، فخرج من البلاط واتجه إلى سفارة هولندا واعتصم هناك. واستدعت الحاجة فى ذلك اليوم إلى فتح الأسواق، ولكن لما شوهد آنذاك شغب بسيط مرة أخرى من قبل الأوباش لم يفتح الأهالى الأسواق، لكنهم فتحوها من غد ذلك اليوم ومضى السيد بهبهانى إلى الجموع التى كانت فى مدرسة السپهسالار وأمرهم بالتفرق. ومن غد يوم الأربعاء وصل ما يقرب من سبعمائة فارس مدججين بالأسلحة والبنادق من منطقة ساوة لمساندة المجلس النيابى[1] ورغبت طائفة المجاهدين فى قزوين فى الوصول يوم الخميس.

وكما ذكرنا، تغلغلت المطالبة بالحرية فى مدينة قزوين وظهرت من هناك نهضة وحركة ذات قيمة، وفى هذا الحدث قاموا كذلك بعمل جليل وهو أن ميرزا حسن – رئيس المجاهدين – اتجه إلى طهران لمساندة المجلس النيابى ومعه مائة

---

(١) ورد هذا فقط فى صحيفة "نداى وطن" ولم يرد شىء من هذا فى جريدتى "الحبل المتين" و"المجلس".

من المجاهدين، وكان يقال إن هؤلاء الرواد إذا ما أخذوا الإذن من المجلس النيابى ستصل إليهم جماعات أخرى. هذا وقد وصل ميرزا حسن بالأمس، وحضر فرسانه اليوم، وقامت جمعيات طهران باستقبالهم ووقفوا أمامهم بالعدد والآلات، ومضوا فى الشوارع بكل تبجيل ووصلوا إلى بهارستان، وكان المجلس منعقدًا وحياهم أعضاء المجلس لكنهم أذنوا لهم بالعودة إلى قزوين بحجة أنهم يقومون بالصلح، ولم تعد هناك حاجة إلى تواجدهم فى طهران.

وهذا نموذج على حماسة الأهالى، ولكن مما يؤسف له كانت القيادة التى ألقت بهذه الحماسات فى طريق جيد واستفادت منها جد قليلة ولم يستطيعوا فعل شىء إزاء خبث بعض الوزراء ونواب المجلس. وخلاصة الحديث أن المجلس لم يقدر هذا الحدث جيدًا.

انتهاء أمر رجال الدين:

ما كان يستدعى الخزى فى هذا الموقف أكثر من أى شىء آخر هو موقف رجال الدين، فقد تعاونوا مع البلاط فى العداء للحكم النيابى وجلسوا مع الأوباش القبداء. ولما اضطر محمد على ميرزا لعقد الصلح مع المجلس جعلهم تحت موطئه وصاروا عرضة لضرباته. وكما أسلفنا، أنهم اقتلعوا الخيام فى يوم الخميس ولجأوا إلى البلاط، لكنهم عادوا إلى الميدان ثانية من الغد وظلوا هناك قرابة الليلتين حتى يقيموا الخيام ثانية بأمر الشاه، واضطروا إلى البقاء، واستأجروا منازل فى إرك وظلوا هناك عدة أيام، وخدعهم محمد على ميرزا بقوله:

"لقد اقترحنا أن يأتى مبعوثون من المجلس للجلوس معكم لتغيير الأوضاع إلى الأفضل".

ولكن لما كان هذا الاقتراح موجودًا فى اتفاقية الصلح فقد انفصلوا عن بعضهم البعض وعاقبوا الأوباش، واضطر محمد على ميرزا لأن يبدى استياءه

منهم دفعة واحدة، لذا خرجوا فجأة من إرك يوم الخميس الرابع من شهر ذى (٢٠ ذى القعدة) واتجهوا إلى مدرسة مروى ودخل الجميع هناك واستقروا فى الحجرات التى خلت من الطلاب ووضعوا منبرًا هناك اعتلاه رجال الدين وتحدثوا من خلاله. إلا أن طابع الحديث قد تغير هناك فكانوا يمتنعون عن السب والذم، وعلى سبيل المثال كان السيد آقا يقول:

"أيها الناس، هناك عدة بنود فى هذه اللائحة تخالف الشرع المقدس، ونحن على أهبة الاستعداد لأن يُشكل مجلس يحضر فيه بعض رؤساء المجلس وبعض منا ونتباحث حول كل شخص تم اختياره من قبل الشعب، وإذا ما كان قولنا هو الصائب يقبلونه، ويزيلون عيوب المجلس، ولو لم يكن صائبًا نمضى إلى ديارنا".

ونفس هؤلاء الذين أقاموا مطبخًا ضخمًا فى ميدان دار المدفعية كانوا يحملون قدور الأرز كل يوم للفقراء والمعدمين، وألصقوا مكتوبًا على جدران المدرسة مفاده "يستطيع كل شخص التبرع بمبلغ مائة دينار ولو حتى طومان واحد لهؤلاء القوم الذين جلسوا جوعى فى هذا المكان بهدف حماية الشرع، ولن يضيع هذا عند الله". وكتبت صحيفة "الحبل المتين" تقول: "لم يكن هذا أكثر من أكذوبة". وكانوا يحملون هنا أيضًا قدور الأرز فوق رؤوسهم.

ومن غد ذلك اليوم دونت البرقيات وأُرسلت إلى كافة المدن وطلبوا العون من الأهالى تحت مسمى تأييد الشرع، وطبقًا لما ورد فى جريدة "الحبل المتين" لم يُعلم من أين أتوا بهذه الأموال لإرسال كل هذه البرقيات رغم ما كانوا يعانون من جوع!

والأعجب من ذلك أن السيد محمد اليزدى اعتلى المنبر وكان يقول:

"لقد أغلق الأهالى الأسواق فى جميع المدن لتأييدنا خاصة فى تبريز". فى حين أن الأهالى كانوا يبدون استياءهم منهم فى كل مكان، وتلك البرقيات التى أرسلوها وصلت الردود عليها من كل جانب تفيد بالاستياء، وقد نشرتها جريدتنا

المجلس والحبل المتين ووصل رد مطول من خوى امتلأ بالسب والذم فى رجال الدين. ومن استر آباد أرسل من يدعى كلانتر برقية يقول فيها:

"إلى الحاج الشيخ فضل الله... أزجَّ الله بك وبأتباعك إلى الدرك الأسفل من النار حتى يستريح المسلمون".

نعم، لقد قضوا يومى الخميس والجمعة فى حرية، ومن يوم السبت وضعت الحكومة حراسة حول المدرسة ومنعت التجوال، وانقضت ثلاثة أيام على هذا النحو، وكما كان يقال إنهم يريدون أن يمضوا إلى السفارة الروسية بهذا الحشد للاعتصام هناك، وكان هذا أمرًا مخذيًا، وما أكثر النتائج الوخيمة التى ترتبت عليه. ومضى بعض الوزراء إلى المدرسة ورأوا الحاج الشيخ فضل الله وغيره، وحثوهم على تفرقة الأهالى بأنفسهم وقبلوا ذلك.

وفى ليلة الأربعاء العاشر من شهر دى فرقوا الأهالى ليلاً ومضوا هم كذلك إلى ديارهم. وفى نفس هذه الأيام أرسل السيدان برقيات من طهران إلى الآخوند وغيره فى النجف وشكيا فيها من الحاج الشيخ فضل الله وتصرفاته، ووصلت الردود من النجف ونشرت على صفحات الجرائد، وسوف أورد واحدًا من هذه الردود فى هذا المقام:

"حجة الإسلام السيد بهبهانى والسيد طباطبائى، لقد وصلت البرقية الثانية، ولما كان النورى مخلاً للهدوء ومفسدًا فإن تصرفه فى الأمور حرام".

(محمد حسين نجل ميرزا خليل، محمد كاظم الخراسانى، عبد الله المازندرانى)

ولما كان ينبغى أن يتم القبض على رؤساء الأوباش، واختفى كل من صنيع حضرت ومقتدر نظام وغيرهما، فقد تم القبض على الحاج معصوم فقط، وبذلك انتهت فتنة ميدان دار المدفعية. لكن ثمة مشكلة أخرى ظهرت فى هذه الفترة وهى أن الأوباش الذين فروا واختفوا كانوا يخرجون ليلاً ويضربون كل من يجدونه،

ولما كان الشاه وحاشيته يساندونهم ولم يضن مجلل السلطان – خادم الشاه – عن رعايتهم وتأييدهم، قاموا دون ردع بكل عمل قبيح كضربهم لبهاء الواعظين – أحد نواب المجلس – وإهانته. وفى ليلة الأربعاء السابع عشر من شهر دى (٣ذى الحجة) مضى ثمانية منهم إلى دار فريدون الزرادشتى – أحد التجار – وأيقظوا ذلك المسكين، واستولوا منه فى البداية على خمسمائة وستين طومانًا ثم قتلوا زوجته أمام عينيه، وكان واضحًا أن القتلى ينتمون إلى الأوباش. ومن ناحية أخرى، مضى الشيخ محمود إلى ورامين وعاش هناك فى هدوء.

وبصفة عامة، ما كان يُشاهد أن البلاط لم يتعهد بمعاقبة الأوباش، ولم يكن تعهده فى هذا الشأن إلا من قبيل الخداع، وكانت البرقيات تصل من المدن حول هذا الموضوع، ودار حديث عنه كذلك فى المجلس لكن دون جدوى.

اعتقال رؤساء الأوباش ومعاقبتهم:

لما ازداد استياء الأهالى فى تلك الأثناء من محمد على ميرزا انبسطت الألسنة فى المذمة (خاصة بعد وقوع حادث ساوجبلاغ الذى سنورده من بعد)، وكانت صحف طهران – خاصة "مساوات" – لم تعرف حدًا فى كشف المستور، وكانت تسوق الحديث بشكل واضح عن خلع الشاه ويروون قصة الملك لويس السادس عشر، وخشى عضد الملك – رئيس العشيرة القاجارية – وشعاع السلطنة – شقيق الشاه – من أن ينتهى الأمر بخروج الملك من الأسرة القاجارية ويزول أمرها، ووضحا ذلك إلى محمد على ميرزا وصرح عضد الملك إليه بأن الملك لا يجوز مع وجود استياء الأهالى الذى لا حد له، وأوضح فى النهاية سوء مسلكه تجاه المجلس، وأثرت هذه الأحاديث فى محمد على ميرزا وحثته على عرض السلام والصلح مرة ثانية مع المجلس وجعل يسترضى الأحرار.

من ناحية أخرى، عقدوا جلسة فى البلاط يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر دى (٩ ذى الحجة) حضر فيها السيدان واحتشام السلطنة وبعض النواب،

وجلس الشاه نفسه معهم على الأرض وتحدث بلسان التواضع، كما تحدث السيدان حديثًا مقبولاً بأسلوبهما، وفى البداية أبدى الشاه استياءه من مذمة بعض محررى الصحف والأحرار وشكا من عدم منع المجلس لذلك، ثم قال:

"أقسم الآن فى حضوركم بكلام الله أننى سأتعاون قدر استطاعتى مع الشعب ومجلسه طالما الروح فى جسدى، ولن أمنح الفرصة للخائنين، وأن أجتهد وأجد لحفظ الحدود وتنفيذ القانون وتحقيق الأمن والأمان فى إيران لدرجة تفضى إلى حقد العالمين".

قال ما سبق وأقسم للمرة الثالثة بالقرآن، وأقسم السيد بهبهانى كذلك باسم شعب إيران. ولكى يمنح محمد على ميرزا ذلك اليوم القيمة ويعظم ذلك العمل، قال: "فى الواقع، ينبغى أن يعد اليوم هو أول أيام الجلوس على عرش السلطنة، وفيه الساعة الأولى لتأسيس الحكم النيابى واستقراره".

على هذا النحو كان الحديث يتوالى حتى انتهت الجلسة، وبعد غد، حيث انعقد المجلس، دار حديث حول هذه الجلسة وأعرب النواب عن أمانيهم بأسلوبهم الساذج وأخذوا يتملقون، واقترحوا أن يذهب السيدان إلى النجف وأن يبرق المجلس إلى مدن إيران بما حدث.

ولا تمس الحاجة هنا إلى كلام، فلم يكن هذا كله إلا نفاقًا، ولم تتأت نتيجة من ورائه، ونتيجته الوحيدة هى هذه الجلسة التى رفع محمد على ميرزا يده فيها عن حماية الأوباش دفعة واحدة، وانتهز ظفر السلطنة- الذى كان وزيرًا للحربية وحاكمًا على طهران - الفرصة، وأمر بتعقب الأوباش، ولما ألحت جمعيات طهران فى هذا الخصوص كثيرًا قام عمال الشرطة بالتحرى برفقة البعض منهم من غد ذلك اليوم.

وكما ذكرنا، كان مجلل خادم الشاه يحمى رؤساء الأوباش، ولما علموا بذلك مضوا فى البداية إلى داره وقبضوا على غلامه الزنجى وقاموا باستجوابه، وعلموا من أقواله أن صنيع حضرت - أحد رؤساء الأوباش- مر البارحة بتلك الدار لكنه

اتجه مع الفجر إلى دار حماه حتى يقضى الليلة المقبلة هناك. علموا بذلك وأسرعوا إلى هناك ليلاً مع جماعة من الشرطة والجند وقوات حرس الحدود وحاصروا الدار، ونزل من كانوا فوق السطح وقاموا بالبحث فى الحجرات لكنهم لم يعثروا على من يبحثون عنه، وعندما رغبوا فى العودة وقع نظر أحدهم على ملابسه التى كانت قد وضعت فى أحد الجوانب وعُلم أنه كان متواجدًا فى المنزل فقاموا بالبحث ثانية حتى أخرجوه من بين الحريم وقبضوا عليه وهو بزى نسائى وأحضروه إلى مقر الشرطة.

وسر الأحرار من هذه الأنباء. ومن ناحية أخرى علم مقتدر نظام وغيره أنهم لن يطلقوا سراحهم، ولجأ ثلاثة منهم وهم مقتدر والسيد كمال واسماعيل خان إلى منزل ظفر السلطنة إلا أن الأخير امتنع عن حمايتهم وأرسل إلى الشرطة كى يرسلوا هؤلاء الثلاثة إلى المحكمة مع صنيع حضرت والحاج معصوم خان.

وكان مقتل فريدون الزرادشتى داعيًا لاستياء المجلس لأن الزرادشت فى طهران وفى غيرها من المدن كانوا قد توقفوا عن مزاولة أعمالهم وكانوا يريدون القصاص من القتلة. ولما تم استجواب غلام مجلل الزنجى فى هذه الأيام عُلم أن القتلة هم نفس الأوباش الذين كانوا فى ميدان دار المدفعية حيث قتلوه انتقامًا من المجلس والدستور (الذى منح المساواة إلى الزرادشت)، ولما عُلمت اسماؤهم حاولت الشرطة القبض عليهم. أما عن هؤلاء الخمسة الذين أرسلوا إلى المحكمة، فقد علمت المحكمة أن الحاج معصوم خان كان بريئًا، لكن صدر الحكم التالى على الأربعة الآخرين يوم الاثنين الثالث عشر من شهر بهمن (٢٩ ذى الحجة):

"نظرًا لقيام جماعة من المفسدين والأشرار والعوام المتشبهين بالأنعام بالثورة والطغيان ومعارضة أساس النيابية المقدس فى التاسع من ذى القعدة عام ١٣٢٥ق ولم يراعوا حرمة الأشهر الحرم وأغاروا على مجلس الشورى الوطنى المقدس شيد الله أركانه على عكس رغبة أولى الأمر فى الدولة ورؤساء الأمة واستخدموا الأسلحة وتوجهوا من هناك إلى ميدان دار المدفعية واحتشدت معهم

جماعة من المعممين راغبى الفتنة وتعاونوا معهم ودعوا إلى ثورة تحت مسمى الجهاد وقاموا بأعمال همجية وأصابوا على آقا الصراف واسماعيل الخياط دون سبب وقتلوا عنايت الله البرئ فى أفظع صورة وعلقوه فوق شجرة، وقاموا بالمؤامرات سواء فى بهارستان أو فى الميدان أو فى المجامع والمحافل، وكان سبب الأخطار مقتدر نظام واسماعيل خان والسيد محمد خان وصنيع حضرت والسيد كمال، وتم التباحث وقلب النظام والإشارة إلى الخاص والعام مما أدى إلى وقوع الوحشة واضطراب الأمة وتهيئة أسباب انقلاب المملكة والفساد ومعارضة النيابية وشكوى عامة الشعب ومن قبل... صاحب الجلالة المقدس ملك الملوك الراغب فى النيابية... بحكم العدل والإنصاف بموجب الأمر الملكى تقرر أن ينالوا جزاءهم فى المحكمة وقاموا بمحاكمة الأشخاص المذكورين بعد استجوابهم، وبعد إثبات التقصير تم توقيع العقوبة عليهم وفقًا لقانون الشرع المنير، وفضلاً عن اعترافاتهم على أنفسهم أو تصريحاتهم فى حق الآخرين فى الاستجواب فقد ثبت أثناء محاكمتهم أن المشار إليهم هم الآمرون الناهون للأراذل والأوباش وقادة الأجامر والرعاع والمسئولين عن الأمور المثيرون للفتن والمفسدين وأساس الأمور الوحشية، وارتكبوا ما يعارض النظام والأمن وعارضوا قوانين النيابية المقدسة ودبروا لإحداث فتنة عظيمة، وأمر السادة المستطابون حجج الإسلام والمسلمين – مقتدرو الأنام ذخائر الأيام كهوف الأرامل والأيتام – السيد عبد الله المجتهد والسيد ميرزا حسن محمد المجتهد والسيد إمام الجمعة وغيرهم – متع الله المسلمين بطول بقائهم– بعقابهم بالضرب والتعذيب الزاجر الموجع الذى يفضى إلى العبرة للمفسد والحيلولة دون وقوع مثل هذا النوع من المفاسد والأعمال غير الشرعية، ثم إرسالهم بعد ذلك مقيدين بالأغلال إلى كلات لحبسهم هناك عشر سنوات، وحكمت المحكمة بسرعة تنفيذ حكم السادة العلماء الأعلام والمجمع المقدس لحضرات حجج الإسلام دامت بركاتهم، فضلاً عن حرمان كل واحد من هؤلاء مما كان له من امتيازات عسكرية ومدنية. فاعتبروا يا أولى الأبصار".

موضع خاتم المحكمة

(الشيخ على القاضى أرداقى، أحمد بن محمد المهدى، معاون حضرت، محسن مجد الممالك)

وكان واضحًا أن هذا الحكم قد اشتد وقعه على البلاط ورجال الدين وغيرهم من أعداء الحكم النيابى، لكنه نفذ فى نفس اليوم فى فناء المحكمة فى حضور وزيرى العدل والحربية ونواب الجمعيات ومئات المشاهدين، وجلدوا كل واحد من هؤلاء الأربعة ألفى جلدة ثم أجلسوهم وهم فى حالة يرثى لها على عربة وتوجهوا بهم إلى كلات. أما قتلة فريدون فسوف نورد قصتهم فى موضعها نظرًا لوجوب التحقيق والتحرى بشكل أكثر.

أول سفك للدماء فى تبريز:

نتحدث هنا ثانية عن آذربايجان، ففى هذه الأثناء كانت تقع هنا كذلك – سواء فى ساوجبلاغ أو فى تبريز نفسها – بعض الأحداث. أما فى تبريز، فكما أسلفنا الذكر، فضل مير هاشم جماعة ولم يكف عن التمرد ووجد رعاع الدونشى الميدان أمامهم فقاموا قدر استطاعتهم بإفساد الأمن والأمان، وألح القنصل الروسى للقبض على نائب كاظم وأتباعه لذا نهض بنادقة الدونشى لتأييد ذلك وأعربوا عن عصيانهم ومقاومتهم، وبين الحين والآخر كانت تنشب فتنة أخرى ويمضى الرعاع ليلاً إلى الديار ويسلبون الأثرياء أموالهم. وكان القنصل يقول: "تسلل بعض الأشخاص ليلاً إلى باب القنصلية وكان فى نيتهم القتل". وتحجج بهذا واستدعى خمسة وعشرين من كتائب القوزاق إلى تبريز وقسم حرس القنصلية. وتمت مناقشة هذه الرواية فى المجلس فى طهران، واستفسروا من وزير الخارجية لكنه لم يستطع الرد بوضوح، وهذه القصة كانت بعلم البلاط.

وكان فرمان فرما لا يزال فى تبريز يحاول منع ذلك، ولما رحل طالبت الجمعية بيجلر بيجى منع ذلك ولكن لم تُر نتيجة، وكان واضحًا أن الأمر سيفضى إلى سفك للدماء. فى هذه الأثناء حل عيد الأضحى، وكما نعلم، كانوا ينحرون فى عهد الاستبداد جملاً فى هذا العيد، حيث يزينون ذلك الحيوان الأصم بالجلاجل وخصلات من الشعر ويمضى الفرسان من أمامه ومن وخلفه بالبوق والطبول ويطوفون به فى الأسواق لمدة يوم أو يومين ويعربون عن فرحتهم. وفى يوم العيد يذبحونه، وقبل أن تزايل الروح جسده يندفع رجال البلاط حوله ويأخذ كل منهم قطعة من لحمه ويحملون رأسه إلى ولى العهد أو إلى الشاه، وكان هذا عملاً دمويًا سيئًا لذا منعته الجمعية، لكن مير هاشم – الذى حصل على الحكم وكان يرى نفسه فى عالم آخر بسبب سخاء محمد على ميرزا تجاهه وقوة بنادقة الدوتشى وسرخاب – يأمر بإعادة الأضحية بالجمل، ونحر رجال البلاط القدامى– كعادتهم – جملاً وحملوا رأسه إليه وأخذوا منه الخلعة والمكافأة.

وأدرك الأهالى من خلال هذا العمل أن لمير هاشم نية أخرى وأنه لن يلين أبدًا، فى نفس اليوم اندفع الرعاع والأوباش – المنتمين إلى الدوتشى – إلى السوق وغلقوا الحوانيت تهديدًا بالسلاح. وأثناء الليل أطلقوا وابلاً من الرصاص على حوانيت مجيد الملك ومضت جماعة إلى دار الحاج مهدى آقا وأضرموا النيران فيه، واضطرت الجمعية إلى البحث عن حل وقدمت الذخيرة إلى المجاهدين وأصدرت أمر القتال والصد، وبدأ القتال بين الطرفين من يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر دى (١٢ذى الحجة).

واتخذ أهالى الدوتشى حوانيت السيد حمزة مقرًا لهم، واتخذ المجاهدون كذلك بعض الأماكن ثكنات لهم، ولما انطلقت الرصاصات فما أكثر من قتل بلا ذنب من المارة، وأرسلت الجمعية مدفعًا فوق جسر "قارى" الواقع بين الدوتشى وغيرها من الأحياء، ولما لم ير أهالى تبريز قتالاً حتى ذلك الوقت ولم يسمعوا صوت المدفع،

ولما كان يقال: "أغلق فلان المدينة بالمدافع"، ظن جمع غفير من الأهالى أن المدينة ستدمر من جراء مدفع واحد لذا عم الخوف والاضطراب أرجاء المدينة، ورغم ذلك لم يطلقوا نيران المدفع.

واستمر القتال لمدة يومين قتل خلاله ما يقرب من العشرين فردًا من كلا الجانبين وقتل من المجاهدين من يدعى الحاج خليل فرشچى وهو أول ضحية من مجاهدى آذربايجان، وكان لهذا الرجل محل فى السوق وكان من الأثرياء. وعلى أية حال، فقد انضم إلى المجاهدين بدافع الغيرة والرغبة فى الحرية رغم أن عمره كان يتجاوز الخمسين، وكان يحمل بسهولة ما ثقل حمله من المدافع والذخيرة. وفى هذا القتال الذى أرعب الكثير من الأهالى لم يتقهقر وتقدم بشجاعة حتى أصيب فى رأسه على أثر إحدى الطلقات وأسلم الروح. وكان الأوباش يمضون ليلاً إلى الديار ويسلبون الأثرياء أموالهم، ومضت عدة أيام على هذا النحو، وفى الخامس من شهر بهمن بدأ القتال والقصف مرة أخرى وأزهقت أرواح البعض.

أثناء ذلك كان نواب الجمعية يتناقشون مع طهران فى مكتب البرق وكانوا يطالبون بحل لاستقرار المدينة، واختاروا من البلاط إجلال الملك – أحد نواب الجمعية – لرئاسة الشرطة وعهدوا إليه بأزمة الأمور فى المدينة، ومارس عمله على الفور وحال دون وقوع القتال. من ناحية أخرى، لما حل شهر المحرم وكان ينبغى استعداد الأحياء للعمل لخروج المجاميع التى تدق الصدور، كان هذا داعيًا آخر لإخماد نار القتال. ومع بدايات شهر المحرم كان نصف الأسواق مغلقًا والنصف الآخر مفتوحًا، لكن المجاميع التى تدق الصدور كانت تتجول فى سهولة. من ناحية أخرى، استطاع إجلال الملك تحقيق الاستقرار فى فترة وجيزة، وألبس جميع الحراس زيًا جديدًا موحدًا، كما اختار جماعات من فرسان الشاهسون ومن القوزاق لحماية مقر الشرطة. وخلاصة الحديث، أظهر إجلال فى هذا الوقت العصيب حنكته، وحقق استقرار المدينة بعد تلك الاضطرابات، وأتذكر جيدًا كيف

كانت هذه الجماعات تمضى فى الأسواق بصحبة الموسيقى وكيف عم الهدوء.

واكتسبت هذه المعركة أهمية فى تاريخ الحكم النيابى، فمع الأضرار التى ألحقتها كانت تتضمن منفعة ما وهى أن الأهالى شاهدوا المعركة وخرجوا من حالة الهلع الذى لم يكن له داعٍ فى هذا الشأن. كما رأى المجاهدون كذلك المعركة فتعلموا واستعدوا لمعركة أعظم. ونتيجة لهذه المعركة أنه بعد قصف المجلس وإرسال الشاه جيشًا إلى تبريز لم تفقد هذه المدينة كغيرها تماسكها وأبدت صمودها، وكان ستارخان فى هذه المعركة أحد القادة، ولما أبدى حنكة وشجاعة ذاع صيته وعمت شهرته كما أبدى مجاهدو القوقاز كذلك حنكتهم خلال هذه المعركة.

مقاومة أهالى الدوتشى:

ولكن رغم هذا القتال وسفك الدماء لم يتم اعتقال رعاع الدوتشى لأنهم صمدوا فى حيهم ولم يقربوا هذه الناحية. والحقيقة أنه تم منع التجوال بين الدوتشى وسرخاب وبين غيرهما من الأحياء، واتخذ الانقسام فى هذه الفترة شكلاً أشد، وكان إجلال الملك يرى أنه إذا ما أراد القبض على الرعاع ستستأنف الحرب ثانية، لذا تغاضى عن ذلك وكان يحاول ألا تقع الاضطرابات ثانية. وفى العشرة أيام الأولى من محرم كانت طوائف من الدوتشى وسرخاب تأتى إلى السوق، وكان الدوتشى يبدون حقدهم وغضبهم قدر إمكانهم، خاصة فى يوم تاسوعاء، حيث أحضروا جملاً إلى السوق. ولن نسوق الحديث فى هذا المقام عن حكايات الجماعات التى تدق الصدور فى شهر المحرم – وكان هذا السلوك أحد مشاكل عهد الاستبداد وظل أعوامًا بعد الحكم النيابى – لكننا نحتاج هنا إلى حديث موجز فى هذا الشأن:

لقد ظهرت هذه الجماعات على أثر المزج بين جهل الشيعة وأهواء العامة واستعلاء الرعاع وكانت تنتشر فى جميع مدن إيران، لكن رواجها كان أكثر فى

تبريز، وكانوا يقومون بهذه الأعمال منذ اليوم الأول من شهر المحرم وحتى الثانى عشر من نفس الشهر، وكان لهذه الجماعات – التى نهضت من أماكن مختلفة – وضع خاص. فعلى سبيل المثال كان هؤلاء الدوتشى يحضرون فى يوم تاسوعاء جملاً إلى السوق على النحو التالى: يلبسون أحد الرجال جلد الجمل ويجلسونه فوق أريكة ويحركونه، وكان هذا هو أسلوبهم الخاص حيث لا يفعل حى آخر ذلك. وكان يقال إن هذا الجلد كانوا يجلبونه من حى آخر وسلبه الدوتشى منهم، لذا كانوا يحاولون حمايته، ولما يحل يوم تاسوعاء يأتى حشد كبير من رجال ذلك الحى (خاصة من السادة) على النحو التالى حيث يمسك كل منهم بيد الآخر ويحضرون سلسلة طويلة ويضعون الجمل فى المنتصف، وكانوا يرسلون من يلقون الشعر ومن يدقون الصدور، وكان الرعاع يحملون البنادق الصغيرة، وكانوا يذكرون هذا الجمل فى الأشعار التى يلقونها، وكانت هذه الأشعار تتردد على الألسنة فى تبريز، وكانت تسرد هنا وهناك أثناء الحركات المطالبة بالحكم النيابى وكان معظمها على نفس الوزن والقافية، وتنشد بنفس النغمة التى كان يتغنى بها مدقو الصدور.

كان الدوتشى فى يوم تاسوعاء – كعادتهم السنوية – يحضرون جملاً ويعلنون عن عصيانهم وتمردهم، وحينما يصلون فى أشعارهم إلى: "لعنت بيله قوم بى حيايه" (أى لعنة الله على مثل هؤلاء عديمى الحياء) كانوا يشيرون إلى الأحرار وبهذا ينتقمون منهم. وبعد عشرة أيام من محرم بدأوا فى ذلك الحى أيضًا بنشر جريدة باللغة التركية، ولما كانت تكتب بطريقة السؤال والجواب بين واحد من العامة وأحد رجال الدين، وكان العامى يطلق اسم "ملا عمو" على رجل الدين عرفت هذه الجريدة بنفس الاسم. وفى هذه الجريدة التى كانت تدون باللغة التركية التبريزية دارت المقالات حول توبيخ المطالبين بالحكم النيابى ومذمتهم ونقدهم، ولما كان استياء مير هاشم بشكل أكبر من عدم انتخابه لنيابة الجمعية كان يقوم بتمثيل الجمعية أكثر من أى شخص آخر. وقد شاهدت أعداد هذه الجريدة حتى العدد الثامن أو التاسع لكن الصادر منها كان أكثر من ذلك. فضلاً عن هذا كانوا يكتبون بعض المقالات باللغة الفارسية ويطبعونها بالحجر ويوزعونها، ولما كانت

إحدى هذه المقالات فى متناول يدى أورد جزءًا منها تحت عنوان "هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق" وتبدأ كالتالى:

"أيها الإخوة الفطناء، يا من تؤمنون بالقرآن المبين، افتحوا عين العبرة واطووا طريق الحمية، واجعلوا اسم إيرانيتكم التى يربو تاريخها على الستة آلاف عام ناسخًا لتواريخ سائر الدول، إنكم لستم إيرانيين لأنكم عشتم مدة طويلة مع سلاطين متعددين، فلا تخنعوا للسلاطين المستبدين، ولتملكوا الآن حماسة الوطنية والغيرة على الوطن. ماذا حدث لكم حتى أصبحتم أسرى خمسة أو ستة أفراد من القوقازيين، ولا تظنوا أنهم لم يكونوا لصوصًا محتالين قط... انظروا إلى ما آل إليه أمر المسلمين حيث قال جناب المستطاب السامى السيد الحاج ميرزا أبو الحسن الشهير بانجچى: " متى يا نواب الشعب أوجبتم القتل وفى أية شريعة (يقصد أهالى محلتى سرخاب وشتربان) كى تصدروا حكمًا بقتلهم"؟!

ويقول مرتضى چاپچى فى رده "إنه لا يقرأ شرح اللمع والشرائع، إنك تعلم ولا ترجع عن هذه الأعمال". ولم يرد شخص مسلم متعصب هنا على مير تقى بـــ"نعم يا سيد چاپچى إن أصل المقصد من النيابية هو تنفيذ شرح اللمع وقراءة الشرائع والشرع المنير، ولا بيع للشاى المر، وأنت تعلم، ولعلهم يوجبون إهانة حضرات السادة العلماء والسادات فى النيابية فى قانون المفسدين كما كان يفعل جناب المستطاب السيد مير جواد إمام الصلاة فى محلة "مقصوديه" حيث كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى عهد الاستبداد ولا ينكره شخص، وقد جاء فى المعركة للإصلاح إلى محله "شتربان" وشاهدوا صدقه، وقال حين العودة إلى أهالى "سرخاب" و"شتربان" ألا تتحاربوا، فأنا ذاهب لإسكات الأهالى فى تلك المناطق، وما أن أمر بذلك حتى أطاعوه والتزموا الصمت، إلا أن أهالى المنطقة لم يهتموا بحديث جناب السيد المذكور ولم يصمتوا، وكان جناب المشار إليه ينتقد المفسدين والمتظاهرين بالنيابية دون أى غرض شخصى قائلاً: لمَ يوجبون القتل والإغارة على أهالى محلتى "سرخاب" و"شتربان".

(على مسيو)

ويقول فى الرد عليه إنك جئت خالى الوفاض وصرت مالكًا فى محلتنا، والآن تتعلم من محلتى سرخاب وشتربان حديثًا لا طائل منه، يا أهل تبريز، لعلكم لا تعرفون على مسيو هذا ولا تعلمون ماذا يعنى لفظ "مسيو" فهو يعنى فى اللغة الفرنسية "السيد"، أما ذلك الشخص الذى يتمتع بالأصل والنسب فيقدمون على اسمه لفظ "مسيو"، مثل "مسيو پرين" وغيره، وذلك الذى يرتد عن الإسلام يجعلون لفظ "مسيو" لاحقًا على اسمه، وهذا هو ظاهر الحال، واسمه يعنى أنه ملحد، ويعجز قلم الكتاب عن شرح سيئات باطنه، ومن بين ذلك العزاء فى حضرة سيد الشهداء عليه آلاف التحية والثناء، فدومًا يستهزئ به ويمنع النواح، ويلوم على المجلس نقاشه أكثر من مرة اتجاهه إلى العشق بعد سفره إلى اسطنبول تحت مسمى "التقية"، وقد تأذيت واغتسلت منذ ذلك التاريخ غسل التوبة كى لا أعود إلى ذلك ثانية، وذلك الملحد الذى ادعى أن العزاء فى تلك الحضرة أمر خاطئ وارتد عن إسلامه لا يلزم دليل أو برهان آخر على كفره، وسعى من خبث فطرته كى يتهاوى أساس العزاء فى سيد الشهداء عليه السلام وينهار".

فرمان فرما فى ساوجبلاغ:

أما فى ساوجبلاغ، فكما أسلفنا، اتجه فرمان فرما من تبريز إلى هناك، ولما بلغ "مياندواب" أسرع أهالى المدينة – وكان معظمهم يؤيدون إيران من أعماقهم – وأعربوا عن سعادتهم، وبهذا سيطر على المدينة ثانية. لكن محمد فريق باشا – القائد العثمانى الذى كان على بعد بضعة فراسخ وكان يحث على الثورة لملاحقة الأكراد – قام بمحاولات أكثر فى هذه المرة، ولم يضن الأكراد بما لديهم من قدرة فى المناطق الخارجة عن "ساو جبلاغ" حيث دمروها وأراقوا الدماء فيها، ثم تجاوزوا الحدود دون حياء وأرسلوا إلى فرمان فرما بأن "اترك لنا المدينة وارحل". ورغم أن فرمان فرما لم يكن لديه أكثر من ألف ومائتى فرد، وكان الأكراد أضعاف هذا العدد، إلا أنه رد عليهم ردًا غليظًا وأعاد الرسول.

وفى يوم السبت العشرين من شهر دى قدم إلى المدينة ما يربو على الإثنى عشر ألف شخص فجأة، واستولوا على جميع التلال التى حولها وقاموا بأعمال القتال، وقسم فرمان فرما الجند والفرسان على ضواحى المدينة وأصدر أوامره بالقتال، وقدم بنفسه وفى يده البندقية وقاوم، ووضعوا مدفعين فى مبنى الحكومة، وجعلوا يطلقون النيران منهما، ولما أصيب أحد رجال المدفعية بإحدى الطلقات أخذ فرمان فرما مكانه خلف المدفع واستمر القتال اثنتى عشرة ساعة وقتل منهم حوالى مائة شخص. وعلى أية حال، لم يتقدم الأكراد فى أمرهم هذا وعادوا، لكنهم مارسوا أعمال السلب والنهب فى القرى وغلقوا الطرق. فى نفس اليوم الذى دارت فيه الحرب، قطعوا الطريق بين "ساوجبلاغ" و"مياندواب" وكانت الأسلحة والأموال (ثمانية آلاف طومان) قد أرسلت إلى فرمان فرما قد قاموا بسلب ذلك كله.

أثناء ذلك كان فرمان فرما وأهالى "ساوجبلاغ" يترقبون وصول المساعدة من تبريز أو طهران، لكن مر عشرون يومًا ولم يصل سوى عدد قليل من جند الشاهسون، وقام محمد على ميرزا غداة يوم الجلسة بعمل طيب حيث مضى بنفسه متوجهًا إلى مكتب البرق التابع للبلاط وأبرق إلى رؤساء العشائر وقادة آذربايجان حتى يبادروا بمساعدة فرمان فرما. ولكن لما كان هذا نفاقًا لم تشاهد منه أية نتيجة ملموسة.

من ناحية أخرى، سلكت الحكومة مسلكًا مخادعًا، حيث كانت تقول: لما لم يرسل العثمانيون أنباءً عن القتال فلا ينبغى أن نقاتل جيوشهم، وعلينا فقط السعى لسحق العشائر المتمردة. " كما أرسلوا أمرًا إلى فرمان فرما بعدم محاربة الأكراد إلا عندما يتجاوز العثمانيون الحدود فى وضوح ويدخلون الأراضى الإيرانية. ومن ناحية أخرى، فيما يختص بـــ" ساوجبلاغ" لما لم يتأتى أى عمل من الأكراد قام فريق باشا بنفسه بالعمل واتجه إلى المدينة مع الجيش والمدافع. وأرسل فرمان فرما شخصًا وأعطاه رسالة، فيها "إنكم لم تعلنوا الحرب حتى الآن، فكيف تتقدمون

إلى المدينة؟" فأجاب فريق: "إن إعلان الحرب أكثر من هذا حيث قد قدمت إلى المدينة على مسافة نصف فرسخ برفقة عشرين ألف جندى وستة مدافع، ولو لم تخرج من المدينة خلال الست ساعات القادمة سنبدأ القتال على الفور".

ومن هذا الرد لم يتبق لفرمان فرما القدرة على الصمود فغادر المدينة وعاد إلى "مياندواب"، وعلى هذا النحو وقع حادث مخز، ودخل العثمانيون المدينة واستحكموا فيها، والعجيب إنهم يقولون "إننا لم نتعد على أراضى إيران". وكان محمد على ميرزا ووزراؤه يقولون: "لم يرسل العثمانيون حتى الآن يعلن الحرب". واستقر فرمان فرما فى "مياندواب" وأخذ يجمع الجيش. فى هذه الأثناء بدر تصرف من الحاج محمد رضا - أحد التجار - وينبغى أن يخلد اسمه فى التاريخ بسببه، فقد أرسل خمسمائة طومان من العراق إلى فرمان فرما كى يستفيد منها خلال الحرب وقبل فرمان فرما الأموال وقدم إليه الشكر برقيًا.

من ناحية أخرى، وكما أسلفنا، كان الروس والإنجليز والألمان يبدون تعاطفًا فى هذه الصراعات تجاه العثمانيين، وفضلاً عن سحب العسكر والمساعى الأخرى كانوا يتباحثون مع طهران واسطنبول، كما شكلوا لجنة بالقرب من الحدود ودار حديث عن خط الحدود. ولو كان العثمانيون يعدون بعض أراضى إيران ملكًا لهم إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا " ساوجبلاغ " ضمنها، لذا اضطروا إلى تركها فى اليوم الأول من شهر اسفند وأظهر الأكراد الولاء لإيران ثانية. والأعجب من هذا إنه بعد وصول هذه الأنباء إلى طهران، أراد محمد على ميرزا أن يتحجج ليبادر بعمل محمود وأرسل إلى المجلس المذكرة التالية:

"إلى احتشام السلطنة - وصلت الآن برقية من "ساوجبلاغ" تفيد بخروج العثمانيين ولما كانت بشرى للحكومة والشعب فقد أرسلتها إليكم، فقدموا ملاحظاتكم عليها واتلوها غدًا فى المجلس علانية حتى يعلم الشعب إننى حرمت راحته وكم تحملت من مشاق لدفعه ودفع هذه الطوائف المغيرة دون إراقة دماء، وآمل أن يتم صلاح الأمور بالاتفاق والاتحاد المعنوى للمجلس المقدم مع الحكومة. محرم ١٣٢٦ ق".

وهكذا كان يزهو بعمل لم ينجزه، بينما كان الأكراد يقومون بأعمال مفسدة فيما حول أرومي، وكانت برقيات الشكوى تصل على التوالى، كذلك لم يكن نائب حسين كاشانى وأبناؤه يكفون عن ظلوماتهم فى كاشان، وكان الأهالى يرفعون عقيرتهم بالشكوى مطالبين بالإنصاف، من ناحية أخرى لم يخرج العثمانيون من الأراضى الإيرانية رغم مغادرتهم "ساوجبلاغ"، ولم تتأت فائدة من وراء اللجنة ومساعيها.

حادث الثامن من شهر اسفند:

كان محمد على ميرزا يبدى سلوكًا طيبًا تجاه المجلس، ويمكن الظن أنه فى يأس آنذاك من العراك مع المجلس، وتعهد كرهًا أو طوعًا بحمايته، لأنه كما سبق وذكرنا كان يتخذ كل حادث حجة ويخطو خطوة أخرى نحو الصلح مع المجلس وكسب وده، ومن ذلك ما حدث فى بدايات شهر اسفند عندما استطاع المجلس أن يسن قانون المطبوعات، فاغتنم الشاه الفرصة وأرسل مذكرة للثناء على أعمال المجلس والإعراب عن سعادته، وقد تليت هذه المذكرة فى جلسة السابع من اسفند (٢٤ محرم ١٣٢٦ق)، ولكن من غد ذلك اليوم – أى يوم الجمعة الثامن من اسفند (٢٥ محرم) – وقع حادث عكر صفو المياه دفعة واحدة، وذلك حينما اتجه محمد على ميرزا إلى هضبة "دوشان" للنزهة، وخرج من البلاط فى مظاهر الإجلال حيث كانت هناك عربة تتقدمه وأخرى خلفه، وكانت العربة الأخيرة ملكية تجرها ستة جياد بينما يلتف الغلمان حوله ومعهم الأمير بهادر، وكان يسير بهذه العظمة وذلك الإجلال، ولما انتهوا من شارع حديقة الحيوان[1]، وأرادوا أن يمروا من شارع ظل السلطان، سقطت عبوة حارقة على الأرض فجأة وقتل شخصان وجرح البعض وتحطم زجاج السيارة، وانفجرت عبوة أخرى على بعد خطوات وقتل البعض وجرح البعض الآخر، ولم يصب الشاه الذى كان يجلس داخل العربة التى

(١) هو نفسه ذلك الشارع الذى يطلق عليه الآن شارع البريد.

تجرها الجياد، وما أن سمع صوت العبوة حتى نزل من العربة والتفت الحاشية حوله وأسرعت بتوصيله إلى دار رئيس سائقى العربات حيث كان على مقربة منهم، وبمجرد أن سمع غلمان الحراسة صوت العربة حتى تفرقوا وجعلوا يقومون بأعمال السلب والنهب واللصوصية، وبعد ذلك حينما سمعوا أن الشاه لا يزال على قيد الحياة عادوا ثانية وزالت الثورة و كذلك فساد الأمور الذى بدر عنهم، واستراح الشاه ساعة فى هذه الدار ثم مضى إلى البلاط مترجلاً. وفى اليوم نفسه أبرق إلى المدن بمعلومات حول هذا الحادث.

من ناحية أخرى، لما علمت طهران بما حدث أعرب الأحرار بأسلوبهم المعتاد عن استيائهم وأقام الأهالى الزينات. ومن الغد، انعقدت جلسة خاصة فى بهارستان استمرت حتى منتصف ذلك اليوم، واختاروا رسلاً أرسلوهم إلى الشاه كى يعربوا عن أسفهم ومواساتهم له، ثم أرسلوا البرقيات إلى المدن وطالبوا بإقامة الزينات والاحتفالات فى جميع الأماكن. ووصلت من تبريز ثلاث برقيات من السيد بهبهانى واحتشام السلطنة ونواب آذربايجان، وأمرت الجمعية بالاحتفال وأرسلت إلى الشاه برقية تأسف على الحادث وسرور بنجاته.

وفى نهاية ذلك اليوم حيث انعقدت جلسة المجلس تحدثوا ثانية عن الحادث، وتحدث بعض النواب بكلام هراء إما من قبيل التملق وإما لسذاجتهم، فكان البعض يقول: "لا يصدر هذا العمل من إيرانى، ولا شك أن الجانى أجنبى". وكان المجلس يلح على أن يتم البحث والتحقيق حتى يقبضوا على الإثنين الجناة، لقد كان يذكر اسم "شخصين" حيث تم إلقاء قنبلتين.

وقامت الشرطة فى نفس يوم الجمعة بالبحث والتحرى، واتجهوا إلى الدار التى ألقيت منها القنبلتان، ولما مرت بضعة أيام ولم يأت أحد إليها فتحوا الباب ودخلوا وعثروا هناك على بعض المعدات الناسفة، وبعد يومين أو ثلاثة قاموا باستجواب أربعة من أهالى آذربايجان – كانوا يتجهون من عبد العظيم إلى طهران – فى مقر الشرطة، وكان ثلاثة منهم من أهالى "اسكو"، وهم: مشهدى محمد،

ومشهدى عبد الله وأكبر، أما الرابع فيدعى زينال وكان من أهالى "قره داغ" واعتبرتهم الشرطة مرتكبى الحادث لكنهم لم يفعلوا شيئًا معهم. من ناحية أخرى، لما كانت جمعيات طهران تلح على أن يكون التحقيق علانية وألا يتم استخدام القسوة والعنف، لذا لم تتأت نتيجة من هذه التحقيقات، وتم إطلاق سراح الأربعة بعد عدة أيام.

ولما كانت الشرطة تشك فى صانع القنبلة فقد قامت باعتقاله ليلاً من داره، وانتقد الأحرار سلوك الشرطة هذا، وسوف نرى أن هذا الموقف أوجد مجالاً للصراع.

وأبدى محمد على ميرزا فتورًا فى الأيام الأولى ولم يتخذ هذا الموقف ذريعة لإبداء استيائه من المجلس والأحرار، لكن حينما لم تسفر التحريات عن نتيجة بدأ فى الضيق وراسل المجلس معاتبًا:

"لو لم يظهر أثر خلال بضعة أيام على تحديد المحرضين على الحادث والقبض على مرتكبيه فلابد من إجراء بعض الإجراءات حتى تتضح خيانة المجرمين وتتكشف أغراض المغرضين".

وكما سنرى من بعد، لم تسفر جميع تحريات الشرطة فى هذا الصدد عن نتيجة، وما عُلم فى الأعوام الأخيرة أن حيدر عمو أو غلى هو المخطط لهذا الحادث وهو كذلك صانع القنبلة أما من قام بإلقاء القنابل فهم الأربعة السابق ذكرهم (وكان مشهدى محمد أو غلى من بينهم) وهم أنفسهم من بعثت بهم لجنة باكو إلى طهران.

وهذا نموذج آخر لأعمال حيدر عمو أوغلى يوضح أنه أحد مثيرى الفتنة الصامدين، وكان يحاول القيام بأعمال جسام، وكان هذا هو ثانى عمل عظيم له بعد مقتل الأتابك ولو كان النجاح قد كتب له لحقق نتائج عظيمة، فلو كانت هذه القنبلة قد قضت على محمد على ميرزا لاتخذت حركة المطالبة بالحكم النيابى بعدًا آخر.

مقتل قوام الملك فى شيراز:

كانت الدماء تراق كذلك فى شيراز خلال شهر اسفند، فكما أسلفنا الذكر، كان قوام الملك الشيرازى من ألد أعداء الحكم النيابى، وفى ظل الضغوط التى قام بها المجلس استدعته الحكومة إلى طهران، لكن لم يتم فيها أى تحقيق أو مؤاخذة على قوام وعاد إلى شيراز ثانية بعد عدة أشهر دون أن ينتقد المجلس أو الأحرار ذلك. وكان هذا هو أسلوب المجلس، فكان على علم بأشخاص من أعداء الحكم النيابى وكان يتعقبهم ثم ينسى ما حدث بعد فترة ويتعامل معهم بحسن النية. وكل من استدعوه إلى طهران ويأتى إليهم يبقى فترة ولم يفعل أى شخص شيئًا معه، وطبق ما ورد فى جريدة الحبل المتين: "صارت طهران أحد الأماكن المطهرة فهى تطهر مثل هؤلاء المذنبين".

وبعد عودة قوام الملك إلى شيراز احتدم النزاع والانقسام هنا ثانية. حقيقة أن المطالبة بالحكم النيابى لم تتغلغل فى شيراز، وكان أهالى شيراز يتبعون أحقادهم وأهواءهم أكثر من غيرهم، وظهر بين مؤسسى الجمعية الإسلامية التى شكلوها ذلك العداء والانقسام، وكانوا يبرقون على التوالى برقيات الذم فى بعضهم البعض. من ناحية أخرى، فإن من قاموا يعادون قوام وأسرته من قبل قد اغتنموا الفرصة فى ذاك الوقت وكانوا يحاولون الانتقام تحت مسمى المطالبة بالحكم النيابى.

وأفضى الأمر إلى نشوب الفتنة فى شيراز فى النهاية، لدرجة أنهم أرسلوا إلى المجلس يطالبون بطرد الشيخ يوسف الذى كان قد أرسل إلى طهران للتمثيل عنهم، كما اعتصم أعداء قوام فى شاه چراغ واستدعوا السيد عبد الحسين اللارى – أحد رجال الدين العظماء المشهورين– لمساعدتهم، وجاء برفقة سبعين من البنادقة وأحكم أسطح شاه چراغ وقاتل المدينة لمدة تربو عن الثلاثة أشهر. وفى شهر اسفند أرسلوا برقية صلح إلى طهران وكان يظن أن الفتنة انتهت ولكن لم تمض عدة أيام حتى وقع حادث قتل قوام على النحو التالى: فى يوم السبت السادس عشر من اسفند (٤ صفر) عندما كان قوام فى حديقة ديوان خانه وكانت تلتف حوله

جماعة كبيرة اقترب فجأة أحد الشباب وأصابه بأربع رصاصات وقتله فى الحال، واضطربت حاشية قوام ثم قاموا بالبحث ومزقوا ملابس القاتل وبدنه وأخرجوا ورقة من جيبه مكتوب عليها: "نعمة الله البرجوردى، رقم ١٩ قاتل نصرة الدولة ابن قوام الملك الشيرازى".

وكان هذا أمرًا يثير العجب، فقد عُلم من بعد أن نصرة الله هذا هو خادم معتمد ديوان، ولما كان معتمد ديوان من ألد أعداء قوام وقام بهذا العمل بتحريض منه متبعًا أسلوب عباس آقا قاتل الأتابك، ولكن لم يكن هنا عامل مؤثر أكثر من الأحقاد بين الشخصين. وحمل أبناء قوام والدهم المقتول من على الأرض واتخذوا هذا ذريعة وأغاروا على ديار من يعاديهم وقبضوا على بعض الأشخاص. وعلى هذا النحو ظهر النزاع والانتقام ثانية، وبعد ذلك فى التاسع عشر من اسفند أثناء إقامة مراسم عزاء قوام وقع حادث آخر وقُتل فيه اثنان من رجال الدين المشاهير وجُرح أحد أبناء قوام، ويقول صاحب اختيار – والى فارس فى هذه الفترة – فى برقيته إلى المجلس فى هذا الشأن:

"البارحة، فى عزاء قوام الملك، أصاب السيد أحمد دشتجى سالار السلطان برصاصة وهم مشغولون بعلاجه، وأصابت رصاصتان السيد الشيخ وقُتل شخصان ومزق الأهالى جسد السيد المذكور".

لكن الجمعية الإسلامية قلبت هذه الحكاية فى برقيتها المطولة، وكانت تقول:

"فى صباح اليوم أثناء إقامة مجلس العزاء فى حسينية قوام الملك تم إطلاق الرصاص من فوق الأسطح وفضاء الحسينية حيث أمروا جناب الشيخ محمد باقر حجة الإسلام والحاج السيد أحمد معين الإسلام بإطلاق النيران، وأطلق الشيخ محمد باقر رصاصتين أصاب بهما قدم سالار السلطان وقُتل شخصان، كما قتلوا إمرأة، وفر الحاج معين الإسلام وابتعد خمسمائة قدم عن الحسينية ووصل آقا بيك قائد الأشرار وقام بعمله بإطلاق الرصاص، بعد ذلك جاء البنادقة وأطلقوا النيران على

جسده وعقدوا قدمى السيد البرىء وأحضروه إلى الحسينية وعلقوه على المشنقة، وبعد ساعة جاء الحكم بأن يضرموا النيران فى جثته، وقام عديمو المروءة هؤلاء بإشعاله بالنفط، ووضعوا ثراه فى خندق تتطاير به الرياح".

سحق أهالى ورامين:

على هذا النحو انتهى عام ١٢٨٦، ومع نهايات هذا العام وقعت فى طهران بعض الأحداث نوردها فى هذا المقام: لما تنحى بعض نواب المجلس كسعد الدولة وغيره، عزم المجلس على اختيار غيرهم، وفى نهاية شهر بهمن اختار الأشخاص التالى ذكرهم:

حكيم الملك، مستوفى الممالك، الشيخ حسين اليزدى، مؤتمن الملك، الأمير أمان الله ميرزا، معاضد السلطنة، مجد الملك وحسين قلى خان نواب.

وغير نظام السلطنة بعض الوزراء وقدم للمجلس الوزارة الجديدة فى جلسة السبت التاسع من شهر اسفند (٢٦ محرم) على النحو التالى:

نظام السلطنة رئيس الوزراء ووزير الداخلية، ظفر السلطنة وزير الحربية، صنيع الدولة وزير المالية والمصالح العامة، مخبر السلطنة وزير العلوم، مؤتمن الملك وزير التجارة ومؤيد السلطنة وزير العدل.

والشيخ محمود وراميني الذى أوردنا اسمه من قبل كان أحد أعداء الحكم النيابى وقد قدم فى حادث ميدان دار المدفعية مع جماعة من أتباعه لمساعدة الأوباش، ولما فسدت الأمور فى الميدان عادوا إلى ورامين، ولم يهدأ الشيخ محمود وقام أتباعه بالثورة فيما حول هذه المنطقة، ثم أعلنوا عصيانهم علانية، وامتنعوا عن دفع الضرائب، ومع ذلك اللين الذى كان يبديه محمد على ميرزا ورجال البلاط تجاه المجلس والحكم النيابى لم يبدوا إلا غلظة، ولما كانت الأنباء تصل إلى كل الأرجاء حول هذا العصيان كان الشاه يعد الجيش فى ورامين كى يستدعيه إلى

طهران ويطيح بأساس الحكم النيابى، لذا ضغط المجلس على الحكومة وطالب بسحقهم. ومع استياء محمد على ميرزا فى دخيلته اضطر الوزراء لأن يرسلوا إليه كتيبة من القوزاق والجند ومدفعين، ولما وصل ذلك الجيش إلى إمام زاده جعفر صمد أهالى ورامين فى جرأة أمامهم وشكلوا الاستحكامات، ولكن ما أن بدأ القتال وعلت أصوات المدافع اضطرب الشيخ وأتباعه وتشتتوا، ومضى كل منهم فى طريق، وتوجه الشيخ محمود إلى طهران خفية، وبلغ دار طباطبائى واعتصم هناك، لكن طباطبائى لم يمنحه الحماية واضطر الشيخ إلى العودة وتوجه إلى بهارستان واعتصم هناك. وكان هذا فى أواخر شهر اسفند، وبعد انقضاء أيام النيروز حيث كان المجلس منعقدًا، دار حديث عن الشيخ محمود واعتصامه، ومن العجيب أن بعض النواب كانوا يبدون تأييدهم له لكن آخرين اقترحوا أن يتم إرساله إلى المحكمة، ولما لم يمض أرسلوه عنوة وأودعوه السجن بأمر من المحكمة. وعلى هذا النحو نال أحد رؤساء ميدان المدفعية الجزاء. والعجيب أن المجلس الذى كان يعاقبهم لم يقم بذلك تجاه الشيخ فضل الله والسيد على وغيرهما، ولم يسيئوا الظن بمحمد على ميرزا الذى هو مصدر كل هذه المساوئ وكان يسعى لرعاية جانبهم على النحو الذى ذكرناه، وكان هذا أحد الانتقادات التى كانت توجهها بعض الجرائد الجادة.

وانتهز نايب حسين الكاشانى – الذى ذكرناه من قبل – الفرصة، وشكل فى كاشان جماعة للسرقة وقطع الطريق، وطالما علت صيحات أهالى كاشان بسببه وبسبب أبنائه وأتباعه، ولما لم تبد الحكومة اهتمامًا، اضطر رجال الدين فى كاشان إلى إصدار فتوى الجهاد حتى سعى الأهالى أنفسهم، لكن كان واضحًا أن الأهالى لم يكونوا فى حاجة إلى مثل هذا الأمر.

عودة الصراع بين الجمعيات ورجال البلاط:

على هذا النحو انتهى عام ١٢٨٦ش – ١٩٠٧م وحل عام ١٢٨٧ش – ١٩٠٨م وهو عام لا نظير له فى تاريخ الحكم النيابى فى إيران، ففى الأسابيع

الأولى من هذا العام لم تقع أية أحداث، وعم الهدوء، وفى هذه الأيام تنحى احتشام السلطنة عن رئاسة المجلس والتمثيل فيه وذلك نظرًا لقيام بعض الجرائد بانتقاد أسلوبه المرائى لمحمد على ميرزا. وفى جلسة السبت الخامس عشر من شهر فروردين انتخب ميرزا اسماعيل خان ممتاز الدولة بدلاً منه، لكنه كان من صفوف صنيع الدولة واحتشام السلطنة.

وفى النصف الأخير من شهر فروردين نشبت الفتنة ثانية فى طهران ونشب الصراع ثانية بين البلاط والجمعيات. وكما أسلفنا كان محمد على ميرزا مستاءً بشدة من حادث إلقاء القنبلة على موكبه واشتد أسلوبه مع الشرطة وكان يطالبهم بالعثور على مرتكبى الحادث، وكانت الشرطة ترسل الجند ورجال الشرطة ليلاً إلى منازل هذا وذاك وتقبض عليهم وتحقق معهم. واستمر هذا الوضع حتى ليلة الأربعاء التاسع عشر من شهر فروردين (٦ ربيع الأول) حيث اندفعوا فى منتصف الليل على ديار أربعة من العمال (وكان حيدر عمو أوغلى وضياء السلطان من بينهم) وقبضوا على هؤلاء الأربعة بشكل مخز وتوجهوا بهم إلى مقر الشرطة وقيدوهم بالسلاسل، وفى الغد أرسلوا الأربعة إلى قصر جلستان (مقر محمد على ميرزا) حتى يحققوا معهم هناك.

ولما انتشرت هذه المعلومات قامت جمعيات طهران بالثورة والجلبة ثانية وجعلوا ينتقدون بأنهم قد انتهكوا حرمة بعض بنود الدستور (حيث اندفعوا إلى منازل الأهالى والآن يقومون بالتحقيق فى قصر جلستان) وأعربوا عن استيائهم. ومن غد يوم الخميس احتدمت الثورة واجتمعت الجمعيات مرة أخرى فى مدرسة السپهسالار وأرسلوا مذكرة إلى المجلس. وهكذا يتضح أنهم أتباع حيدر عمو أوغلى أو نقول على الأصح أن لجنة باكو فى طهران كانت تملك زمام الأمور وكانوا يريدون ألا يتم التحقيق حتى لا ينكشف الستار عن أمرهم. وأيًا ما كان استدعى المجلس الوزراء وسأل عن حقيقة الحال وأبدى الوزراء عدم علمهم، وعُلم أن الشاه كتب مذكرة إلى حاكم طهران مباشرة، وأصدر أمرًا إلى الشرطة دون علم وزيرى العدل والداخلية، وانتقد المجلس هذا التصرف منه.

وعلى أية حال، ففى يوم الجمعة الحادى والعشرين من فروردين (٨ ربيع الأول) أحضروا المقبوض عليهم من قصر جلستان إلى المحكمة وحققوا معهم ثانية فى وجود نواب عن المجلس وعن الأهالى. ولما كان الأحرار يقومون بالجلبة والثورة جلس النواب مع الوزراء واقترحوا أن يأتى حاكم طهران ورئيس الشرطة -- اللذان نقضا الدستور – إلى المحكمة لينالا الجزاء القانونى. لكن محمد على ميرزا لم يخضع لهذا الاقتراح واحتد مع الوزراء وقال: "سأتنحى أنا بنفسى مع المجلس".

وتراجع الوزراء من جراء هذا الرد الغليظ المتسلط ومكثوا فى ديارهم وازدادت الثورة والجلبة ثانية. وكانت الجمعيات تقوم بأعمال الجلبة والصياح فى مدرسة السپهسالار وكانوا يصيحون حينًا ويتأوهون حينًا آخر، وكان الحديث يتتابع فى المجلس ومضى البعض إلى الشاه وتباحثوا معه، وكان يرد عليهم بقوله:

"الآن حيث أن الشعب لا يريد أن أتعقب من أرادوا قتلى سأغض الطرف عن ذلك". وكان واضحًا أنه كان يقول هذا من قبيل الاستياء.

وانقضى أسبوع على هذا النحو، ولما لم تسفر التحقيقات مع هؤلاء الأربعة عن شيء كما عُلم أنهم أبرياء خمدت نار غضبة الشاه، ولما كان الوزراء يلحون فى قبول مطالب الشعب أمر محمد على ميرزا – كرهًا أو طوعًا – بإطلاق سراح حيدر عمو أوغلى وغيره وارتضى وفق رغبة الوزراء أن يحضر حاكم طهران ورئيس الشرطة إلى المحكمة ويُعاقبا لنقضهما الدستور والقانون، ومرت عدة أيام حتى تم إحضارهما إلى المحكمة واستجوابهما وكانت الصيحات تشاهد من الجمعيات حتى انتهى الأمر دون نتيجة.

على هذا النحو انتهى الصراع ومضت الجمعيات إلى أعمالها، لكن هذا كان نصرًا كبيرًا لجمعيات طهران حيث أثنوا عليها فى الصحف وأنبأ نواب آذربايجان تبريز بالحادث فى برقية مطولة، وكانوا يطلبون من أهالى تبريز فى بعض الرسائل تتبع مسلك أهالى طهران ونتيجة لهذا بدأوا فى تبريز فى تشكيل الجمعية، وسوف نرى أنهم شكلوا عدة جمعيات.

وعلى أية حال فقد أنهوا هنا الحديث حول القنبلة والبحث عن مرتكبى الحادث، ولم يتعقبهم محمد على ميرزا ثانية، وفى نفس هذه الأيام تم التباحث مع لياخوف ونواب روسيا السياسيين، وبدأ التخطيط لحادث قصف المجلس.

حادث بيله سوار:

فى تلك الأثناء التى كان يحدث فيها هذا الصراع فى طهران ثمة حادث دموى مخذ كان يقع فى آذربايجان على حدود بيله سوار. وكيفية ذلك أنه فى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر فروردين (١٠ ربيع الأول) وبعد أن مرت ساعتان من النهار، عبر دويقلازف القائد الروسى مع ستة من الفرسان الروس الحدود دون أن يخبر جمرك إيران بحجة أن جواده هرب إلى الأراضى الإيرانية، وتقدم فى أراضى إيران مسافة نصف الميل، وكان يوجد فى تلك المنطقة شخصان من عشيرة قوجه بيجلو يرعيان الخيل، واقترب دويقلازف منهما بحجة أن جواده هرب وانضم إلى جيادهم وما أن وصل حتى أطلق الرصاص على أحد هذين الشخصين وأصابه فى قدمه كما أصاب الآخر الذى أراد الفرار. وكانت هناك جماعة من قوجه بيجلو آنذاك فى سوق بيله سوار يمارسون التجارة، ولما علموا بما حدث أسرعوا للانتقام لأتباعهم، ووقع قصف بالرصاص بين الجانبين وقُتل دويقلازف واثنان من الروس، وتمكن أحد الجرحى الروس من الوصول إلى القاعدة الروسية وأنبأهم بما حدث، واندفع جند الروس فى الحال إلى بيله سوار وفتحوا أيديهم فى أعمال القتل وصرعوا سبعة وثلاثين من الأبرياء واندفعوا إلى مبنى الجمرك وأضرموا النيران فيه هو ومائة وخمس وثلاثين مقر للنفط وقاموا بأعمال السلب والنهب فى جميع القرى، وبعد ذلك بأربعة أيام أغاروا ثانية على أراضى إيران وقتلوا سبعة من قرية زرجر وأضرموا النيران فى مائتى وسبعين منزلا، بعد ذلك توجهوا إلى شيرين سو (وهى معبر الشاهسون) وقتلوا عشرين شخصًا، وبعد ثلاثة أيام اندفعوا إلى محلة جواد كندى وبعد قيامهم بأعمال السلب

والنهب أضرموا النيران فى خمسة وسبعين منزلاً وعلى هذا النحو فتحوا يد الجور على أرواح الفلاحين المساكين وممتلكاتهم ودمروا عدة قرى فى وقت قصير. وقد أخفت الحكومة هذا الحادث لفترة حتى وصلت معلومات عنه إلى بعض النواب وذكروه فى المجلس، واستدعى المجلس الوزراء للحضور ومناقشة ما حدث، ولما حضر الوزراء تحدث وزير الخارجية بإيجاز حول الحادث ورد بأننا نتباحث مع السفارة الروسية وقد أرسلنا القائد فلان من آذربايجان إلى بيله سوار ومعه أربعمائة فارس وانتهت القصة على ذلك النحو.

كان هذا الحادث ثمرة لتحالف روسيا وانجلترا من جهة، ومن جهة أخرى كان نتاجًا للنزاع بين البلاط والمجلس وميل الشاه إلى الروس. وعلى أية حال، لقد كان ضربة مخذية فى تاريخ حركة الحكم النيابى، وما كان مخذيًا أكثر من هذا أن الروس اتخذوا من مقتل دويقلازف والإثنين الآخرين ذريعة لهم وجعلوا يضغطون على الحكومة الإيرانية ووضعوا جيشًا بالقرب من الحدود وكانوا يطالبون والى آذربايجان بمطالب صعبة كالقبض على الجناة ودفع عشرين ألف طومان كتعويض وما شابه ذلك، والعجيب أن العلاقة الطيبة بين البلدين ظلت قوية، وكان سفير روسيا فى طهران يقوم بالوساطة أثناء صراع الشاه مع المجلس، وواضح أن نواياهم لم تكن سوى الضغط على آذربايجان.

فى تلك الأثناء كانت آذربايجان تتعرض للضغوط من كل ناحية لأن الشاهسون كانوا لا يزالون يغيرون ويهجمون منذ الشتاء، والآن حيث حل الربيع يتسع ميدان الإغارة والهجوم، وغلقت الطرق فى كلٍ من أردبيل وقره داغ وخلخال وسرخاب وكانوا يقومون بأعمال السلب والنهب فى قرى كل مدينة من هذه المدن وقد تقدموا حتى بلغوا مشارف تبريز، واستقر فرمان فرما والى آذربايجان فى مياندواب بعد هروبه من ساوجبلاغ، ورغم ما واجهه من صعوبات إلا أنه أعد جيشًا، وكان يأمل فى المضى إلى جند الشاهسون بهذا الجيش لكنه تنحى فى تلك الفترة وفرق ذلك الجيش.

وفى أرومى كان الحكم هناك لمحتشم السلطنة وكانت هى المدينة الوحيدة التى تمتعت بقليل من الأمن والهدوء، وفيما حولها انتهز الأكراد فرصة حلول الربيع ولم يضنوا قدر استطاعتهم عن أعمال القتل والنهب. ورغم أن البرقية التى أرسلت بها جمعية أرومى إلى تبريز فى السابع من أردى بهشت (٢٤ ربيع الأول) كانت واهنة من أولها إلى آخرها، ورغم ما كان واضحًا فيها أن بعض العاطلين سيئ الطوية كانوا يتدخلون فى الأمور باسم الجمعية إلا أنها كانت توضح مقدار المعاناة التى تعرضت لها تلك المناطق، لذا نورد بعضها فى هذا المقام:

"... لقد أضرمت نيران الجور فى أرومية وما حولها، لقد تمت أعمال القتل والإغارة فى جميع القرى، وفصلت رءوس ما يربو على الألفين من النساء والرجال والأطفال ومزقت بطونهم،... والآن يوجد فى قريتين فقط (شيطان آباد و داس آغيل) ما يربو على المائة جثة للمسلمين مختلطة بالدماء يقومون بتغسيلهم وتكفينهم، وغلقت طرق المدينة من الجهات الأربع، وسلبوا كل ما كان موجودًا فى الطرق من أموال التجارة وجعلوا المسافرين عراة وقطعوا رؤوسهم ومرقوا بطونهم ولم يتم أى إجراء فيه علاج لما حدث من قبل الحكومة... وقد هاجموا اليوم كذلك وسلبوا أحد جهات المدينة وقطعوا خطوط البرق، ولو مرت عدة أيام على هذا النحو فسوف يأكل الكل لحم أخيه ميتًا، واحسرتاه، فحسرة القلب عظيمة والمحنة والغم لا حدود لهما".

(جمعية أرومى الوطنية)

وكانت الجمعية الإقليمية فى تبريز تشتعل حرقة على حال أرومى وأردبيل، وكانت تسعى ليل نهار لإيجاد الحل، ولكن لما لم تكن الحكومة تبدى تعاونها لم يتقدم الأمر، وقد حل مقتدر الدولة محل فرمان فرما فى تبريز، واعتبرته الجمعية عاطلاً، واقترحت على طهران أن يحل الحاج نظام الدولة – رئيس المعسكر – محل الوالى، وقبلوا فى طهران وتولى العمل، واستدعى فوجين من الجند من شقاقى حتى يرسلهم إلى الشاهسون، ومع أنه قام بهذا العمل بعلم وزارة الحربية،

لكن لم يمض يومان حتى وصلت برقية شديدة اللهجة من قبل أمير نظام كى يرسل الأفواج إلى طهران... وهذا دليل واضح على أن الحكومة كانت تريد بقاء الفتنة فى آذربايجان. من ناحية أخرى، لما خطط فى تلك الفترة لقصف المجلس كانوا يحتاجون لهؤلاء الجند فى طهران.

هروب رحيم خان من طهران:

لم يكن محمد على ميرزا راغبًا فى استقرار الأمن فى آذربايجان، كما كان يعد لها مشاكل أخرى ويقوم بخدعه، وإحدى هذه الخدع هو حادث هروب رحيم خان من طهران وتوجهه إلى آذربايجان الذى حدث فى نفس الأيام، وقد ذكرنا من قبل القبض على رحيم خان نتيجة لثورة أهالى طهران وتقييده بالسلاسل فى المحكمة، لكن عندما انقضت فترة كان بعض النواب ورؤساء الحرية يبدون مواساتهم كأسلوبهم المعتاد فى التناسى وكانوا يأملون الوساطة، وكان رحيم خان يرسل الرسائل قائلاً: " إذا ما كان أبنائى قد قاموا بالقتل، فلمَ أكون أنا فى القيد؟! وما شاع على الألسنة بشأن قره داغ لهو كذب صراح، ولم يقتل أبنائى أكثر من أربعة أشخاص".

(بالرغم من أننا أوردنا ذلك الحادث فى برقية جمعية تبريز وقد أحصت عدد القتلى الأبرياء وبلغ عددهم مائتى شخص).

وأيًا ما كان، كانت أقوال رحيم خان هذه تؤثر فى العديد من رؤساء الحرية، وبعد ذلك عندما وقعت فتنة ميدان دار المدفعية مضى الأوباش إلى سجن المحكمة وأطلقوا سراحه هو والقائد المفخم بجنوردى، لكن عندما انتصر المجلس فيما بعد كان محمد على ميرزا يبدى ضعفه وخوره، لذا لم يعيدوا رحيم خان إلى السجن ثانية، وأذاعوا كذبًا:

"إنهم عندما مضوا فى ذلك اليوم ليحلوا قيود رحيم خان لم يسمح لهم وقال: لقد قيدنى الشعب وينبغى أن يطلق الشعب سراحى".

وكتبت إحدى الصحف المتملقة هذا وأوصلته إلى مسامع الجميع.

من ناحية أخرى فإن نظام الملك - وزير العدل الذى نعلم أنه من أدوات محمد على ميرزا - لما كان حاضرًا فى حادث إغارة ابن رحيم خان والى آذربايجان وقتله للأهالى كان يشهد بعدم جريرة رحيم خان فى هذا الشأن وكتب هذا وقد أذنت لجنة المحكمة بإطلاق سراح رحيم خان، وتم ذلك فى أواخر شهر دى. وبعد عدة أيام اصطحب المغفور له طباطبائى رحيم خان وقدم إلى المجلس، وهناك تحدث رحيم خان بلطف، وقال باللغة التركية:

"لقد أرسلتمونى كى أتحدث، ومضيت إلى ساوجبلاغ وسحقت الأكراد". وسرعان ما صدق النواب هذا الحديث وأثنى إمام الجمعة فى خويى عليه، وبعد ذلك أقسم رحيم خان على القرآن وأخذوا منه العهد بألا يخطو خطوة فى طريق العداء للدستور.

على هذا النحو صارت شخصية رحيم خان من الشخصيات النزيهة، ودخل فى عداد المطالبين بالحكم النيابى وعاش طليقًا فى طهران وقالوا إنه لن يخرج منها، لكن فى بدايات شهر أردى بهشت وصلته الأنباء عن طريق قزوين كى يبادر بالتوجه إلى آذربايجان وخلال ذلك كان يجرد كل من يراه من المسافرين من ملابسه ويفصل خطوط البرق فى كل مكان، فأصدر محمد على ميرزا أوامره لإعادته إلى آذربايجان، وكانت هذه الأنباء سببًا فى استياء الأحرار فى طهران. من ناحية أخرى، فقد بلغ رحيم خان قره داغ خلال أيام وانضم إلى أتباعه، لكنه استمر فى خداعه وكان عليه القيام بأعمال أخرى، هذا وقد قدم إلى قرية اسبلان التى تبعد فرسخين أو ثلاثة عن تبريز، ومن هناك كتب رسالة إلى الجمعية كى تتقبل أسفه وتأمر بقدومه إلى تبريز كى يضع يده فى يد الشعب.

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى تبريز جلس نواب الجمعية يتشاورون، وكانوا هم أيضًا مثل نواب المجلس النيابى فى فكرهم الواهى ونسيانهم للأمور، وأثنوا جميعًا فى لسان واحد على رحيم خان، ومن غد يوم الأربعاء السادس عشر من أردى بهشت (٥ ربيع الآخر) مضى بعض نواب الجمعية الإقليمية وغيرهم إلى

قرية اسبلان وقابلوا رحيم خان الذى كان قد قدم إلى هناك ومعه مائتا وخمسون فارسًا. ومن غد يوم الخميس أخذوه وأحضروه إلى المدينة، وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة حيث كانت الجلسة منعقدة تحدث رحيم خان هنا أيضًا، وصار أحد ملاجئ الشعب، وهذا الرجل كان أميًا جاهلاً وشاعت على الألسنة حكايات تثير الضحك حول جهالاته، ورغم ذلك خدع النواب قليلى الفكر الضعفاء - سواء فى طهران وسواء فى تبريز - بالتملق ومعسول الكلام وجعلهم أدوات لعمله.

فى نفس هذه الأيام اختير مخبر السلطنة من قبل طهران لولاية تبريز، وأخذ طريقه عبر جيلان والقوقاز، ولما وصل إلى تبريز يوم التاسع عشر من أردى بهشت (٨ ربيع الآخر) قاموا باستقباله من قبل الجمعية استقبالاً عظيمًا، ولما ذكر اسمه بالطيب وقد تمت التوصيات عليه من قبل طهران، أعرب الأهالى عن سعادتهم، وقدم مخبر السلطنة من الطريق مباشرة إلى الجمعية وظل هناك فترة حتى توجه إلى قصر شمس العمارة، ومن غد ذلك اليوم قام بعمله ونال رضا الجميع. وفى نفس هذه الأيام وقع حادث مشين آخر من قبل رجال الشرطة، فعندما تحدث البعض بالسوء عن إجلال الملك قام رجال الشرطة بفتنة وخلعوا الملابس الرسمية وقاموا بالضجة والجلبة فى الأسواق وأطلق بعضهم الرصاص فى حوانيت مجيد الملك وأدخلوا الرعب فى نفوس الأهالى. وأخمد مخبر السلطنة الفتنة بمساعدة الجمعية، لكن بعضهم فلت لجامه ولم يكف عن أذى الأهالى ومضرتهم ليل نهار، ومنهم من كان يطلق عليه "آيت خليل" فقلما وجد مثله فى الجرأة والشجاعة والظلم، لقد كان رجلاً أجش لا يعرف حدًا فى أذى الأهالى، فحينما بزغ النهار ثمل وأخذ بندقية فى يده ونهض متجهًا إلى السوق وهو فى حالة ثمالة شديدة فقبضوا عليه بأمر من مخبر السلطنة وأودعوه السجن. وكان هذا الرجل يعد من الرعاع، وقد أبدى شجاعة فائقة فى القتال السابق الذى وقع بين الدوتشى وسرخاب وصار بعد ذلك أحد الموظفين التابعين للشرطة، وبعد ذلك لما كان الروس يضغطون وكانت الحكومة ترغب فى أن ترسل جيشًا إلى جند الشاهسون لاسترضائهم، تباحث مخبر السلطنة مع نواب الجمعية، واقترحوا أن يرسلوا رحيم خان لهذا الأمر.

وواقع الحال إنهم جعلوا اثنين من أعضاء الجمعية فى صحبته ليراقبا أفعاله. وعلى هذا النحو أنهى رحيم خان خطته ومنحته الجمعية التى خدعت به ثمانمائة بندقية ومدفعين وثمانية عشر ألف طومان ووجهت به إلى قره داغ يجمع الجند والفرسان ويمضى إلى الشاهسون، لكننا سوف نرى أنه استقر فى قره داغ حتى قدم إلى تبريز بأمر من محمد على ميرزا، واستخدم تلك المدافع والبنادق فى تدمير الجمعية. ولا شك أن رحيم خان قد خرج من طهران بأوامر من محمد على ميرزا ولنفس السبب، لكن ليس معلومًا علم مخبر السلطنة بهذه الحيلة من عدمه.

قدوم إمام الجمعة والمجتهد إلى تبريز:

وخدعة أخرى لمحمد على ميرزا تجاه تبريز وهى قدوم إمام الجمعة والمجتهد إلى هذه المدينة المواكب لحادث رحيم خان أو بعده بفترة وجيزة. وكما ذكرنا، لقد قام الأحرار بطردهما من تبريز، وكان إمام الجمعة يقيم منذ اليوم الذى رحل فيه فى محلة قزلجه ميدان وهى منطقة تبعد عن تبريز ببضعة فراسخ وتقع على مشارف طهران. أما المجتهد، فكما ذكرنا مضى إلى طهران وأظهر هناك حكاية الاعتصام فى عبد العظيم وتم له ذلك بمساعدة الشيخ فضل الله وغيره، وبعد الخروج من الاعتصام لم يُذكر شىء آخر عنه، ويقال إنه مكث فى شميران، ولا علم لنا من أين وكيف تمت خطة عودته إلى تبريز فى تلك الأثناء، وما كان يُشاهد فى الظاهر إنه قدم إلى المجلس يوم الخميس العاشر من أردى بهشت (٢٨ ربيع الأول) ولا شك أنه قد تحدث فى الخارج مع السيد بهبهانى وقال أثناء الحديث:

"لكن فيما يختص بجناب حجة الإسلام السيد الحاج ميرزا حسن آقا فقد طالب أهالى آذربايجان واستغاثوا كى يحضر، ولما كان فى الواقع إمامًا وزعيمًا للمملكة ولم يكن من الهين أن يظلوا بلا إمام أكثر من هذا فقد قدموا إلى المجلس الآن، ولا ريب أن المجلس المقدس يرى ويؤكد على حضوره".

وقال ممتاز الدولة بعض الجمل فى هذا الشأن، منها:

"كلما بادر بالحضور كان أفضل".

والقصة سالفة الذكر تدل على سذاجة المغفور له السيد بهبهانى، ولا ريب أنه انخدع بالبلاط، وكان هذا أمرًا يثير العجب، لأن تبريز كانت آنذاك من أشد مؤيدى الحكم النيابى ومجلس الشورى، ولم يكن يليق بأن يسعد أهالى تبريز بقدوم المجتهد إلى هناك والأعجب من هذا هو صمت تقى زاده وغيره ممن كانوا يعدون من نواب آذربايجان. وأيًا ما كان فقد بادر الحاج ميرزا حسن بالاستعداد ومضى، وأبلغ بعض النواب فى تبريز بحقيقة الحال، ولم يرتض أهالى تبريز ذلك، وأعربت الجمعية الإقليمية عن استيائها إلى طهران، كما أبرقت بعض الجمعيات بذلك، ولكن إلى أن وصلت تلك البرقيات إلى طهران، كان الحاج ميرزا حسن قد خرج من هناك، ولما كان أهالى تبريز يلحون على إعادته من قزوين ويستدعون النواب إلى مكتب البرق، وصلت برقية مطولة من طهران، وكانوا يطالبون بتخلى أهالى تبريز عن سخطهم.

من ناحية أخرى، فإن الحاج مخبر السلطنة كان يبدى تأييده للمجتهد بحجة الدستور وكان يريد إعادته، من هذا المنطلق اضطر أهالى تبريز لأن يلزموا الصمت، وأثناء ذلك كانوا يأملون فى أنهم إذا ما استقبلوه واحتفوا به بشكل جيد ربما يكف الانقسام بين أهالى تبريز وتنسى الضغائن القديمة.

أثناء ذلك استعد إمام الجمعة أيضًا للعودة إلى المدينة ولما كان الحاج ميرزا حسن لم يرغب فى العودة ولم ينجز مخبر السلطنة أى نوع من الحيلولة باسم القانون فقد جاء إمام الجمعة بداية إلى المدينة يوم الأحد الثالث من خرداد (٢٣ ربيع الآخر) واستقبله الأحرار، وبادر لاستقباله ما يربو على العشرة آلاف شخص وفقًا لما ورد فى جريدة الجمعية، لذا قدم إلى الجمعية الإقليمية مباشرة، ودار حديث بينه وبين النواب من قبيل إبداء الحب وحسن النوايا، أو نقول بالأحرى من قبيل الرياء والتملق.

بعد ذلك رغب الحاج ميرزا حسن فى يوم الأحد العاشر من شهر خرداد (٣٠ ربيع الآخر) فى الوصول إلى المدينة، وهنا قامت الجمعية الإقليمية

والجمعيات الأخرى وكذلك قام جميع الرؤساء باستقباله وحدثت حركة فى المدينة بأسرها وأعدوا لاستقبال حافل له، وتقدم نواب الجمعية حتى حديقة الحاج إبراهيم الصراف وأعدوا هناك جهازًا لاستقباله، وتقدمت مجاميع الأهالى حتى فرسخ واحد خارج المدينة واحتشدوا عبر الطريق. ورغم تخلص الأحرار من أحقادهم ودخولهم من باب المطالبة بالسلام والصلح كان أعداء الحكم النيابى يبدون حقدًا لا حد له، وقد أجلسوا الحاج ميرزا حسن على مقعد مريح وطوى الأهالى الطريق وهم يحملونه فوق أكتافهم، وكما ذكرت جريدة الجمعية "قلما شوهد استقبال بهذه العظمة".

على هذا النحو كانت خطط محمد على ميرزا تتم الواحدة تلو الأخرى بيد السيدين والمجلس النيابى ومخبر السلطنة ونواب الجمعية الإقليمية، وبدلاً من أن يزيل قدوم إمام الجمعة والمجتهد الانقسام، جعله أسوأ من ذى قبل وازدادت وقاحة أعداء الحكم النيابى بعد قدومهما، وسوف نرى أى عداء أبداه نفس هؤلاء من رجال الدين ضد الحكم النيابى قبل مضى الشهر.

أثناء ذلك كانت إحدى مشاكل آذربايجان هى حكم الحاج محتشم السلطنة فى أرومى. فهذا الرجل الذى رأس المجلس لمدة ثلاثين عامًا ونيفا كان فى ذاك اليوم من مؤيدى الاستبداد وعمال البلاط، لذا استقر فى أرومى، وبدلاً من أن يبسط يده ويعد جيشًا من أهالى هذه المدينة ومن الفلاحين والجند والفرسان الذين كانوا تحت يديه، ويصد الأكراد المغيرين، أرسل دون حياء برقية إلى تبريز، وقال بعد عرض المظالم المحزنة للأكراد:

"إن الشعب والحكومة اللذين لا يستطيعان تجهيز خمسة آلاف شخص على الحدود للحفاظ على الرعية ينبغى أن يشاهدا هذه الأيام".

إحدى الخدع التى بدرت عن الحاج السيد محمد اليزدى:

نعود ثانية إلى طهران. فقد بدرت هنا خدعة واضحة من الحاج السيد محمد اليزدى فى شهر "شهر يور"، وهذا الرجل قلما وجد نظيره فى الوقاحة والخداع،

وكان يبدى عداءه تجاه الحكم النيابى أكثر من غيره، ففى كل حين كان يقوم بعمل ما، وفى شهر تير الماضى فكر دفعة واحدة فى خدعة وهى أن يعد إعلانات بالچيلاتين على لسان مجاهدى القوقاز أو تبريز تفيد:

"نحن بهائيون ونقوم بهذه المساعى لإظهار ديننا، ويجب أن يكون الإيرانيون بهائيين وإلا سيتم قتل الجميع".

ووزعها فى طهران وفى غيرها من المدن حتى ساء ظن العامة بالمجاهدين، كما أرسل محمد على ميرزا شخصًا ومعه الأموال إلى عبد البهاء (عباس أفندى) الذى كان يؤيده كى يكتب لوحات باسماء بعض دعاة الحرية فى طهران وتبريز ويثنى على البهائية ويزف بشرى النصر، وأخذ هذه اللوحات إلى مكتب البرق وهذه اللوحات تقدم معلومات أكثر عن الحادث إلى الأهالى.

لقد فكر فى تلك الحيلة فى تلك الأثناء، فلما كان الإيرانيون يبدون العداء الشديد تجاه البهائيين، وكل أمر كانوا يسيئون الظن فيه كانوا يعدونه عن البهائية، لذا كانوا يأملون نتيجة عظيمة من وراء هذه الحيلة، لكن انكشف الأمر فى هذه الأيام وعُلم قبل أن ينفذ، وتناولت جريدة الحبل المتين فى طهران (فى عددها السادس والأربعين) هذا الموضوع فى مقالها الافتتاحى وكف الحاج السيد محمد يده عن الأمر وحاول تنفيذه هذا العام مرة أخرى. وكيفية ذلك أن أحد المطالبين بالحكم النيابى شاهد فى منتصف شهر أردى بهشت أحد الأشخاص ليلاً فى السوق وهو يلصق الإعلانات على الجدران ولما قرأ واحدًا منها وجده يدور حول محمد على ميرزا وجمله تقترب من هذا المضمون:

"نحن جماعة البهائيين الذين نسعى للحرية وإظهار ديننا منذ عهد ناصر الدين شاه، وابتلينا بأعمال القتل والإغارة ثم تحملنا هذه المضرات فى طريق الحكم النيابى حتى نكون أحرارًا كغيرنا، وقد وضعنا أساس الحكم النيابى من أجل الحرية، ولما لم تتقدم رغبتنا اضطررنا إلى إلقاء تلك القنبلة... لو لم تمنح الحرية لنا لن نكف قط عن القيام بأى نوع من أعمال القتل والحرق والإغارة....".

والأشخاص الذين تم ذكرهم من رؤساء الحرية كان واضحًا أنهم من البهائيين.

لقد أدرك ذلك الرجل واقع الحال، ومن الغد مضى إلى المحكمة وأنبأها، وما يستدعي السرور أنه بقليل من البحث عثرنا على أحد هذه الإعلانات، وقد اعترف على الآخرين وتم القبض عليهم واستجوابهم، وكان أحدهم ابن أخ الحاج السيد محمد والآخر يدعى السيد آهنتاب الخلخالى، وكان هذا الأخير أحد المخادعين، وقد انضم إلى بلاط مظفر الدين شاه وحصل على أموال كثيرة ثم انضم بعد ذلك إلى محمد على ميرزا[1].

وقال هؤلاء:

"لقد أعطانا السيد على آقا هذه الإعلانات".

لكن حينما استدعوا السيد على إلى المحكمة أبدى عدم علمه وأقسم على ذلك، وهذا ما اشتد وقعه على المقبوض عليهم، واعترف أحدهم بالحقيقة قائلاً:

"لقد صدرت هذه الحيلة من الحاج السيد محمد".

وقبضت المحكمة على الحاج السيد محمد وقامت باستجوابه، وانتهى التحقيق فى المحكمة بعد عدة أيام واقترح أن يخلعوا عن رأسه العمامة السوداء – التى هى علامة السيادة – وأن يلقوا به مقيدًا فى السجن. وعلى هذا النحو سقط هذا السيد المخادع فى القيد والسجن.

فى نفس هذه الأيام وقع حادث كذلك للشيخ محمود وراميني، وكيفية ذلك أنهم كانوا يعتقلون ما شاء الله خان الكاشانى – الذى تم القبض عليه – فى سجن المحكمة، وقد هرب ليلاً من هناك فى أواخر شهر أردى بهشت مع بعض

(١) وكان من الطبيعى أن ينضم إلى المطالبين بالحكم النيابى بعد سقوط محمد على ميرزا، وكان يعتلى المنبر فى طهران وتبريز، وقد توفى منذ بضعة أعوام.

الأشخاص وخلص نفسه، وبعد هذا الحادث صدر الأمر من المحكمة بألا يتحفظوا هناك على أحد من المساجين ذوى التهم العظيمة- وكان من بينهم الشيخ محمود - وأن يرسلوهم إلى مخزن الحكومة، ولما كانوا يخرجونهم بسط الشيخ محمود - وكان رجلاً عنيدًا وقحًا - لسانه فى مذمة الحكم النيابى والمحكمة، هذا وقد أحضروه إلى المحكمة وضربوه ضربًا مبرحًا بالعصا ثم توجهوا به إلى المخزن. وبعد عدة أيام نفذ الحكم فى قتلة فريدون الزرادشتى وكانوا تسعة. وكما ذكرنا، قبضوا على قتلته وكانوا يستجوبونهم فى المحكمة، ولما انتهوا أقرت المحكمة حكمًا لكل منهم بقدر تهمته، ونفذ هذا الحكم فى الثالث من شهر خرداد (٣، ربيع الآخر) فى فناء المحكمة وفى حضور عدة آلاف من المشاهدين حيث ضربوا البعض بالسوط ألف جلدة بينما ضربوا البعض الآخر بعدد أقل، ثم أرسلوا اثنين منهما إلى السجن فى طهران وبسبعة آخرين إلى كلات.

على هذا النحو نال كثير من رؤساء فتنة دار المدفعية ومن الأوباش العقاب هناك ولما كان هذا دليلاً على تقدم الحكم النيابى والدستور كان أثره طيبًا فى نفوس الأهالى، ومع أن عقاب قتلة فريدون هذا قد أغضب مؤيدى المذهب الشيعى واشتد عليهم أن يضرب تسعة من الشيعة بالسوط جزاءً لقتل أحد الزرادشت، وكان هذا مما أحرق قلوبهم، ولكن بشكل عام نتجت نتائج حميدة من هذا العقاب.

فى نفس هذه الأيام بدر أمر حسن من قبل محمد على ميرزا قابله أمر حسن آخر من قبل المجلس، وكيفية ذلك أنه فى الخامس والعشرين من أردى بهشت (١٤ ربيع الآخر) - وكان يوم ميلاد الشاه - وقد ذكرنا إنه فى العام السابق فى نفس التوقيت دار نزاع بين المجلس والبلاط، لذا امتنع الأهالى عن إقامة الزينات والاحتفالات، وتكرر ذلك أيضًا هذا العام حيث أمر محمد على ميرزا بنفسه بعدم إقامة الاحتفالات بسبب وجود هذه الأحداث على الحدود (حادث بيله سوار، وساوجبلاغ وأرومى) بل وأمر بوجوب تقديم نفقات ذلك إلى أهالى القتلى، وأرسل

أمر المنع برقيًا إلى الولاة والحكام، وكتبت رسالة كذلك من قبل وزارة الداخلية إلى المجلس فى هذا الخصوص، لكن المجلس اقترح إقامة الاحتفالات فى كل مكان وتم ذلك فى طهران وتبريز وبعض المدن الأخرى وأعربوا عن سرورهم وأطلقوا على مثل هذه الحماقة اسم "أصالة الشعب".

آخر أعمال النفاق الصادرة من محمد على ميرزا:

فى الوقت الذى عمت فيه الفتنة فى أرجاء إيران، وكما ذكرنا، كانت الصيحات تعلو من كل جانب، فضلاً عن الأحداث المخذية فى كل من بيله سوار وأرومى وإغارة جند الشاهسون وقطاع الطرق والموالين لنائب حسين الكاشانى وما أشبه، ازداد حول طهران نفسها اللصوص وقطاع الطرق، بل تملك الأوباش زمام الأمور فى العاصمة نفسها مرة ثانية وكانوا يضربون المارة ليلاً، وإزاء هذا كله لم يُر من محمد على ميرزا سوى عدم الاكتراث، بل كما سبق وذكرنا، كان يمنع مساعى الآخرين. ومع كل هذه الأدلة على خبث سريرته إلا أنه خدع أعضاء المجلس ورؤساء الجمعية الذين نهضوا للاحتفاء به بعرض منه. وإذا ما أردنا الصدق لم يكن هؤلاء يعتقدون فى دخيلتهم بحسن سريرة محمد على ميرزا، لكنهم نظرًا لعدم كونهم رجالاً مضحين بالروح ولم تكن لديهم الشجاعة لاجتثاث شأفة مساوئ البلاط، لذا تمكن من خداعهم بعروضه الأفاقة واهتموا بها.

فى نفس هذه الأيام تنحت حكومة نظام السلطنة بسبب عدم تقدم الأمور ورؤيتها لهذه الضغوط التى تتعرض لها. من ناحية أخرى، لما تجاوز تردى الأوضاع الحد وكتبت بعض الصحف كذلك المقالات شديدة اللهجة، وأوصلت جريدة "مساوات" الأمر مع محمد على ميرزا إلى المحكمة، كتبت جريدة "الحبل المتين" – وكانت إحدى الصحف الفاترة – مقالاً تحت عنوان "آخر نفس لإيران" أو "نهاية حياة الإيرانيين"، وانتفض بعض الأمراء والقاجاريون ثانية وأرادوا أن يسعوا. وفى يوم السبت التاسع من خرداد (٢٩ ربيع الآخر) عقدوا جلسة عظيمة

فى منزل عضد الملك رئيس عشيرة قاجار وتناقشوا معًا، وكان يرأسها الأمير الأعظم وعلاء الدولة ومعين الدولة والقائد منصور جلال الدولة (ابن ظل السلطان) فضلاً عن عضد الملك، وكانوا يقولون:

"لن تحل هذه المشاكل التى داهمت إيران من الداخل والخارج طالما أن الشاه لم يطهر قلبه تجاه المجلس، ولم يتعاون مع الشعب، ومن ناحية أخرى فإن هناك البعض فى البلاط يعادى الحكم النيابى وهم لايتركون الشاه يطهر سريرته تجاه المجلس".

كما كانوا يقولون:

"ينبغى القيام بشىء حتى يبعد الشاه هؤلاء، وطالما أن هذه النتيجة لم تتحقق لا ينبغى لنا أن نتفرق من هنا".

لذا عقدوا نفس الجلسة فى الغد، وأثناء ذلك اشتركت الجمعيات أيضًا وأرسلت نوابًا عنها إلى هناك وعظم الأمر. من ناحية أخرى، عندما سمع محمد على ميرزا قصة ذلك وأدرك أن المحرض عليها هو ظل السلطان، لأنه كما ذكرنا كان راغبًا فى العرش (وكان فى الخامسة والستين من عمره) ومع أنه مضى آنذاك إلى ولاية فارس، وكان يعيش بعيدًا عن طهران، لكن أتباعه كانوا لايزالون يسعون، ولما كان ابنه يعد أحد رؤساء المنتفضين فى هذه الجلسات، فهذا ما جعل محمد على ميرزا يسىء الظن به. وفى يوم الاثنين كانت الجلسة منعقدة، وفى نهاية ذلك اليوم مضى عضد الملك برفقة مشير الدولة – الذى انتخب لرئاسة الوزراء بعد نظام الملك – إلى الشاه وأبلغوه مطالب الأمراء والقاجاريين، وطالبوا بطرد الأمير بهادر وشاپشال وغيرهما من البلاط. ولما كان محمد على ميرزا فى مباحثات سرية مع الروس خلال تلك الأيام، وكان ينفذ آخر خططه للإطاحة بالمجلس (وكانت الجلسة المنعقدة فى منزل عضد الملك قد أحكمت فكرته هذه) فقد قبل هذه المطالب للتغطية على أعماله، وأمر بألا يبقى هؤلاء فى البلاط وأن يطردوا، وكتب مشير السلطنة وفقًا لأوامره الإعلان التالى ووقعه بخاتمه:

"منى أنا مشير السلطنة رئيس الوزراء إلى جناب حضرة الأشرف السيد عضد الملك مد ظله العالى عن فخامة الاسمى نير الدولة الشريف التى تنثر الجواهر تحت موطئ قدمه المبارك الملك أرواحنا فداه، لقد عرضت المطالب المباركة للأمراء والوزراء والأعيان وعامة الشعب، وتمت الموافقة على المطالب الخاصة بتصفية البلاط فى حضور الملك، وسيتم طرد الآتى ذكرهم: الأمير بهادر جنگ، شاپشال، على بك، موقر السلطنة، أمين الملك ومفاخر الملك من بلاط العدل وسيتم عزلهم من الخدمة، ونأمل فى إصلاح شىءون المملكة بعد إزالة هذه العوائق".

ولما وزع هذا الإعلان أعرب الأحرار عن سعادتهم دون أن يسيئوا الظن وبادر المتحدثون من هنا وهناك لقراءة ذلك الإعلان على الأهالى وزفوا البشرى إلى الجميع، كما تباهى الأمراء ورجال البلاط فى منزل عضد الملك بذلك وعدوه نصرًا لهم. وكان هذا هو آخر أعمال محمد على ميرزا الخداعة، وفى ليلة ذلك اليوم، وبعد منتصف الليل مضى الأمير بهادر ومعه عشرون من البنادقة واعتصم فى السفارة الروسية، وبحث الآخرون عن ملجأ للاحتماء فيه، لكننا سوف نرى أن هذا لم يدم سوى يومين أو ثلاثة.

احدى المحاولات الخبيثة الصادرة من النواب الأجانب:

فى نفس هذه الأيام شوهدت محاولة خبيثة من قبل نواب روسيا وانجلترا تبعت خدعة محمد على ميرزا ويجب أن نذكرها هنا، وقد عثرنا على هذا الحدث فى كتاب "آبى" وقد أنبأ به سفير انجلترا وزير خارجيته، كما وجد كذلك فى كتاب براون، وقد ورد على لسان السيد تقى زاده، يقول سفير انجلترا:

"فى ذلك اليوم قال السيد دوهارتويك الذى قدم لزيارتى: إن الشاه يعرف أنه قد ضاع وأنى أرغب بشدة فى أن نحافظ على روحه، وكان ظن السيد دوهارتويك

أن الأمر انتهى بصعوبة لا حد لها وأن الوقت قد حان لكى نتدخل نحن السفيران. وكان يدرك أنه من الأفضل أن نرسل برقية (لأنهم كانوا فى قلعة قلهك) ونطلب لقاء مشير الدولة الذى كان قد تنحى منذ خمسة أيام، ومع ذلك فزمام الأمور فى وزارة الخارجية كان في يده. فقلت إننى سعيد جدًا أن نقوم بمثل هذا العمل، لكننى لا أظن أن تتأت نتيجة من الحديث مع مشير الدولة لأنه لن يبلغ أقوالنا بصدق. إذن من الأفضل أن يكون رئيس المجلس حاضرًا فى هذه الجلسة. فقال السيد دوهارتويك: لا يمكن عقد الأمل فى رئيس المجلس أكثر من مشير الدولة، إذن من الأفضل أن يكون عضد الملك حاضرًا كذلك. هذا وأبرقنا إلى مشير الدولة حتى يطلعهم بعد الثالثة والنصف عصرًا، وعندما وصلت إلى منزل مشير الدولة فى الساعة المقررة رأيت السيد دوهارتويك هناك، لكن ممتاز الدولة وعضد الملك قد تذرعا بحجج واهية (يقول براون أنهما أكدا على وجوب أن يكون حديث السفراء عن طريق وزير الخارجية) وتحدث السيد دوهارتويك وقال إلى وزير الخارجية: نحن نطلعكم نيابة عن الدولتين الصديقتين لإيران على الخشية من هذا الطريق الذى تسير إيران فيه، فهذا الطريق نهايته فى غاية السوء، نحن نأمل أن تطلعوا أتباعكم وأعضاء المجلس باسم وزير الخارجية عن خطورة هذا الطريق. (وقد أورد براون كلام سفير روسيا على النحو التالى: ليس هناك أمان على روح الشاه، فلم يقوم الأهالى بإبعاد الخدم والأتباع عن الشاه خاصة الأمير بهادر الذى يرعاه كالكلب الحارس؟! لقد تجاوزت الجمعيات حدودها ويريدون خلع الشاه عن الملك ونحن لا نريد هذا، وإذا ماحدث سوف تضطر روسيا إلى التدخل فى شىءون إيران وسيتم ذلك بمساعدة انجلترا. ويقول: ثم ذكر سفير انجلترا بعد ذلك بعض الجمل التى تفيد بسذاجة نواب المجلس وسلوك الجمعيات المشين).

وكتب السفير يقول: حينما قمت من هناك قال السيد دوهارتويك: لا أظن أن مشير الدولة سيبلغ كثيرًا أو قليلاً من كلامنا، إذن فمن الأفضل أن نقابل عضد الملك. ويقول: مضينا إلى منزل عضد الملك وهنا أبلغناه حديثنا. ويقول براون فى نهاية حديثه: بعد مغادرة السفيرين سارع مشير الدولة إلى المجلس وبلغ الرسالة

غير اللائقة التى كانت معه إلى ممتاز الدولة وتقى زاده ومستشار الدولة وقرر هذان الشخصان الآخران عدم استخدام البنادق وآلات الحرب فى مواجهة الشاه".

وكما ذكرنا، كانت هذه القصة تثير العجب من كل جانب فهى قصة تمثل الخداع من قبل سفير روسيا، لذا كان تقى زاده عنيفًا فى حديثه مع براون، وأشار إلى أن هذا حجة لأعماله، وكانت نية سفير روسيا هى بث الفزع، لأن الروس – كما سنذكر من بعد فى تقارير لياخوف – كانوا يخططون فى نفس هذه الأيام للإطاحة بالمجلس بمساعدة البلاط، وكما كتب فى البند الثالث من التقرير الثانى أنهم كانوا يريدون أن يتخلى الأحرار عن فكرة المقاومة. ولما لم يكن لسفير انجلترا دراية بهذه الخطة فقد انخدع بحديث زميله.

وواقع الحال أن حجة السفيرين فى هذه المحاولة منعتهم من التقدم، وكانت رغبة ظل السلطان أن يعتبروا جلسات منزل عضد الدولة تسير فى تحقيق تلك الرغبة وأن يعتبروا أن له دورًا فى منعها، لكن السر الخفى هو الذى أوضحناه. أما تقى زاده ونظرًا لعدم خروجه من المنزل يوم قصف المجلس وعدم إبداء اللياقة من قبله فقد قام فى لندن بكشف الستار عن الحقائق عند براون وغيره، ومن ذلك ذكره لهذه القصة وهى أن سفير روسيا كان يقول:

"إن روسيا سوف تضطر للتدخل فى شىءون إيران".

وهى القصة التى أوردها براون نقلاً عن تقى زاده وهى غير جديرة بالتصديق، فمن المحال أن يصدر مثل هذا الكلام على لسان أحد السفراء السياسيين فى وجود سفير سياسى آخر، وإذا ما كان قد قيل بالفعل فلم يكن يخفيه سفير انجلترا ولكان قد كتبه إلى وزير خارجيته فى رسالته. ولو قلنا إن سفير روسيا قد قال مثل هذا الكلام فهل كان كل من ممتاز الدولة وتقى زاده يرتضيان أن يخلعا أيديهما عن النيابية من جراء كلام ذلك السفير؟! هل لم يكن بوسعهما أن يردا: نحن اضطررنا لطرد الأعداء من البلاط محافظة على النيابية، وهل روسيا تريد ألا

نسعى لرعاية النيابية؟! وإذا ما كان الروس يبغون السيطرة على شىءون إيران الداخلية فلم يتخذوا سلوكًا حسنًا مع محمد على ميرزا لمنع ذلك، ولو لم يكونوا يريدون أو لا يستطيعون عزل محمد على ميرزا من الملك أو طرد الأمير بهادر من البلاط لما لحقت بأى منهما أية نتيجة سيئة قط.

وبعد هذا كله، وكما أسلفنا، حدث هذا يوم الأربعاء الثالث عشر من خرداد (٣جمادى الأولى) ولم يمض محمد على ميرزا حتى ذاك الوقت إلى باغشاه، ولم يكن قد بدأ الحرب مع المجلس علانية. وكما رأينا كان الحديث عن طرد الأمير بهادر وغيره، ولم يكن يدور بينهم الحديث حول القتال مع محمد على ميرزا أو عدم القتال معه.

ويقول براون بعد ذلك:

"إن تقى زاده ومستشار الدولة عزما على عدم استخدام البنادق وآلات الحرب فى مواجهة الشاه عندما قيل إن شعبًا مريضًا أفضل من شعب ميت".

ولندع ذلك وكما سنرى من بعد، بعد مضى الشاه إلى باغشاه كان تقى زاده نفسه ضمن من أصروا على القتال. وواقع الحال، عندما حل يوم القتال لم يخرج من بيته خوفًا على حياته وتصرف تصرفًا غير لائق، وعليه كيف يمكن القول "أفضلية عدم القتال مع محمد على ميرزا خشية من تدخل الروس فى شىءون إيران؟!" فهذا تصرف سئ من تقى زاده جعل التاريخ فى حيرة من تصرفه غير اللائق فى إخفاء الحقائق.

بحث حول أوضاع الأهالى

يدور الحديث فى هذا المقـال مـوجزًا حـول التغيرات التى ظهرت بعد تسعة أشـهر مـن حركة المطالبة بالحرية، وكذلك حول أوضـاع بعض الصحف.

التغيرات التى طرأت خلال حركة المطالبة بالحرية:

كما أسلفنا، كانت الفترة منذ بداية الحركة المانحة للحكم النيابى وما بعدها لمدة تسعة أشهر فترة خاصة (وقد أنهينا أحداث تلك الفترة فى الجزء الأول من هذا الكتاب) وخلال التسعة أشهر تلك حدث مايلى:

أولاً: كانت الحركة المطالبة بالحكم النيابى حركة عامة، وكما ذكرنا إنه بالإضافة إلى المدن ثار الأهالى وانتفضوا كذلك فى العديد من القرى وعلت صيحاتهم.

ثانيًا: عد رجال الدين أن الحكم النيابى هو رواج للشريعة، وكانوا يتعاونون مع الأهالى فى كل مكان من هذا المنطلق، ووفقًا لقول أحد الأشخاص: كانوا يظنون أن المائدة التى أعدت كانت لهم لذا ساعدوا فى مدها.

ثالثًا: لم يكن أعداء الحكم النيابى سوى رجال البلاط، ولم يستحوا فى إظهار العداء جهارًا، ولم يكن محمد على ميرزا يبدى ضغطًا شديدًا فى إيجاد العراقيل.

لكن بعد هذه الفترة التى انتهت برئاسة وزراء الأتابك خمدت انتفاضة القرى – والتى كانت جد عظيمة – من جانب ولزمت المدن الصغيرة الصمت، وكان اسم

الحكم النيابى يذكر فقط فى المدن الكبرى التى يوجد فى كل منها جمعية. وكانت تظهر هنا أيضًا بعض الأحداث (كما أوضحنا فى الجزء الأول)، ولم يكن يُسمع صوت من مشهد وهمدان وزنجان ومراغه وسبزوار ومثل هذه المدن، بينما كانت الثورات تنشب من كرمانشاه وشيراز وأردبيل وأرومى أكثر من غيرها. أما أصفهان فكانت تكتفى بالعروض والأعمال ذات الوجهين، وكانت تبريز وخوى وطهران والرشت وقزوين فقط هى المدن التى تغلغلت فيها جذور المطالبة بالحكم النيابى وكانت تبذل المساعى.

ومن ناحية أخرى، كان رجال الدين يخدعون أنفسهم بأن الحكم النيابى ليس رواجًا للشريعة، وأن هذه المائدة لم تبسط من أجلهم، ولذا فإن عددًا كبيرًا منهم - الذين قدموا مساعداتهم على أمل تحقيق مصالحهم الخاصة - نحوا أنفسهم، ونهض الحاج الشيخ فضل الله وأتباعه فى طهران وأظهروا العداء علانية. ومن ناحية أخرى، صار الأتابك رئيسًا للوزراء وقام بالصراع من قبيل خطة الضغط على المجلس، ومن هنا اتخذت مقاومة البلاط لمواجهة المجلس طابعًا آخر.

هذا وقد قسموا فترة الحكم النيابى القصيرة (منذ منحه وحتى قصف المجلس) إلى دورتين منفصلتين، فكانوا يفصلون التسعة شهور الأولى منه عن الأربعة عشر شهرًا التالية عليه. فى هذه الفترة الثانية فقد المجلس هيبته حيث خمدت تلك الثورة التى كانت لدى النواب فى بدايات الحركة. من ناحية أخرى، لما دار الحديث حول الدستور والشريعة أبدى معظمهم تأييده للشريعة إما من قبيل الارتباط بالمذهب وإما من قبيل خداع الأهالى. فضلاً عن هذا كان كثير منهم يتعاون مع الأتابك خفية ويراعون تأييده، وقد ذكرنا أعمالهم الواحد تلو الآخر، وفى كل حادث كانوا يبدون عدم جدارة وكانوا يضعفون أمام البلاط، ولما استغاثت بهم تبريز ليخلصوها من أزماتها أعربوا عن مساوئهم ولم يفعلوا شيئًا، ولم تفض أعمال الآخرين إلى نتيجة. والأكثر حماقة من هذا كله هو ذلك الأسلوب الذى اختاروه لأنفسهم وكانوا يريدون ألا يقتربوا أبدًا من القتال وسفك الدماء، وألانوا

الأعداء عن طريق النصح والموعظة فقط، هذا وكانوا ينخدعون دومًا، وكما شاهدنا قد أفضى الأمر بهم إلى أن ينخدعوا من قبل رحيم خان الأمي.

حقيقة أن معظم هؤلاء النواب كانوا أسرى أفكار الدروشة، وكانت عقولهم مكتظة بالأشعار الصوفية أشعار الخرابات وغيرها، ولن تنهض ثورة من مثل هؤلاء، إنهم لم يكونوا جديرين للنيابة فى المجلس الذى ينبغى فيه السيطرة على زمام الحركة والثورة فى الدولة. وإذا ما ظهر بينهم بعض الشباب من أصحاب الحماسة فكان لكل منهم مبدأ آخر. واكتفى المجلس الأول بأنه لم يستطع أو لم يرد أن يحث الشباب فى طهران وغيرها من المدن على التدريب العسكرى، ودار الحديث غير مرة، وكتبت الصحف المقالات ووردت الفتاوى من النجف لكن هذا كله كان بلا جدوى وتقدم هذا العمل فقط فى تبريز، ومن العجيب أن المجلس لم يكن يعرب عن عدم رضاه عن ذلك.

وفى طهران تبع الأهالى النواب، وما كانوا يتقدمون فيه هو تشكيل الجمعيات ومشاركتهم فى أحداث الثورة والضجة والجلبة. وكما سنرى، بلغ تعداد جمعيات طهران مائة وثمانية جمعية فى الأيام الأخيرة. ولتفكروا جيدًا، أى معنى لأن يكون هناك مائة وثمانية جمعية فى مدينة واحدة؟! فبدلاً من أن يجتمعوا كلهم تحت لواء جمعية واحدة ويسعون فى استعداداتهم كانت كل جماعة تشكل جمعية لها وتكتفى بمحاولات الضجة والجلبة.

والأعجب من هذا أنه بعد حادث ميدان دار المدفعية الذى كان من أعظم نتائجه أن الجمعية الإقليمية فى تبريز أضعفت موقف محمد على ميرزا وخضع لقرار القبض على صنيع حضرت وغيره، وقبضوا عليهم وعاقبوهم، وبعد ذلك ألحقوا العقاب بقتلة فريدون الزرادشتى والسيد محمد اليزدى وغيرهما، وظنت جمعيات طهران أن هذا كله ثمرة لجهودها واعتبرته نصرًا لها وتباهت بذلك. بعد ذلك تعالت أمام البلاط فى حادث القبض على مرتكبى حادث اغتيال الشاه ونفذت كلامها. ودفعة واحدة اعتبرت نفسها ذات قوة وزادوا من قدرتهم وكان الثناء يصدر فى الصحف عن هذه الجمعيات، وكان نواب المجلس يرسلون البرقيات إلى

المدن تفيد بانتصاراتهم. وأفضى الأمر إلى قيام بعض الأشخاص فى تبريز بإقامة الجمعيات، وأقيمت العديد منها تحت اسم "الاتحاد"، "القدرة"، "المشورة"، "المساواة"، "الحقيقة" وما أشبه، وجاء نقى خان رشيد الملك – الذى تم عزله من حكم أردبيل – إلى تبريز، وهنا دخل فى زمرة المطالبين بالحكم النيابى وشكل جمعية تحت اسم "حشمت" ونظرًا لأننا سنرى نقى خان هذا بين الأعداء فى جيش عين الدولة فيتضح من هنا أن هذه الجمعيات كانت حجة أكثر من أى شيء آخر فى يد الباحثين عن منفعتهم الشخصية. وكذلك فى طهران، فإن على خان أرشد الدولة – الذى سوف نشاهده من بعد أداةً فى يد محمد على ميرزا – كان رئيسًا للجمعية المركزية وكانت له كذلك الرئاسة العامة على جميع الجمعيات.

عندما يتفق شخص مع جماعة أو يقيد اسمه فيها يكون من زمرة المطالبين بالحكم النيابى، وكان يجد الرعاية والمجاملة فى كل مكان، ويستطيع تحقيق أى مصلحة يريدها، فلِمَ لا ينبغى أن يطلب رشيد الملك وأرشد الدولة ورحيم خان والحاج ميرزا حسن وغيرهم الحكم النيابى ولا يتقدمون فى أعمالهم؟!

وحينما يتهيأ الأحرار لكى ينخدعوا، فلِمَ ينبغى أن يمتنعوا عن خداع غيرهم؟! فهم من ناحية مرتبطون بالبلاط، ومن ناحية أخرى قد اختلطوا مع الأحرار واتحدوا معهم. بل أن بعض نواب المجلس كانوا يسلكون نفس السلوك فى الآونة الأخيرة ولما أدركوا فى أعمال محمد على ميرزا أنه سوف يغير على المجلس أبدى كل منهم تعاطفه مع البلاط عن طريق آخر، وكما سنرى أن نفس هؤلاء النواب ظلوا ينتقدون الاستبداد فى طهران ولم يلحق بهم أى أذى.

ونواب آذربايجان الذين ساروا من تبريز فى ذلك العهد ومع ذلك القسم ووصلوا إلى طهران فى استقبال عظيم، كان بعضهم يبدى عدم شهامة: حيث مضى واحد إلى تبريز قبل أيام من قصف المجلس على أنه مطلق السراح (وللحق إنه هرب من طهران) ولما بلغها، ورغم ما كانت تبديه المدينة من مقاومة، إلا أن

النائب هنا لم يشارك فى المقاومة وتوجه إلى جلفا مع بعض البنادقة، ومن هناك اتجه إلى القوقاز ثم اسطنبول ثم إلى أوروبا. والثانى جعل من نفسه أداة للأجانب، ولم يكن يفعل أى شيء إلا بأمر السفارة الفلانية. والثالث كان يتآمر خفية مع البلاط. ويتحدثون عن شخص اندفع إلى البلاط فى زى النساء وتقابل مع محمد على ميرزا وخطط معه. وهذا كله لأدل دليل على عدم شهامة النواب.

وشخص آخر من نواب تبريز يدعى ميرزا آقا أصفهانى انخدع به أهالى تبريز وكانوا يبجلونه، ووجهوا به إلى المجلس لتمثيلهم، لكن لم يمض قصير زمان حتى عُلم أنه حصل على الأموال من اقبال السلطنة فى ماكو، ولذا عندما وصل إلى طهران انضم إلى البلاط خفية وشاع إنه كان يشجع محمد على ميرزا على الإطاحة بالمجلس، وأدى العمل المخذى لهذا الرجل إلى أنهم ذكروا حصوله على الأموال فى الجرائد، وطبعوا أشعاره المتملقة فى مدح أرفع الدولة ونشروها، وفى النهاية أبرقت الجمعية الإقليمية إلى دار الشورى وأعربت عن استيائها لتوليه النيابة عن آذربايجان.

الصحف:

كما أسلفنا الذكر، ظهرت الصحف فى طهران وغيرها من المدن فى الشهور الأولى لحركة الحكم النيابى، وكان مؤسسوها يريدون فقط تملك جريدة يصبون فيها معلوماتهم، هذا وكان معظمهم يكتب فى مجال الحديث والفلسفة والشعر والأصول وما شابه فى المقالات التى كانوا يدونونها، ومزج كل منهم النيابية بمعلوماته وجعل يفهمها بالمعنى الذى يريد. وظلت هذه الصحف التى أحصينا كثيرًا من اسمائها حتى الدورة الثانية ووزعت كل منها لعدة شهور. وفى هذه الدورة لم يظهر شخص أو أشخاص يفهمون الأهالى المعنى الصحيح للحكم النيابى أو يكتبون شيئًا مفيدًا فى هذا الشأن.

وكانت جرائد "المجلس"، و"الحبل المتين"، و"صور اسرافيل"، و"روح القدس"، و"تمدن"، و"نداء الوطن" فى طهران، و"الجمعية" فى تبريز - التى بدأت منذ البداية أو بعد ذلك بقليل - تتقدم وتصدر حتى وقت قريب من القصف، وفضلاً عن ذلك ظهرت فى طهران جريدة "مساوات"، وفى تبريز صحف "مجاهد" و"اتحاد" و"حشرات الأرض". وكان محرر جريدة "مساوات" هو السيد محمد رضا الشيرازى، وكان - كما نعلم - رجلاً جريئاً، وظهرت جرأته فى إصداره هذه الجريدة، وكان يفعل مثلما يفعل مدير جريدة "روح القدس" حيث كان يهاجم محمد على ميرزا بعنف يثير العجب ويحتد فى كتاباته.

على سبيل المثال ما نراه فى أحد أعداد الجريدة، حيث ذكر قصة لويس السادس عشر ملك فرنسا وهروبه من باريس وسيرته، وفى النهاية وجه حديثه إلى محمد على ميرزا بأقوال تدعو إلى الخشية، بل إنه لم يكف عن إيراد الجمل الساخرة، فيقول: "قد يُظن أن الإيرانى سيتنازل عن حقوقه الشرعية بعد ذلك، ويستريح اللصوص من عدم أخذهم بالعقاب. لا والله، لا والله، فإن كل من يلقى هذا الظن الواهى والخيال الباطل فى الخاطر المقدس لملكنا فإنه - قسمًا بجميع الأنبياء والأولياء والأرواح المقدسة وروح العدالة وحقيقة المساواة - خائن لمقام السلطنة خيانة صريحة، ولو لم يصدقوا هذا الأقسام، فلنقسم بحب شاپشال لإيران، وبعلم الأمير بهادر، وبعفة سعد الدولة، وبتدين اقبال الدولة، وبعصمة آصف أفخم وعفته، وبمروءة ظفر السلطنة ورحمته، وبغيرة قوام الدولة وعصمته، وبأخلاق حاجب الدولة الحميدة، وبالرسالة العملية لحجة الإسلام السيد ميرزا مصطفى، وبشرف المجتهد التبريزى وتقواه، وبالأرواح المقدسة لأعضاء الجمعية المقدسة".

هذا نموذج لكتاباته، وقد كتب مقالاً مطولاً تحت عنوان "أى حالٍ الشاه عليها" فى العدد الحادى والعشرين من جريدته لم يكف خلاله عن الحديث بحدة وبلهجة شديدة، ولما طالب محمد ميرزا بالإنصاف من المحكمة، استدعوا السيد محمد رضا إلى المحكمة ورفض الذهاب، وكتب عددًا من جريدته يسخر فيه من المحكمة (العدد ٢٢ الذى تم مصادرته من قبل المجلس و الحكومة). ولم يكتف بهذا

وقام بعمل سيىء للغاية حيث أعد سروالاً كبيرًا باسم "استشهاد نامه" وطالب بأن يشهد الناس على سوء صنيع أم الخاقان والدة محمد على ميرزا وأعطاه لشخص ذهب به إلى السوق حتى يكتب الأهالى معلوماتهم ويختمون عليه. وبهذا فقد قام بأمر فاضح من بدايته إلى نهايته.

كان هذا في الأيام التى كان محمد على ميرزا يتباحث فيها خفية مع لياخوف الروسى، ولا شك أن هذا ما جعله أكثر تقربًا إلى الروس، وكان محمد على ميرزا يذكر هذه الفضائح مرارًا ويبدى استياءه، وبذلك كان يثير العدو للمحاربة دون أن يفكروا فى المقاومة وإعداد العدة. وكان المجلس يبدى ضعفه تجاه محمد على ميرزا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت الجرائد تنشر بهذه اللهجة الشديدة التى لاحل لها.

وكانت صحيفة "صور اسرافيل" وكذلك صحيفة "روح القدس" تكتبان هذا النوع من المقالات، وكان كل من السيد جمال وملك المتكلمين يبسطان لسانيهما بالمذمة من فوق المنابر، وكان بهاء الواعظين يطلق على محمد على ميرزا من أعلى المنبر اسم "ابن أم الخاقان"، أما صحف تبريز، فكما ذكرنا، كان محرر صحيفة "مجاهد" هو أبو الضياء، واضطر إلى الدخول فى هذه السيرة وقضى على جريدته. كما أسست جمعية "اتحاد" صحيفة "اتحاد"، وقد ظهرت فى منتصف اسفند من عام ١٢٨٦ ش (١٩٠٧م)، ولما دار القتال فى تبريز مع الدونتشى واضطرب الأمن فى المدينة لم تصدر جريدة من قبل الجمعية الإسلامية واستمرت فى عدم النشر حتى وقت القتال والفتنة. كما أسس الحاج ميرزا آقا بلورى صحيفة "حشرات الأرض" وكانت ساخرة مصورة، وبدأت فى النصف الثانى من أردى بهشت عام ١٢٨٧ش (١٩٠٨م) ولم يصدر منها حتى وقت القتال والفتنة أكثر من عشرة أعداد أو أكثر بقليل.

وفى تبريز صدرت فى هذه الفترة بعض الصحف باللغة التركية فى بضعة أعداد، وكان البعض يقول: لما كان أهالى تبريز يعرفون اللغة التركية سيكون فهم

هذه الصحف الصادرة بالتركية بشكل أفضل، وحين يقرؤها أحدهم سينصت الآخرون له، ورغم ذلك لم تُكتب لهذه الصحف الاستمرارية. ومن أشهرها صحيفة "أناديلى" لحسين خان مدير المحكمة وكانت تصدر فى صفحات قصيرة، وكانت صحيفة "ملاعمو" تكتب كذلك باللغة التركية.

وفيما يختص بالمدارس كان فى آذربايجان نفس الجهد والاهتمام الذى أوضحناه وخاصة فى تبريز التى كانت تهتم بالمدارس قدر استطاعتها، ولم تكن تكف عن تقديم الأموال لتقدم أمرها. وقد أوردنا صورة فوتوغرافية فى هذا الجزء ظهر فيها نواب المدارس فى الجمعية الإقليمية فى حضور إجلال الملك (رئيس الشرطة وحاكم المدينة). لقد كان رؤساء الحرية فى تبريز يهتمون بأمرين أكثر من أى شىء آخر، الأول: المدارس وتلاميذها. والآخر: المجاهدون واتحادهم. وكلاهما كان مفيدًا وفى موضعه.

المؤلف فى سطور:

أحمد كسروى تبريزى

ولد عام ١٨٩٠ فى محطة هكماوار بمدينة تبريز بإيران، اشتغل بالمحاماة وتقلد بعض المناصب فى السلك القضائى ونظرا لآرائه الجريئة بشأن فساد المجتمع والانسياق وراء بعض المعتقدات المذهبية الخاطئة تم اغتياله عام ١٩٤٦م على يد أحد قادة منظمة فدائيان خلق.

المؤلفات:

١- سالنجمة الدرية، وهو كتاب فى الصرف والنحو العربى.
٢- تاريخ آذربايجان (باللغة العربية)
٣- تاريخ طبرستان (باللغة الفرنسية)
٤- تاريخ پانصد سال هدى خوزستان (باللغة الفارسية)
٥- آذرى يازبان باستان آذربايگان (باللغة الفرنسية)
٦- نامه هاى شهرها وديه هاى ايران (باللغة الفارسية)
٧- الطريقة (باللغتين العربية والفارسية)
٨- التشيع والشيعة (باللغة العربية)

المترجم فى سطور:

هويدا عزت محمد أحمد

أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب – جامعة المنوفية

المؤلفات:

١- العلاقات الإيرانية الألمانية فى العصر الحديث وأثرها على الأدب الفارسى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، القاهرة ١٩٩٨م.

٢- المسرح الإيرانى فى الربع الأول من القرن العشرين، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية (٣٥)، ١٩٩٨م.

٣- اتجاهات فى إصلاح اللغة الفارسية فى القرن العشرين، القاهرة ١٩٩٩م.

٤- صورة المرأة فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر، القاهرة ٢٠٠٠م.

٥- رواية "لا تنسنى" لمريم جعفرى، دراسة نقدية تحليلية مع المترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، (٤٥٦)، ٢٠٠٢م.

٦- منطق الطير لفريد الدين العطار وتوارى الظلال فى الشمس لباربرا فرنشيموت، دراسة مقارنة، ندوة كلية الآداب، جامعة عين شمس، أبريل ٢٠٠٢م.

٧- يهود إيران منذ أقدم العصور حتى الآن، ترجمة عن الفارسية، مؤتمر كلية الآداب، جامعة المنصورة، مارس ٢٠٠٤م.

٨- الثورة الإسلامية فى إيران، الأسباب والمقدمات، دراسة تحليلية مع الترجمة، المجلس الأعلى للثقافة (٧٢٩)، ٢٠٠٤م.

٩- صورة مصر فى الأدب الفارسى الحديث والمعاصر، ندوة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.

١٠- البنية الفنية فى المجموعة القصصية "امرأة فى مهب الريح"، القاهرة ٢٠٠٥م.

١١- فاطمة الزهراء، ترجمة إلى العربية للدكتور على شريعتى، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٢- رواية "سأطفئ المصابيح" لزويا بيرزاد، دراسة فى الفضاء الروائى، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٣- أشعار نسيم الشمال، دراسة فى الشكل والمضمون والمستوى اللغوى، القاهرة ٢٠٠٧م.

١٤- العلاقات الإيرانية الإنجليزية فى القرن العشرين، القاهرة ٢٠٠٨م.

١٥- على شريعتى، مناضلاً سياسيا، مفكرا اجتماعيا، شاعرا، القاهرة ٢٠٠٨م.

المراجع فى سطور:

بديع محمد جمعة

أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس

عضو المجالس القومية والمستشار بالمركز القومى للترجمة

المؤلفات:

١- ترجمة منطق الطير لفريد الدين العطار.
٢- پروين اعتصامى، صوت المرأة الشرقية فى إيران.
٣- دراسات فى الأدب المقارن.
٤- من روائع الأدب الفارسى.
٥- من قضايا الشعر الفارسى الحديث.
٦- الشاه عباس الكبير.
٧- قواعد اللغة الفارسية.
٨- فينوس وأدونيس.
٩- من وهى الشرق (مجموعة مقالات).

التصحيح اللغوى: حســن خضر
الإشراف الفنى: حســن كامــل